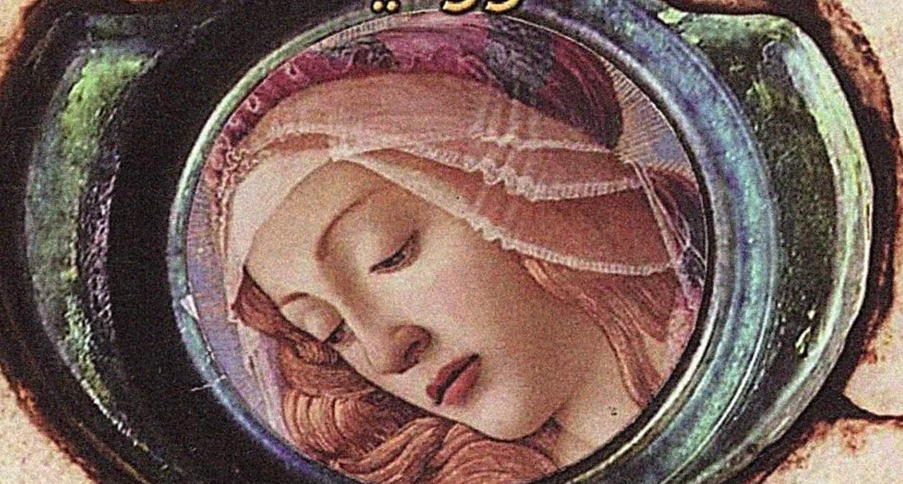
ترجم إلى 22 لغة

كاتلين ماك غوان

المنتظرة

سرّ مريم المجدليّة

رواية



دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

المنتظرة

سرّ مريم المجدليّة

كاتلين ماك غوان

المنتظرة

سرّ مريم المجدليّة

رواية

ترجمة
هاني تابري

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

المنتظرة

ISBN: 978-9953-27-798-1

Authorized Translation from the English Language Edition:

The Expected One

Dar Al Kitab Al Arabi دار الكتاب العربي

P.O.Box 11-5769 ص.ب.
Beirut 1107 2200 Lebanon بيروت، 2200 1107 لبنان
Tel (961 1) 800811-862905 هاتف
Fax (961 1) 805478 فاكس
E-mail daralkitab@idm.net.lb بريد إلكتروني
Our Web site dar-alkitab-alarabi.com موقعنا على الوب
academiainternational.com

إلى السيّدة المختارة وإلى أبنائها

الذين أُحبّهم في الحقّ،

لا أنا وحدي، بل جميع الذين عرفوا الحقّ،

بفضل الحق المقيم فينا

والذي سيكون معنا للأبَد.

رسالة يوحنا الثانية: 1-2


القناة الإنكليزية (بحر المانش)
خليج
بيسكاي
شمال
شرق
غرب
جنوب
مرسيليا
البحر الأبيض
المتوسط
بربينيان
برشلونة
البحر الأبيض المتوسط

مقدّمة

جنوب بلاد الغال
العام 27 م

لم يعد هناك متّسع من الوقت.

شدّت العجوز شالها البالي حول كتفيها لاتقاء برد الخريف الذي غزا الجبال الحمراء في وقت مبكّر هذا العام. أحسّت بالبرودة تخترق عظامها، فحاولت تحريك أناملها برفق علها تُرخي مفاصلها اليابسة. يجب ألّا تخونها يدها الآن، فالوقت حرج جداً. ويجب عليها أن تنتهي من الكتابة هذه الليلة، لأن تامار ستصل قريباً ومعها الجرار، ويجب أن يكون كل شيء جاهزاً.

خاطبت نفسها وهي تتنهّد بإعياء: *"إنني أعاني التعب منذ مدة طويلة.. طويلة جداً."*

كانت تدرك أن تلك المهمة هي الأخيرة لها على وجه الأرض. كانت بقية الحياة في جسدها الذابل تضمحلّ بعد قضائها ساعات طوالاً تستجمع ذاكرتها خلال الأيام المنصرمة. وغدت عظامها الهرمة مثقلة بحزنها الصامت وغَشِيَها الأسى الذي يلفّ كل مَن يعمّر أكثر من أحبائه. لقد كانت المحن العديدة التي اختبرها الله بها شديدة الوطأة.

لم يبقَ معها من أبنائها سوى ابنتها الوحيدة تامار. وتامار، بالنسبة لها، نعمة حياتها وبصيص النور في تلك الأوقات الحالكة التي ربضت فيها كوابيس الذكريات المروّعة على قلبها. كانت ابنتها الشخص الآخر الوحيد الذي لا يزال حياً مِمّن شهدوا الزمن العظيم، مع أنها كانت طفلة صغيرة عندما أدّى الآخرون أدوارهم في التاريخ الحيّ. لكن ما يعزّيها هو وجود إنسان عاش ذلك العصر وما زال يذكره.

لقد رحل الآخرون واستشهد معظمهم على أيدي أناس عُتاة وبأساليب وحشية. قد يكون بعضهم على قيد الحياة، لكنهم متفرقون في أصقاع الأرض. وكيف لها أن تتأكد من ذلك بعد مرور كل هذه السنوات من دون أن يرِدها خبر عن أيّ منهم؟ لكنها كانت تدعو لهم وتصلي ليل نهار، وخصوصاً قبل أن تهرم ذاكرتها. كانت تسأل الله من صميم قلبها أن يمنحهم السلام ويجنّبهم العذاب الذي يؤرّق لياليها.

كانت تامار حقاً ملاذها الوحيد في خريف عمرها. لقد كانت الفتاة صغيرة السن لكي تتذكّر التفاصيل المروّعة في عصر الظلمات، لكنها لم تنسَ فضائل الأفراد الذين اختارهم الله ليسلكوا دربه المقدّس. ولأن تامار كرست حياتها لذكرى هؤلاء المختارين، فإن أعمالها اتّسمت بالمحبة الخالصة والخدمة المتفانية، ولم يكن لها من همّ سوى راحة أمّها في أيامها الأخيرة باذلةً في سبيل ذلك جهداً يفوق الوصف.

كانت العجوز ترى أن الابتعاد عن ابنتها الحبيبة هو الأمر الصعب الوحيد الذي ينتظرها، لذلك كانت فكرة الموت الداني منها تثير حزنها.

خطت بضع خطوات خارج الكهف الذي كان مأوى لها على مدى أربعة عقود من الزمن. رفعت وجهها المتجعّد وتأملت النجوم البهية في السماء الصافية، وأحسّت ـ كالعادة ـ بروعة خلق الله. هناك، في مكان ما وراء تلك النجوم تنتظرها أرواح أحبّ أحبائها إليها، وهي تحسّ أنها اليوم أقرب إليها منها في أي وقت مضى.

حتى إنها أحسّت بوجوده....

همست في أذن السماء الداكنة: "*فلتكن مشيئتك*"، واستدارت عائدة بخطى بطيئة إلى الداخل. تنفست بعمق وهي تحدق في الرقعة الجلدية الخشنة وتتفحّصها على ضوء مصباح الزيت الشاحب.

أخذت مِرقم الكتابة واستأنفت ما كانت تخطّه بعناية.

... بعد مرور كل هذه السنوات، ما زالت الكتابة عن يهوذا الإسخريوطي أمراً شاقاً كما في تلك الأيام الحالكة. ولا يعود ذلك إلى أن لي رأياً ضدّه، إنما لأنه ليس لي مثل هذا الرأي.

سوف أروي قصة يهوذا آملةً أن أكون منصفة في ذلك. لقد كان إنساناً متمسّكاً بمبادئه، وعلى من يتبعوننا أن يعرفوا هذا. إنه لم يخُنْهم ـ أو يُخُنّا ـ لقاء كيس من الفضّة. والحقيقة أن يهوذا كان أكثر التلاميذ الاثني عشر إخلاصاً. لقد ألمّت بي محن كثيرة أحزنتني في السنوات السابقة، لكني أعتقد أن ليس هناك مَن أبكيه أكثر من يهوذا سوى واحد.

لا شك أن الكثيرين يريدونني أن أتهجّم على يهوذا وأحكم بأنه خائن ومخادع وغافل عن الحقيقة. لكني لا أستطيع أن أقول ذلك لأنه غير صحيح في الأساس. سوف تُكتب أكاذيب كثيرة عن عصرنا، فقد أظهر لي الله ذلك. لن أكتب المزيد.

فليس لي من هدف سوى قول الحقيقة كاملة عمّا حدث آنذاك.

إنجيل الآرك لمريم المجدلية

كتاب الرسل

الفصل الأوّل

مرسيليا
أيلول (سبتمبر) 1997

عُرفت مرسيليا، على مَرّ القرون، بأنها مكان غير آمن. فهذه المدينة الساحلية كانت ملجأً للقراصنة والمهرّبين والسفاحين منذ أن انتزعها الرومان من قبضة الإغريق في عصور ما قبل الميلاد.

وقد أثمرت جهود الحكومة الفرنسية في إعادة النظام إلى المدينة في أواخر القرن العشرين، فأصبح باستطاعة المرء التجول في أنحائها أو التمتّع بتناول أطباقها البحرية المعروفة من دون أن يخشى التعرض للاعتداء أو السلب. لكنّ أهل مرسيليا اعتادوا سماع أخبار الجرائم والفوضى، فأضحت جزءاً من تراثهم وثقافة مجتمعهم، حتى إن صياديها لا يرفّ لهم جفن حين يجدون في شباكهم بقايا آدميّة فيرمونها جانباً لئلا تدخل في عداد الصيد المرسَل إلى سوق السمك.

لم يكن روجيه برنار جيليس من أبناء مرسيليا، فقد وُلد وترعرع عند سفوح جبال البيرينيه، في بيئة اجتماعية يعتزّ أهلها بأن كيانهم يشكّل مفارَقة تاريخية. لم ينتهك القرن العشرون ثقافة روجيه برنار الموروثة المتمسكة بقوّة الحب والسلام أكثر من الصفات الدنيوية، مع أنه كان رجلاً في متوسط العمر غير زاهد تماماً في الدنيا. كان، قبل كل شيء، زعيم جماعته الذين عاشوا معاً في بيئة روحية وادعة، ومع ذلك كان لهم بعض الأعداء.

وهذا ما جعل روجيه برنار يردّد دائماً أن النور البهيّ يجتذب الظلمة الحالكة.

كان رجلاً ضخم الجثة، يهابه من لا يعرفه حق المعرفة. فمن لا يدري بحقيقة

الرقّة التي تتّسم بها روحه يخاله إنساناً مخيفاً يعرف جميع أعدائه ولا يخشى مواجهتهم.

كان عليه أن يتوقّع ما حدث، وأن يحدس بأنه لن يُترك وشأنه وهو يحمل بحرّيّة ذلك الشيء الذي لا يُقدّر بثمن. ألم يمت ما يقارب المليون من أجداده في سبيل هذا الكنز النفيس ذاته؟ لكن الرصاصة جاءت من ورائه وهشمت جمجمته قبل أن يشعر بأن العدو بات قريباً منه.

لم تجد الشرطة في الرصاصة دليلاً جنائياً ذا فائدة، ولم يترك القتَلة أي أثر آخر يُذكر. لكن لا بد أنهم كانوا كُثُراً، لأن حجم الضحية ووزنه يفرضان وجود عدة رجال ليفعلوا ما فعلوه بعد ذلك.

قد يكون مِن رحمة الله أن روجيه برنار توفّي قبل أن يبدأ المجرمون بتنفيذ مهمّتهم التالية. ومن حسن حظه أنه لم يرَ أمارات الحبور ترتسم على وجوه قاتليه وهم يقومون بعملهم الرهيب. كان رئيسهم أكثرهم حماساً وهو يردد أنشودة الحقد القديمة خلال ارتكابه فَعلته الشنيعة.

"اقتلوهم جميعاً. اقتلوهم جميعاً."

إن قطع رأس إنسان وفصله عن جسده أمر فظيع وشاق. وهو يحتاج إلى القوة والعزم وإلى آلة حادة جداً. وهذا ما اتّصف به قتلة روجيه برنار بالإضافة إلى براعتهم في استخدام آلة حادة.

❀

ظلت الجثة في البحر مدة طويلة تتقاذفها الأمواج وتنهشها أسماك الأعماق الجائعة. وقد أُحبط المحققون لرؤية الجثة مهترئة، ولم يُعلّقوا أهمية على كون إحدى الأصابع مقطوعة. أما تقرير التشريح الذي ضاع بعد ذلك في أدراج الروتين الإداري - أو في أدراج أخرى عمداً - فاكتفى بالإشارة إلى أن السبّابة اليمنى قد بُترت، ولم يَزِد على ذلك شيئاً.

القدس
أيلول (سبتمبر) 1997

كانت مدينة القدس القديمة تضجّ حياةً وحركة كما هي العادة بعد ظهر كل يوم جمعة. المؤمنون يهيئون أنفسهم، كلّ ليومه المقدس، فيهرولون نحو دور العبادة في أجواء عابقة بالتاريخ والإيمان وسموّ النفس. كان المسيحيون منهم يخترقون طريق الآلام، وهي سلسلة من الأزقّة الضيقة المتعرجة التي تحدّد مسار درب الصليب. فهنا تنكّب يسوع المسيح، بعد جلده، حِمله الثقيل، وهو ينزف، شاقاً طريقه نحو مصيره المقدّس على قمّة هضبة الجلجلة.

بعد ظهر ذلك اليوم الخريفي، كانت الكاتبة الأميركية مورين باسكال بين الحجّاج الآتين من مشارق الأرض ومغاربها. هبّت ريح أيلول الشديدة فامتزجت فيها روائح الشاورما الشهية والزيوت العطرية والبخور العابقة في الأسواق القديمة. وكانت مورين قد مَرّت قبل ذلك عبر الممر الإلزامي إلى القدس القديمة، أي إسرائيل. وهي تمسك بيدها كُتيّباً اشترته من جمعية مسيحية بواسطة الإنترنت، وكان يحوي تفاصيل طريق الآلام كاملة وخرائط تُظهر مواقع المراحل الأربع عشرة التي مرّ بها المسيح.

"سيدتي، هل تريدين مسبحة؟ إنها خشبية من جبل الزيتون!"

"سيدتي، هل أنت بحاجة إلى دليل سياحي يرافقك؟ سآخذك إلى كل المواقع الهامة."

اضطرّت مورين، كسائر النساء الأجنبيّات في شوارع القدس، لأن تدفع عنها عدداً كبيراً من الباعة والمستنفعين وهم يلحّون في عرض بضائعهم وخدماتهم، ظناً منهم أن هذه المرأة النحيلة الجذابة بشعرها الأحمر الطويل ستكون صيداً ثميناً. كانت مورين تبتعد عن كل منهم بعد أن تصدّه برقّة: "كلا، شكراً". كان ابن خالها، بيتر، وهو خبير في دراسات الشرق الأوسط، قد أطلعها مسبقاً على عادات أهل المدينة القديمة. وكانت مورين حريصة على أدقّ التفاصيل في عملها، وقد درست تطوّر حضارة القدس بعناية، وهذا ما أفادها كثيراً إذ تجنّبت الالتهاء بالنواحي الثانوية واهتمّت بأساسيّات بحثها مدوّنةً التفاصيل والملاحظات في مفكّرتها ذات الغلاف الجلدي.

تأثرت مورين كثيراً بجمال وروعة كنيسة الجَلْد للآباء الفرنسيسكان التي

بُنيت منذ 800 سنة، وأثار فيها هذا المكان، الذي تحمّل فيه يسوع الضرب بالسياط، الإحساس بالرهبة. وكان هذا الموقف الانفعاليّ غريباً لأنها لم تأتِ إلى القدس لهدف ديني إنما للبحث والاستقصاء، بصفتها كاتبة تسعى لمعرفة الخلفية التاريخية الدقيقة لعملها. وبالرغم من حرصها على التعمق في فهم أحداث الجمعة العظيمة فإنها تناولت هذا البحث بعقلها وليس بقلبها.

زارت دير أخوات صهيون قبل الانتقال إلى كنيسة الحُكْم المجاورة، وهي مُقامة في المكان الشهير الذي أُعطي فيه يسوع صليبه بعد إصدار بيلاطس البنطي الحكم بصلبه. وأثناء سيرها داخل المبنى، فاجأتها الغصّة في حلقها ثانيةً، مصحوبة هذه المرة بالمرارة. رأت المنحوتات البارزة بالحجم الطبيعي على الجدران تنبض بأحداث ذلك اليوم الأليم منذ ألفي سنة. وقفت مورين مشدوهة أمام صورة إنسانيّة رائعة: أحد تلامذة المسيح يحاول أن يحجب نظر مريم، أمّ يسوع، لئلا ترى ابنها حاملاً صليبه. تسمّرت الدموع في عينيها وهي تتأمل تلك الصورة. كانت المرّة الأولى في حياتها التي ترى فيها تلك الشخصيات التاريخية العظيمة كأشخاص حقيقيين من لحم ودم يقاسون من الألم والكُربة ما يفوق الخيال.

أحسّت مورين بدُوار مفاجئ، فاتكأت على الحائط الحجري البارد، وأطرقت لحظات قبل أن تدوّن بعض الملاحظات حول الصور والمنحوتات.

استأنفت جولتها، لكنّ شوارع المدينة القديمة كانت أشبه بمتاهة عصيّة حتى على الخرائط الدقيقة التي تحملها، فمعظم العلامات والمعالم قديمة وباهتة تعجز عن رؤيتها عين كل غريب عن المكان. أخذت مورين تلعن حظها بصمت عندما اكتشفت أنها تاهت ثانيةً. وقفت تحت مظلّة مدخل أحد المتاجر لتتّقي أشعة الشمس الحارقة التي لم يلطّفها هبوب نسمات الخريف. حركت الكتيّب بيدها لتبعد عن عينيها انعكاس وهج الشمس عليه، ونظرت حولها محاولةً معرفة أي سبيل تسلك.

ثم تمتمت قائلةً: "أين المرحلة الثامنة من درب الصليب؟ لا بد أن تكون في الجوار." كان ذلك المكان ذا أهمية خاصة بالنسبة لمورين، إذ إن عملها يرتكز على ما جرى هناك لأنّه يتعلّق بالنساء. رجعت إلى الكتيّب ثم أكملت قراءة مقطع من أحد الأناجيل يصف المرحلة الثامنة:

"وتبعه جمهور كثير من الشعب والنساء اللواتي كُنَّ يلطمْنَ ويَنُحْنَ عليه. فالتفت إليهن يسوع وقال: يا بنات أورشليم لا تبكين عليَّ بل ابكين على أنفسكنّ وعلى أولادكنّ."

فوجئت مورين لدى سماعها طرْقاً حاداً على الواجهة وراءَها. رفعت بصرها وهي تخشى أن يكون صاحب المتجر قد غضب لأنها تسدّ المدخل، لكنّه بدا مُشرق الوجه. إنه رجل فلسطيني، متوسط العمر، حسن الهندام. فتح الباب ودعاها للدخول إلى حانوته المليء بالتحف والأثريات. خاطبها بلغة إنكليزية سليمة ذات لكنة خاصة.

"تفضّلي يا سيدتي، أهلاً وسهلاً. أنا محمود. لا شك أنك ضللتِ الطريق!"

لوّحت مورين بالدليل قائلةً: "أبحث عن موقع المرحلة الثامنة. وفقاً للخريطة..."

أبعدَ محمود الكتيب مبتسماً، وقال: "نعمْ، نعم. المرحلة الثامنة، حيث التقى يسوع بنساء أورشليم الصِّدِّيقات. ليست بعيدة. هناك وراء تلك الزاوية." ثم أشار بيده وأضاف:" تجدين صليباً فوق الحائط الحجري، لكن عليك النظر بدِقّة."

ركّز محمود نظره على مورين لحظة، ثم تابع كلامه: "كما هي الحال بشكل عام في القدس، عليك النظر بدقّة شديدة لرؤية الشيء على حقيقته!"

راقبت مورين حركاته، وسَرَّها أنها فهمت الاتجاهات التي أشار إليها. شكرته والابتسامة تعلو ثغرها، واستدارت لتخرج من الحانوت، لكنها توقفت إذ استرعى انتباهها شيء على رفّ قريب. كان محلّ محمود من محلات القدس الراقية التي تعرض قطعاً أثرية أصلية كمصابيح زيت من أيام المسيح وقطع نقود معدنية تحمل شعار بيلاطس النبطي. لقد لفتَها وميض لونيّ رائع عبر النافذة. اقتربت مورين من رفّ عُرضت فيه حليّ فضية وذهبية مرصّعة بالموزاييك، وسمعت الرجل يصف المعروضات بقوله: "هذه حليّ مصنوعة من شظايا زجاج رومانيّ."

أجابت مورين بعد أن التقطت قلادة فضية: "إنها رائعة!" رفعت القلادة في النور فانبثقت منها أشعة ملِونة انعكست في أرجاء الدكّان، ممّا أثار مخيِّلتها الأدبية، فقالت: "وما هي القصّة التي ترويها هذه القطعة الزجاجية؟"

هزّ محمود كتفيه وقال: "من يدري ماذا كانت أصلاً؟ زجاجة عطر؟ قارورة مساحيق؟ زهرية؟ إناء؟"

"إنّ ما يُدهش هو مجرّد التفكير أنها كانت، منذ ألفي سنة، إناءً عادياً في منزل ما!"

"رائع، رائع!"

أخذت مورين تجول ببصرها في أرجاء المحلّ وتتفحّص معروضاته، فذُهلت لجودتها وجمالها. مدّت يدها ومرّرت أصابعها برفق على قنديل زيت من السيراميك، وسألت: "هل عمره ألفا سنة بالفعل؟"

"طبعاً. وهناك آثار أقدم من ذلك."

هَزّت مورين رأسها وسألت: "لكن ألا ينبغي أن تكون مثل هذه القطع الأثرية في المتاحف؟"

ضحك محمود من كل قلبه وعَلّق قائلاً: "القدس كلها مُتحف يا عزيزتي! احفري في حديقة أي منزل هنا تجدي شيئاً قديماً جداً. طبعاً، تُضاف معظم القطع الثمينة إلى المجموعات الخاصة. لكن ليس كلّها".

انتقلت مورين إلى رفّ آخر ووقفت أمام علبة زجاجية مليئة بحليّ مصنوعة من النحاس المؤكسد المطروق. واسترعى انتباهها خاتم يحمل قرصاً بحجم قطعة نقود صغيرة. لاحظ محمود نظرتها، فأخذ الخاتم من العلبة ومَدَّ يده نحوها. وقعت أشعة الشمس، عبر واجهة المتجر، على الخاتم، فأنارت قاعدته المدوّرة، وظهر شكل تسع نقاط منقوشة حول دائرة وسطى.

قال محمود: "لقد أحسنتِ الاختيار"، وانتقل من أسلوبه المرح إلى الوقار والرزانة، وأخذ يحدّق في مورين وهي تسأله عن الخاتم:

"كم عُمر هذا الخاتم؟"

"يصعب التحديد بدقة، لكنّ الخبراء أفادوني أنه بيزنطيّ، من القرن السادس أو السابع، وقد يكون أقدم من ذلك."

أنعمت مورين النظر في النمط الذي تشكّله الدوائر.

"هذا النمط!... يبدو مألوفاً. أُحِسّ أنني رأيته سابقاً. هل تعلم إلامَ يرمز؟"

بدا محمود مرتاحاً وهو يجيب: "لا يمكنني الجزم بما قصده الصانع منذ ألف وخمسمئة سنة. لكن قيل لي إنه خاتم لأحد علماء الكونيّات."

"عالم في الكونيّات؟"

"هو العالم الذي يبحث في العلاقة بين الأرض والكون، نظام الكون كلّه من

أعلاه إلى أدناه. وأعترف أنني عندما رأيته للمرة الأولى ذكّرني بالكواكب وهي ترقص حول الشمس."

أخذت مورين تعد النقاط بصوت عالٍ:" "سبعة، ثمانية، تسعة. لكنّهم لم يكونوا يعلمون، في ذلك الزمن، أن هناك تسعة كواكب وأن الشمس هي مركز النظام الشمسيّ. عجباً! هل يُعقل أن يكون ذلك هو المقصود؟"

أجاب محمود: "لا يمكننا أن نفترض أننا نعرف ما كان يعلمه القدماء؟ جَرِّبيه."

أحسّت مورين بلهجة البائع تطغى على محمود فجأة، فمدّت يدها لتناوله الخاتم، وقالت: "لا، شكراً. إنه جميل فعلاً، لكنّي كنت فضولية فحسب. لقد قرّرت ألّا أشتري شيئاً اليوم."

لم يأخذ محمود الخاتم منها، بل أجاب: "لا عليكِ. إنه ليس للبيع على كل حال!"

"ليس للبيع؟"

"لا. لقد طلب أناس كثيرون شراء هذا الخاتم، لكني رفضت بيعه. لذلك، لا بأس إذا جرّبته."

لم تمانع مورين لأنها ارتاحت لعودة نبرة المرح إلى كلام محمود، أو لأن نمط ذلك الرسم القديم جذبها بشكل لم تستطع تفسيره. لكنّ شيئاً ما جعل مورين تضع الخاتم في إصبع في يدها اليمنى، وكان مقاسه مناسباً تماماً.

هزّ محمود رأسه، وعاد إلى لهجته الرصينة وهو يقول بصوت أقرب إلى الهمس: "كأنه صُنع خصيصاً لك."

رفعت مورين يدها لتنظر إلى الخاتم في إصبعها يلمع في الضوء، وقالت: "لا يمكنني أن أرفع نظري عنه!"

"ذلك لأنه يُفترض أن يكون لك."

نظرت مورين إلى محمود مرتابةً خشية أن يكون كلامه محاولة بائع لإغراء الزبون بالشراء. صحيح أنه كان أشدّ لباقة من الباعة المتجولين، لكنه كان بائعاً على كل حال، لذلك واجهته بالقول: "حسبت أنك قلت إنه ليس للبيع"

همّت بسحب الخاتم من إصبعها، لكن الرجل رفع يديه معترضاً:

"لا، أرجوكِ"

"فهمْتُ. لقد حان إذاً وقت المساومة! كم ثمنه؟"

صمت محمود لحظة ناظراً إليها بعمق وقال: "لقد أسأتِ فهمي. هذا الخاتم موضوع عندي أمانةً إلى أن أجد اليد الملائمة له، أي اليد التي صُنع من أجلها. وها إني أرى الآن أنها يدك. لا يمكنني أن أبيعك إياه لأنه قد أصبح لك".

حوّلت مورين نظرها إلى الخاتم، ثم إلى محمود وهي مذهولة، وصاحت: "لكن كيف؟ أَفْهِمْني".

ابتَسم محمود ابتسامة رصينة، ومشى نحو الباب قائلاً: "ستفهمين يوماً ما. الآن، احتفظي بالخاتم كهدية."

"لا، لا يمكنني أن...."

"بل عليكِ أن تأخذيه، وإلّا اكون قد فشلت. فهل يتحمّل ضميرك وزر هذا الأمر؟"

هزّت مورين رأسها ولم تدرِ ما تقول، وتبعته نحو المدخل وودّعته بما أسعفها لسانها على القول: "إنني عاجزة تماماً عن الكلام، ولست أدري كيف أشكرك"

"لا داعي للشكر. هيّا، عليك الذهاب الآن، فأسرار القدس بانتظارك."

أمسك محمود الباب فخرجت مورين وهي تكرّر له الشكر.

همسَ وهي تمرّ من أمامه: "إلى اللقاء، يا مجدليّة." فتوقفت مورين واستدارت نحوه فوراً وسألته:

"عفواً؟"

فعاد محمود إلى ابتسامته الرصينة المُبهمة، وأجاب: "قلتُ: وداعاً يا سيدتي"، ولوّح لمورين بيده، فبادلته التحية بالمثل، وخرجت لتكتوي بنار الشمس الحارقة.

❀

عادت مورين إلى طريق الآلام، ووجدت المرحلة الثامنة حسبما أشار محمود. لكنها كانت مضطربة وعاجزة عن التركيز، وشعرت بإحساس غريب بعد ذلك اللقاء غير المتوقّع بصاحب الدكّان. وفيما كانت تسير، عاودها الشعور بالدوار، لكنه كان أشد من السابق لدرجة وصلت بها إلى حدّ الذهول. لقد كان ذلك اليوم يومها الأول في القدس، وكانت بالطبع تعاني من التعب الشديد نتيجة لرحلتها الطويلة والمتعبة من لوس أنجلوس ولفارق التوقيت بين البلدين، بالإضافة إلى أنها لم تنم جيداً في الليلة السابقة للسفر. لم تدرِ مورين هل كانت تعاني من ارتفاع حرارة الجو والإرهاق والجوع معاً، أم من سبب آخر لا يمكن تفسيره؟ وعلى كل حال، فإن ما حدث بعد ذلك لم يكن قد مَرّ بها سابقاً.

وجدت مقعداً حجرياً فجلست عليه طلباً للراحة، لكنها أصيبت فجأةً بنوبة دوار أخرى حين لمعت في عينيها أنوار ساطعة من الشمس اللاهبة، أحست أنها تخترق بصرها لتشوّش أفكارها.

وجدت نفسها فجأة وسط حشد من الناس. وكان كل ما حولها مضطرباً وصاخباً ـ صراخ وتدافُع، هرج ومرج من كل صوب. ظلت مورين محتفظة بشيء من تفكيرها بواقعها لتلاحظ أن هؤلاء المندفعين حولها يرتدون أثواباً خشنة يدوية الصنع، وأن بعضهم ينتعل صنادل بدائية، وهذا ما تأكدت منه عندما داس أحدهم على رجلها بعنف. وكان معظمهم رجالاً ملتحين متّسخين، وقد لوّحتهم شمس العصر الساطعة، فامتزج عرقهم بالغبار على وجوههم الغاضبة الكئيبة. كانت عند طرف زقاق ضيّق، وبدأ الحشد أمامها يشقّ طريقه بلا هوادة، وظهرت فسحة بينها وبينهم. ومشت مجموعة صغيرة ببطء عبر الممرّ، وبدا أن الجمهور يتبع تلك المجموعة. وعندما اقتربت تلك الكتلة البشرية المتحرّكة، رأت مورين المرأة للمرة الأولى.

كانت المرأة أشبه بجزيرة منفردة وساكنة وسط ذلك البحر الصاخب الذي قَلّ فيه عدد النساء. كان في مِشيتها المتّئدة من المهابة ما يشير إلى أنها ملكة، بالرغم من طبقة الغبار التي تغطي يديها ورجليها. كان شعرها الأسمر مشعّثاً نوعاً ما، وقد اختفى جزء منه تحت خِمار قرمزي يغطي أسفل وجهها. أيقنت مورين، بشكل عفوي، أنّ عليها أن تصل إلى تلك المرأة وتتقرّب منها، لا بل أن تلمسها وتخاطبها. لكن الجمع الجارف أعاقها عن ذلك، وكانت حركتها بطيئة ثقيلة كحركة من يعيش حلماً.

وفيما كانت مورين تحاول التقدّم باتجاه المرأة شُدهت لجمال ذلك الوجه

الحزين الذي لم تستطع الوصول إليه. كانت نحيلة، رقيقة الملامح، ذات عينين واسعتين، برّاقتين، متأمّلتين، انطبعت صورتهما في ذاكرة مورين بعد خروجها من تلك الرؤيا، بلونهما المتماوج بين الكهرماني والأخضر، وعمقهما الذي يشع مزيجاً غريباً من الحكمة المطلقة والكآبة الفائقة. وقعت نظرة المرأة الآسرة على عيني مورين برهةً بدا أنها غير متناهية، ناقلةً عبر عينيها الخارقتين رجاءً مِلؤه اليأس والأسى وكأنها تقول:

" عليك أن تساعديني."

علمت مورين أن هذا الالتماس موجّه إليها، وكانت قد ذُهلت وأصابها السكون عندما علقت عيناها بعيني تلك المرأة. وفجأة نظرت المرأة إلى فتاة صغيرة السن تمسك يدها بقوة.

نظرت الفتاة إلى أمها بعينين عسليتين واسعتين تشبهان عيني أمّها. وكان وراءها ولد يكبرها سناً، وذو عينين داكنتين أكثر من عيني البنت، لكنه، من المؤكّد، ابن تلك المرأة. وفي تلك اللحظة الغامضة، أيقنت مورين أنها الإنسان الوحيد القادر على مساعدة تلك الملكة الغريبة المتألمة وولديها. وعندما أدركت ذلك، أصابتها موجة من الاضطراب الشديد والحزن العارم.

بعد ذلك، أخذ الحشد يندفع ثانية، مُغرقاً مورين في بحر من القلق واليأس.

أومضت مورين بعينيها ثم أغلقتهما بضع ثوانٍ، وهزّت رأسها هزاً لتزيح عنها تلك الرؤيا، وهي ذاهلة عن مكانها وزمانها. لكن عندما وقع نظرها على بنطلونها الجينز وحقيبتها النايلون وحذائها الرياضي "نايكي" تأكّدت أنها في القرن العشرين. وكانت تسمع أصوات المدينة القديمة حولها في صخبها المعهود، لكن الناس كانوا يلبسون أزياء عصرية وقد اختلفت الأصوات الآن: كانت الإذاعة الأردنية تبثّ أغنية شعبية أميركية سمعتها من راديو في الحانوت المقابل: "Losing My Religion" (فقدت ديني). وكان فتًى فلسطيني يستمع إلى الأغنية باهتمام وهو ينقر بيديه على الطاولة ويراقبها بابتسامة عريضة.

نهضت مورين عن المقعد وحاولت أن تنفض عنها تلك الرؤيا، إذا كانت رؤيا فعلاً. وكانت غير متأكدة من حقيقة ما رأته ولم تُرد أن تطيل التفكير في أمره. كان

الوقت الذي ستقضيه في القدس محدوداً وعليها أن تشاهد معالم تاريخ ألفي سنة. استجمعت كل مهاراتها الصحفية وخبراتها في كبت مشاعرها لتصنِّف الرؤيا في خانة "للبحث والتحليل لاحقاً"، واستأنفت جولتها.

وجدت مورين نفسها في وسط جماعة من السيّاح البريطانيين يمرّون عند منعطف الطريق ويقودهم مُرشِد يبدو، من ياقة قميصه، أنه قِسّيس أنجليكاني. أخبر المرشد صحبَه أنهم يقتربون من أقدس أماكن الدين المسيحي، أي كاتدرائية القيامة.

وكانت مورين تعلم، من خلال بحثها، أن مراحل درب الصليب المتبقية موجودة هناك. وتمتدّ الكنيسة على مساحة شاسعة تضم موقع الصلب منذ أن نذرت الإمبراطورة هيلانة نفسها لحماية تلك البقعة المقدّسة في القرن الرابع. وكانت هيلانة أيضاً والدة الإمبراطور الروماني العظيم قسطنطين، وقد طُوّبت قديسةً فيما بعد نظراً لأعمالها.

تقدّمت مورين من بوابات الدخول الضخمة ببطء وتردد. فقد أدركت، وهي عند المدخل، أنها لم تطأ كنيسة بالفعل منذ سنوات عديدة، ولم تكن تريد تغيير ذلك الآن. ثم ذكّرت نفسها بحزم أن البحث الذي قادها إلى تلك البلاد كان أكاديمياً ولم يكن روحياً، لذلك يمكنها ولوج تلك الأبواب إذا ظلّت حريصة على ذلك الهدف وسارت بذلك الاتجاه.

وبالرغم من تردّدها، كان في هذا المعبد الضخم ما يجذب ويوحي بالرهبة. خطت خطوتها الأولى عبر المدخل الواسع، فسمعت القسيس البريطاني يقول لمرافقيه:

"سترون داخل هذه الجدران المكان الذي قدّم فيه المسيح التضحية الكبرى، حيث نُزعت ثيابه، وحيث سُمّر على الصليب. ستدخلون القبر المقدّس الذي سُجّي فيه جسده. إخوتي وأخواتي في المسيح، بعد أن تدخلوا هذا المكان ستتغيّر حياتكم حتماً."

فاحت رائحة البخور العطرة في أرجاء المكان، ورأت مورين الحجّاج من كل المذاهب المسيحية يعبرون الممرات الفسيحة داخل الكنيسة. ثم مرّت قرب مجموعة من

الكهنة الأقباط يتشاورون بأصوات خفيضة، وشاهدت رجل دين أرثونكسياً شرقياً يشعل شمعة في أحد المُصلّيات الصغيرة. كانت هناك جوقة من المنشدين يرتّلون بلهجة شرقية وقعت موقعاً غريباً على أذنها الغربية، وكانت ترنيمتهم تنبعث من مكان ما داخل الكاتدرائية.

كانت مورين تتلقى سيل المشاهَدات والأصوات في أنحاء المكان، وتتساءل عن مدى جدوى هذه المنبّهات الحسّيّة الصاخبة، فلم تلاحظ وجود رجل قصير نحيل يقف قربها، حتى لمس كتفها، فانتفضت مرتاعةً.

قال بلكنة إنكليزية ثقيلة: "آسف يا آنستي. أنا آسف يا آنسة مو ـري". وعلى عكس صاحب الدكان الغامض، محمود، كانت معرفة هذا الرجل بلغة مورين الأمّ بدائية وسطحية، لذلك لم تدرك في بادئ الأمر أنه كان يدعوها باسمها الأوّل. فكرّر القول.

"موري. إنه اسمك؟ أليس موري؟"

احتارت مورين وحاولت التأكد ممّا إذا كان هذا الرجل الغريب يدعوها باسمها. وإذا كان يقصد ذلك فعلاً، فكيف عرف اسمها؟ لم يكن قد مضى على وجودها في القدس أربع وعشرون ساعة، ولم يعرف اسمها سوى موظف الاستقبال في فندق كينج دايفد. لكن هذا الرجل كان لجوجاً، فعاد يسألها:

"موري... أنت موري المؤلّفة. الكاتبة أليس كذلك؟ موري؟"

أومأت مورين برأسها بهدوء وهي تجيبه: "أجل، اسمي مورين. لكن، كيف ـ كيف عرفت ذلك؟"

تجاهل الرجل النحيف سؤالها وأمسك يدها وشدّها سائراً في الكنيسة، وهو يقول: " لا وقت لدينا. ليس هناك وقت. تعالي، إننا ننتظرك منذ مدة طويلة، هيّا، هيّا."

كان قصيراً جداً، حتى إنه كان أقصر من مورين نفسها، وهي امرأة صغيرة الجسم بالنسبة لبنات جنسها، ومع ذلك فقد سار بسرعة. قادتهما رجلاه القصيرتان إلى الجزء الداخلي من الكنيسة حيث اصطفّ بعض الحجّاج للدخول إلى قبر المسيح. وظلّ يمشي حتى وصلا منبحاً صغيراً عند مؤخرة المبنى، فتوقف فجأة. كان يشرف على تلك المساحة تمثال برونزي بالحجم الطبيعي لامرأة تبسط يديها لرَجل وكأنها تتضرّع إليه.

"كنيسة مريم المجدلية. المجدلية. لقد جئتِ من أجلها، أليس الأمر كذلك؟"

أومأت مورين برأسها إيماءة حذرة وهي تنظر إلى التمثال وإلى اللوحة في أسفله وقد نقش عليها:

في هذا المكان،

كانت مريم المجدلية أوّل

مَن رأى المسيح بعد قيامته.

ثم قرأت بصوت عالٍ الجملة المكتوبة على لوحة أخرى تحت البرونز:

"يا امرأة لماذا تبكين؟ مَن تطلبين؟"

لم تتمكّن مورين من التفكير ملياً في ذلك السؤال لأن القزم الغريب شدّ يدها ثانية وقادها بخطواته السريعة إلى زاوية أخرى مظلمة من الكنيسة.

"هيّا، هيّا."

انعطفا عند تلك الزاوية وتوقفا أمام لوحة زيتية كبيرة وقديمة تصوّر امرأة. كانت عوامل الزمن والبخّور وبقايا الشمع الزيتي عبر القرون قد أثرت سلباً على الرسم الغائم، مما اضطُرّ مورين للاقتراب منه والتحديق به. قال الرجل الصغير بصوت تحوّل إلى نبرة عميقة ورزينة:

"اللوحة قديمة جداً. إنها يونانية. هل تفهمينني؟ يونانيّة. إنها أهمّ رسم لسيّدتنا. إنها بحاجة إليك لتخبري قصتها. لهذا السبب جئتِ إلى هنا يا موري. لقد انتظرناكِ زمناً طويلاً. وهي انتظرتك، أجَل انتظرتكِ".

حدّقت مورين إلى اللوحة ثانيةً، فرأت صورة نصفية قديمة قاتمة لامرأة ترتدي عباءة حمراء. استدارت نحو الرجل الصغير وقد غزا فكرها فضول ما بعده فضول لمعرفة نهاية ما يحدث، لكنها لم تجده، إذ اختفى بسرعة كما كان قد ظهر.!

تردّد صدى صوت مورين في أرجاء الكاتدرائية الفسيحة وهي تصيح: "انتظر" لكن دون مجيب. فعادت تتأمل اللوحة.

وفيما كانت تنحني لتقترب من الرسم لاحظت أن المرأة تلبس خاتماً في

يدها اليمنى: قرص نحاسي مدوّر، عليه صورة تسع دوائر تحيط بجسم كرويّ مركزيّ.

رفعت مورين يدها اليمنى حيث وضعت خاتمها الذي حصلت عليه مؤخراً، لتقارنه بالخاتم الذي في اللوحة.

كان الخاتمان متطابقين.

... سيُقال الكثير ويُكتب في المستقبل عن سمعان، صيّاد الناس. لماذا أسماه عيسى وأسميتُه الصخرة، بطرس، بينما دعاه الآخرون بلغتهم سيفاس. وإذا انصف التاريخ فسيبيّن كيف أنه أحب عيسى حباً مطلقاً.

لقد قيل الكثير، حسبما سمعت، عن علاقتي بسمعان بطرس. واعتبَر البعض أننا خصمان أو عدوّان، وهم يريدون أن يشيعوا أن بطرس كان يكرهني وأننا كنا دائمي التنافس لكسب ودّ عيسى. وهناك مَن يعتبر أن بطرس كان يكره جنس النساء ـ لكن هذه التهمة لا يمكن أن تنطبق على من اتّبع تعاليم عيسى. فليعلم الجميع أنه لم يكن بين أتباع عيسى من يستخفّ بالمرأة أو يقلّل من شأنها في نشر إرادة الله. فإن فعل امرؤ ذلك وادّعى أن عيسى معلّمه فهو كاذب.

مثل هذه الاتهامات بحقّ بطرس هي كاذبة. والذين شهدوا انتقادات بطرس لي لا يعرفون تاريخنا ولا أسباب غضب بطرس. لكنّي أتفهّمه ولن أدينه أبداً. وهذا هو أوّل ما علّمني إياه عيسى، وآمل أن يكون قد علّمه للآخرين: لا تدينوا الناس.

إنجيل الآرك لمريم المجدلية

كتاب الرسل

الفصل الثاني

لوس أنجلوس

تشرين الأول (أكتوبر) 2004

"لنعالج الأمر من أساسه: ماري أنطوانيت لم تقل قَطّ فليأكلوا البسكويت"، ولوكريس بورجيا لم تسمّم أحداً، وماري ملكة إسكتلندا لم تكن عاهرة قاتلة. فإذا صحّحنا هذه المغالطات نكون قد خطونا الخطوة الأولى نحو إعادة النساء إلى مكانتهن المرموقة في التاريخ، تلك المكانة التي انتهكتها أجيال من المؤرخين ذوي الأجندات السياسية".

توقفت مورين عن الكلام فيما سرت تمتمات الاستحسان بين مجموعة الطلاب البالغين. كان اللقاء الأول بصفّ جديد أشبه بليلة الافتتاح في المسرح، فإذا نجح العرض الأول نجح الموسم بكامله.

استأنفت مورين محاضرتها بالقول: "سنستعرض، خلال الأسابيع القادمة، سيرة بعض أشهر النساء في التاريخ والأساطير. نساء تركن آثاراً لا تُمحى على تطوّر المجتمع الحديث والفكر البشري؛ نساء أساءَ فهمَهنّ ولم يعرف حقيقتهنّ مَن أرسوا التاريخ الغربي المعاصر بتدوين آرائهم الخاصة على الورق."

كانت تريد إكمال كلامها من دون إفساح المجال للأسئلة في تلك المرحلة من محاضرتها، لكنّ فتًى يافعاً جالساً بين الطلاب في الصف الأول أبى ذلك فراح يلوّح بيده ناظراً إليها. بدا متحمّساً للسؤال، ولم يكن هناك ما يلفت الانتباه في مظهره. هل هو صديق أم عدوّ؟ أهو معجَب بكلامها أم متعصّب ضده؟ عرفت مورين أنه لن يستكين ولن ينتظر، فأشارت إليه بالكلام.

"أيمكننا أن نعتبر أن كلامك يعبّر عن موقف أنثويّ متعصّب من التاريخ؟"

إذاً هذا ما يريده، لذلك هدأت مورين وهي تجيب عن هذا السؤال التقليديّ: "إنني أعتبره نظرة أمينة للتاريخ، فمُقاربتي للموضوع ليست إلّا من باب الحرص على معرفة الحقيقة."

لم ينتهِ الجدل عندها، إذ عقّب الشاب قائلاً:

"لكنّني أراه موقفاً متعصّباً ضد الرجال."

"ليس كذلك إطلاقاً. فأنا أحبّ الرجال، وأعتقد أنه يجب أن يكون لدى كل امرأة رجل." وصمتت لحظات بانتظار انتهاء التلميذات من ضحكتهنّ الخافتة.

وأكملت بالقول: "عفواً على هذه المداعبة. الحقيقة أن هدفي هو إعادة التوازن إلى التاريخ من منظار عصري. هل نعيش حياتنا اليوم مثلما عاش الناس منذ ألف وست مئة سنة؟ لا، طبعاً. إذاً، لِمَ نسمح للقوانين والمعتقدات والتفسيرات التاريخية التي أُمليت في العصور المظلمة بأن تتحكّم بطريقة حياتنا في القرن الحادي والعشرين؟ فهذا غير منطقيّ."

أجاب الطالب: "وهذا بالضبط سبب وجودي هنا، فأنا أريد أن أعرف الحقيقة."

"رائع. وأنا أقدّر اهتمامك هذا، وجلّ ما أتمناه هو أن تكون مُنفتِح العقل. في الواقع، أريدكم جميعاً أن توقفوا ما تفعلونه الآن، وليرفعْ كلٌّ يده اليمنى ويردّد القسَم التالي."

أخذ الطلاب يتهامسون ويتبادلون النظرات والتعليقات مبتسمين. وقفت المحاضِرة، وهي مؤلّفة من أصحاب الكتب الأكثر مبيعاً وصحفيّة مرموقة ـ وقفت أمامهم رافعةً يدها اليمنى وناظرةً إليهم نظرة ملؤها الترقّب.

ثم حضّتهم بقولها: "هيّا، ارفعوا أيديكم وردّدوا بعدي!"

رفع الطلاب أيديهم مطيعين وانتظروا ليسمعوا كلامها ويكرروه.

"أُقسِمُ مُخلصاً، بصفتي طالب تاريخ جادّاً، أنني سأتذكر دائماً أن كل الكلام المدوّن على الورق قد سطّره البشر".

صمتت لحظات تراقب الطلاب لمعرفة ردّ فعلهم، ثم تابعت: "وبما أن جميع

البشر تتحكّم بهم مشاعرهم وآراؤهم وانتماءاتهم السياسية والدينية، فإن التاريخ بأكمله يتضمّن من الآراء بقدر ما يتضمّن من الحقائق، وفي كثير من الأحيان، وُضِع بغيةَ تأييد طموحات المؤلف الشخصية أو أهدافه الخفيّة."

"أتعهد صادقاً بأنني سأحرص على البقاء منفتح العقل في كل لحظة أقضيها في هذه الغرفة. هذا هو موقفنا: ليس التاريخ ما حدث فعلاً، التاريخ هو ما دُوِّن."

أمسكت كتاباً كان على المنصة أمامها ورفعته ليراه الطلاب، وسألت:

"هل تسنّى لكم جميعاً الحصول على نسخة من هذا الكتاب؟"

هزّ معظم الطلاب رؤوسهم وتمتموا بالإيجاب. والكتاب الذي حملته بيدها كان كتابها المثير للجدل بعنوان "تاريخها: دفاع عن أبغض بطلات التاريخ." لذلك كانت غرف وقاعات البرامج المسائية تمتلئ في محاضراتها.

"نبدأ الليلة مناقشة موضوع نساء العهد القديم، وهنّ سلف النواميس المسيحية واليهودية، ثم ننتقل، في الأسبوع القادم، إلى العهد الجديد مع التركيز على امرأة محدّدة هي مريم المجدلية. سندقّق في مختلف المصادر والمراجع حول حياتها، كامرأة وكتلميذة للمسيح. الرجاء قراءة الفصول المتعلقة بها استعداداً لجلسة الأسبوع القادم.

"وسيتكلّم أيضاً في اللقاء ضيف مميَّز، هو الدكتور بيتر هيلي الذي تعرّف إليه بعضكم في البرامج الإضافية للعلوم الإنسانية. أما الذين لم يحظوا بعد بحضور أحد صفوفه الرائعة، فليعلموا أنه أيضاً الأب هيلي اليسوعي، وهو خبير مرموق عالمياً في دراسات الكتاب المقدس."

رفع الشاب الملحاح في الصف الأول يده ثانية، ولم ينتظر إشارة من مورين، بل سألها مباشرة: "هل الدكتور هيلي من أقربائك؟"

أجابت مورين: "الدكتور هيلي هو ابن خالي."

أطرقت قليلاً وقرّرت إقفال هذا الموضوع والعودة إلى موضوعها الأساسي وإكماله قبل نهاية الوقت، فقالت جازمةً: "سوف يُطلعنا الدكتور هيلي على نظرة الكنيسة إلى علاقة مريم المجدلية بالمسيح، ويُبيِّن كيف تراكمت الآراء حول هذا الموضوع على مدى ألفي عام. سوف تكون جلسة مفيدة، فلا تفوّتوها.

"أما الليلة، فسنبدأ بإحدى الجدّات القديمات، إنها بنشبع، وأول ما نلتقي بها "كانت تستحّم"..."

خرجت مورين من القاعة مسرعةً بعد أن اعتذرت لعدم مكوثها بعد المحاضرة، واعدةً الطلاب بأنها ستبقى بعد المحاضرة القادمة. لقد اعتادت أن تظل في القاعة أكثر من نصف ساعة بعد كل جلسة تتحدث إلى مجموعة من الطلاب الذين يتحلّقون حولها. كانت تحبّ الحديث معهم أكثر من المحاضرات نفسها، فهؤلاء القلّة الباقية بعد المحاضرة كانوا، بلا شك، مهتمين بالمواضيع التي تثيرها ومؤمنين بمبادئها. ولم تكن مورين أصلاً بحاجة للأجر الزهيد الذي تتلقّاه عن تلك المحاضرات، لكنها مارست التدريس لأنها تحبّ التواصل الفكري مع هؤلاء الطلاب المُنفتحين والمندفعين ويهمّها تحفيز فكرهم ومشاركتهم نظرياتها وآراءها.

كان كعب حذائها يعزف إيقاعاً سريعاً وهي تحثّ الخطى على أرض الممشى الخارجي، ثم زادت سرعتها وهي تمرّ عبر الطرقات المشجّرة في الناحية الشمالية من حرم الجامعة، لأنها كانت مُصرّة على رؤية بيتر في تلك الليلة. تمنّت لو لم تكن شديدة الاهتمام بأناقتها وزيّها وخصوصاً حذاءها غير الملائم للركض الضروري للوصول إلى مكتبه قبل أن يغادره. فهي دائماً بكامل أناقتها وتهتم بكل تفاصيل ما ترتديه تماماً كما تهتمّ بكل تفاصيل حياتها. كان زيّها الراقي المصنوع في أشهر دور الأزياء مناسباً تماماً لجسمها الرشيق، وقد زاد من روعته لونه الأخضر الشبيه بلون عينيها، وأضفى كعباها العاليان الجريئان شيئاً من الحيوية على كامل هندامها الكلاسيكي وشيئاً من الطول يُضاف إلى قامتها التي لا تتجاوز 155 سم. لكنّ هذين الكعبين بالذات كانا سبب خيبتها في تلك اللحظة حتى إنها كادت ترميهما خلف أحد الأبنية.

أخذت تنادي بيتر بصمت وهي تهرول: *"أرجوك، لا تغادر مكتبك، أرجوك"*.
كانا متقاربين بشكل غريب، حتى منذ حداثتهما، وتمنت أن يشعر بطريقة ما أنها بحاجة ماسة لأن تكلّمه. كانت مورين قد حاولت مكالمته خلال النهار بوسائل الاتصال المعروفة، لكن دون جدوى. كان بيتر يكره الهاتف الخلوي ويرفض أن يحمله بالرغم من توسلات مورين المتكررة، وكان عادة لا يُجيب على رنين الهاتف الثابت في مكتبه إذا كان منهمكاً في عمله.

نزعت حذاءها ذا الكعب العالي الدقيق وأقحمته في حقيبتها الواسعة وهي

تطوي المسافة القصيرة المتبقية ركضاً للوصول إلى المبنى. حبست نفسَها وهي تستدير حول المبنى، ورفعت بصرها نحو نوافذ الطابق الثاني وأخذت تعدّ ابتداءً من النافذة اليسرى. تنفّست مورين الصعداء حين رأت النور من النافذة الرابعة. إنه لا يزال هنا!

تعمّدت مورين صعود الدرج لتأخذ الوقت الكافي لاسترداد أنفاسها. انعطفت يساراً في الممرّ وتوقفت أمام الباب الرابع من الجهة اليمنى. كان بيتر يتفرّس في مخطوطة باهتة مستعيناً بعدسة مكبِّرة. أحسّ بوجودها داخل الباب قبل أن يراها، وعندما رفع رأسه ارتسمت على وجهه البهيّ ابتسامة عريضة.

"مورين! هذه مفاجأة رائعة. لم أتوقّع حضورك الليلة."

أجابته بحرارة مماثلة: "مرحباً، يا بيتر"، والتفّت حول الطاولة وعانقته سريعاً، وقالت: "إنني في غاية السعادة لأني وجدتك، فقد خشيت أن تكون غادرت."

رفع الأب بيتر هيلي أحد حاجبيه وأطرق قليلاً قبل أن يتكلّم: "كما تعلمين، إنني معتاد على أن أذهب قبل ساعات من الآن. لكنّ دافعاً غريباً، لم أفهمه حتى الآن، جعلني أعمل متأخراً هذه الليلة".

ثمّ بَدّد غموض ما قاله ببسمة رقيقة هادئة توحي بالثقة، مما جعل مورين تبتسم بدورها. والواقع أن مورين لم تتمكّن يوماً من إيجاد تفسير منطقي للرابط الوثيق الذي يربطها بابن خالها الذي يكبرها سناً. لكنّها منذ يوم وصولها إلى إيرلندا، عندما كانت صبيّة، ارتبطا معاً وكأنهما توأمان وتمتّعا بمقدرة فائقة على التواصل فيما بينهما من دون كلام.

مدّت مورين يدها إلى داخل حقيبتها وأخرجت كيساً بلاستيكياً أزرق من النوع المستخدَم عادةً في المخازن التي تبيع بضائع مستوردة، وأخرجت من الكيس علبة مستطيلة ناولتها للكاهن.

"آه، شاي ليونز غولد ليبل، اختيار عظيم! إنني لا زلت غير قادر على تقبل طَعْم الشاي الأميركي".

أظهرت مورين على وجهها تعبير اشمئزاز وهزّت رأسها للدلالة على أنها تشاطره الرأي: "أجَل، لأنه مثل ماء المستنقعات!"

"أظنّ أن الغلّاية ملأى بالماء. سأصلها بالكهرباء، وبعد دقائق نتناول كوباً من الشاي الأصليّ."

ابتسمت مورين وهي تراقب بيتر ينهض من المقعد الجلدي القديم الذي ناضل كثيراً للحصول عليه من الجامعة. فعندما قبل الدكتور بيتر هيلي الموقّر منصبه في قسم البرامج الإضافية للعلوم الإنسانية، خُصِّصت له غرفة مكتب فيها نافذة ومجهّزة بأثاث حديث، ومن ضمنه طاولة وكرسي جديدان وعمَليّان. وكان بيتر يكره الأثاث العمليّ وأكثر منه الأثاث العصري. واستعان بسحره الإيرلندي الأصيل، كقوّة لا تقاوم، فتمكّن من تحريك أفراد الهيئة التعليمية ودفعهم للحركة، وهم عادةً خاملون. كان يُشبه الممثل الإيرلندي غبريال بيرني إلى حدّ بعيد حتى إن النساء كن يُعجبن به بالرغم من ثوبه الكهنوتيّ. لقد فتّش الأساتذة والإداريّون المخازن في الطوابق السفلية وبحثوا في غرف الصفوف غير المستخدَمة حتى وجدوا ما يريده بالضبط: مقعداً جلدياً قديماً مُريحاً، عالي الظهر، وطاولة خشبية مُعتّقة بدت كأنها قطعة أثرية. أما المعدّات الحديثة في مكتبه فكانت من اختياره، وهي ثلاجة صغيرة في الزاوية خلف الطاولة، وغلّاية كهربائية صغيرة، والهاتف الذي لا يعيره الاهتمام بشكل عام.

ارتاحت مورين وقد رأت أنه على أحسن حال بحضور قريبته، وهو منهمك تماماً في هذا الفن الإيرلندي الأصيل أي إعداد الشاي.

عاد بيتر إلى طاولته واستدار نحو الثلاجة الموضوعة وراءه مباشرة. تناول وعاء حليب ووضعه قرب علبة السكّر البيضاء والزهريّة والموجودة على ظهر الثلاجة، وتساءل: "أين الملعقة؟ لا بدّ أن تكون هنا. ها هي".

بدأ صوت الماء وهو يغلي يسمع في الغلاية الكهربائية.

عرضت مورين القيام بالمهمّة: "أنا أعدّ الشاي".

وقفت وأخذت علبة الشاي من طاولة بيتر وفتحت غطاءها البلاستيكي بطرف ظُفرها المطليّ بطلاء الأظافر. أخذت كيسين ورمتهما في كوبين مختلفي الشكل مدبوغين بلون الشاي. وكانت مورين ترى أن ما يُشاع عن الإيرلنديين من إدمانهم الكحول أمر مبالغ فيه، فإدمانهم الحقيقي إنما هو للشاي.

أنهت مورين إعداد الشاي كخبيرة متمرّسة. وناولت ابن خالها كوباً يتصاعد منه البخار، وجلست على كرسي قُبالة طاولته. حملت كوبها بيدها وأخذت تحتسي

بصمت بضع لحظات وهي تحسّ أن عيني بيتر الزرقاوين الوادعتين تراقبانها. وعلى الرغم من أنها كانت قد أسرعت لتراه، إلا أنها لم تكن تعرف من أين تبدأ. وأخيراً قطع الكاهن الصمت.

سألها بهدوء: "هل عادت؟"

تنهّدت مورين وانفرجت أساريرها. ففي مثل تلك الأوقات التي تخشى أن تكون قد وصلت فيها فعلاً إلى حدود سلامة العقل، كان بيتر ملاذها كقريب وكاهن وصديق.

أجابته بشكل غير واضح تماماً: "أجَلْ، لقد عادت."

كان بيتر يتقلب في فراشه من الأرق، فقد أزعجه حديث مورين أيّما إزعاج، ولم يُطلعها على مدى ما أثاره لديه من قلق. كان يهتمّ لأمرها كونه أقرب أقربائها الأحياء ومرشدها الروحي. وكان يعلم أن أحلامها ستعاودها بشكل انتقاميّ، وكان كمَن ينتظر الوقت ويتوقّع اليوم.

عندما عادت مورين من الأرض المقدسة، في المرة الأولى، كانت تؤرّقها أحلام عن الامرأة الملكيّة المتألمة ذات الرداء الأحمر، التي رأتها في القدس. كان الحلم نفسه يتكرّر: فترى نفسها محاطة بالحشد في طريق الآلام. كانت هناك أحياناً تغييرات طفيفة أو تفاصيل إضافية متفرّقة، لكن جوّ الحلم كان دائماً باعثاً على الإحساس باليأس. وهذه الحِدّة المفرطة هي ما كان يثير مخاوف بيتر التي كان يعزّزها ما يُحسّه من انفعال وتفاعل عندما تصف مورين حلمها. لقد كان شيئاً غير محسوس مَنشؤه الأرض المقدسة نفسها، وهو شعور اختبره بيتر بنفسه عندما كان يدرس في القدس. إنه إحساس بالدنوّ من القديم والمقدّس.

بعد عودة مورين من الأرض المقدسة كانت تُمضي ساعات طِوالاً في مكالمات دولية تحادث بيتر الذي كان آنذاك يُدرّس في إيرلندا. كانت ابنة عمّته الواثقة من نفسها والمستقلّة الرأي قد بدأت تشكّ في سلامة عقلها، وأخذ بيتر يخشى عواقب حِدّة تلك الأحلام وتكرّرها. فتقدّم بطلب للانتقال إلى لويولا، عالماً أنه سيحظى بالموافقة عليه فوراً، واستقلّ طائرة إلى لوس أنجلوس ليكون أقرب إلى ابنة عمّته.

بعد أربع سنوات، دخل في صراع مع أفكاره وضميره غير واثق من أفضل الطرق لمساعدة مورين في تلك المرحلة. أراد أن يأخذها لمقابلة أحد رؤسائه في الكنيسة، لكنه كان يعلم أنها لن تقبل بذلك. فبيتر كان آخر صلة أبقت عليها مع جذورها الكاثوليكية، وهي لم تثق به إلا لأنه كان من العائلة ولأنه الإنسان الوحيد في حياتها الذي لم يخذلها يوماً.

نهض بيتر من الفراش لأنه كان قد أدرك أنه لن يرى النوم في تلك الليلة، وكان يحاول أن يتجنّب التفكير في علبة السجائر بداخل الدرج قرب سريره. كان قد حاول الإقلاع عن تلك العادة السيئة التي كانت أصلاً من أسباب اختياره العيش وحيداً في شقة وليس في دير رهبنته اليسوعية، لكن وطأة قلقه كانت شديدة حتى إنه استسلم لذلك الإثم، فأشعل سيجارة وراح ينفث دخانها ببطء وهو يفكّر في الأمور التي تواجه مورين.

كان هناك دائماً شيء مميّز بالنسبة لابنة عمّته الأميركية النحيلة المُفعمة بالحيوية. عندما وصلت للمرة الأولى إلى إيرلندا مع أمها كانت بنتاً صغيرة في السابعة من عمرها، وكانت مذعورة ووحيدة وذات لكنة أميركية غريبة. عمل بيتر على رعايتها، فعرّفها بأولاد القرية وبناتها، وكان يتصدّى لكل من يحاول أن يهزأ بتلك الوافدة الجديدة ذات اللهجة المُضحكة.

وسرعان ما تأقلمت مورين مع محيطها الجديد، وشُفيت بسرعة من ماضيها في لويزيانا إذ أحسّت أن ضباب إيرلندا يضمّها بترحاب وحنان. وجدت الريف ملاذاً آمناً، وكان بيتر وشقيقاته يرافقونها في نزهات طويلة فيُرونها جمال النهر ويحذّرونها من مخاطر المستنقعات. أمضوا معاً أيام الصيف الطويلة يقطفون ثمار العُلّيق البرّيّ المنتشر في مزرعة العائلة ويلعبون كرة القدم حتى المغيب. ومع مرور الوقت، تَقبّلها صغار القرية بعد أن ارتاحت لمحيطها وأخذت تتصرّف معهم بحرّية وعفوية ممّا مكّنهم من معرفة حقيقة شخصيّتها.

لطالما تساءل بيتر عن تحديد كلمة "جاذبية" كما استخدمت في سياق ما فوق الطبيعة أيّام الكنيسة الأولى. "الجاذبية: هبة أو قوّة ممنوحة من الله". ربما تنطبق هذه الكلمة على مورين حرفياً وحقيقةً أكثر ممّا يمكن أن يتصوّره أي إنسان. كان يدوّن في دفتر خاص كل محادثاتهما، منذ أن بدأت مورين مكالماتها الهاتفية الطويلة، وكان يسجّل أيضاً آراءه في معاني أحلامها. كان يصلي يومياً طالباً الهَدْيَ. فلو أن مورين اختارها الله لتقوم بمهمّة ما مُرتبطة بزمن الآلام، وهذا ما كان يزداد

اقتناعاً بأنها تراه في أحلامها، فإنّه يحتاج حتماً للهَدْي من خالقه والإرشاد من كنيسته.

شاتو دي بوم بلو
منطقة لانغدوك في فرنسا
تشرين الأول (اكتوبر) 2004

"ماري دو نيغر سوف تقرّر متى يحين وقت المُنتظَر. هي التي تُولد مِن حَمَل باسكال عندما يتساوى الليل والنهار، وهي ابنة القيامة. هي التي تحمل الكأس المقدّسة سوف تُمنح المفتاح لدى رؤية يوم الجمجمة الأسود. سوف تصبح الراعية الجديدة وترينا الطريق."

كان اللورد بيرنجيه سنكلير يذرع أرض مَكتبته اللمّاعة جيئةً وذهاباً، وقد انعكست من ألسنة اللهب في الموقد الحجري الضخم أنوار ذهبيّة على مجموعة من الكتب والمخطوطات العائلية النفيسة. وكانت تتدلى، فوق الموقد، ومن جانب لآخر، راية من القماش الرثّ داخل غطاء زجاجيّ. كانت تلك الراية بيضاء فيما مضى، لكنّها اليوم مُصفرّة، وهي مزيّنة بشعار زهرة الزنبق بلون ذهبيّ باهت. كان الاسم المُركّب "يسوع مريم" مُطرّزاً على القماش، لكن لم تتسَنَّ رؤيته إلا للقلّة القليلة التي أُتيحت لها فرصة الاقتراب من هذا الأثر القيّم.

تلا سنكلير نَصّ النبوءة بصوت عال رتيب بلهجة ذات أثر إسكتلندي. كان بيرنجيه يحفظ كلمات النبوءة غيباً، فقد تعلّمها عندما كان صبياً صغيراً يجلس على ركبتي جدّه. لم يكن يفهم معاني الكلمات في تلك السن المبكّرة، لكنّ المسألة كانت أشبه بمباراة في الاستظهار بينه وبين جده حين كان يمضي فصل الصيف هنا في أراضي العائلة الشاسعة في فرنسا.

توقّف عن المشي أمام شجرة العائلة المرسومة، من الأرض إلى السقف، على الحائط العريض في أقصى القاعة. إنها لوحة جدارية هائلة تصوّر تاريخ العائلة على مدى قرون وتعرض أسماء أجداد بيرنجيه بخطوط متموّجة.

كان هذا الفرع من عائلة سنكلير من أقدم عائلات أوروبا. وكانت العائلة تُعرف قديماً باسم سانت كلير، وقد أُخرجوا من أرض القارّة في القرن الثالث عشر

والتجأوا إلى إسكتلندا حيث حُوِّر الاسم لاحقاً إلى سنكلير. كان أسلاف بيرنجيه من أشهر الشخصيات في تاريخ بريطانيا، ومنهم ملك إنكلترا جيمس الأول وأمه الشهيرة ماري ملكة إسكتلندا.

تمكّنت عائلة سنكلير، بفضل نفوذ أفرادها وذكائهم، من اجتياز الحروب الأهلية والاضطرابات السياسية في إسكتلندا ولم يخسروا أياً من طرفي النزاع على العرش على مدى تاريخ البلاد المضطرب. كان جدّ بيرنجيه، أليستر سنكلير، من كبار رجال الصناعة في القرن العشرين، وقد أصبح واحداً من أغنى أغنياء أوروبا بعد تأسيسه شركة بترولية في بحر الشمال. وكان هذا البليونير من أشراف بريطانيا وعضواً في مجلس اللوردات. وكان يملك كل ما يتمنّاه أي إنسان، لكنّه ظلّ قلقاً وغير راضٍ يبحث عن شيء لم يستطع ماله أن يشتريه.

كان الجَدّ أليستر يفكّر دائماً بفرنسا، فاشتري قصراً ضخماً خارج قرية الآرك في جنوب غرب منطقة لانغدوك الوعرة المكتنفة بالأسرار. أسمى مسكنه الجديد شاتو دي بوم بلو، أي قصر التفاح الأزرق، لسبب خفّي لا يعرفه إلّا القلّة. كانت منطقة لانغدوك أرضاً جبليّة تلفّها الأسرار وتشيع فيها منذ مئات السنين، لا بل آلاف السنين، أساطير محليّة حول كنز مدفون وفرسان غامضين. تعلّق أليستر سنكلير بتراث لانغدوك الشعبي وازداد شغفاً به، فأخذ يشتري ما يستطيع شراءه من أراضٍ في المنطقة ويبحث جاداً عن الكنز الذي اعتقد أنه مدفون فيها. لم يكن الكنز الدفين الذي يسعى لاكتشافه ذهباً أو مالاً وهو ما يملكه بوفرة. بل كان شيئاً أكبر قيمة بالنسبة له ولعائلته وللعالم. أصبح، مع تقدّمه في العمر، يمكث قليلاً في إسكتلندا ولم يكن يرتاح إلا عندما يكون هنا في جبال لانغدوك الحمراء المقفرة. كان أليستر يصرّ على أن يرافقه حفيده في الصيف حتى تمكّن من غرس ولعه، لا بل هوَسه بهذه المنطقة الأسطورية في نفس بيرنجيه الصغير.

توقف بيرنجيه سنكلير، وهو اليوم في الأربعينيات من عمره، مرّة ثانية أثناء جولته في المكتبة الواسعة، وكانت هذه الوقفة أمام لوحة لجدّه. وأخذ يتأمّل قسمات وجهه البارزة وشعره الأجعد الداكن وعينيه الحادّتين، وكأنه ينظر إلى نفسه في المرآة.

"إنك تشبهه كثيراً، يا سيّدي. أنت تزداد شبهاً به يوماً بعد يوم، في كل شيء".

استدار سنكلير ليجيب خادمه الضخم رولان. وكان، على ضخامة جثته، رشيق الحركة فلا تدري متى يتسلّل داخلاً أو خارجاً.

سأله بيرنجيه مازحاً: "هل هذا شيء جيّد؟"

"طبعاً، فالسيد أليستر كان إنساناً عظيماً، وكان يحبّه جميع أهل البلدة، كما أحبّه أبي وأحببته أنا."

هزّ سنكلير رأسه مبتسماً. لا بد أن يقول رولان ذلك بالطبع. فهذا العملاق الفرنسي هو ابن منطقة لانغدوك، ووالده ابن عائلة عميقة الجذور في أرض المنطقة الأسطورية، وكان كبير خدم أليستر في القصر. ترعرع رولان في أرض القصر وفهمَ عائلة سنكلير وأهواءهم الغريبة. وعندما توفّي والد رولان فجأة حَلَّ هو محلّه مُشرفاً على شاتو دي بوم بلو، وكان واحداً من الأشخاص القلائل الذين يثق بهم بيرنجيه سنكلير.

نظر رولان إلى سنكلير وسأله بفضول: "عفواً يا سيّدي، كنتُ أعمل أنا وجان كلود خارج القاعة، فسمعناك تتلو كلمات النبوءة، فهل هناك مِن خَطْب ما؟"

مشى سنكلير نحو مكتب خشبيّ أحمر ضخم قرب حائط الغرفة البعيد، وأجاب: "لا، يا رولان. كل شيء على ما يُرام. وفي الواقع فإني أعتقد أن كل شيء سيكون أخيراً على خير ما يُرام."

أخذ عن الطاولة كتاباً مجلّداً وعرض غلافه على خادمه. كان كتاباً حديثاً، ظهر على غلافه المقوّى العنوان "قصّتها" والعنوان الفرعيّ" دفاع عن أبغض بطلات التاريخ".

نظر رولان إلى الكتاب مُتحيِّراً وعلّق قائلاً: "لم أفهم".

"اقلب الكتاب. انظر هنا. انظر إليها."

قلب رولان الكتاب، فظهرت على غلافه الخلفي صورة كُتب تحتها: "المؤلفة مورين باسكال".

كانت المؤلفة امرأة جذّابة، حمراء الشعر، في الثلاثين من عمرها، بدت في الصورة وهي تضع يديها على كرسيّ أمامها. مرَّر سنكلير يده على الغلاف وأشار إلى يد المؤلفة. كانت تلبس في يدها اليمنى الخاتم النحاسي القديم الذي حصلت عليه في القدس، وظهرت على طبعته صورة الكواكب، بالرغم مِن صِغَر الصورة.

رفع رولان عينيه الجاحظتين عن الكتاب وصاح: "يا الله!"

وقال سنكلير: "إنه بالفعل لا يكاد يُصدَّق!"

تنبّه الرجلان لسماعهما حركة عند باب القاعة. نظر جان كلود دو لاموت إلى رفيقيه، وهو إنسان مميَّز وجدير بالثقة وأحد المقرَّبين القلائل في شاتو دي بوم بلو، وسألهما: "ما الأمر؟"

أشار سنكلير لجان كلود بالدخول، ثم أجابه: "لا شيء بعد. لكن انظرْ، ما رأيك؟" وناوله رولان الكتاب ودلّه على الخاتم في يد المؤلفة في الصورة على الغلاف الخلفي.

أخرج جان كلود نظارتيه من جيبه، ثم تفحّص الصورة لحظات قبل أن يسأل في ما يشبه الهمس: "المُنتظَرة؟"

فقال سنكلير مُنفعِلاً: "أجلْ، يا صديقيَ، بعد كل هذه السنوات، أعتقد أننا وجدنا راعيتنا أخيراً."

... عرفتُ بطرس منذ بدايات ذكرياتي، فما زلت أذكر أن والده ووالدي كانا صديقين، وأنه كان صديقاً حميماً لأخي. كان المعبد في كفرناحوم قريباً من بيت عائلة سمعان بطرس، وكنا نتردّد إليه كثيراً في طفولتنا. أذكر أننا كنا نلعب هناك قرب الشاطئ. كنتُ أصغر من الصبيان، وغالباً ما كنت ألعب وحيدة، لكني لن أنسى صوت ضحكاتهم وهم يتصارعون.

كان بطرس دائماً أكثر رصانة من باقي الصبيان، أمّا أخوه أندراوس فكان أكثر مرَحاً منه. لكنّ الاثنين تميّزا بروح الدعابة في صغرهما. وقد فارقتْهما تلك الصفة كلّياً بعد رحيل عيسى وأصبحا لا يطيقان كلّ من يلجأ إلى الدعابة والمرح أحياناً ليُواجِه ظروف الحياة الصعبة.

كان بطرس يشبه أخي في تحمل المسؤوليات العائلية بجدّيّة، وقد حَوّل روح المسؤولية تلك لخدمة تعاليم الطريق. لم يكن يفوقه قوّةً وعزماً سوى المعلّمين ـ لذلك كان موضع ثقة شديدة. لكن بالرغم من كل ما علّمه إياه عيسى، فإن مُعاناته من صراعه الداخلي المرير مع طبيعته فاقت ما عاناه الآخرون. أعتقد أنه ضحّى أكثر من الآخرين لاتّباع الطريق لأنها، حسبما تعلّمناه، تطلّبَت منه الكثير وغيّرته تغييراً جذرياً. سوف يسيء الكثيرون فهم بطرس، وهناك مَن يُضمر له الضغينة، أما أنا فلست حاقدةً عليه.

لقد أحببته ووثقت به، حتى إنّني ائتمنته على ابني الأكبر.

إنجيل الأرك لمريم المجدلية

كتاب الرسل

الفصل الثالث

ماكلين، فرجينيا
آذار (مارس) 2005

تُعَدّ منطقة ماكلين في فرجينيا مكاناً متعدّد الصفات، تمتزج فيه أجواء السياسة بمميّزات ضواحي المدن امتزاجاً غريباً. هناك مسافة قصيرة من الطريق الدائري حول البلدة، مروراً بمقرّ وكالة الاستخبارات المركزية السي آي إي وصولاً إلى تايسونز كورنر، وهو من أكبر وأرقى مراكز التسوّق في أميركا. ولا تُعرف ماكلين، بالنسبة لمعظم الناس على الأقل بأنها متمسكة بالقيم الروحية والدينية.

لم تكن مورين باسكال تفكّر في أي أمر ديني وهي تقود سيارتها الفورد طوروس المستأجَرة عند مدخل فندق ماكلين ريتز ـ كارلتون، بل كانت تستعرض برنامجها لليوم التالي: النهوض باكراً لحضور اجتماع على الفطور مع اتّحاد الكاتبات في الولايات الشرقية، يتبعه لقاء وحفل لتوقيع الكتاب في محل أحد كبار باعة الكتب في تايسونز كورنر.

لذلك لن تكون مورين مشغولة بعد ظهر السبت. وهذا ما سرّها كثيراً لأنها ستتمكّن من استكشاف البلدة، كما تفعل عادة عند زيارة بلدة جديدة، حتى ولو كانت صغيرة أو ريفيّة، فَسِحْر المكان هو في كونه جديداً بالنسبة إليها. وكانت ماهرة في اكتشاف أهم ما يميّز أي مكان تزوره وما يجعله فريداً ويطبعه في ذاكرتها. وغداً سوف تعرف سِرّ ماكلين.

كان التسجيل في الفندق سريعاً وسهلاً، فناشر كتابها تولّى أمر الترتيبات، وما كان على مورين سوى التوقيع على الاستمارة وأخذ مفتاحها. أوصلها المصعد

إلى غرفتها الجميلة حيث بدأت فوراً، استجابة لحاجتها إلى الترتيب والتنظيم، بإفراغ حقيبتها وتفقُّد ثيابها للتأكد من أنها لم تتجعّد من طيّها في الحقيبة.

كانت مورين تحبّ الفنادق الفخمة. ومع أنها تعتبر أن جميع الناس يحبّونها، إلّا أنها كانت تتصرف، عندما تنزل في أحدها، مثل طفل صغير. كانت تفحص كل وسائل الراحة بإمعان، فَتُدقّق في محتويات الثلاجة الصغيرة، وتبحث عن البرنس الفاخر المعلق وراء باب الحمام وتتأكد مما إذا كان له غطاء للرأس، وتُسرّ لرؤية جهاز هاتف آخر في الحمام.

وكانت قد عاهدت نفسها على ألا تتعب يوماً من التنعُّم بهذه المتع الصغيرة. ولعلّها استفادت من خبرتها في الماضي حين كانت تحرص على التوفير وتناوُل المعجّنات وسندويشات زبدة الفول السوداني وغيرها من المأكولات العادية، لذلك صارت تقدّر الأشياء الفاخرة التي أصبحت متوافرة لها.

نظرت في أرجاء الغرفة الواسعة وأحست بنوع من غصّة الندم على نجاحها الأخير، لأنه لم يكن هناك من يشاركها فرحتها بإنجازاتها. فهي وحيدة، كما كانت دائماً، وربما ستظلّ دائماً وحيدة.

أبعدت عنها فوراً إحساسها بالرثاء لنفسها، وتحوّلت إلى أكثر ما يمكن أن يُلهيها ويُبعد عنها تلك الأفكار المزعجة. كان أحد أهم مراكز التسوّق في أميركا قرب بابها، فتناولت حقيبة يدها وتحقّقت من وجود بطاقات الائتمان فيها، وخرجت في مغامرة مع إغراءات التسوق في تايسونز كورنر.

❀

أقام اتّحاد الكاتبات في الولايات الشرقية لقاء الفطور في قاعة الاجتماعات بفندق ماكلين ريتز ـ كارلتون. كانت مورين ترتدي ما ترتديه عادةً في اللقاءات العامة، أي ثوباً تقليدياً راقي التصميم وحذاءً عالي الكعب، وقد تعطرت قليلاً بعطر شانيل رقم 5. وعندما وصلت إلى القاعة في تمام التاسعة، لم ترغب في تناوُل أي شيء من الطعام، بل طلبت الشاي الإيرلندي. فهي لم تحبّذ أبداً الأكل قبل جلسات الأسئلة، لأنه يسبّب لها الاضطراب.

لم تكن مورين في ذلك الصباح متوتّرة كالعادة، لأن مديرة الجلسة كانت نصيرةً لها. إنها امرأة رائعة تُدعى جينًا روزنبرغ، وقد كانت على اتصال بها طوال

عدة أسابيع تحضيراً لِلّقاء. وأهم شيء هو أن جينا كانت معجبة بأعمال مورين وتمكّنت أن تستشهد بكثير من أقوالها، وهذا ما زاد إعجاب مورين بها. بالإضافة إلى ذلك، كان جَوّ اللقاء حميماً، إذ جلسَت الحاضرات إلى طاولات صغيرة متقاربة، فلم تحتج مورين إلى ميكروفون.

بدأت جينا الأسئلة بنفسها، فطرحت سؤالاً متوقّعاً، لكنه هامّ: "ماذا دفعك لكتابة هذا الكتاب؟"

وضعت مورين فنجان الشاي من يدها وأجابت:

"قرأتُ مرَّةً أن النصوص التاريخية البريطانية الأولى قد ترجمها طائفة من الرهبان لا يؤمنون بأن للنساء أرواحاً. كانوا يرون أن مصدر كل الشرور هو المرأة. هؤلاء الرهبان كانوا أوّل من حَوّر أساطير الملك آرثر والمعتقدات حول كاملوت. وهكذا أصبحت غوينفر زانية ماكرة بدلاً من ملكة محارِبة جبّارة. وأضحت مورغان، شقيقة آرثر، شريرة أغوته ودفعته إلى ارتكاب سِفاح القربى بدلاً من كونها قائدة روحية لأمّة بأكملها، كما كانت فعلاً في نسخ الأسطورة السابقة.

"لقد صدمني ذلك الفهم ودفعني للتساؤل: هل صُوِّرت نساء أخريات في التاريخ بمثل هذا الانحياز؟ لا شك بأن هذا المنظور يمتدّ عبر التاريخ كله. ثم بدأتُ أفكّر في النساء العديدات اللواتي يُمكن أن يكنَّ وقعن ضحية مثل هذا التحامل، وانطلق بحثي من هناك."

أتاحت جينا فرصة طرح الأسئلة للجميع، فدار النقاش حول الأدب النسائي ومسائل المساواة في عالم النشر، ثم جاء سؤال من امرأة شابّة تضع صليباً ذهبيّاً صغيراً فوق قميصها:

"بالنسبة لنا، نحن الذين نشأنا في بيئات تقليدية، كان الفصل حول مريم المجدلية غريباً جداً. لقد صوّرت لنا امرأة مختلفة تماماً عن الفاجرة التائبة والمرأة الساقطة. لكني لست متأكدة من أنني أستطيع تقبّل ذلك."

هزّت مورين رأسها دلالةً على فهم موقف صاحبة السؤال، ثم راحت تجيبها:" حتّى الفاتيكان سلّم بأن مريم المجدلية لم تكن فاجرة وأنه يجب أن نتوقف عن تلقين تلك الكذبة بالذات في ساعات التعليم الديني للصغار يوم الأحد. لقد مضى أكثر من ثلاثين عاماً على إعلان الفاتيكان أن مريم لم تكن امرأة

ساقطة كما صوّرها إنجيل لوقا وأنّ البابا غريغوريوس الكبير قد اختلق تلك القصة خدمةً لأغراضه الخاصة في العصور المُظلمة. لكن يصعب محو الفي عام من الرأي العام. ولم يكن لاعتراف الفاتيكان بالخطأ في ستينيّات القرن العشرين أيّ أثر يُذكر وكأنه مجرَّد إعلان تراجُع موضوع في الصفحة الأخيرة من صحيفة ما. وهكذا أصبحت مريم المجدلية عرّابة النساء اللواتي أُسيءَ فَهمهنّ وأوّل امرأة مهمّة حَوّرَ حقيقتَها بالكامل مدوّنو التاريخ وافتروا عليها عمداً. كانت من أتباع المسيح المقرّبين وتلميذاً مثل تلاميذه الآخرين، ومع ذلك فقد أُقصِيت إقصاءً شبه كلّيّ من الأناجيل".

قالت جينا متعجّبة، وقد أثارها الموضوع: "لكنّ هناك أقاويل كثيرة، في أيامنا هذه، عن مريم المجدلية، مثل الاعتقاد بأنها كانت على علاقة حميمة بالمسيح!"

أظهرَت الامرأة التي كانت تضع الصليب فوق قميصها الامتعاض، لكن جينا تابعت كلامها: "لم تعالجي أياً من هذه الأمور في كتابك، وإني أودّ أن أعرف رأيك بهذه النظريات!"

"لم أعالج الأمر لأني أعتقد أن هذه الادعاءات لا تستند إلى أدلّة، فهي مجرّد آراء شخصية مثيرة، لكن من غير إثباتات، وهذا ما يقول به كافة علماء اللاهوت، ولا يمكنني، كصحفيّة تحترم نفسها، أن أؤيد مثل هذه الأقاويل وأنشرها كأنّها وقائع. غير أن جُلّ ما أستطيع قوله حول هذه المسألة هو أنّ ثَمّة وثائق صحيحة تُلمّح إلى علاقة حميمة محتمَلة بين يسوع ومريم المجدلية. فقد ورد في إنجيل اكتشف في مصر عام 1945 أنّ "رفيق المخلّص هو مريم المجدلية. لقد أحبّها أكثر من كل تلاميذه، وكثيراً ما كان يقبّلها على فمها".

"مثل هذه الأناجيل، كانت بالطبع موضع اعتراض السلطات الكَنَسيّة، ويُحتمل أن تكون نسخة القرن الأول من صحف الإثارة الشعبية المنتشرة اليوم مثل ناشونال إنكوايرر. وأظن أنه يجب تناول الموضوع بحذر. لذلك لم أكتب إلا ما كنت متأكّدة منه. وإني على يقين أن مريم المجدلية لم تكن فاجرة وأنها كانت من أهم أتباع يسوع، لا بل الأهم لأنها أول إنسان منحه الرب نعمة رؤيته بعد القيامة. ولست على استعداد لأن أتخطّى ذلك إلى إيراد المزاعم حول دورها في حياته، لأنني لا أتحمل مسؤولية تلك الأقاويل."

أجابت مورين عن الأسئلة بحذر وثقة، كما تفعل دائماً. لكن، لطالما تساءلت:

هل كان سقوط منزلة المجدلية بسبب قربها من المعلّم مِمّا أثار حسد التلاميذ الذكور فحاولوا لاحقاً تشويه سمعتها؟ فالقديس بطرس، استناداً إلى مستندات القرن الثاني المُكتشَفة في مصر، كان يزدري مريم المجدلية صراحةً ويعنّفها. أما كتابات القديس بولس اللاحقة، فقد بدا أنّها تتجنّب، بشكل منهجيّ، أي ذِكْر لدور النساء في حياة المسيح.

ونتيجةً لذلك، استغرقت مورين وقتاً طويلاً في الأبحاث سعياً لدحض تعاليم بولس، فهذا الذي كان يضطهد المسيحيين ثم أصبح أحد الرسل، وجّهَ الفكر المسيحيّ بآرائه بالرغم من بُعده الفلسفي والفعلي عن يسوع وأتباع المخلّص المختارين وعائلته، ولم يكن على معرفة مباشرة بتعاليم المسيح. فمن غير المعقول أن يقوم "رسول" كاره للنساء ومناور سياسيّ، مثل بولس، بتخليد ذكر مريم المجدلية كخادم مُخلص للمسيح.

كانت مورين مصمّمة على الثأر لمريم معتبرةً إياها النموذج الأساسي للمرأة المضطهَدة في التاريخ وأولى اللواتي أُسيء فهمهنّ. لقد تكررت قصتها، في الجوهر على الأقل لا في الشكل، مع نساء أخريات اختارتهنّ مورين لتدافع عنهنّ في كتابها "قصتها". لكنْ كان من الضروري أن تجعل الفصول المتعلقة بالمجدلية أشبه بنظريات أكاديمية يمكن إثباتها بالدليل. فأي تلميح إلى "عصر جديد" أو أي فرضيّة أخرى غير مُثبتَة حول علاقة مريم بيسوع يمكن أن تُضعف بقيّة البحث وتشكّك بمصداقِيتها. كانت شديدة الحذر في حياتها وفي عملها، فلم تغامر بالإقدام على مثل ذلك الأمر، فبالرغم من حدْسها وبديهتها رفضت معظم النظريات السائدة حول مريم المجدلية ولم تختر منها إلا ما هو ثابت بوقائع لا تُدحض.

بعد فترة وجيزة من اتخاذها ذلك القرار، بدأت الأحلام تعاودها بشكل متواتر.

بدأت يد مورين اليمنى تتشنّج وكاد وجهها يتشقّق من ابتسامتها المتواصلة، لكنها تابعت عملها. كان الوقت المخصَّص لها ساعتين، من ضمنها فترة استراحة لمدة عشرين دقيقة. وها هي تكاد تُنهي الساعة الثالثة من دون توقّف، غير أنها عازمة على الاستمرار في توقيع الكتب حتى آخر زبون، لأنها لا تصدّ أي قارئ مُحتمَل، وهي تحترم قرّاءها الذين اشتروا كتابها وحوّلوا حلمها إلى حقيقة.

لقد سَرّها أنها رأت، في ذلك اليوم، عدداً كبيراً من الرجال بين الجمهور. كان موضوع كتابها يجذب عادة جمهوراً تغلب عليه النساء، لكنها أملت أن تكون قد كتبته بأسلوب يروق لكل إنسان ذي عقل منفتِح ومنطق سليم. ومع أن هدفها الأول كان الانتقام للأذى الذي تعرضت له نساء عظيمات هن ضحايا المؤرخين الذكور، فإن بحثها أظهرَ أن الدافع لتدوين التاريخ بهذا الشكل الانتقائي هو، بالدرجة الأولى، سياسي وديني. أما الجنس، من حيث الذكورة والأنوثة، فهو عامل ثانوي.

كانت قد أوضحت هذه النقطة في مقابلة تلفزيونية، حيث استشهدت بماري أنطوانيت كأوضح نموذج لتلك النظرية الاجتماعية - السياسية لأن "الروايات السائدة عن الثورة الفرنسية إنما كتبها الثوريّون". ومع أن تلك الملكة المحاصَرة اعتُبرت مسؤولة عن تجاوزات الملكية الفرنسية، فهي لم تبدأ تلك العادات إطلاقاً. فماري أنطوانيت، في الواقع، ورثت ممارسات الطبقة الأرستقراطية الفرنسية عندما جاءت من النمسا كخطيبة للابن الأكبر للملك، الذي أصبح فيما بعد الملك لويس السادس عشر. صحيح أنها كانت ابنة إمبراطورة النمسا العظيمة ماريا تيريزا، لكن تلك الإمبراطورة لم تُسرف في الانغماس بأسباب الترف، بل كانت قاسية ومُقتصدة بالنسبة لامرأة في مركزها، وقد ربّت بناتها العديدات، ومنهن ماري أنطوانيت، تربية صارمة. فلا بد أن تكون الأميرة النمساوية الشابة قد أُكرهت على التكيّف مع التقاليد الفرنسية بسرعة حباً بالبقاء فحسب.

والواقع أن قصر فرساي، رمز التبذير والغلوّ في فرنسا، قد شُيِّد قبل ولادة ماري أنطوانيت بعدة قرون، لكنه أصبح الصرح الذي يجسّد جشعها الأسطوري. وذلك الجواب الشهير رداً على القول "الفلاحون جائعون، ليس لديهم خبز يأكلونه" كانت قد قالته محظيّة من مَحظيّات البلاط عاشت وماتت قبل زمن طويل من وصول الأميرة النمساوية الشابة إلى فرنسا. ومع ذلك فإن القول "فليأكلوا البسكويت" لا يزال يُذكر، حتى يومنا هذا، على كل شفة ولسان كحافز على الثورة. واستناداً إلى هذا القول البسيط تم تبرير فظائع عهد الإرهاب وما تلا سقوط الباستيل من إراقة دماء وعُنف.

كل هذا، وماري أنطوانيت المشؤومة لم تنطق بهذه الجملة اللعينة.

كانت مورين شديدة التعاطُف مع ملكة فرنسا سيئة الحظ. قوبلت ماري أنطوانيت بالكراهية، منذ يوم وصولها، وكانت ضحية للتمييز العنصري البغيض. فأكثر ما يناسب نبلاء القرن الثامن عشر الفرنسيين المتعالين عرقياً أن ينسبوا كل

الظروف السياسية والاجتماعية السلبية إلى ملكتهم ذات الأصل النمساوي. وهالَ مورين ما لاحظته من التمسّك بهذا الموقف، عندما زارت فرنسا أثناء إعداد بحثها. فجميع المرشِدين السياحيين المتكلمين باللغة الإنكليزية في قصر فرساي كان كلامهم يقطر حقداً بالغاً، متجاهلين الأدلّة التاريخية التي برّأت ماري أنطوانيت من العديد من الأفعال التي قيل سابقاً أنها ارتكبتها. كل ذلك بالرغم من أن هذه المرأة المسكينة قد شُوِّهت بوحشيّة منذ مئتي سنة.

شكّلت زيارة مورين الأولى لقصر فرساي حافزاً لها لمتابعة بحثها. وكانت قد قرأت كتباً عديدة مِن أبحاث أكاديمية عن فرنسا في القرن الثامن عشر، وروايات تاريخية مطوّلة احتوت نظرات حول الملكة. وكانت الصورة الإجمالية المُستقاة منها مختلفة بعض الاختلاف عن الصورة المشوَّهة الشائعة: امرأة سطحية منغمسة في الملذات ومحدودة الذكاء. وقد رفضت مورين تلك الصورة. وماذا عن ماري أنطوانيت الأم؟ تلك المرأة الحزينة التي ثَكِلت طفلها ثم فقدت ابناً. وماري أنطوانيت الزوجة: فتاة أشبه بسلعة تمّت مقايضتها لأغراض سياسية، وفي الرابعة عشرة زُوِّجت رجلاً غريباً في أرض غريبة، ثم نبذتها عائلته ورعيّته. وأخيراً هناك ماري أنطوانيت كبش المحرقة: امرأة انتظرت في الأسر بينما كان الناس الذين أحبتهم يُذبحون باسمها. مِن هؤلاء الأميرة لامبال التي قطّعها الجمهور الغاضب إرباً ووضعوا أشلاء من جسدها وأطرافها على الرماح ومرّوا بها قبالة نافذة زنزانة ماري أنطوانيت.

عزمت مورين على رسم صورة متعاطفة، إنّما واقعية، بكل معنى الكلمة، عن إحدى أكثر الملكات المبغَضات. وجاءت النتيجة فعّالة وتمثّلت في قسم من كتاب "قصتها" كان محطّ انتباه ومَثاراً للجدل.

لكنّ ماري أنطوانيت، مع كل هذا الجدل حولها، احتلّت المرتبة الثانية، بعد مريم المجدلية، من حيث الأهمية.

كانت مورين تناقش، مع امرأة شقراء بادية الحيوية تقف أمامها، موضوع قوّة مريم المجدلية التي تفوق الطبيعة.

سألتها المرأة فجأةً: "هل تعلمين أن ماكلين تُعتبر مكاناً مقدّساً بالنسبة لأتباع مريم المجدلية؟"

فتحت مورين فاها لتتكلم ثم أطبقته قبل أن تتمكن من أن تتمتم: "كلا، لا أعرف

شيئاً عن هذا الأمر!" وها هي ذي تُحسّ بتلك الذبذبات الكهربائية تسري في جسدها كلّما لاح في الأفق شيء غريب. إنه يقترب منها، حتى هنا تحت الأنوار الساطعة في وسط مركز تجاري كبير في أميركا. استعادت مورين رباطة جأشها بعدما أخذت نفساً عميقاً، وقالت: "لكنْ، ما هي العلاقة بين ماكلين فرجينيا ومريم المجدلية؟"

ناولتها السيدة بطاقة تعريف وقالت: "لست أدري ما إذا كان لديك متّسع من الوقت خلال وجودك في البلدة، لكني أتمنى أن تأتي لرؤيتي." وقد كُتب على البطاقة: مكتبة النور المقدّس لصاحبتها ريتشل مارتل.

أضافت المرأة، التي افترضت مورين أنها ريتشل نفسها: "المكان لا يُقارن بهذا طبعاً"، مشيرةً إلى المكتبة الضخمة حيث كانتا، وأكملت كلامها. "لكني أعتقد أن لدينا بعض الكتب التي قد تجدينها مشوّقة، وهي من تأليف ونشر بعض السكان المحليين، وتدور حول مريم، مريمنا."

كانت مورين تغصّ ثانية، وتأكّدت من أن المرأة هي ريتشل مارتل فعلاً، وسألت عن كيفيّة الوصول إلى مكتبة النور المقدس.

سمعت مورين، عن يسارها ـ سعالاً متقطّعاً. نظرت فإذا بمدير المكتبة يومئ إليها للفت نظرها إلى ضرورة إفساح المجال أمام الزبائن الآخرين المنتظِرين. رمقَته مورين بنظرة، ثم عادت إلى ريتشل:

"هل ستكونين هناك بعد ظهر هذا اليوم؟ لن يتسنّى لي وقت آخر."

"سوف أكون هناك حتماً. والمسافة تبعد بضعة أميال فقط من الطريق العام، فبلدتنا صغيرة. لن تجدي صعوبة في الوصول إلى هناك. اتّصلي بي قبل ذهابك إذا احتجت للاستعلام عن طريقة الوصول. شكراً لك على توقيع الكتاب، أرجو أن أراك لاحقاً."

بعد أن راقبت مورين المرأة تبتعد عن الطاولة، نظرت إلى مدير المكتبة وخاطبته بلطف: "أعتقد أنني بحاجة لاستراحة بعد كل هذا العناء."

باريس (الدائرة الأولى)
كهف الفرسان
آذار (مارس) 2005

عُرف الدور الأسفل الحجري المقفَل في المبنى المهجور، منذ عهد قديم، باسم كهف

الفرسان. وقد اكتسب أهمّيته الاستراتيجية من قربه من اللوفر حين كان مبنى هذا المتحف الشهير مسكن ملوك فرنسا، وما زال في العصر الحديث بالأهمية نفسها. وسُمّي هذا المكان البعيد عن الأنظار نسبةً إلى أولئك الرجال الذين أطلق شهرتهم ألكسندر دوما في روايته الشهيرة. استوحى دوما شخصيات هؤلاء المقاتلين المغامرين من أشخاص واقعيين عاشوا في عصره لخدمة أهداف حقيقية. كانت هذه الغرفة أحد الأمكنة السرية لاجتماع حراس الملكة بعدما ألجأهم الكردينال الحقير ريشيليو إلى العمل السرّيّ. والحقيقة أن الفرسان لم يُقسموا على حماية ملك فرنسا لويس الثالث عشر، إنما حماية الملكة. وكانت الملكة آن سليلة عائلة ملكية نمساوية أعرق من سلالة زوجها.

لا شك بأن عظام دوما كانت سترتعد غيظاً في قبره لو علم أن هذا المكان المقدّس سابقاً قد وقع في أيدي الأعداء. كان الكهف، في تلك الليلة، موضعاً للقاء منظّمة سرية أخرى هي سابقة للفرسان بحوالى ألف وخمس مئة سنة، وهدفها مناقض لهدفهم، وقد أقسم أعضاؤها بدمائهم على ذاك.

أنارت المكان دزينتا شموع، فتراقصت على الجدران أشباح سوداء هي ظلال مجموعة الرجال بأرديتهم الواسعة. وقفوا حول طاولة مستطيلة قديمة، ووجوههم كأنها مسبوكة من تفاعل الظلمة والنور. ومع أن ملامحهم كانت غير واضحة في ذلك النور الخافت، فقد كان رمز طائفتهم واضحاً على كل منهم، وهو حبل أحمر قانٍ مربوط بإحكام حول العنق.

أظهرت الأصوات الخافتة تنوّعاً في اللهجات: الإنكليزية والفرنسية والإيطالية والأميركية. صمت الجميع عندما أخذ رئيسهم مكانه عند رأس الطاولة. وكان يوجد أمامه، في طبق مُزركش بالذهب، جمجمة بشرية صقيلة تتوهج على ضوء الشموع، وعلى أحد جانبي الجمجمة كأس ككأس القربان مزيّنة بأشكال حلزونية ذهبية وملبَّسة بجواهر تماثل تلك الموجودة على الطبق. أما على جانب الجمجمة الآخر، فقد كان على الطاولة صليب خشبي يدويّ الصنع وُضع مقلوباً بحيث تواجه صورة المسيح صفحة الطاولة.

لمس الرئيس الجمجمة بكل وقار، ورفع الكأس المملوءة بسائل شديد الحمرة، ثمّ تكلّم بالإنجليزيّة بلهجة أكسفورد:

"دم معلّم الحَقّ".

شرب على مهل، ومرّر الكأس للأخ الذي على يساره. أخذ الرجل الكأس هازاً رأسه ثم نطق بالجملة نفسها بلغته الفرنسية وشرب بدوره. وهكذا، كرّر أعضاء الطائفة هذا الطقس، كلٌّ متكلّماً بلغته الأم، إلى أن عادت الكأس إلى رأس الطاولة.

وضع الرئيس الكأس أمامه برفق. ثم رفع الطبق وقبّل الجمجمة باحترام على عظمة الجبين. وكما فعل بالكأس، مَرَّر الجمجمة ناحية اليسار، وراح كل عضو في المنظمة يقبّلها بدوره. تَمّ هذا الجزء من الشعائر في صمت مطبق وكأنه في غاية القداسة فلا يحتمل الكلام.

أكملَت الجمجمة دورتها على المتعبّدين كاملة، وعادت إلى الرئيس. رفع الرئيس الطبق عالياً ثم أعاده إلى الطاولة بحركة ظاهرة وهو يقول: "الأوّل، الوحيد."

صمت الرئيس برهة، ثم التقط الصليب الخشبي. قلبَه لتصبح صورة المصلوب مواجهة له، ورفعه إلى مستوى عينيه، وبصق على الصليب.

... كثيراً ما تأتي سارة ـ تامار وتقرأ ذكرياتي وأنا أكتب. وقد نبّهتني إلى أنني لم أشرح بعد موضوع بطرس وما يُحكى عن إنكاره.

هناك من حكموا عليه بشدّة وأسموه بطرس الناكر، لكنّهم في ذلك غير مُنصفين. وما لا يعرفه هؤلاء الذين يُصدرون الأحكام هو أن بطرس لم يقم إلاّ بتنفيذ رغبات عيسى. وعلمتُ أن بعض الأتباع الآن يقولون إن بطرس حقّق نبوءة عيسى عندما قال لبطرس "سوف تنكرني" وأجابه بطرس "لا أنكرك".

هذه هي الحقيقة، فقد أمر عيسى بطرس بإنكاره. لم تكن نبوءةً وإنما أمْر. كان عيسى يعلم أنه إذا ساءت الظروف سيكون بحاجة لبقاء بطرس سالماً أكثر من سائر تلاميذه الثقات. فثبات بطرس وعزمه كفيلان بنشر التعاليم في أرجاء الأرض كما كان عيسى يحلم دائماً. لذلك قال له عيسى: "سوف تنكرني"، لكن بطرس قال وهو في حالة قلق: "كلا، لا أستطيع ذلك".

لكن عيسى تابَعَ: "عليك أن تنكرني حتى تظلّ سالماً، فتستمرّ تعاليم الطريق".

هذه هي حقيقة "إنكار" بطرس. وهو لم يكن إنكاراً البتّة بما أنّه نفّذ أوامر معلّمه. وأنا واثقة من ذلك لأني كنت موجودة وشهدت ما حدث.

إنجيل الآرك لمريم المجدلية

كتاب الرسل

الفصل الرابع

ماكلين، فرجينيا
آذار (مارس) 2005

كانت نبضات قلب مورين تدقّ بسرعة فائقة وهي تقود السيارة على طريق ماكلين الرئيسية. فقد أثارت تلك الدعوة المفاجئة من ريتشل استغرابها وحماسها في آن واحد. وكان الحال كذلك على الدوام، فحياتها سلسلة متصلة من الأحداث الغريبة والمصادفات العجيبة التي تترك بصماتها على حياتها. فهل هي الآن بصدد حدث آخر من تلك الأحداث الخارقة؟ إنها في غاية الفضول بشكل خاص إزاء أي رؤيا أو إيحاء قد يمتّ بصلة إلى مريم. ولم يكن ذلك مجرّد فضول عاديّ بل تعدّاه إلى درجة من الهَوَس الذي يسكن المرء ويستبدّ به.

لقد غدا ارتباطها بأسطورة مريم المجدلية قوّة مهيمنة على حياتها منذ بداية أبحاثها لتأليف كتابها "قصتها". فمنذ تلك الرؤيا الأولى في القدس أصبح لديها إحساس راسخ بمريم المجدلية بوصفها امرأة من لحم ودم وكأنها صديقة لها. وعندما كانت تُعدّ النسخة النهائية لكتابها، شعرت أنها تدافع عن صديقة أساءت إليها الصحافة. لقد كانت علاقتها بمريم حقيقيّة جداً. أو لعلها علاقة حقيقة بشكل استثنائي.

كانت مكتبة النور المقدّس صغيرة المساحة، مع أن لها واجهة كبيرة بارزة عُرضت فيها جميع أنواع الملائكة وأشكالها. وكانت الكتب معروضة بين صور الملائكة وتماثيلها وأعمال فنية من البلور. وكانت ريتشل، بنظر مورين، ملائكية المظهر: فهي ممتلئة الجسم، ذات ضفائر شعر شقراء تحيط بوجه جميل. حتى إنّها، في حفل توقيع الكتاب قبل الظهر، كانت ترتدي زياً من قطعتين مصنوعاً من قماش رقيق كالشاش، أشبه بما نراه في صور الملائكة.

أعلن وقع الأجراس الصغيرة المعلقة على الباب قدوم مورين، التي دخلت ووجدت نفسها محاطة بصورة مكبّرة عما رأته في الواجهة. كانت ريتشل مارتل وراء خزانة عرض تبحث عن حلية طلبتها إحدى الزبائن، وهي شابة في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة. ثم سألتها: "هذه؟"

مدّت الفتاة يدها لتفحّص ذلك الحجر البلوري الأرجواني المُحاط بالفضّة، وقالت: "أجلْ، هذه، هل هي من الجَمَشْت؟"

صحّحت ريتشل معلوماتها قائلةً: "لا، بل هي من الأمِتْرين. وتنبهّت إلى أنّ مورين هي مَن دخل قبل لحظات فنظرت إليها مبتسمةً، وأكملت حديثها مع الزبونة: "الأمترين هو نوع خاص من الجَمَشْت، ويحتوي بداخله قطعة من السترين الأصفر الشفّاف. إذا رفعتِها في النور يمكنك رؤية وسطها الذهبي الرائع!"

رفعت الفتاة اليافعة البلورة عالياً، ونظرت إليها في النور بعينين نصف مغمضتين، وهتفت: "إنها في غاية الروعة، إنما قيل لي إني بحاجة إلى الجمشت. فهل تنفع هذه؟"

ردّت ريتشل من دون تذمُّر: "إنها أكثر فائدة. فالمعروف أن الجمشت يوسع آفاق طبيعتك الروحية، والسترين ملائم لموازنة العواطف في الجسد، وجمعُهما معاً أمر عظيم. أما إذا أردت الجمشت الصرف، فطلبك موجود."

لم تكن مورين تصغي إلى الحديث باهتمام، فغايتها الأساسية هي الكتب التي أخبرتها عنها ريتشل. وكانت الكتب موزعة على الرفوف بحسب الموضوعات، فنظرت مورين إليها نظرة خاطفة. رأت مجلدات عن سكان أميركا الأصليّين، وقسماً عن الدراسات السلتيّة التي يمكن أن تطّلع عليها في يوم آخر، ومساحة كبيرة خاصة بالملائكة.

وكان يوجد في الناحية اليمنى، إلى جانب الملائكة، كتب عن الفكر المسيحي. فأيقنت مورين أنها تقترب من هدفها. تابعت بحثها إلى أن توقفت فجأة عندما رأت كتاباً أبيض كبيراً كُتب عليه بحروف سوداء بارزة: المجدلية.

"أرى أنك وجدت كل شيء من دون مساعدتي."

قفزت مورين كالمذعورة لأنها لم تتنبّه لوصول ريتشل وراءها. وكانت الزبونة الشابة، في هذه الأثناء، تهزّ أجراس الباب وهي خارجة من المحلّ وفي يدها كيس صغير، أبيض وأزرق، وبداخله حليتها الصغيرة.

"هذا هو أحد الكتب التي حدّثتك عنها. أمّا البقيّة فهي كتيّبات صغيرة. انظري، عليك أن تري هذا."

سحبت ريتشل عن الرفّ كتيّباً رقيقاً أشبه بكرّاسة من بضع ورقات. كان زهريّ اللون، ويبدو أنه طُبع وسُحب على كمبيوتر شخصي كما يُنبئ نوع الحرف الذي كتب به العنوان: "مريم في ماكلين".

سارعت مورين بالسؤال: "أي مريم؟"، لأنها أثناء تأليف كتابها، تتبّعت عدّة إشارات هامة عن "مريم" لتكتشف لاحقاً أن المقصود مريم العذراء وليس مريم المجدلية.

أجابتها ريتشل بابتسامة العارف: "مريمُكِ!"

قابلتها مورين بابتسامة رضا لأنها لامسَت خَطّ تفكيرها.

"لا حاجة للتحديد، لأن المؤلف من ماكلين، والناس المؤمنون في ماكلين يعلمون أنها مريم المجدلية. وكما أخبرتك سابقاً: إن لها أتباعاً هنا!"

أخذت ريتشل تشرح كيف أن السكان المحليين في هذه البلدة الصغيرة في فرجينيا يُخبرون، جيلاً بعد جيل، عن رؤًى روحية. "لقد ظهر يسوع هنا في القرن المنصرم ما يزيد على مئة مرة، كلّها مذكورة في وثائق مدوّنة. والغريب أنه يُرى غالباً واقفاً بجانب الطريق، الطريق العام الذي سلكته للوصول إلى هنا. وفي بعض الرؤى، كانوا يشاهدونه، من الطريق العام، على الصليب. وقد شوهد أحياناً في بعض الرؤى يمشي برفقة امرأة، وُصفت مراراً بأنها ذات جسم نحيل وشعر طويل."

قلّبت ريتشل صفحات الكتيّب متوقّفة عند عناوين فصوله، وقالت: "أولى هذه الرؤى المدوَّنة كانت في مطلع القرن العشرين مع امرأة تُدعى غويندولين مادوكس، في حديقة منزلها الخلفية. وأكّدت على أن الامرأة التي شاهدتها مع المسيح كانت مريم المجدلية. أمّا كاهن رعيّتها فقد أصرّ أن التي ظهرت مع المسيح في الرؤيا هي مريم العذراء، لأن رأي الفاتيكان هو أقرب إلى تصديق ظهور العذراء بدلاً من المجدلية. لكنّ غويندولين، أو غوين، العجوز ظلت ثابتة على اقتناعها بأنها مريم المجدلية، مع عدم تمكّنها من تفسير سبب ذلك، كما آمنت بأن الرؤيا شَفَتْها شفاءً تاماً من التهاب المفاصل الحادّ. فأقامت هيكلاً هناك وجعلت الحديقة مزاراً. ولا يزال سكان ماكلين، حتى يومنا هذا، يصلّون لمريم المجدلية طالبين الشفاء.

"ومن غريب الأمور، أنّه لم يُصب أحد من سلالة غوين بداء التهاب المفاصل، علماً بأنه مرض وراثي. وإني أحمد الله على ذلك كما حمدته أمي وجدّتي، فغويندولين هي جدة جدّتي."

نظرت مورين إلى الكتيّب في يد ريتشل، ولم تكن قد لاحظت ما كان مدوّناً على أسفل غلافه: تأليف ريتشل مادوكس مارتل.

ناولتها ريتشل الكتيّب قائلةً" "تفضّلي. إنه هدية لك. فيه قصّة غوين وتفاصيل أخرى عن الرؤيا". ثم أشارت إلى الكتاب الأبيض الكبير بعنوان "المجدلية"، وقالت: "أمّا هذا الكتاب فقد كتبَته أيضاً امرأة من ماكلين. أمضت المؤلفة ردحاً من الزمن تتحقّق من ظهورات مريم في البلدة، وأجرت دراسات عامة مكثّفة، فتمكنّت من تضمين كتابها كافة النظريات والآراء حول المجدلية، حتى إني شخصياً وجدت بعضها غريباً جداً. والكتاب مُمتع للغاية ولن تجديه إلّا هنا لأنه لم يُوزَّع."

قالت مورين وهي مذهولة مشتّتة الأفكار: "سآخذه بالطبع. لكن، لماذا برأيك ماكلين بالذات؟ أعني: لماذا تأتي إلى هنا من بين كل الأماكن في أميركا؟"

ابتسمت ريتشل وهزّت كتفيها وهي تجيبها: "لست أدري. ربما حدث ذلك في أماكن أخرى في أميركا من دون الإعلان عنه، أو ربما يكون هناك شيء خاصّ بهذا المكان. لكن ما أعرفه يقيناً هو أن كلّ مَن لديه اهتمام روحي بحياة مريم المجدلية لا بد أن يجد نفسه يوماً في ماكلين. لقد أتى إلى هذه المكتبة بالذات أناس كثيرون يبحثون عن كتب حول المجدلية من دون معرفة مسبقة حول علاقتها بالبلدة. فهل يمكن أن يحدث ذلك مصادفة؟ لا. أعتقد أن مريم تقود محبّيها المخلصين إلى ماكلين."

أطرقت مورين لحظات قبل أن تجيب على مهَل وكأنها تقلّب الفكرة في رأسها: "اسمعي... عندما أعددت ترتيبات السفر، نويت الإقامة في واشنطن العاصمة. فهي قريبة من المطار، وإحدى صديقاتي تقيم هناك، والمسافة بالسيارة إلى ماكلين قصيرة. لكنّي، في اللحظة الأخيرة، غيّرت رأيي وقرّرت الإقامة هنا."

كانت ريتشل تبتسم ابتسامة عريضة وهي تصغي لمورين تشرح كيف بدّلت خطط سفرها، ثمّ قالت: "إذاً، لقد جاءت بك مريم إلى هنا. عديني فقط أنك، إذا رأيتها وأنت تتنقّلين في ماكلين ستتّصلين بي وتخبريني بالأمر"

سألتها مورين بإلحاح: "هل رأيتها أنت؟"

نقرت ريتشل بأطراف أصابعها على الكتيّب في يد مورين وقالت بلهجة الواثق: "نعم. وهذا في الواقع شرح لكيفيّة توارُث الرؤى في عائلتي. كنت صغيرة السنّ في المرة الأولى، في الرابعة أو الخامسة من عمري. كنت قرب الهيكل في حديقة بيت جدّتي وكانت مريم وحيدة في ذلك اليوم. في المرة الثانية، كنت في سن المراهقة، ورأيت مريم مع المسيح بجانب الطريق. كُنّا في سيارة المدرسة مع البنات عائدات، مساءَ الجمعة، من مباراة رياضية، كانت أختي الكبرى، جوديث، أو جود، تقود السيارة. لدى وصولنا إلى أحد المنعَطفات، شاهدنا رجلاً وامرأة يسيران نحونا. خفّفت جودي السرعة لترى إذا كانا بحاجة للمساعدة، وعندها عرفناها. كانا يقفان هناك وكأنهما خارج الزمان والمكان وقد أحاطت بهما هالة من نور.

"اضطربت جودي كثيراً وأخذت تبكي، وراحت الفتاة الجالسة قربها في المقعد الأمامي تسألها عمّا جرى وعن سبب توقّفنا. أدركت عندها أن الفتيات الأخريات لم يشاهِدْنهما، وإنما رأيتهما أنا وأختي فقط.

"لطالما تساءلت عما إذا كان للوراثة علاقة بهذه الرؤى. فأفراد عائلتي شاهدوا كثيراً من الرؤى، ولديّ براهين واقعيّة على أننا رأينا ما لم يره الآخرون. لست أدري حتى الآن سبب ذلك، مع أن بعض الناس من ماكلين، من غير أقربائنا، شاهدوا رؤى أيضاً."

"هل حدثت كل الرؤى مع نساء؟"

"أجل. لقد سهوْتُ عن إخبارك ذلك. فكلّ مرة ظهرت فيها مريم وحدها، حسبما علمت، كانت لامرأة أخرى. أما ظهورها مع يسوع فكان لرجال أو نساء، مع أن حالات الظهور للرجال قليلة، أو قد تكون كثيرة من دون أن يتحدّث عنها الرجال علناً."

هزّت مورين رأسها وقالت: "فهمْت - لكنْ أخبريني يا ريتشل: هل شاهدتها بوضوح؟ أعني: أتستطيعين أن تصفي لي وجهها بالتفصيل؟"

ظلّت على ثغر ريتشل تلك الابتسامة البهيجة الواثقة التي أوحت لمورين بالطمأنينة، بالإضافة إلى أن حديثهما عن الرؤى كشيء طبيعي وعادي جعلها تحسّ بالأمان. حتى ولو اتّضح فيما بعد أن ذلك كله خرافات، فهي الآن على الأقلّ في صحبة إنسان لطيف.

"هناك ما هو أهمّ من وصفها. تعالي!"

أمسكت ريتشل يد مورين برفق وقادتها إلى آخِر المتجر، ثم أشارت إلى الحائط وراء صندوق النقد. لكنّ عيني مورين كانتا قد سبقتاها إلى اللوحة الزيتيّة: رسم امرأة ذات شعر أسمر ووجه جميل رقيق وعينين عسليتين رائعتين.

في هذه الأثناء، كانت ريتشل تراقب ردة فعل مورين بدقّة وتنتظرها لتتكلّم. لكن الانتظار سيطول، لأن مورين ظلت صامتة صمتاً مطبقاً.

كسرت ريتشل الصمت عندما قالت بهدوء ورصانة: "أرى أنكما التقيتما سابقاً!

لم يوازِ ذهول مورين لرؤية ذلك الوجه في اللوحة سوى ما اعتراها بعد ذلك. فبعد لحظات الصدمة الأولى بدأت ترتجف، ثم سرت الرعشة في بدنها.

وقفت هناك تبكي وتنتحب دقيقةً أو اثنتين وجسدها النحيل ينتفض، ثم تحوّل بكاؤها إلى نشيج هادئ متواصل. أحسّت بحزن شديد وألم عميق، لكنّها لم تكن واثقة من أن ذلك الحزن نابع منها هي. بدا لها أنها تعاني هي من ألم المرأة التي في الصورة. ثم تبدّل الأمر: بعد الفورة الأولى أصبح بكاؤها فرَجاً لها، فاستسلمت له مرتاحةً. لقد كانت تلك اللوحة الزيتية البرهان الملموس، إذ حوّلت امرأة الحلم إلى حقيقة.

إذاً، المرأة في الأحلام هي مريم المجدلية نفسها.

أدخلت ريتشل مورين إلى الغرفة الخلفية الملحقة بالمحلّ لترتاح قليلاً، وأعدّت لها فنجاناً من شاي الأعشاب، ثم تركتها وحدها. دخل المكتبةَ شاب وفتاة يبحثان عن كتب في التنجيم فخفّت للقائهما. جلست مورين في الغرفة الخلفية على منضدة صغيرة تحتسي شراب البابونج وهي ترجو أن يكون ما كُتب على علبته من أنه مهدّئ للأعصاب كلاماً صحيحاً وليس مجرّد خدعة تجارية.

ما إن انتهت ريتشل من عملها مع الزبونين حتى عادت لتتفقّد مورين سائلةً: "كيف حالك الآن؟"

أومأت مورين برأسها ورشفت قليلاً من فنجانها وأجابتها: "أنا أحسن حالاً الآن. شكراً يا ريتشل، إني آسفة جداً لما حدث. إنني لم... لا أدري... مَن رسم تلك اللوحة؟ أنتِ؟"

هزت ريتشل رأسها بالإيجاب، وهي تقول: "الموهبة الفنية موجودة في العائلة. كانت جدتي بارعة في النحت. وقد صنعت عدة تماثيل لمريم. لذلك أتساءل دائماً: هل هذا هو سبب ظهور مريم لنا؟ لأن لدينا القدرة على تصويرها بطريقة ما؟"

علّقت مورين بهدوء كأنّها تفكّر بصوت عالٍ: "أو ربما لأن الفنّانين أكثر انفتاحاً".

"يجوز. وقد يكون مزيجاً من السببين. لكنْ، هناك شيء آخر: أعتقد جازمةً أن مريم تريد أن يعرف الناس حقيقة وضعها. لقد تزايد ظهورها هنا في ماكلين في السنوات العشر المنصرمة، وخلال العام الفائت سكنني هاجسها وقرّرت أن أرسمها لأجد بعض الراحة. وبعدما انتهيت من اللوحة وعلّقتها، عاد النوم إلى عينيّ ليلاً. في الواقع، لم أرها منذ ذلك الحين."

جلسَت مورين تلك الليلة في غرفتها في الفندق ممسكةً بكوب من الماء بيدها تنظر إلى ما بداخله بعينين فارغتين. ثم حوّلت نظرها إلى التلفزيون وحاولت جاهدة ألاّ تتأثّر سلباً بالبرنامج الذي كانت تعرضه إحدى القنوات الفضائية، وكان يتضمّن مقابلة مع ضيف محافظ جداً. فبالرغم من أن مظهرها الخارجي يوحي بالقوة والعزم فإنها كانت تكره فكرة المواجهة وتخشى إمكانية مناقشة كتابها في البرنامج. كانت كمَن يُضطرّ لمشاهدة حادث سيارة، فهي لن تستطيع إبعاد ناظريها مهما كان المنظر مزعجاً.

عرّف مقدّم البرنامج ضيفه الموقّر بنبرة حماسيّة، ثم عاجله بسؤال: "أليس هذا هجوماً آخر في سلسلة الافتراءات المتواصلة على الكنيسة؟"

كانت عبارة التعريف "المطران ماغنوس أوكونور" ظاهرة على الشاشة تحت وجه رجل دين كهل، وهو يجيب غاضباً بلكنة إيرلندية واضحة:" بالطبع - إننا، على مدى قرون، نتحمّل افتراءات مثل هؤلاء المُضلّلين وهم يحاولون تقويض إيمان

ملايين الناس من أجل أغراض شخصية. والأجدر بهؤلاء المتطرّفين الذين يدّعون الدفاع عن حقوق المرأة أن يُقرّوا بالواقع وهو أنّ جميع الرسل كانوا رجالاً."

لم تستطع مورين تحمّل المزيد، إذ كانت، في تلك الليلة تعِبة بعد يوم طويل مشحون. فضغطت على زِرّ جهاز التحكّم وأسكتت رجل الدين متمنّية لو أن التخلّص من كل ما يُزعجها في الحياة بمثل تلك السهولة.

تمتمت وهي تتّجه إلى السرير: "تباً لك يا صاحب القداسة!"

وقع شعاع من الأنوار الخارجية على المنضدة الصغيرة قرب سرير مورين في غرفتها في الفندق، وكان على المنضدة ما يساعدها على النوم، علبة منوِّم من النوع الذي يُباع من دون وصفة طبيّة، وإلى جانب المصباح الكهربائي، على المنضدة نفسها، منفضة وُضع فيها الخاتم النحاسي القديم الذي أحضرَته من القدس.

بالرغم من أن مورين تناولت ما اعتقدت أنه سيجعلها تنام نوماً هادئاً، فقد راحت تتقلّب في الفراش. لقد جاءها الحلم قاسياً رهيباً وبلا استئذان.

بدأ كعادته: الصخب وتصبّب العرق والحَشْد. لكن، عندما وصلت مورين إلى الجزء الذي رأت فيه المرأة أوّل مرة، تحوّل كل شيء إلى سَواد. وقعت في فراغ لم تعرف مداه الزمنيّ.

بعد ذلك تغيّر الحلم.

في يوم مشرق هادئ، على ضفاف بحيرة طبريّا، كان ولد صغير يعدو متقدّماً على أمّه الجميلة. وعلى العكس من أخته الصغرى، لم يكن يُشبه أمه في عينيها العسليتين البراقتين وشعرها الأسمر. كان ذا هيئة مختلفة، داكن البشرة، شديد السمرة. أخذ يركض نحو الشاطئ، وتناول من الأرض حجراً لفت نظره، وراح يرفعه ليلمع تحت نور الشمس.

نادته أمّه وحذّرته من الاقتراب من الماء. لم تكن، في ذلك اليوم، ترتدي

الخمار المعتاد، فكان شعرها المرسَل الطويل يتطاير حول وجهها، وهي تمسك يد البنت الصغيرة. كانت البنت تشبه أمّها وكأنها صورة مصغّرة عنها.

صدر صوت رجل هادئ منبّهاً البنت التي كانت قد أفلتت يد أمّها وبدأت تجري باتّجاه أخيها. لم تُصغِ الفتاة للتحذير، فضحكت أمّها ونظرت من فوق كتفها إلى الرجل الذي مشى وراءها، وابتسمت له بحنان. كان في مثل هذه النزهات مع عائلته الفتيّة يلبس رداءً داكناً خشناً بلا حزام، أي نقيض ردائه الأبيض النقيّ الذي يلبسه عندما يكون بين الناس. أزاح خُصلاً من شعره الكستنائي مِن أمامَ عينيه، ورَدّ على ابتسامتها بابتسامة وادعة مُفعَمة بالحب والرضا.

عادت مورين إلى عالم الوعي بعنف كأنها قُذفت جسدياً خارج حلمها ودُفعت إلى غرفة الفندق دفعاً. كانت الأحلام تزعجها دائماً، أمّا هذا فكان أشدّ وطأة، إذ جعلها تشعر أنها تخترق الزمان والمكان. كانت تتنفّس بسرعة، وجاهدت نفسها لتستعيد توازنها وتلتقط أنفاسها.

وما كادت مورين تُحسّ بعودتها إلى وضعها الطبيعي حتى سمعت صوت حركة في غرفتها عند الباب. تأكّدت أن الصوت يُشبه حفيف أوراق الشجر، ورأت أو أحسّت بشكل بشريّ يظهر أمامها داخل الباب. كان ما رأته محيّراً بالفعل، فهل هو شكلٌ أو هيئة أو حركة؟ وما همّها؟ إنها تعرف مَن ترى، وهي لم تعد تحلم الآن. إنها هي، هي بنفسها هنا، هنا في غرفة مورين.

بلعت مورين ريقها، فقد كان فمها جافاً لصدمتها وشدة خوفها. فالشكل الذي تراه أمام الباب لم يكن من العالم المادّي، واحتارت هل كان ذلك مدعاة للراحة أم القلق. استجمعت كل شجاعتها وتمكّنت من التوجه همساً إلى الشكل الظاهر أمامها:

"ماذا... أخبريني كيف يمكنني مساعدتكِ. أرجوكِ".

كان الجواب عبارة عن صوت حفيفٍ أو خشخشة خمار أو هبوب أوراق الربيع، ثمّ لا شيء آخر. واختفت الرؤيا بسرعة كما كانت قد بدأت.

قفزت مورين من السرير وأشعلت النور. رأت الساعة الرقمية تشير إلى الرابعة وعشر دقائق صباحاً. فكّرت أن توقيت لوس أنجلوس هو أسبق بثلاث ساعات، فقالت لنفسها: "سامحني أيّها الأب"، وأخذت آلة الهاتف عن المنضدة قرب سريرها، وطلبت الأرقام بأصابع مرتجفة. كانت بحاجة إلى أعزّ أصدقائها، وربما كانت بحاجة له لأنه كاهن أيضاً.

أعاد صوت بيتر المُلِحّ وإيقاعه الإيرلندي المحبّب مورين إلى أرض الواقع.

"من المهم جداً متابعة هذه...هذه... الرؤى. فهل تدوّنينها؟"

صاحت به مورين: "رؤى! أرجوك لا تمثّل عليّ دور الفاتيكان يا بيتر. أفضّل الموت على أن أصبح متّهمة غريبة أمام محكمة التفتيش الكنسيّة".

"لا يا مورين. لا أتّهمك. لكن، ماذا لو كانت هذه رؤى بالفعل؟ لا يمكنك أن تتجاهلي أهميّة ما رأيته."

تنفّست مورين بصعوبة وقالت: "أولاً: حدثت الرؤيا مرّتين. أما الباقي فكان أحلاماً. أحلاماً حيّة وانفعاليّة، لكنها أحلام في أي حال. قد يكون سببها ذلك الجنون الوراثي، فهو متوارَث في العائلة كما تعلم. يا الله! إن الأمر يخيفني. لكن تذكّرْ أنه يُفترض بك أن تساعدني وتهدّئ من روعي".

"متأسّف. إنكِ على حقّ، وأنا أريد مساعدتك فعلاً. إنّما عِديني بأن تسجّلي تواريخ وأوقات رؤاك، عفواً: أحلامك. لا بد من ذلك، فأنت مؤرّخة وصحفيّة، وتعلمين أكثر من سواك أن توثيق المعلومات شيء ضروري."

ضحكت مورين وقالت متنهّدة: "أجلْ، إنها معلومات تاريخية! أنا موافقة. سوف أكتب، وقد يساعدني ذلك يوماً على فهم ما يجري. أظن أن أشياء كثيرة خفيّة تحدث الآن، وهي بمجملها خارج سيطرتي تماماً."

... يجب أن أكتب الآن المزيد عن نثنائيل الذي أسميناه برتلماوس، لأنني تأثرت كثيراً بمدى إخلاصه. كان برتلماوس قد أنهى مرحلة الشباب عندما انضم إلينا في الجليل. وفي حين أنه كان قد طُرد من بيت أبيه الكريم، تلماي من قانا، فقد كان واضحاً عند لقائه أنْ ليس فيه صفة سيّئة. لقد أخطأ أبوه القاسي والظالم في الحُكم على ابنه الرائع ذي النفسية الجميلة والروح الطيبة. أمّا عيسى فقد أدرك حقيقته منذ اللحظة الأولى.

كان نقاء نفسية برتلماوس يظهر جلياً من نظرة عينيه، ولم أرَ في حياتي ذلك النقاء والطيبة في النظرات إلاّ من عيني عيسى وعيني ابنتي. كان صفاؤهما يعكس طهارة روحه بلا موارَبة. وفي يوم وصوله إلى منزلي في مجدل، جلس ابني الصغير في حضنه وظلّ هناك بقيّةِ السهرة. والأطفال، كما نعلم، يحكمون على الناس بصدق ودون تملُّق. تبادلت أنا وعيسى النظرات والابتسامات على الطاولة ونحن نشاهد يوحنا الصغير مع صديقه الجديد. لقد أكّد لنا يوحنا ما علمناه منذ نظرتنا الأولى إلى برتلماوس الذي أصبح فرداً دائماً من أفراد العائلة.

إنجيل الآرك لمريم المجدلية
كتاب الرسل

الفصل الخامس

لوس أنجلوس
نيسان (أبريل) 2005

كانت مورين مُنهكة وهي تقود سيارتها نحو موقف المبنى الضخم في بولفار ولشاير حيث تملك شقّة. تركت الخادم المناوب، أندريه، يقوم بإدخال السيارة وإيقافها وطلبت منه أن يُحضر حقيبتها. فتأخير الرحلة من مطار دالاس في واشنطن وعدم قدرتها على النوم في الليلة السابقة أنهكا قواها.

لم تكن تتوقّع أي مفاجأة، لكنّ هذا بالضبط ما كان ينتظرها لدى دخولها ردهة المبنى الأمامية.

جاءها لورنس، مدير الاستقبال في المبنى، وهو رجل قصير نحيل كثير الكلام، وقال وهو يستدير حول طاولته: "مساء الخير، أيتها الآنسة باسكال. عذراً، لقد اضطُررت لفتح شقّتك ودخولها بعد ظهر هذا اليوم، فالأشياء التي وصلت لك كثيرة وكبيرة الحجم، لا يُمكن إبقاؤها في الردهة. أرجو أن تخبرينا مسبقاً عندما تنتظرين وصول أشياء بهذا الحجم."

"أي أشياء، لم أكن أتوقّع وصول شيء!"

"لكنّها لك بلا ريب، لا بدّ أن يكون مُرسِلها معجباً كبيراً."

شكرت مورين لورنس محتارةً ودخلت المصعد. وما إن انفتح باب المصعد في الطابق الحادي عشر حتى شمّت عبير أزهار نكيّة. ازدادت الروائح العطرية عندما فتحَت باب شقّتها، ووقفت مشدوهة. لم تستطع أن ترى معالم غرفة الجلوس لأن الأزهار كانت في كل أرجائها، مجموعات منسّقة مُتقَنة، بعضها على أعمدة

طويلة وبعضها في أوانٍ من الكريستال على الطاولات، وكلّها من الورد الأحمر الصارخ وزنبق الماء والزنبق الأبيض. ولا شك بأن تلك الزنابق المتفتّحة كانت مصدر الأريج العابق بالغرفة.

لم تجد مورين حاجة للتفتيش على بطاقة التعريف. كانت هناك قرب حائط الغرفة على رسم زيتي ضخم ضمن إطار مذهّب، يصوّر منظراً ريفيّاً كلاسيكياً. وفي الرسم رُعاةٌ مكلّلون بالغار، يلبسون أردية رومانية فضفاضة ويقفون أمام نُصُب صخريّ كبير كأنه مدفن قائم بذاته، وهم يشيرون إلى كلام منقوش في الصخر. أما النقطة المركزيّة في اللوحة فهي راعية حمراء الشعر، بدا أنّها قائدة الرعاة.

وأكثر ما يلفت النظر في الصورة هو أن وجه الراعية يشبه وجه مورين إلى حدّ بعيد.

وقف بيتر معجباً أمام نسخة اللوحة الموجودة في غرفة الجلوس ببيت مورين، وقرأ الكتابة الفرنسية على الصفيحة النحاسية في أسفل الإطار "رُعاة أركاديا"، ثم قال: "إنّها من لوحات نيكولا بوسّان الفرنسي، أستاذ الفن الباروكي. لقد شاهدت اللوحة الأصلية في اللوفر."

كانت مورين قد اطمأنّت لحضور بيتر بسرعة، فأصغت لكلامه بهدوء، ثم سألته:

"لست أدري، هل يجب أن أشعر بالإطراء لأنني في اللوحة أم أصاب بالذعر؟ لكنْ، هل الراعية، في اللوحة الأصلية، تشبهني لهذا الحَدّ وكأنني جلستُ أمام الرسام ليرسمها؟"

ضحك بيتر، وأجاب: "لا، لا. يبدو أن ذلك إضافة مِن الذي رسم هذه النسخة أو أرسلها، كائناً من يكن."

هزّت مورين رأسها وناولت بيتر ظرفاً كبيراً، وقالت: "لقد أرسله شخص لا أعرفه، يُدعى فلاناً سنكلير".

"هل هو معجَب؟ أم شخص متعصّب؟ أم إنسان مجنون قرأ كتابك؟"

قالت مورين بضحكة عصبيّة: "كلّه جائز. فقد أطلعني ناشر الكتاب، في الأشهر القليلة المنصرمة، على بعض الرسائل الغريبة؟"

"أهي من معجبين أم حاقدين؟"

"من النوعين."

أخرج بيتر الرسالة من الظرف الكبير. وكانت قد كُتبت بخطّ يد متأنّق على ورق رِقّيّ فاخر. خُتمت عليها زهرة الزنبق، وهي شعار العائلات المالكة الأوروبية منذ قرون. وكان في أسفل الصفحة اسم كاتب الرسالة مطبوعاً بحروف ذهبيّة: بيرنجيه سنكلير. وضع بيتر نظارتيه وقرأ بصوت عالٍ:

الآنسة باسكال المحترمة

عذراً على الكتابة إليك من دون سابق معرفة.

أعتقد أن لديّ إجابات عن كثير من الأسئلة التي تبحثين عنها، وأن لديك إجابات حول بعض ما أبحث عنه. إذا كنتِ بالفعل جريئة للدفاع عن معتقداتك والمشاركة في مهمّة مذهلة للكشف عن الحقيقة، أرجو أن توافيني إلى باريس في يوم الانقلاب الشمسي الصيفي. المجدلية نفسها تطلب حضورك، فلا تخيّبي أملها. لعلّ هذه اللوحة تحرّك عقلك اللاواعي. اعتبريها خريطة بسيطة، خريطة مستقبلك، وربما ماضيك. إني واثق أنك ستشرّفين اسم باسكال العظيم، كما حاول والِدك أن يفعل.

المخلص
بيرنجيه سنكلير

تساءل بيتر: "اسم باسكال العظيم؟ والدك؟ ما الأمر؟" أجابت مورين وهي تحاول أن تُظهر تمالُكها: "ليس لديّ أدنى فكرة".

لقد أزعجها ذكر والدها، لكنّها أرادت أن تخفي ذلك عن بيتر، فكان جوابها مختصراً وقاطعاً.

"إنك تعرف أن عائلة أبي من غابات ومستنقعات لويزيانا، لا شيءَ يُذكر، إلا إذا كان الجنون والعظمة متساويين!"

ظلّ بيتر صامتاً منتظِراً أن يسمع المزيد. فنادراً ما كانت مورين تتحدّث عن أبيها، لذلك وَدّ بيتر لو تتوسّع في الكلام عنه، لكنّها خيّبَت ظنّه وصمتت.

أخذت مورين الرسالة من بيتر وقرأتها ثانية، ثم علّقت: "غريب! ما هي، برأيك، الإجابات التي يتحدث عنها؟ لا يمكن أن يكون على علم بأحلامي، فلا أحد يعلم بها سوانا." ثم راحت تمرّر أصابعها على الرسالة وتتأملها.

جال بيتر بعينيه ثانية، في أرجاء الغرفة، على عرض الأزهار الغنيّ وتلك اللوحة الفنيّة الضخمة، وقال: "أياً كان هذا الرجل، فالعملية كلها تدل على شيئين: التعصّب والمال الوفير، وعندما يجتمع الاثنان فالنتيجة وخيمة."

لم تكن مورين تصغي تماماً.

"انظرْ إلى نوعية الورقة، إنها رائعة، فرنسية الطابع. وهذا النقش البارز على الأطراف هنا... ما هو؟ عنب؟" كانت الصورة المنقوشة على الورقة تذكّرها بشيء: "التفّاح الأزرق!"

عدّل بيتر وضع نظارتيه على أنفه، ونظر إلى أسفل الرسالة: "تفاح أزرق! أجلْ أجلْ. انظري هنا في أسفل الصفحة، يوجد عنوانٌ: شاتو دي بوم بلو."

"معرفتي بالفرنسية متواضعة، كما تعلم. أليس في هذا الكلام إشارة إلى التفاح الأزرق؟"

أومأ بيتر بالإيجاب: "قصْر - أو بيت - التفاح الأزرق. هل يعني ذلك شيئاً؟"

هزّت مورين رأسها ببطء وهي تُعمل فكرها: "أفّ! لا يمكنني أن أضع إصبعي عليه. أعلم يقيناً أنني، أثناء بحثي، وقعت على إشارات إلى التفاح الأزرق. أظنّ أنه رمز سرّي. قد يكون له علاقة بجماعات دينية في فرنسا كانوا يعبدون مريم المجدلية."

"أولئك الذين آمنوا أنها ذهبت إلى فرنسا بعد صلب المسيح؟"

وافقته مورين على ذلك وأضافت: "لقد اضطهدَتهم الكنيسة واعتبرتهم مُنشَقّين لأنهم ادّعوا أن تعاليمهم تأتي من المسيح مباشرةً. وأُجبروا على التخفّي والتستّر، وتحوّلوا إلى جمعيات سرية، كان يُرمز إلى إحداها بالتفاح الأزرق."

"حسناً، لكن ما هي دلالة التفاح الأزرق؟"

فكّرت مورين عميقاً، لكنّها حارت جواباً، وقالت: "لا أنكر أني وقعت على الإجابة عن هذا السؤال، لكني أعرف مَن يوصلني إليه."

مارينا دل راي
نيسان (أبريل) 2005

كانت مورين تسير على مهل، على طول ميناء مارينا دل راي. وكانت شمس جنوب كاليفورنيا الدافئة تسطع على اليخوت الفخمة التي تجسّد ترَف سكان هوليوود وبَذْخهم. شاهدت، على متن يخت صغير، أحد هواة ركوب الأمواج، يلبس قميص تي شيرت مشقوقاً كُتب عليه" إنه يوم تعيش آخر في الجنّة." فلوّح لها بيده. كانت بشرته مسمرّة وشعره مبيضاً من التعرّض للشمس. لم تكن مورين تعرفه، لكنّ ابتسامته البهيجة وزجاجة الشراب في يده أوحَيا أنه في مزاج ودّيّ.

لوّحت مورين بدورها، وتابعت سيرها نحو مجمّع من المطاعم والمحلات التجارية التي يقصدها السوّاح عادةً، ودخلت إلى "إلبوريتو"، وهو مطعم مكسيكي يمتدّ فناؤه الخارجيّ فوق الماء.

"ريني، أنا هنا."

سمعت مورين صوت تامي تناديها قبل أن تراها، فهي كانت تناديها تحبُّباً باسم "ريني". التفتَت ناحية الصوت، فإذا بصديقتها جالسة إلى طاولة في الخارج ترشف كوكتيل مرغريتا بطعم المانجا.

إنّها تمارة وزدوم، أي تامي، وهي نقيض صارخ لمورين باسكال. وتامي ذات جمال لافت بجسدها الطويل الممشوق وبشرتها الحنطيّة. شعرها طويل حتى وسطها، تزيّن بعض خصلاته بلَوْن زاهٍ تختاره تبعاً لمزاجها، وكان في ذلك اليوم مربوطاً بشرائط بنفسجيّة لمّاعة. أنفها مثقوب ومحلّى بماسة كبيرة جداً كان قد أهداها إيّاها صديق سابق هو مخرج أفلام ناجح، وفي أذنيها صفّان من الثقوب، وقد وضعت عدداً من التمائم الغريبة على قميص أسود مخرّم بلا أكمام. كانت تقارب الأربعين، لكنها بدت أصغر من سنها بعشر سنوات.

كانت تامي مَرِحة وحيويّة، أما مورين فكانت رصينة محافظة. كما كانت الأولى صاخبة وعنيدة في حين أن مورين كتومة وحذرة. ومع كل هذا البَوْن

الشاسع في نمط حياتهما وعملهما فقد وجدتا أرضية صلبة في الاحترام المتبادَل بينهما فاضحتا صديقتين مقرَّبتين.

جلست مورين وطلبت كوباً من الشاي المثلَّج، وقالت: "شكراً يا تامي لموافقتك على مقابلتي فور طلبي ذلك." قلَّبت تامي عينيها، لكنها كانت متلهِّفة لبدء الحديث لأن الموضوع مُشوِّق، فلم تفكِّر حتى في انتقاد مورين، كالعادة، لاختيارها شراباً تقليدياً.

"هل تسخرين مني؟ بيرنجيه سنكلير يُطاردك وتظنِّين أني لا أريد سماع كل التفاصيل المثيرة؟"

"لم تُفصحي عن الأمر في مكالمتنا الهاتفيّة. عليكِ الآن أن تقولي بصراحة. لا أصدِّق أنك تعرفين هذا الرجل!"

"وأنا أستغرب عدم معرفتك به. فكيف يُعقل أنك نشرتِ كتاباً يدور قسم مهمّ منه حول مريم المجدلية من دون الذهاب إلى فرنسا لإعداد بحثك؟ وتعتبرين نفسك صحفيّة؟"

"أجل أنا صحفيّة، ولذا لم أذهب إلى فرنسا. فأنا لا اكترث لكل ما يُقال عن تلك الجمعية السرية. قد يكون ذلك مدار اهتمامك أنت، إنّما أنا: لا. لقد ذهبتُ إلى فلسطين لأقوم بأبحاث رصينة حول القرن الأول."

كان مثل هذا الانتقاد الساخر المتبادَل جزءاً هاماً من التعامُل الودي بينهما. فمورين كانت قد التقت تامي لأول مرة أثناء إجراء بحثها، عندما عرّفهما صديق مشترَك بعد علمه بأن مورين تبحث عمّا يتعلّق بحياة مريم المجدلية من أجل كتابها. كانت تامي قد نشرت عدّة كتب جريئة حول الجمعيات السرية و(الخيمياء القديمة)، كما صوّرت فيلماً وثائقياً عن التقاليد الروحية السرية يدور حول عبادة المجدلية ونال رضا النقاد في دوائر المهرجانات السينمائية. وقد ذُهلت مورين لتلك الشبكة المُقفلة القائمة بين مثل هؤلاء الباحثين إذ بدا لها أن تامي تعرفهم كلّهم. ومع أن مورين ادركت بسرعة أن مفهوم تامي الغريب ليس مصدر معلوماتها المنشود، فإنها اعتبرت أن وراء ذلك الوجه المتبرِّج ذهناً متوقّداً، فهي معجبة أيّما إعجاب بجرأة تامي الفطرية وصراحتها الفَجّة، حتى عندما تتلقّى سهامها اللاذعة.

ادخلَت تامي يدها في حقيبتها البرتقالية الواسعة وسحبت منها مُغلَّفاً جميلاً، وحرّكته أمام أنف مورين كأنها تُغيظها، ثم وضعته أمامها على الطاولة قائلةً: "انظري، أردتُ أن تري هذا بعينيك."

ظهر الاستغراب على وجه مورين عندما رأت المغلّف مزيّناً بشعار زهرة الزنبق، الذي غدا مألوفاً مؤخراً، ورمز التفاح الأزرق الغريب. سحبت منه دعوة مطبوعة وبدأت بقراءتها.

"إنها دعوة إلى الحفلة السنوية المميّزة التي يقيهما سنكلير، الحفلة الراقصة بالملابس التاريخية. هل أرسل لك دعوة مماثلة؟"

هزت مورين رأسها بالنفي، وأوضحت بقولها: "لا. بل تلقّيتُ رسالة غريبة لموافاته في يوم الانقلاب الشمسي الصيفي. إنّما، كيف تلقّيتِ أنت هذه الدعوة؟"

أجابت بكل وضوح: "التقيت به أثناء بحثي في فرنسا. إني أسعى للحصول على تمويل منه لإكمال فيلمي الوثائقي الجديد. وهو مهتمّ بتصوير فيلم خاص.

"هل تعملين على فيلم جديد؟ لم تخبريني بذلك."

"أنت لم تتّصلي بي مؤخراً لتعلمي."

أحسّت مورين بالارتباك، فهي كانت قد أهملت أصدقاءها لانهماكها في عملها خلال الأشهر السابقة. لكنها واجهت تامي بالقول: "آسفة. إنما، ماذا عنك أنتِ؟ هل تُخفين عني أشياء أخرى؟ هل كنتِ على علم بتحرّك سنكلير؟ أعني.... محاولته ملاحقتي؟"

"لا، لا، أبداً. لقد التقيت به مرة واحدة. وأتمنى لو أنه كان يطاردني أنا. إنه يساوي بليوناً، أتسمعين: بليوناً، ولا تنسي ذلك. بالله عليكِ يا مورين أطلقي العنان لنفسك واذهبي إلى هذه المغامرة الكبرى. متى كان آخر موعد لك مع رجل؟"

"هذا خارج موضوعنا!"

"لا، بل قد يكون في صلبه."

تجاهلت مورين السؤال محاولةً أن تُخفي سُخطها، وقالت: "ليس لديّ وقت لأيّ علاقة. ولا انطباع عندي بأني قد دُعيت إلى موعد."

"سيفوتك الكثير. لا يوجد مكان على الأرض بهذه الرومنسيّة."

"وهل هذا هو سبب قضائك وقتاً طويلاً في فرنسا في الآونة الأخيرة؟"

ضحكت تامي وأجابت: "لا، لا. كلّ ما في الأمر هو أنّ فرنسا مركز الحركات

السرية في الغرب وملتقى كل البدَع. ولو وضعْتُ مئات الكتب أو صوّرْت مئات الأفلام عن الموضوع فلن أصِل إلى أعماق هذا العالَم في فرنسا."

لم تستطع مورين التركيز بسهولة، وقالت: "ما الذي يريده سنكلير منّي، برأيك؟"

"ومن يدري؟ فالمعروف عنه أنه غريب الأطوار، يملك من الوقت والمال ما يكفي لتبذيره على هواه. أظنّ أنّ شيئاً ما في كتابك لفت نظره، وأنّه يريد أن يضمّك إلى مجموعته. لكنّي لست أدري ما هو بالضبط، فعمَلك ليس من النوع المفضّل لديه."

اتّخذت مورين موقفاً دفاعياً عن كتابها واعترضت بقولها: "ماذا تقصدين؟ لماذا لا يفضّل هذا النوع؟"

"إنه تقليديّ وأكاديمي بشكل صارم. تعلمين، يا مورين، أنك عندما كتبتِ الفصل الخاص بمريم المجدلية كنت حريصة جداً وحكيمة جداً: ربّما كانت مريم المجدلية على علاقة بيسوع، لكن ليس هناك دليل على ذلك. ما هذا الكلام؟ لقد كنتِ في غاية الحذر والدقّة. لكن صدّقيني، ليس في ما يؤمن به سنكلير مكان للدقّة والموضوعية. وهذا سبب إعجابي به."

ردّت عليها مورين بتعليق لاذع لم تقصده بتلك الجدّة: "أنتِ تعملين على مراجعة التاريخ بناءً على معتقداتك الشخصية. أما أنا فلست كذلك."

مع أن تامي كانت عادةً لا تلاحق مورين بانتقاداتها، فإنها اليوم ضربت على الوتر الحسّاس إذ أجابت:

"وما هي معتقداتك أنتِ؟ يبدو لي أنك لا تعلمين ما هي. اسمعي، أنت صديقة عزيزة وأنا لا أقلّل من احترامك، لذا لا تفقدي أعصابك. لكنّك تعرفين أكثر مني أن هناك أدلّة على أن مريم المجدلية كانت على علاقة بيسوع وأنهما أنجبا أولاداً. فلماذا تخافين من هذا الاحتمال! فأنت لست متديّنة، وهذا الأمر لا يهدّدك."

"صحيح أنه لا يهدّدني. لكنّي أردت أن أتجنّب هذا المنزَلَق، لئلّا يُفسد بقية عملي. إن مفهومي لِما يمكن اعتباره دليلاً يختلف عن مفهومك. لقد قضيت معظم حياتي، بعد بلوغي سن الرشد، وأنا أقوم بالأبحاث من أجل ذلك الكتاب، ولم أشأ أن أبدّد كل ذلك من أجل نظرية مرتجلة غير مثبَتة لم أقتنع بها بتاتاً."

جاء دور تامي للرَدّ، فصاحت غاضبةً: "تلك النظرية المرتجلة تتعلّق بالرباط السماويّ، لأن فكرة العلاقة المقدّسة التي يتبادل فيها شخصان الاحترام هي أوضح تجلّيات الله على الأرض. يجدر بك أنت أن تجرّبي مثل تلك العلاقة."

قاطعتها مورين بحدّة ونقلت الحديث إلى موضع آخر: "لقد وعدتني بإطلاعي على ما تعرفين عن التفاح الأزرق."

بدأت تامي إجابتها قائلة: "حسناً. إذا تغاضيتِ عن نظرياتي المرتجلة وغير المثبتة فإنّ..."

"آسفة"، قالتها مورين بلهجة ملؤها الأسف والندم، مما جعل تامي تضحك، ثم تتابع:

"لا بأس، فلطالَما نُعِتُّ بما هو أسوأ من ذلك. على كل حال، إليك ما أعرفه عن التفاح الأزرق. التفاحات الزرقاء رمز للسلالة. أجلْ، سلالة النسَب نفسها التي تحاولين أنت وزملاؤك الأكاديميّون إنكار وجودها. سلالة يسوع المسيح ومريم المجدلية المُثبَتة في ذرّيّتهما. وقد استخدمَت الجمعيّات السرية المتعدّدة رموزاً مختلفة للدلالة على السلالة."

"ولماذا التفاح الأزرق؟"

"هناك آراء عديدة حول هذا الرمز. لكن الاعتقاد السائد هو أنه يُشير إلى العنب. فمناطق جنوب فرنسا المنتجة للخمر، مشهورة بعنبها الكبير الذي يمكن أن يُرمَز إليه بالتفاح الأزرق. ولننتقلْ معاً من الرمز إلى الواقع: أولاد يسوع يوازون ثمار الكرمة، وهي العنب، أي التفاح الأزرق."

أومأت مورين برأسها وتساءلت: "إذاً، فسنكلير له علاقة بإحدى تلك الجمعيات السرية؟"

انفجرت تامي ضاحكة، وقالت: "سنكلير هو الجمعية السرية! إنه زعيمها، فلا شيء يحدث من دون معرفته أو موافقته. وهو المموّلُ لكثير من الأبحاث، بما فيها بحثي أنا." هنا رفعت تامي كأسها كأنها تشرب نخب كرَم سنكلير.

رشفت مورين الشاي من فنجانها وتأمّلت الظرف الذي في يدها، وقالت:

"لكنْ، ألا تعتقدين أن سنكلير خَطِر؟"

"معاذَ الله! إنه أرفع من ذلك بكثير، مع أنه يملك من المال والنفوذ ما يسهّل

له إخفاء جثث ضحاياه. هذه مزحة! فكفاك خوفاً بلا مبرّر. ثمّ إنّه، على الأرجح، أعلم خبير في موضوع مريم المجدلية. وستجدين أنه مرجع هام لك إذا وسّعتِ آفاق فكرك قليلاً."

"إذاً، أستنتجُ أنّك ستذهبين إلى حفلته؟"

"هل أنت جادة في سؤالك؟ إني ذاهبة طبعاً، وتذكرة السفر معي منذ الآن. الحفلة في الرابع والعشرين من حزيران (يونيو) أي بعد الانقلاب الصيفي بثلاثة أيام."

"ماذا؟"

"إنّه يستعدّ لأمر ما، لست أدري ما هو. فهو يريدك في باريس في الحادي والعشرين من حزيران (يونيو) بينما حفلته في الرابع والعشرين، أي منتصف الصيف بحسب التقويم القديم، وهو أيضاً يوم عيد يوحنا المعمدان. الأمر مثير، فهذه التواريخ لم تحدّد عبثاً. أخبريني، أين يريدك أن تلاقيه؟"

أخذت مورين الرسالة من حقيبتها، ومعها خريطة لفرنسا، كانت معها ضمن الظرف نفسه، وناولتها لتامي.

قالت مورين: "انظري يا تامي، هناك خط أحمر مرسوم هنا من باريس نزولاً حتى جنوب فرنسا."

"إنه خط الزوال (خط منتصف النهار) بالنسبة لباريس، وهو يمر عبر قلب منطقة مريم المجدلية، وبالطبع عبر أراضي سنكلير."

قلبت تامي الخريطة، وكان على ظهرها خريطة أخرى لباريس. تتبّعت تامي الخريطة بإصبعها، فضحكت ضحكة عالية عندما رأت علامة على شارع الضفّة اليسرى لنهر السين مرسومة بدائرة حمراء.

أشارت تامي إلى خريطة باريس وصاحت: "بالله عليكَ، ماذا تنوي يا سنكلير؟ كنيسة القدّيس سولبيس؟ هل طلبَ منكِ لقاءه هنا؟"

أجابت مورين: "أجلْ، هل تعرفينها؟"

"طبعاً. إنها كنيسة ضخمة، هي الأكبر في باريس بعد كاتدرائية نوتردام، ويُطلَق عليها أحياناً اسم كاتدرائية الضفّة اليسرى. وهي مقرّ نشاطات جمعيات سرية منذ القرن السابع عشر. لو أنّي علمت بهذا الأمر لكنت سبّقت موعد رحلتي إلى باريس لبضعة أيام، فأنا أتمنّى أن أشهد لقاءَك بزعيم الجمعيّة."

"لم أقرّر الذهاب بعد. يبدو الأمر برمّته غير معقول! ليس لدي أي معلومات للاتصال به: لا رقم هاتف، ولا عنوان بريد إلكتروني. حتى إنه لم يطلب منّي أن أجيب بقبول دعوته أو رفضها، كأنه يفترض أني سأذهب حتماً!"

"هذا الرجل معتاد على الحصول على كل ما يريد. ولسبب ما لا أفهمه، يبدو أنه يريدكِ. لكن عليكِ الإقلاع عن اتّباع القواعد الاجتماعية التقليدية إذا تورّطتِ مع أولئك الناس. هم ليسوا خطِرين، إنما قد تجدينهم غريبي الأطوار. إن عالمهم مليء بالألغاز، وعليك أن تفكّي رموز بعضها لتثبتي جدارتك بدخول دائرتهم الضيقة."

"لا أدري إن كنت أريد إثبات استحقاق دخول هذه الدائرة الضيقة."

شربت تامي ما تبقّى في قعر كأسها، وختمت الحديث بقولها:

"عليك الاختيار، يا عزيزتي. أنا شخصياً لا أريد أن أفوّت دعوة كهذه مهما كان الثمن. إنها فرصة حياتك. اذهبي كصحفيّة للبحث والاستقصاء. لكن انتبهي، بعد أن تدخلي هذا العالم الغامض، يصبح الأمر مثلما حدث مع أليس في بلاد العجائب: المشي عبر المرآة والوقوع في جحر الأرنب.

"لذلك كوني حذرة وتمسّكي بحقيقتك يا صغيرتي أليس المحافِظة."

لوس انجلوس
نيسان (أبريل) 2005

كان النقاش مع بيتر حامياً أكثر ممّا توقّعت. فمورين تعلم أنّه سيعارض قرارها بلقاء سنكلير، لأنها غير مستعدّة لتغيير رأيها مهما حاول بيتر.

"تمارة وزدوم إنسانة معتوهة، فكيف سمحتِ لها بإقناعك؟ كما إنها ليست مرجعاً موثوقاً عن شخصيّة هذا المدعوّ سنكلير."

احتدم النقاش خلال تناول بيتر ومورين الغداء: فهو يقوم بدور الشقيق الأكبر والحامي المهتمّ بسلامتها وهي تحاول إفهامه سبب اتخاذها ذلك القرار.

"أنت تعرفني يا بيتر، فأنا لا أحبّ المجازفات وأسيّر حياتي بانتظام وانضباط. وأقول لك بكل صراحة: هذا الأمر يخيفني."

"إذاً، لماذا تُقدمين عليه؟"

"لأن الأحلام والمصادفات العجيبة تخيفني أكثر. لا أستطيع السيطرة عليها.

لقد ازدادت سوءاً وأصبحت تطاردني باستمرار وبقوّة. أشعر أن عليَّ سلوك هذا الدرب ومعرفة نهايته. قد يكون لدى سنكلير الإجابات التي أبحث عنها، كما يقول. فإذا كان بالفعل اكثر الناس خبرةً بموضوع مريم المجدلية، فقد يجد تفسيراً لبعض ما يجري لي. وليس أمامي سوى طريقة واحدة لمعرفة الحقيقة، فهل هناك غيرها؟"

في نهاية ذلك النقاش المضني، اذعنَ بيتر بشرط واحد عبّر عنه بقوله: "سأذهب معك."

وهكذا كان الاتّفاق.

صباح يوم السبت التالي، كانت مورين خارجة من وكالة وستوود للسفريات، فامسكت هاتفها الخلوي وطلبت رقم بيتر. لم تكن قد أخبرته بكل شيء. فقد كان يعاملها أحياناً كأنها لا تزال طفلة وهو وصيّ عليها. ومع تقديرها لاهتمامه بها، فهي امرأة راشدة وعليها اتخاذ بعض القرارات بنفسها في تلك المرحلة المصيرية من حياتها. وهكذا بعد أن اتخذت القرار وأصبحت تذاكر السفر بحوزتها، حان الوقت لإخباره.

"مرحباً. كل شيء جاهز، والتذاكر معي. اسمع، لقد قررتُ، دون تخطيط مسبق، السفر إلى نيو أورلينز قبل أن نغادر إلى فرنسا."

صمت بيتر لحظات متفاجئاً، وسألها: "نيو أورلينز؟ حسناً، سنطير من هناك إلى باريس إذاً؟"

أصبح الموقف حرجاً بالنسبة لمورين ولم تُرِد أن يقاطعها، فسارعت بالقول: "كلا، إني ذاهبة إلى نيو أورلينز وحدي. عليّ أن أقوم بذلك بنفسي. بيتر، سوف ألاقيك في مطار جون كنيدي في اليوم التالي، ونأخذ الطائرة من هناك إلى باريس."

صمت بيتر لحظة ثم عبّر عن موافقته بكل بساطة: "حسناً".

شعرت مورين بالذنب وكأنّها خدعته، فقالت: "أنا في وستوود وقد خرجت لتوّي من وكالة السفر، فهل نلتقي على الغداء؟ إني أدعوك وأترك لك اختيار المكان."

"إني مشغول. عندي اليوم حلقات دراسية للمراجعة للامتحانات النهائية في لويولا."

"لا تقلْ لي إنك لا تستطيع إيجاد بديل عنك لتعليم اللاتينية بضع ساعات!"

"لو كانت اللاتينيّة لهانَ الأمر. إنها اليونانيّة، وأنا مدرّس اليونانيّة الوحيد هنا. لذلك ليس هناك من يستطيع إنقاذي اليوم."

"حسناً. لا بدّ أن تخبرني يوماً لماذا يحتاج شباب القرن الحادي والعشرين إلى تعلُّم لغات ميتة."

كان بيتر يدرك أنها لا تعني ما تقول لأنها تقدّر مهاراته اللغوية والتعليمية حق قدرها، فقال:

"للسبب نفسه الذي دعاني لتعلّم اللغات الميتة، وجَدّي من قبلي. وكانت مفيدة لنا، أليس كذلك؟"

ذلك أمر لا تستطيع مورين إنكاره، ولا حتى مُزاحاً. هي تعلم أن جَدّ بيتر، الموقّر الدكتور كورماك هيلي، كان في القدس عضواً في لجنة درسَت بعض أهم مخطوطات نجْع حمّادي وترجمتها. وقد نما حبّ بيتر للمخطوطات القديمة، خلال فترة مراهقته، عندما أمضى الصيف في فلسطين مع جدّه. وشارك بيتر، ضمن دورة تدريبية، في بعثة استكشافية في خِربة قُمران حيث نُسخت مخطوطات البحر الميت. وقد احتفظ، على مدى سنوات، بقطعة آجُرّ صغيرة من قمران في علبة صغيرة على مكتبه. لكن عندما لمس لدى ابنة عمّته شغفاً أصيلاً بعملها ككاتبة، رغب في إهدائها إياها لتكون لها حافزاً على الإلهام. وضعت مورين الآجرّة في كيس جلدي صغير، كانت تعلّقه حول عنقها كلما جلست للكتابة بشكل جَدّيّ.

وخلال ذلك الصيف، وجد الفتى بيتر دعوته كعالِم وككاهن. فقد زار الأماكن المقدّسة المسيحية برفقة مجموعة من الآباء اليسوعيّين، وكان لهذه التجربة أثرها العميق على ذلك الشاب الإيرلندي المؤمن بالمثاليّة، إذ وجد في الرهبنة اليسوعية خير ما يلبّي ميوله الدينيّة والدراسيّة.

اتّفقت مورين معه على اللقاء لاحقاً خلال الأسبوع. وعندما انتهت مكالمتهما شعرت بارتياح كبير لم تشعر بمثله منذ عدة أشهر.

أما الأب بيتر هيلي فلم يكن يشعر بالارتياح أبداً.

تضمّ مباني إرسالية الرهبنة الفرنسيسكانية في كاليفورنيا عدداً من أهمّ المباني التاريخية على الشاطئ الغربي للولايات المتحدة. وقد أسّس هذه الإرسالية الراهب الفرنسيسكاني المعطاء، الأب جونيبيرو سيرا، في القرن الثامن عشر، ولا تزال معظم أبنيتها قائمة حتى اليوم بين الحدائق الجميلة وروائع الطبيعة، شاهداً على جمال فن العمارة الإسباني.

كان بيتر شديد الانجذاب إلى الرهبَنة الفرنسيسكانية، فجعل زيارة جميع مواقع إرساليتها في كاليفورنيا هدفاً يسعى إليه منذ اليوم الأول لوصوله إلى الولاية. كانت هذه المواقع تجمع التاريخ والإيمان، وهذا ما وجد صداه في قلب بيتر وروحه. فكلّما احتاج وقتاً وفسحةً للتفكير، لجأ إلى أحد هذه الأماكن التي يمكن الوصول إليها بسهولة من جنوب كاليفورنيا. وكان لكل منها سحره الخاص، مع أنها كلها أشبه بواحات من الهدوء والطمأنينة، وهذا بالضبط ما ينشدُه بيتر هرباً من إيقاع حياته السريع في لوس أنجلوس.

اختار في ذلك اليوم دير سان فرناندو لقربه من مكان صديقه الأب بريان روركه، وهو رئيس دير اليسوعيّين في ضاحية وادي سان فرناندو. وتعود الصداقة بينهما إلى أيام بيتر الأولى في معهد اللاهوت حيث كان الأب بريان، الذي يكبره سنّاً معلّمه. وبيتر اليوم بحاجة إلى صديق موثوق يلجأ إليه بعيداً عن كل شيء حتى عن الكنيسة التي يحبّها ويطيعها. وافق الأب بريان على استقبال بيتر من دون موعد مسبق لأنه أحسّ شيئاً من الذعر في نبرة صوته.

مشى الاثنان في حدائق الدير وكانت الشمس تسطع بعد ظهر ذلك اليوم. مسح بيتر العرق المتصبّب من جبينه بقفا يده، وسمع الأب بريان يسأله: "هل تقوم ابنة عمّتك بواجباتها كمؤمنة كاثوليكيّة؟"

"بشكل متقطّع. لكنها، في صغرها، كانت مُواظبة. كلانا كنّا مواظبين."

عاد الأب روركه ليسأل: "وهل حدث ما يمكن أن يكون قد أبعدها عن الكنيسة؟"

تمهّل بيتر قبل أن يجيب: "مسائل عائلية، أفضّل ألّا أدخل في تفاصيلها." فقد كان يشعر أساساً أن الكشف عن رؤى مورين من دون استئذانها هو نوع من الخيانة، فلا ينبغي أن يكشف أسرارها العائلية أيضاً، في هذه المرحلة على الأقل. لكنّه كان محتاراً في ما يجب عمله، ويحتاج إلى نصيحة سديدة من شخص يثق به في إطار الكنيسة.

هزّ الكاهن الكهل رأسه دلالة على تفهّمه حساسية الموضوع العائلي، وأجاب: "من النادر أن تكون هذه الأشياء رؤى مقدّسة ثابتة. فهي أحياناً مجرّد أحلام أو أوهام من أيام الطفولة. والأرجح أنْ لا شيء يدعو إلى القلق. ألن ترافقها إلى فرنسا؟"

"بلى. فأنا مرشدها الروحي والشخص الوحيد الذي تثق به حقاً."

"عظيم. هذا أمر جيّد. فبإمكانك مراقبتها بعناية. اتّصِلْ بي فوراً إذا لاحظت أن هذه البنت أصبحت خطيرة على نفسها بأي شكل من الأشكال. سوف نساعدك على تخطّي الصعوبات."

ابتسم بيتر وطمأنه قائلاً: "أعتقد أن الأمور لن تصل إلى هذا الحدّ." ثم شكر صديقه قبل أن ينتقل إلى الحديث عن الحَرّ الشديد في كاليفورنيا مقارنةً بأيام الصيف المعتدلة في بلدهما الأصلي إيرلندا. بعد ذلك، أخذا يتذكّران أصدقاءهما القدامى ويتحدثان عن معلّمهما السابق ابن بلدهما الذي أصبح الآن مطراناً في مكان ما في إحدى الولايات الجنوبيّة الشرقية. وعندما حان وقت الانصراف، أكّد بيتر لصديقه القديم أنه مرتاح جداً بعد حديثهما.

لكنه كان يكذب.

عاد الأب بريان روركه إلى غرفته بعد ظهر ذلك اليوم منقبض الصدر مضطرب الضمير. جلس هناك طويلاً وهو يحدّق بالصليب المعلّق على الحائط خلف مكتبه. ثم أخرج نفساً عميقاً يُعبّر عمّا في نفْسه مِن إذعان لأمر مُحتَّم. تناول الهاتف وطلب رقماً يبدأ برمز ولاية أريزونا. وكان يحفظ الرقم فلم يبحث عنه في أي مفكّرة أو دليل.

نيو أورلينز
حزيران (يونيو) 2005

قادت مورين سيّارتها المستأجرة مخترقةً ضواحي نيو أورلينز، وقد فتحت، على المقعد الخالي قربها، خريطة للمنطقة. خفّفت السرعة وتوقّفت بجانب الطريق، ونظرت إلى الخريطة للتأكد من أنها تسلك الاتّجاه الصحيح. وبعدما اطمأنّت لذلك، عادت إلى الطريق ثانية، ثم التفّت عند المنعطف التالي فبرزت المدافن الحجرية التي تشبه النواويس والتي تتميّز بها مقبرة نيو أورلينز.

أوقفت مورين السيارة في المكان المخصص للسيارات، وتناولت من المقعد الخلفيّ حقيبة يدها الكبيرة والزهور التي كانت قد اشترتها من بائع على أحد الأرصفة. ترجّلت من السيارة بحذر لئلّا تدوس في البرك الصغيرة الموحلة التي خلّفتها أمطار الصيف المبكّرة، ونظرت نحو تلك الأرض الشاسعة التي اصطفّت فيها المدافن بانتظام وتوزّعت الشواهد وأكاليل الزهر على مساحة كبيرة جداً. أخذت مورين نفَساً عميقاً وتوجّهت نحو بوابات المقبرة حاملة أزهارها معها. توقّفت عند البوابة الرئيسيّة ونظرت، لكنها استدارت بعزم نحو اليسار ومشت من دون أن تدخل المقبرة.

مشت خارج البوابات ملتفّةً حول محيط المقبرة إلى أن وصلت إلى مجموعة أخرى من القبور لكنّها مُهمَلة، مثيرة للشفقة، وقد نمت عليها الطحالب والأعشاب. إنّها مقبرة المنبوذين!

سارت ببطء وانتباه واحترام. حبست دموعها وهي تتجاوز قبوراً مَنسيّة لأناس خُذلوا وأُهملوا حتى في مماتهم. وقرّرت أنها في زيارتها القادمة ستُحضر الكثير من الأزهار... أزهار لكل هؤلاء.

ركعت أمام أحد القبور، وأزاحت الأعشاب النامية التي تغطي شاهِدَه البالي، فظهر الاسم: إدوارد بول باسكال.

بدأت مورين هجومها الانتقاميّ على هذا العشب المتعدّي على القبر، وأخذت تقتلعه بيديها لتنظّف القبر غير عابئة بالتراب المتجمّع تحت أظافرها والمتناثر على ثيابها. ثم مهّدت المنطقة بيديها ومسحت شاهد القبر لإعادة الوضوح إلى الأحرف الدالّة على اسم مَن يضمّه.

بعد أن رأت مورين أنّها نظّفت المكان بقدر ما تستطيع، وضعت الأزهار على القبر، ثم أخذت من حقيبتها صورةً في إطار، فتأمّلتها لحظات وراحت تبكي. كانت الصورة لمورين، وهي طفلة في الخامسة أو السادسة، تجلس على ركبتي رجُل يقرأ لها من كتاب قصص، وكان الاثنان يتبادلان الابتسام غير مهتمّين بآلة التصوير.

همسَت للصورة، قبل أن تضعها على بلاطة الضريح: "مرحباً، بابا."

ظلّت مورين لحظات مغمَضة العينين، ضائعةً في محاولتها لتتذكّر أيّ شيء عن والدها، إذْ لم يكن لديها شيء سوى هذه الصورة ليوقظ فيها أيّ ذكرى عنه. لقد منعَت أمّها، بعد وفاته، أي حديث عنه أو عن دوره في حياتهم. فهو بكل بساطة، لم

يعد موجوداً بالنسبة إليهم، وكذلك عائلته. وقد انتقلت مورين وأمّها إلى إيرلندا بعد ذلك بفترة وجيزة، واستحال كلّ ماضيها في لويزيانا إلى ذكريات قاتمة عن طفلة مفجوعة وحزينة.

وكانت مورين، في وقت سابق من ذلك الصباح، قد قلّبَت دليل هاتف نيو أورلينز بحثاً عن أسماء السكان من عائلة باسكال. وجدت عدداً من الأسماء، بدا بعضها مألوفاً، لكنها أطبقت الدليل بسرعة لأنها لم تكن تنوي فعلاً الاتصال بأحد من أقاربها المحتمَلين، خصوصاً بعد كل تلك المدّة الطويلة. لكنها، على الأقلّ، تذكّرت أسماء بعض أفراد عائلتها.

لمست مورين الصورة لمسةَ وداع، ومسحت دموعها بيد موحِلة، فلطّخت وجهها، لكنها لم تكترث لذلك. واستدارت ومشت من دون الالتفات إلى الوراء، حتى وصلت أمام بوابات الدخول الرئيسية. كانت هناك، خارج المقبرة الرسميّة، كنيسة صغيرة قديمة، بيضاء اللون، يعلوها صليب نحاسي مصقول يلمع تحت نور الشمس.

نظرت مورين إلى الكنيسة عبر قضبان السياج كإنسان غريب عن مكان لا ينتمي إليه ويخشى دخوله.

أزاحت ناظريها بعيداً عن لمَعان الضوء المنعكس من الصليب النحاسي، وأدارت ظهرها للكنيسة ومضت في سبيلها.

حاضرة الفاتيكان، روما
حزيران (يونيو) 2005

قام الكردينال توماس دي كارو عن مكتبه ونظر خارج النافذة نحو الساحة. لم تكن عيناه الهَرمتان وحدهما بحاجة للراحة بسبب كدسة الأوراق المصفرّة على مكتبه. فقد كان عقله وضميره بحاجة للراحة والتفكير في المعلومات التي تلقّاها صباحاً. هناك زلزال على الأبواب! وهذا كان مؤكّداً. لكنْ، ما لم يكن يعرفه هو مدى الضرر الذي سيُحدثه ذلك الزلزال المدوّي ومَن هم ضحاياه.

فتحَ دُرج مكتبه الأعلى لينظر إلى ما كان يمنحه القوّة في مثل تلك المواقف: صورة للبابا الطوباوي يوحنا الثالث والعشرين تحت العنوان: "المَجمع الفاتيكاني الثاني". وكان تحت الصورة قول لهذا القائد العظيم المتبصّر الذي لم يخشَ

المخاطر في سبيل جعل كنيسته المحبوبة مُواكِبةً للعصر. ومع أن دي كارو كان يعرف هذه الكلمات عن ظهر قلب، فإنه كان يستمدّ القوّة عند قراءتها:

"الأمرُ ليس أنّ الإنجيل قد تغيّر، إنّما أننا بدأنا نفهمه بشكل أفضل. لقد آن الأوان لكي نميّز علامات الأيام، ونغتنم الفرصة وننظر إلى الأمام."

كان الصيف في الخارج يقترب ويعد بأن يكون ذلك اليوم جميلاً في روما، فقرّر ترك عمله بضع ساعات والتجوّل في أنحاء مدينته الأبدية المحبوبة.

كان بحاجة للمشي والتفكير، وفوق كل شيء للصلاة من أجل الهداية. ولعلّ روح البابا التقيّ يوحنا المُلهِمة تنير طريقه لمُواجهة الأزمة الوشيكة.

... انضمَّ برتلماوس إلينا عن طريق فيلبّس، وهذا الأخير فرْد آخر من جماعتنا الذين أُسيء فهْمهم، وأعترف أنني أوّل من كوّنَ عنه رأياً خاطئاً. كان من أتباع يوحنا المعمدان فترةً طويلة وعلمتُ بأمره عبر علاقته تلك، ولهذا استغرقتُ وقتاً طويلاً قبل أن أتمكن من الوثوق به.

كان فيلبس شخصاً غامضاً يجمع صفات الإنسان العملي والعالِم المثقّف. تمكّنتُ من التحدّث معه بلغة الهِلّينيين التي تعلّمها أيضاً. هو يتحدّر من عائلة نبيلة، إذ وُلد في بيت صيدا، واختار مع ذلك أن يحيا حياة في غاية البساطة مُتخلّياً عن مفاتن حياة النبلاء. وقد أخذ هذا المنحى عن يوحنا المعمدان. كان فيلبس يبدو صعباً ومُشاكِساً، لكنه في الحقيقة لطيف وطيّب.

لم يكن في فيلبس شيء يمكن أن يؤذي مخلوقاً آخر. لقد كان، في الواقع، صارماً بالنسبة لمَأكله، فلا يمكن أن يتناول أيّ طعام كان سبباً لعذاب لأي حيوان. ففي حين كان بقيّة الجماعة يعيشون على السمك، ما كان فيلبس يأكله بتاتاً. لم يتحمّل فكرة الصنّارة التي تَعلق بأفواه الأسماك الرقيقة وتمزّقها ولا العذاب الذي تخيّلَ أن الأسماك تعانيه عندما تقع في الشِباك. وكثيراً ما تشاجر مع بطرس وأندراوس حول هذه المسألة. لقد تأملتُ هذا الموضوع مراراً، ولعلّه كان مُحِقاً، عِلماً بأن التزامه بمبدئه هذا كان أحد أسباب إعجابي به.

أحسسْت أحياناً أن فيلبس يُشبه تلك المخلوقات التي يتعاطف معها، تلك التي تحمي نفسها بالأشواك أو الدروع العَظْميّة ضدّ أي شيء يمكن أن يخترقها ويصل إلى كيانها الرقيق بالداخل. وفوق ذلك، وضعَ برتلماوس تحت حمايته عندما وجده في الطريق بلا مأوى. لقد رأى الطيبة في برتلماوس وأتى بها إلينا.

بعد عصر الظلمات، كان فيلبس وبرتلماوس أكبر عون لي. وقد اتّخذا الترتيبات الأوليّة، مع يوسف، ليأخذونا كلّنا بسرعة إلى الإسكندريّة، حيث الأمان بعيداً عن أرضنا. كان برتلماوس مُهمّاً للأولاد بقدر أهميّة النساء. والواقع أنه كان مُعيناً ليوحنا الصغير الذي أحبّ أيضاً جميع الرجال. لكنّ سارة - تامار أحبّت برتلماوس بالقدر نفسه.

أجلْ، يستحقّ هذان الرجلان مكاناً في السماء مليئاً بالنور والكمال إلى الأبد. لقد أصبح هَمّ فيلبس الوحيد حمايتنا وإيصالنا

إلى المكان الذي نقصده. وأعتقدُ أنه لم يكن أي شيء ليقف في طريقه، مهما طلبتُ منه. حتى ولو قلت لفيلبس إننا نريد الوصول إلى القمر لبذل كل ما في استطاعته لتحقيق أمنيتنا.

إنجيل الآرك لمريم المجدلية

كتاب الرسل

الفصل السادس

باريس
19 حزيران (يونيو) 2005

مشى بيتر وموريين بمحاذاة نهر السين وقد تلألأ النور على صفحة مائه. كانت شمس مطلع الصيف في باريس تغمر المدينة بالدفء، فأثارت لديهما الشعور بالغبطة. راحا يستمتعان بمشاهدة معالم أجمل مدينة في العالم، وتركا هَمّ التفكير في مقابلة سنكلير لوقت لاحق، إذ كان أمامهما يومان لموعدها.

حمل كل منهما قرناً من الأيس كريم وأخذا يأكلان بسرعة مخافة أن تذيب الشمس تلك الحلوى اللذيذة فتسيل دَبِقةً على أيديهما.

"أنت محِقّ يا بيتر. قد تكون أيس كريم "برتيّون" الأطيب في العالم. إنها رائعة!"

"أيّ نكهة طلبتِ؟"

أرادت موريين ان تختبر معرفتها بالفرنسية، فقامت بعدة محاولات للتعبير عن نكهة الإجّاص، لكنّها لم تجد الكلمة الفرنسية الصحيحة إلا بعد المحاولة الثالثة ممّا جعل بيتر يصوّب كلامها مُبتسماً. فقالت له أخيراً:

"حسناً. نعرف مَن هو عالِم اللغويّات في العائلة!"

"ليس صحيحاً. فأنتِ تتكلمين الإنكليزية بطلاقة!"

ضحك الاثنان معاً، وأكملا سيرهما واستمتاعهما بجمال ذلك اليوم.

تقف كاتدرائية نوتردام (السيدة العذراء) شامخة، منذ 800 سنة، بضخامة هندستها

القوطية، فوق جزيرة إيل دو لاسيتيه القائمة في وسط مياه نهر السين. عند اقتراب مورين وبيتر من الكاتدرائية، نظر بيتر بمهابة إلى شكلها الخارجي وما فيه من تماثيل قديسين ونواتئ حجريّة ذات أشكال متعددة.

"لما رأيتُها أول مرة قلت إن المسيح يعيش هنا! هل تريدين الدخول؟"

"لا. أفضّل البقاء خارجاً حيث أنتمي مع هذه الأشكال الحجريّة!"

"إنها أهمّ مبنى قوطي الطراز في العالم كله ورمز باريس، وواجبك كسائحة يفرض عليك الدخول. بالإضافة إلى ذلك، ستجدين الزجاج الملون رائعاً، وعليك رؤية النافذة الوردية تحت شمس الظهيرة."

تردّدت مورين، لكنّ بيتر أمسكها من يدها وجرّها وراءه، قائلاً: "هيّا، أعدك بأن الجدران لن تهبط عليك!"

❀

اخترقت الشمس النافذة الوردية الشهيرة، فانعكست أشعتها على بيتر ومورين متوهّجةً في مزيج لونيّ رائع من الأزرق السماوي والأحمر القرمزي. وقف بيتر مُعجباً وهو يرفع رأسه نحو النوافذ، وأحسّ أنه في منتهى السعادة. وكانت مورين تمشي قربه متمهّلةً وهي تحاول جاهدةً تذكير نفسها بأنها في مبنى ضخم ذي أهمية تاريخية ومعمارية وليس مجرّد كنيسة كسائر الكنائس.

مرّ بهما كاهن فرنسي وهزّ رأسه تحيّة لهما. تعثّرت مورين أثناء مروره، فتوقّف ومدّ يده ليُعينها على الوقوف وسألها، بلغته الفرنسية، عن وضعها. ابتسمت له مورين رافعة يدها للدلالة على أنها بخير وجاء بيتر إلى جانبها، فيما أكمل الكاهن الفرنسي سيره.

"هل أنتِ بخير؟"

"أجلْ. إنه دُوار بسيط. قد يكون بسبب تعب السفر."

"لم تنامي جيداً في اليومين السابقين."

"ربما يكون هذا هو السبب." وأشارت مورين إلى أحد المقاعد الخشبية الجانبية مقابل النافذة الوردية، قائلةً: "سأجلس هنا قليلاً وأتمتّع بمنظر الزجاج الملون. تابع جولتك أنت."

بدا بيتر قلقاً، لكن مورين أشارت له بيدها ليذهب، وقالت: "لا تقلق. إني بخير. أكملْ جولتك، وسأنتظرك هنا."

نزل بيتر عند طلبها وتركها ليجول في الكاتدرائية. جلست مورين على المقعد وعدّلت جلستها. لم تشأ أن تخبر بيتر بمدى الضعف الذي أحسّت به فجأة. كانت تعلم أنها إذا لم تجلس ستقع حتماً. لا بد أن ذلك عائد لتعب السفر وقلّة النوم.

مسحت مورين وجهها بيديها محاولةً تخفيف الدوار. انبعث من النافذة الوردية سيل من أشعة متموّجة الأشكال والألوان، وانعكست على المذبح، فأنارت صليباً كبيراً وراءه.

أخذت مورين تفتح عينيها وتغمضهما بسرعة. تراءى لها أنّ الصليب يكبر ويكبر ثم يتلاشى شيئاً فشيئاً من أمام ناظريها.

أمسكت رأسها بيديها وقد استبدّ بها الدوار وسيطرت عليها الرؤيا.

شَقّ البرق حجاب السماء المظلمة بعد ظهر يوم الجمعة، وكان يوماً لم تشهد فيه الأرض سواداً بمثل سواده. تعثّرت المرأة ذات الرداء الأحمر، وهي تندفع مذعورةً للوصول إلى قمة الهضبة. لم تكترث لكل الجراح التي خدشت أنحاء جسمها ومزّقت ثيابها، فغايتها الوحيدة كانت الوصول إليه.

اخترق الأجواء صوتُ قرقعة حادّة: معدن يطرق معدناً. إنه صوت مطرقة تدقّ مسماراً. هنا، لم تعد المرأة تتمالك نفسها، فأخذت تنتحب. وكان عويلها، على فَرادَته، صوتَ العذاب الإنساني الذي لا شفاء منه.

وصلت المرأة عند أسفل الصليب مع بدء هطول المطر. رفعَت نظرها إليه وتساقطت قطرات من دمه على وجهها المذعور فامتزجت مع قطرات المطر الغزير.

كانت مورين، وهي واقعة في بُحران الرؤيا، ذاهلةً عن مكان وجودها. جاءت

صرختها صدىً أميناً لحزن مريم المجدلية، فدوَّت في أرجاء كاتدرائية نوتردام وأثارت الرعب في قلوب الزوّار وجعلت بيتر يطير إليها هلِعاً.

"أين نحن؟"

أفاقت مورين لتجد نفسها على أريكة في غرفة تكسو جدرانَها ألواح خشبية. رأت وجه بيتر القاتم يقف قربها وهو يجيبها: "أنتِ في أحد المكاتب التابعة للكاتدرائية." ثم أومأ برأسه للكاهن الفرنسي نفسه الذي كانا قد التقيا به في الكاتدرائية، وكان قد دخل من باب خفيّ في مؤخرة الغرفة، ونظر نحوهما باهتمام.

"لقد ساعدني الأب مرسيل وأحضرناك إلى هنا. لم تكوني قادرة على الحركة."

تقدّم الأب مرسيل وناولها كوب ماء. شربت قليلاً، وشكرته بالفرنسية، فردّ عليها بِهَزّ رأسه وعاد إلى زاوية الغرفة ينتظر صامتاً في حال أشارا إليه طلباً للمساعدة. قالت مورين لبيتر بصوت واهٍ: "أنا آسفة."

"لا حاجة للاعتذار. من الواضح أن الأمر خارج إرادتك. هل تخبريني بما رأيتِ؟"

سردت مورين على مسمع بيتر تفاصيل الرؤيا، وكان وجهه يبيضّ وحدقتاه تتّسعان مع كل كلمة. وعندما انتهت من كلامها، نظر إليها نظرة حادّة.

"اسمعي يا مورين! ما سأقوله لن يُعجبك: أعتقد أنّك ترين رؤى سماويّة."

سألته مُداعبةً: "أتظنّ أنني يجب أن أتشاور مع كاهن؟"

"إنّي جادّ. لا خبرة لي في هذا المجال. لكني أستطيع إيجاد مَن يعرف هذه الأمور. والمطلوب منكِ التحدّث معه، لا أكثر. قد يفيدك ذلك."

نهضت مورين على الأريكة وقالت بكل حزم: "مستحيل. خذني إلى الفندق لأرتاح قليلاً. وبعد أن أنام بعض الوقت سأكون في أحسن حال."

هدأت مورين بعد الرؤيا، واستطاعت أن تنهض وتمشي، من دون مساعدة، إلى خارج الكاتدرائية. وسرّها أنها سلكت مخرجاً جانبياً ولم تضطرّ لعبور ذلك الصرح المسيحي العظيم من الداخل مرة ثانية.

بعد أن اطمأنّ بيتر لوصولها إلى غرفتها سالمةً، عاد إلى غرفته. جلس لحظة يفكّر في إجراء مكالمة هاتفيّة. لكنّه تنبّه إلى أن الوقت يكون مبكّراً في الولايات المتحدة، فقرّر الخروج فترة والعودة عندما يكون الوقت ملائماً للاتّصال.

في مكان آخر قرب مجرى نهر السين، كان الأب مرسيل يمشي ثانيةً عبر الجزء الداخلي للكاتدرائية القوطية الشهيرة، وكان مُضاءً بالشموع. تبعَه، هذه المرة، رجل الدين الإيرلندي، المطران أوكونور، الذي كان يحاول أن يطرح أسئلة بلغة فرنسية ركيكة.

قاده الأب مرسيل إلى المقعد حيث وقعت مورين في الرؤيا، شارحاً رأيه على مهل، في محاولة منه لتجاوز الحاجز اللغوي بينهما. ومع أن الكاهن الفرنسي بذل جهداً صادقاً للتفاهم مع المطران الإيرلندي، فقد بدا كأنه يخاطب شخصاً أبله. فصرفه أوكونور بَرِماً واستقرّ على المقعد وراح ينظر إلى الصليب وراء المذبح متأملاً بعمق.

باريس
19 حزيران (يونيو) 2005

كهف الفرسان لا يثير الشؤم في النهار حين تُنيره أضواء النيون القويّة. كان الموجودون فيه يلبسون ثياباً عادية، من دون أن يلفّوا حول أعناقهم الحبال الحمراء الغريبة التي تُعلن انتماءهم إلى طائفة الصالحين.

عُلّقت على الحائط الخلفيّ صورة منقولة عن لوحة يوحنا المعمدان لليوناردو دافنشي، وذلك على مسافة قريبة من مكان وجود اللوحة الأصلية النفيسة في متحف اللوفر. يظهر يوحنا، في هذه اللوحة الشهيرة، وعلى ثغره ابتسامة العارف،

وهو يشير بالإبهام والسبّابة في اليد اليمنى نحو السماء. وقد رسم ليوناردو يوحنا، في عدة مناسبات، في هذا الوضع الذي يرى البعض أن الفنان أراده للقول: "تذكّروا يوحنا". علماً بأن المعنى المقصود من حركة اليد تلك كان مثار جدل، على مرّ الزمن.

جلس الرجل الإنكليزي كالعادة على رأس الطاولة واللوحة وراءه، وجلس إلى جانبيه رجل أميركي وآخر فرنسي، كلّ من جهة.

قال الرجل الإنكليزي محتدّاً: "لست أفهم بالضبط ماذا يريد أن يفعل!" وأخذ كتاباً مُجلّداً عن الطاولة مُلوِّحاً به للرجلين، ثم أضاف: "لقد قرأته مرتين، ولم أجد فيه شيئاً جديداً. لا شيء ألبتّةَ ممّا قد يهمّنا أو يهمّه. فما الأمر إذاً؟ هل يعلم أيّ منكما شيئاً عن الموضوع؟ أم تُراني أخاطب نفسي؟"

رمى الرجل الإنكليزيّ الكتاب على الطاولة بازدراء واضح. التقطه الأميركي وأخذ يقلّب صفحاته بلا اهتمام.

توقّف الأميركي عند طيّة الغلاف الخارجي، ونظر إلى صورة المؤلفة، وعلّق بقوله: "إنها فاتنة! قد يكون هذا هو كل ما في الأمر."

رمقه الرجل الإنكليزي بنظرة ساخرة لاعتباره أن هذا الأميركي التافه مقصّر عن إدراك حقيقة الأمر. وهو أصلاً لا يحبّذ وجود أعضاء أميركيين في الطائفة. لكنّ ذلك المغفّل هو ابن عائلة ثريّة مرتبطة بثُرائهم وعليهم أن يتحمّلوه.

"مالُ سنكلير ونفوذه يضعان رهن إشارته من هُنّ أجمل من هذه الفاتنة، ساعةَ يشاء، وأخبار مغامراته العاطفية يتناقلها الناس في بريطانيا وأوروبا كلها. لا، هناك شيء آخر غير اللهو مع هذه الفتاة، وأريد أن تعرفا ما هو بسرعة".

قال الرجل الفرنسي واثقاً: "أرجّحُ أنه يعتقد أنها الراعية. لكن سأتمكّن من الجزم بذلك قريباً. سأسافر إلى لانغدوك في نهاية الأسبوع."

عاجله الرجل الإنكليزي بالقول: "لا تتأخّر حتى نهاية الأسبوع. سافر اليوم أو غداً، والأفضل اليوم. فأنت تعلم أن عنصر الوقت هامّ جداً."

قال الأميركي: "شعرها أحمر!"

هدر الرجل الإنكليزي: "بعشرين يورو تستطيع أيّ ساقطة، إذا أرادت، أن تكون ذات شعر أحمر. اذهبا واكتشِفا سبب أهمّيتها بسرعة. فإذا وجد سنكلير ما يبحث عنه قبل أن نجده نحن..."

لم يُكمل جملته، فلا داعي لذلك. فالرجلان الآخران يعلمان بالضبط ما يحدث عندها، ويعرفان ما حدث فعلاً في المرة الأخيرة حين كاد رجل من الطرف الآخر يَصل إلى حيث لا يريدون. كاد الرجل الأميركي، على وجه الخصوص، يُصاب بالغثيان والاضطراب وهو يتصوّر المؤلفة الأميركية ذات الشعر الأحمر من دون رأسها.

التقط الأميركي كتاب مورين عن الطاولة ووضعه تحت إبطه وتبعَ رفيقه الفرنسي إلى الخارج حيث كانت شمس باريس تسطع متوهّجة.

وقف الرجل الإنكليزي الذي كان قد عُمّد باسم جوْن سايمون كرومويل، بعد خروج مرؤوسَيْه الأميركي والفرنسي، وابتعد عن الطاولة متوجّهاً نحو مؤخرة الكهف. وكان وراء الزاوية، بعيداً عن الغرفة الرئيسيّة، فجوة غير عميقة بداخلها خزانة ثقيلة من خشب داكن، وإلى جانبها مذبح صغير، أمامه مسند للركوع يتّسع لمتعبّد واحد.

كان على أبواب الخزانة زخارف من الحديد المشغول، وعلى الجزء السفليّ من الخزانة قفل ثقيل. مدّ الرجل الإنكليزي يده داخل قميصه باحثاً عن المفتاح المعلّق حول رقبته. ثم ركع ووضع المفتاح داخل القفل الضخم، وفتح الخزانة السفلى.

أخرج من الخزانة شيئين. أخذ أولاً زجاجة فيها، على ما يبدو، ماء مقدّس صبّه في جرن ذهبيّ موجود على المذبح. ثم أخرج وعاء ذخائر صغيراً مزخرفاً.

وضع كرومويل وعاء الذخائر برفق على المذبح وغمس يديه بالماء. فرك رقبته بالماء براحتي يديه وهو يقول دعاءً. ثم حمل وعاء الذخائر على مستوى عينيه، فظهر، عبر فتحة صغيرة في ذلك الوعاء الذهبي، شيء عاجيّ اللون. وقعقعت عظمة بشرية طويلة دقيقة مُثلّمة بداخل الوعاء، بينما كان الرجل الإنكليزي ينظر إليها. ضمَّ العظمة إلى صدره وتلا صلاة حارّة.

"يا معلّم الحقّ العظيم، اعلمْ أني لن أخذلك. لكننا نلتمس منك العون. ساعِدنا نحن الساعين إلى الحقّ. ساعدنا نحن الذين لا نحيا إلا لخدمة اسمك الممجَّد.

"ساعدنا، فوق كل شيء، على إبقاء العاهرة في مكانها."

مشى الاميركي، وقد أصبح وحده، في شارع الريفولي وهو يصيح في هاتفه الخلوي بصوت يعلو فوق صخب حركة المرور في باريس.

"لا يمكننا الانتظار أكثر من ذلك. إنه مُرتَدّ بكل معنى الكلمة ولا يُمكن السيطرة عليه."

جاء الصوت من الجهة الأخرى محتداً كذلك بلكنة أميركية شمالية ـ شرقية مصقولة، فالرجل الاكبر سناً، في المقلب الآخر، كان كلامه باتّاً وحازماً:

"نَفِّذ الخطة بحذافيرها. إنها خطة منهجيّة متكاملة ستوصلنا إلى غايتنا، وقد وضعها مَن هم أعلم منك بدرجات."

صاح الرجل الأصغر: "مَن هم أعلم مني ليسوا هنا، ولا يرون ما أراه. اللعنة! متى ستثق بي يا أبي؟"

"عندما تصبح أهلاً للثقة. أما الآن، فإياك أن ترتكب أيّ حَماقة."

أقفل الاميركي الشاب هاتفه الخلوي بعصبيّة وهو يسبّ ويلعن. كان قد انعطف عند الزاوية أمام فندق ريجينا مجتازاً ساحة الأهرامات. رفع رأسه وتوقف في اللحظة الاخيرة قبل اصطدامه بتمثال جان دارك المذهّب الذي صنعه الفنان العظيم فريمييه.

نظر إلى تلك البطلة، مُخلِّصة فرنسا، متبرّماً وبصق عليها، وهو يقول: "عاهرة"، غير عابئ بالناس حوله.

باريس
20 حزيران (يونيو) 2005

كان الهرم الزجاجي، الذي صممه المهندس أم. بيي، يلمع تحت ضوء شمس الصباح، في العاصمة الفرنسية. كان بيتر ومورين مرتاحين بعد ليلة هادئة أزالت عنهما تعب اليوم السابق. واصطفّا في طابور السياح لشراء تذاكر الدخول إلى متحف اللوفر.

نظر بيتر حوله متأملاً المنتظِرين في ذلك الصف الطويل مُمسكين المنشورات السياحية بأيديهم، وقال: "كل هذا الازدحام من أجل رؤية الموناليزا؟ أغلى لوحة في الدنيا، مع أني لم ولن أفهمها."

"أوافقك الرأي. لكنْ، أثناء تدافُعهم لرؤيتها، سنتمكّن نحن من التجوال في جناح ريشيليو بهدوء."

اشتريا بطاقتيهما ودقّقا في خريطة أقسام اللوفر. وسأل بيتر: "أين سنذهب أوّلاً؟"

أجابته مورين: "نيكولا بوسّان. أريد أن أرى لوحة رعاة أركاديا بعينيّ قبل أي شيء آخر."

اخترقا الجناح الذي يضمّ أعمال كبار الفنانين الفرنسيين، يحدّقان في الجدران بحثاً عن تحفة بوسّان المُبهَمة.

استعرضت مورين معلوماتها بصوت عالٍ: "أخبرتني تامي أن هذه اللوحة كانت موضع نزاع منذ مئات السنين. لقد ناضل لويس الرابع عشر للحصول عليها طوال عشرين سنة، ولما أصبحت بحوزته أخيراً أقفل عليها تحت الأرض في فرساي حيث لا يستطيع إنسان آخر رؤيتها. أليس هذا غريباً؟ لماذا، برأيك، يسعى ملك فرنسا بشراسة لوضع يده على عمل فني رائع ثم يخبّئه عن أعين الناس؟"

كان بيتر يتفحّص أرقام اللوحات في الكتيّب الذي بيده حين أجابها: "هذا لغز آخر من سلسلة الألغاز المتراكمة. وفقاً لما ذُكر هنا، تلك اللوحة يجب أن تكون..."

هتفت مورين: "هنا!" جاء بيتر إلى جوارها وأخذا يتأملان اللوحة صامتين، إلى أن قطعت مورين الصمت متوجّهة إلى بيتر بالكلام:

"أظنّ أني سانجة! كأنني أتوقع أن تخبرني اللوحة شيئاً." ثم أدارت ظهرها للّوحة وسألت: "هل تريدين أن تخبريني شيئاً، أيتها الراعية؟"

قال بيتر وقد تنبّه لشيء هامّ: "لماذا لم يخطر ببالي هذا الأمر مِن قبل؟"

"ما هو؟"

"فكرة الراعية. يسوع هو الراعي الصالح. فهل كان بوسّان ـ أو على الأقلّ سنكلير ـ يُشير إلى الراعية الصالحة؟"

صاحت مورين وقد أثارتها الفكرة: "أجلْ، أجلْ! لعلّ بوسّان أراد أن يُرينا مريم المجدلية الراعية، راعية قطيعها. قائدة كنيستها."

انكمش بيتر، وأوضحَ: "لكنني لم أقل ذلك بالضبط..."

"لم يكن عليك قوله بالحرف. انظرْ، هناك كلام باللاتينية منقوش على القبر في اللوحة."

قرأ بيتر النقش اللاتيني بصوت عالٍ: "أتْ إنْ أرْكاديا إيغو. لا معنى لهذا الكلام."

"ما ترجمتُه؟"

"لا يُترجَم. إنّه خَبيص لغويّ!"

"هات أفضل ما عندك."

"إمّا أن يكون مكتوباً بلغة لاتينية سيّئة، وإمّا أن يكون شِفْرة رمزية. وترجمته الحرفية جملة ناقصة هي، على وجه التقريب، "وفي أركاديا أنا..."، وهي، في الواقع، لا تعني شيئاً."

حاولت مورين الإصغاء، لكنّ انتباهها تشتَّت إذْ سمعَت صوت امرأة يتردّد في أنحاء المتحف وهي تنادي بإلحاح:

"ساندرو! ساندرو!"

نظرت حولها بحثاً عن مصدر الصوت، ثمّ اعتذرت من بيتر: "معذرةً، لكن صوت تلك المرأة صرف انتباهي."

سمعت مورين النداء ثانية بصوت أعلى، فغضبت وتساءلت: "من هذه؟"

التفتَ إليها بيتر منذهلاً، واستوضحها: "عمّن تسألين؟"

"المرأة التي تنادي..."

"ساندرو! ساندرو!"

نظرت مورين إلى بيتر، وكان الصوت يعلو. هو حتماً لم يسمع الصوت. تلفّتت حولها فوجدت الزائرين والطلاب مستغرقين في تأمّل الروائع الفنية المعلّقة على الجدران. أيقنَت أنْ لا أحد غيرها على علم بذلك الصوت الذي ينادي مُلعلعاً في أرجاء اللوفر.

"يا ألله! ألا تسمعه أنت؟ لا أحد يسمعه سواي!"

بدا بيتر كمَن أُسقِط في يده، وسألها: "أسمعه؟ ما هو؟"

"هناك صوت امرأة تنادي: ساندرو، ساندرو. إني أسمعه في كل جَنبات المتحف. تعالَ معي."

جذبت مورين بيتر بكُمّه وانطلقت باتجاه مصدر الصوت.

"إلى أين؟"

"سنتبع الصوت. إنه آتٍ من هذه الناحية."

اندفعا يخترقان ممرّات المتحف، ومورين تعتذر باقتضاب إلى الزوار الذين ترتطم بهم. أصبح الصوت همساً متواصلاً، لكنه كان يقودها إلى مكان ما، وكانت مصمّمة على ملاحقته. ركضا ثانيةً عبر جناح ريشيليو متجاهلين نظرة زاجرة رمقهما بها أحد حراس المتحف، ثم نزلا بضع درجات وسلكا ممراً متجاوزين إشارات عليها اسم جناح دينون.

"ساندرو... ساندرو... ساندرو...!"

انقطع الصوت فجأة عندما أصبح بيتر ومورين على رأس الدرج الكبير حيث يقف تمثال الإلهة اليونانية نايكي بعظمتها التي تجسّد الانتصار. وعندما استدارا يميناً، واجهتهما تحفتان غير شهيرتين من روائع عصر النهضة الإيطالية. فبادر بيتر إلى القول: "رسوم بوتيتشلي الجدارية على الجِبْس."

صُدم الاثنان معاً إذ فهما المقصود: ساندرو= أليساندرو بوتيتشلي."

نظر بيتر إلى اللوحات ثم إلى مورين، وسألها: "عجباً! كيف فعلت ذلك؟"

أجابت مورين مُرتعشةً: "لم أفعل شيئاً. سمعت الصوت وتبعته."

حوّلا انتباههما إلى الأشكال التي تقارب الحجم الطبيعي والموجودة في اللوحات الجدارية المصفوفة جنباً إلى جنب. وأخذ بيتر يترجم لمورين تعريفات

اللوحات. "تُدعى اللوحة الجدارية الأولى: فينوس وآلهات الحُسْن الثلاث يقدّمن الهدايا لامرأة شابة. واللوحة الثانية هي: رجل شاب تُقدّمه فينوس؟ للفنون العقلية، وقد رُسمت لزواج لورنزو تورنابيوني وجيوفانا ألبيزي."

تساءلت مورين: "لكن، لماذا وُضعت علامة استفهام بعد كلمة فينوس؟"

هزّ بيتر رأسه قائلاً: "ربما كانوا غير متأكّدين من أنها هي."

كانت اللوحة تمثيلاً بارعاً، لكن غريباً، لشاب يمسك بيد امرأة ملتفّة بعباءة حمراء، وهما يُواجهان سبع نساء، ثلاث منهنّ يحملن أشياء غريبة متنافرة الأشكال: فإحداهنّ تقبض على عقرب سوداء ضخمة كريهة الشكل، والثانية التي بجانبها تحمل قوساً، أما الثالثة فتمسك أداة هندسة معمارية بشكل غير ملائم.

أخذ بيتر يفكّر بصوت مسموع: "الفنون العقلية السبعة، ميادين التعليم العالي. هل هي للتعبير عن أن هذا الفتى واسع الثقافة؟"

"ما هي الفنون العقلية السبعة؟"

أغمض بيتر عينيه ليتذكّر دراساته الكلاسيكية، وراح يقول: "الثلاثيّة، أي الدراسات التمهيدية الثلاث، وهي النحو والبلاغة والمنطق. ثمّ الرباعيّة، أي الدراسات النهائية الأربع، وهي الحساب والهندسة والموسيقى وعلم الكون، وهذه مُستوحاة من فيثاغورس ونظريته القائلة إن جميع الأعداد توضح دراسة الأنماط في الزمان والمكان."

أجابت مورين بابتسامة: "هذا رائع. وماذا بعد؟"

هزّ بيتر كتفيه وقال: "لست أدري ما علاقة كل ذلك بهذا اللغز الذي يزداد غموضاً يوماً بعد يوم."

أشارت مورين إلى العقرب، وقالت: "وما سبب وجود امرأة تحمل هذه العقرب السامّة الضخمة؟ فأيّ فن عقلي تمثّله العقرب؟"

قال بيتر: "لست متأكداً من ذلك"، وكان قد اقترب من اللوحة الجدارية بقدر ما تسمح الحواجز في اللوفر، وأضاف: "لكن انظري جيداً. إن العقرب أقوى لوناً من بقيّة اللوحة، وخصوصاً الأشياء التي تحملها النساء. يبدو كأنها..."

أكملت مورين كلامه عنه: "كأنها أُضيفت لاحقاً."

"لكن من أضافها؟ ساندرو نفسه؟ أم أن هناك من عبث باللوحة؟"

هزّت مورين رأسها صامتةً وقد أذهلها الأمر برُمّته.

أثناء احتساء القهوة بالحليب، في مقهى متحف اللوفر، راحت مورين تستعرض مع بيتر ما اشترته من المتحف. لقد اختارت صوراً مطبوعة للّوحات التي تفحّصاها وكتاباً عن حياة بوتيتشلي وفنه.

"أريد أن أعرف المزيد عن مصادر تلك اللوحة الجدارية."

"إنني اكثر اهتماماً بمعرفة شيء عن مصادر ذلك الصوت الذي قادك إلى حيث اللوحات."

أخذت مورين رشفة من قهوتها وتساءلت: "ماذا كان يا تُرى؟ عقلي الباطن؟ توجيه إلهيّ؟ جنون؟ أشباح في اللوفر؟"

"ليتني أستطيع أن أجيبكِ. لست أدري."

علّقت مورين متهكّمة: "يا لك مِن مرشد روحيّ!" وانصرفت إلى الصورة المطبوعة للوحة بوتيتشلي، فأخرجتها من غلافها. وعندما وقع الضوء المُنعكس من الهرم الزجاجي على الصورة لمعت بخاطرها فكرة.

"ألم تقل إن علم الكون هو أحد الفنون العقلية؟" ونظرت إلى الخاتم الذي كانت تضعه في يدها.

أومأ بيتر برأسه إيجاباً، وقال: "علم الكون، دراسة النجوم. لماذا تسألين؟"

"خاتمي! الرجل الذي أعطاني إياه في القدس قال إنه لأحد علماء الكونيات."

فرك بيتر جبينه بيده وكأنه يشحذ فكره للوصول إلى الحل، وسأل: "وما علاقة ذلك بما نحن بصدده؟ هل نبحث في النجوم عن جواب؟"

وضعت مورين إصبعها على المرأة اللغز التي تحمل العقرب السوداء، ثم كادت تقفز من مكانها وهي تصيح: "العقرب!"

"ماذا؟"

"إنها رمز البرج الفلكي، برج العقرب. والمرأة التي بجانبها تحمل قوساً، أي برج القوس. وبُرجا العقرب والقوس متجاوران في دائرة البروج."

"إذاً، فأنتِ ترين أن هناك رمزاً ما في اللوحة له علاقة بعلم الفلك؟

هزّت مورين رأسها موافِقةً، وقالت: "في أقلّ تقدير، قد يُعطينا مفتاح الحل."

تسلّلت أنوار باريس عبر نافذة غرفة مورين في الفندق، ووقعت على الأغراض الموضوعة إلى جانب السرير. كانت مورين قد غفت وهي تقرأ كتاب بوتيتشلي، وكانت صورة لوحة بوسّان على الجانب الآخر وصفحتها إلى الاعلى.

لم تكن مورين واعية لوجود كل هذه الأشياء حولها، فلقد كانت، مرّة أخرى، مستغرقةً في الحلم.

في غرفة ذات جدران حجرية تضيئها أنوار مصابيح الزيت الخافتة، انحنت امرأة عجوز فوق طاولة. كانت المرأة تلفّ شعرها الأبيض الطويل بشال أحمر باهت. كانت يدها المرتجفة تخطّ بعناية أسطراً على عرض الصفحة التي أمامها.

لم يكن في الحجرة من أثاث آخر غير صندوق خشبي كبير. توقفت العجوز عن الكتابة، وقامت من مقعدها، ومشت ببطء نحو الصندوق. جثت بحذر على ركبتين رقيقتين، وفتحت الغطاء الثقيل. وإذ نظرت إلى الوراء فوق كتفها شعّت في وجهها ابتسامة طمأنينة وثقة. استدارت نحو مورين وأشارت إليها أن تقدّمي.

باريس
21 حزيران (يونيو) 2005

في إشارة لطيفة إلى غرابة أطوار الفرنسيين، يذكر الناس أن أقدم جسر في باريس هو بون نوف، أي الجسر الجديد. وهذا الجسر هو الشريان الرئيسي للحياة الباريسية، إذ يمرّ فوق نهر السين ليصل الدائرة الأولى، وهي عصرية الطراز، بقلب الضفة اليسرى.

مرّ بيتر ومورين بجانب تمثال هنري الرابع، وهو من أكثر ملوك فرنسا شعبيّة لأنه امتاز بالتسامح. ويقف تمثاله على هذا الجسر الذي أُنجز بناؤه في عام 1606، خلال مدة حكمه. كان صباحاً جميلاً في باريس مُفعماً بأجواء العظمة الفريدة التي تميّز مدينة النور.

وبالرغم من هذا الطابع العام الرائع، كانت مورين عصبيّة المزاج.

"كم الساعة؟"

أجابها بيتر: "آخر مرة سألتني عن الوقت كانت منذ خمس دقائق!"

"آسفة. بدأت أشعر بالتوتر حيال الأمر كلّه."

"لقد طلب في رسالته حضورك إلى الكنيسة في الثانية عشرة ظهراً. إنها الحادية عشرة الآن. لدينا متّسع من الوقت."

عبرا نهر السين، وأخذا يسيران، وفقاً لخريطة معهما، باتجاه شوارع الضفة اليسرى المتعرّجة. بعد جسر بون نوف، دخلا شارع دوفين، وتجاوزا محطة مترو أوديون، إلى شارع سان سولبيس، وانتهيا إلى ساحة سان سولبيس الرائعة.

كان بُرجا الكنيسة الضخمان يلقيان بظلالهما على نافورة الماء الشهيرة التي بناها فيسكونتي في عام 1844. ولدى اقتراب مورين من أبواب المداخل الكبيرة، لاحظ بيتر أنها متردّدة.

وضع بيتر يده على يدها مطمئناً وقال" "لن أتركِكِ هذه المرة"، ودفع الباب للدخول إلى تلك الكنيسة الواسعة.

❀

دخلا صامتين ورأيا مجموعة من السيّاح في الجناح الأول من الجهة اليمنى.

بدا واضحاً أنهم مجموعة طلاب فنون بريطانيين. كان مدرّسهم يخبرهم، بصوت خفيض، عن روائع دولاكروا الثلاث التي تزيّن ذلك الجناح: يعقوب يُصارع الملاك، وهليودوروس يُطرَد من الهيكل، والقديس ميخائيل يهزم الشيطان. كان يمكن في يوم آخر أن تتأمل مورين تلك اللوحات الجدارية الرائعة وتستمع لمحاضرة عنها بالإنكليزية، لكنها كانت في ذلك اليوم مشغولة البال بموضوع آخر.

تجاوزا الطلاب البريطانيين وتابعا نحو صحن الكنيسة وهما يجولان ببصرهما إلى أعالي ذلك المبنى التاريخي الشاهق. اقتربت مورين، بشكل عفوي، من المذبح الذي كان على جانبيه لوحتان، يتجاوز ارتفاع كل منهما ثلاثين قدماً، وتُصوِّر إحداهما امرأتين، الأولى ملتفّة برداء أزرق والثانية برداء أحمر.

تجرّأت مورين على السؤال: "مريم المجدلية مع العذراء؟"

"ذلك واضح من لون الثياب. فبحسب أوامر الفاتيكان، سيّدتنا العذراء هي وحدها التي تُصوَّر مرتدية الأزرق أو الأبيض."

"وسيّدتي أنا دائماً مرتدية الأحمر."

انتقلت مورين إلى اللوحة الثانية عند الجانب الآخر من المذبح. "انظُرْ إلى هذه..."

كانت اللوحة تصوّر يسوع مُمدّداً في قبره، فيما مريم المجدلية تهيّئ جسده للدفن، وفي طرف اللوحة مريم العذراء وامرأتان أخريان يبكين.

"مريم المجدلية تهيّئ جسد المسيح للدفن؟ ليس هذا ما ورد في الأناجيل بالضبط؟ صحيح؟"

"ذُكر في الإصحاح الخامس عشر والإصحاح السادس عشر من إنجيل مرقس، أنها والنساء الأخريات أحضرن الطيوب إلى القبر لكي يقمن بتحنيطه، لكن لم يُذكر صراحة أنهنّ قمن بذلك."

علّقت مورين بقولها: "وها هي مريم المجدلية تقوم بذلك! لكن، في تقاليد اليهود، ألم يكن تطييب الجسد تهيئةً لدفنه محفوظاً، على وجه الحصر، لـ..."

"للزوجة". هذه التتمّة قالها رجل أرستقراطيّ النبرة بلهجة تحمل مسحة إسكتلندية.

استدار بيتر وموررين رأساً نحو الرجل الذي كان قد اقترب منهما بصمت تام. كان حضوره لافتاً، فهو ذو وسامة خفيّة ويرتدي ملابس في غاية الأناقة. ومع أن أناقته ومشيته تُفصحان عن نُبل أصله، لم يكن فيه شيء تقليدي. والواقع أن كل ما يتعلّق ببيرنجيه سنكلير يحمل بعض الغرابة والكثير من الخصوصيّة. فشعره مُسرّح تماماً لكنه أطول ممّا يُمكن أن يُستحسن في مجلس اللوردات، وقميصه الحريري من أزياء فرساتشي وليس سافيل رو. وكان حِسّ الدعابة لديه يلطّف من الغطرسة الطبيعية الملازمة لكل من يتمتّع بامتيازات خاصة، فابتسامته الصبيانية الغريبة تفضح نفسها إذا ما تكلّم. سُحِرت موررين به منذ اللحظة الأولى وتسمّرت في مكانها وهي تصغي إليه مكمّلاً شرحه.

"لم يكن يُسمح بتهيئة الرجل الميت للدفن إلّا لزوجته. أما إذا كان أعزَب، فإنّ هذا الشرف يُعطى لأمّه. وكما ترون في هذه اللوحة، فإن أم يسوع موجودة، لكن من الواضح أنها لا تقوم بهذه المهمّة. وهذا يؤدي إلى استنتاج واحد فقط."

نظرت موررين إلى اللوحة، ثم إلى الرجل الجذّاب الواقف أمامها.

أكملت موررين كلامه بقولها: "وهو أن مريم المجدلية كانت زوجته."

انحنى الرجل الإسكتلندي بحركة مسرحية وهتف: "برافو، يا آنسة باسكال. لكن اعذريني، لقد نسيت تماماً أصول اللياقة. اللورد بيرنجيه سنكلير في خدمتك."

تقدّمت موررين خطوة لتسلّم على سنكلير، لكنه فاجأها بالتمسّك بيدها. لم يترك يدها الصغيرة فوراً، بل قلبَها ومرّر إصبعه برفق على الخاتم. ثم ابتسم لها ثانية تلك الابتسامة البارعة، وغمزها.

وجدت موررين نفسها في غاية الارتباك. فلطالما تساءلت كيف سيكون شكل اللورد سنكلير هذا عندما تراه شخصياً، لكن لم يخطر ببالها قَطّ أن يكون كما تراه أمامها. حاولت ألّا تُظهر اضطرابها وهي تتكلّم.

"أنت تعرف من أنا." واستدارت لتعرّفه ببيتر. "أقدّم لك..."

لم يدعها سنكلير تكمل، بل قال: "الأب بيتر هيلي، على ما أعتقد، ابن خالة العالِم. أهلاً بك في باريس، أيها الأب هيلي. هذه ليست زيارتك الأولى بالطبع". ونظر إلى ساعته السويسرية الفاخرة، وأضاف: "أمامنا بضع دقائق. هيّا، ثمّةَ أشياء تستحقّ أن تشاهداها، وأظنّ أنكما ستجدانها ممتعة جداً."

تكلّم سنكلير متلفّتاً إليهما وهو يهرول داخل الكنيسة: "على فكرة، لا تهتمّا بالدليل الذي يبيعونه هنا. خمسون صفحة فيها تجاهُل تامّ لوجود مريم المجدليّة. كأن تجاهلها سيجعلها تذهب!"

تتبّع بيتر ومورين خطوات سنكلير السريعة، وتوقّفا معه أمام مذبح جانبيّ صغير آخر. "وكما سترون، هي مصوَّرة بكثرة في هذه الكنيسة، ومع ذلك تمّ تجاهلها لغايةٍ ما. وهذا مثل واضح."

كان سنكلير قد قادهما إلى تمثال كبير رائع من الرخام، يُدعى المُنتحِبة، وهو تمثال كلاسيكي للأم العذراء تحمل جسد المسيح المحطّم. وإلى يمين العذراء، نرى مريم المجدلية وقد وضعت رأسها على كتف العذراء.

قال سنكلير: "يشير الدليل إلى هذه اللوحة بالكلمات التالية فقط: المُنتحِبة، القرن الثامن عشر، إيطاليا. والمنتحبة عادةً تصوّر العذراء تحضن ابنها بعد صلبه، وإقحام مريم المجدلية في هذا المشهد عمل غير تقليدي، ومع ذلك... تمّ تجاهلها عمداً." وتنهّد سنكلير بعمق حزين وهزّ رأسه متأسّفاً على هذا الظلم.

كانت غطرسة سنكلير قد بدأت تفعل فِعلها في أعصاب بيتر، فسأله محتداً، مع أنه لم يقصد أن يكون بهذا القدر من الانفعال: "ما هي نظريتك إذاً؟ أن هناك مؤامرة ما من الكنيسة لمنع ذكر مريم المجدلية؟"

"هذه استنتاجاتك أيها الأب الموقّر لكني أقول لك: هناك كنائس مكرَّسة لمريم المجدلية في فرنسا أكثر من أي قديس آخر، بمن فيهم السيدة العذراء. وهناك منطقة بأكملها في باريس سُمّيت باسمها، أعتقد أنك زرت منطقة المادلين."

صُعقت مورين عندما تنبّهَت للأمر: "لم يخطر ببالي قبل الآن أن مادلين هي الصيغة الفرنسية للمجدلية."

"تماماً. وهل زرتِ كنيستها هناك؟ إنها كنيسة ضخمة يقولون إنها مكرَّسة باسمها، لكن بالرغم من كل اللوحات والرسوم الموجودة فيها أصلاً لم يكن هناك رسوم لمريم المجدلية. أليس هذا غريباً." ولا صورة واحدة! ثم أضافوا تمثال ماروكيتي فوق المذبح، وقد قيل لي إن اسمه الأصلي كان (انتقال العذراء إلى السماء) ثم غيّروه إلى (انتقال مريم المجدلية) بعد ازدياد الضغوط مِن الذين يهتمّون بالحقيقة."

صاح به بيتر: "أظنّ أنك ستخبرني أن مارسيل بروست أيضاً أسمى كعكاته

الصغيرة على اسمها!"، فعلى العكس من انجذاب مورين الفوري، كان بيتر مُغتاظاً من فظاظة سنكلير وتعاليه.

أجاب سنكلير: "على كل حال، تلك الكعكات التي نشّطت ذاكرته كانت على شكل أصداف المحار لسبب وجيه". وترك بيتر يحلل معنى هذا الكلام، وانضمّ إلى مورين أمام تمثال المنتحبة.

قالت مورين: "يبدو أنهم حاولوا محوها."

"بالفعل، يا آنستي العزيزة، لقد حاول الكثيرون جعلنا ننسى تراث المجدلية، لكنّ حضورها قويّ. وكما لاحظتِ، بلا شك، فإن تجاهلها مستحيل، خصوصاً..."

دقّت أجراس الكنيسة مُؤْذِنةً بحلول منتصف النهار، مقاطعة جواب سنكلير. أخذ سنكلير يحثّهما على الإسراع ثانية عبر الكنيسة. أشار إلى خط برونزي ضيّق في أرض الكنيسة يقطع الجناح المُستعرِض من الشمال إلى الجنوب، وينتهي عند مسلّة رخامية من الطراز المصري، على رأسها كرة ذهبيّة وصليب.

"تعالا بسرعة، إنه منتصف النهار. يجب أن تريا هذا، فهو يحدث مرةً في السنة."

أشارت مورين إلى الخط البرونزي، وسألت: "عَلامَ يدلّ هذا الخط؟"

"إنه خط الزوال الخاصّ بباريس. وهو يقسم فرنسا بطريقة مثيرة. الآن، انظرا فوق، إلى هناك."

أشار سنكلير إلى نافذة فوقهم في الجانب الآخر. ولما استدارا لينظرا، لمعت حزمة من أشعة الشمس عبر النافذة ووقعت لتضيء الخط البرونزي الذي على الأرض. وراحا يُراقبان النور يرقص على أرض الكنيسة على طول الخط البرونزي. ثم مشى النور متسلّقاً المسلة إلى أن وصل إلى الكرة وأضاء الصليب الذهبي بفيض من الأنوار.

"أليس هذا رائعاً؟ موقع هذه الكنيسة مثالي لتحديد الانقلاب الشمسي."

وافقه بيتر مُعلّقاً: "إنه رائع بالفعل. لكنني أريد أن أبدّد بعض أوهامك، فهناك سبب ديني مشروع لذلك. يُحدَّد عيد الفصح في أول يوم أحد بعد اكتمال البدر التالي للاعتدال الربيعي. وكان من الشائع أن يكون في الكنائس وسائل لتحديد أيام الاعتدال والانقلاب."

هزّ سنكلير كتفيه وخاطب مورين: "إنّه على صواب."

"لكن خط باريس هذا، ألا يعني أكثر من ذلك؟"

"يشير إليه البعض باسم خط المجبلية. إنه شبيه بالخط المرسوم على الخريطة التي أرسلتها لك، وهو يبدأ من أميان وينتهي إلى مونسيرًا. وإذا شئتِ أن تعرفي السبب فلاقيني في بيتي في منطقة لانغدوك بعد يومين، كما ستكتشفين أشياء أخرى. آه، كنتُ أنسى!"

أخرج سنكلير من أحد جيوبه الداخلية مُغلّفاً من الورق الرقّي الفاخر.

"علمت أنك تعرفين المخرجة اللطيفة تمارة وزدوم. سوف تحضر حفلتنا الراقصة بالأزياء التاريخية خلال هذا الأسبوع. آمل أن تنضمّا إليها، وأصرّ على إقامتكما عندي ضيفين في القصر."

التفتت مورين إلى بيتر لتعرف ردّة فعله على هذه الدعوة غير المتوقّعة.

بدأ بيتر بالقول: "لورد سنكلير، لقد قطعَت مورين مسافة طويلة لتلبي دعوتك. لكنّك وعدتها، في رسالتك، بإعطائها بعض الإجابات..."

قاطعه سنكلير قائلاً: "أيها الأب هيلي، منذ ألفي سنة وكثير من الناس يحاولون فهم هذا اللغز. فلا تتوقّع معرفة كل شيء في يوم واحد، لأن المعرفة الحقيقيّة تُكتسب بالصبر والجهد. لقد تأخّرتُ الآن عن موعد هام، وعليّ الذهاب بسرعة."

وضعت مورين يدها على ذراع سنكلير تريد أن توقفه. "لورد سنكلير، لقد ذكرتَ والدي في رسالتك. وأتمنى أن تخبرني، على الأقلّ، ما تعرفه عنه."

نظر سنكلير إلى مورين وليّن لهجته، فقال بكل رِقّة: "يا عزيزتي، عندي رسالة كتبَها والدك، وأعتقد أنّك ستجدينها مشوِّقة جداً. أنا لا أحملها معي طبعاً، إنها في القصر. وهي أحد الأسباب التي تدعوك لقبول دعوتي أنت والأب هيلي طبعاً."

أحسّت مورين أنْ لا مفرّ من ملاحقة الامر، فسألته: "رسالة؟ هل أنت متأكّد أن والدي هو الذي كتبها؟"

"ألم يكن اسمه إدوارد بول باسكال، مع تهجئة باسكال بالطريقة الفرنسية؟ ألم يكن يسكن في لويزيانا؟"

أجابت مورين بما يشبه الهمس: "بلى."

"إذاً، فهو كاتب الرسالة حتماً. لقد وجدتها في محفوظات عائلتنا."

"لكن، ماذا فيها؟"

"من غير الجائز، يا آنسة باسكال، أن أحاول إخبارك الآن، لأن ذاكرتي ضعيفة جداً. سوف أريك إيّاها، بكل سرور، عندما تأتين إلى لانغدوك. أنا مضطرّ للذهاب الآن، لقد تأخرْتُ. إذا احتجتِ شيئاً قبل وصولك إلى لانغدوك فاتّصلي على الرقم المذكور في الدعوة واطلبي رولان، وهو يساعدك في أي شيء تحتاجينه، أي شيء مهما كان."

غادر سنكلير من دون توديعهما، لكنه قال قبل ابتعاده: "شيء آخر: أعتقد أنّ لديك خريطة. ما عليك إلّا اتّباع خط المجدلية."

تردّد وقْع قدمي الرجل الإسكتلندي في أرجاء الكنيسة الواسعة وهو يمشي بخُطًى واسعة إلى الخارج تاركاً مورين وبيتر يتبادلان نظرات بكماء.

أثناء الغداء في أحد مقاهي الضفة اليسرى استعرض بيتر ومورين وقائع لقائهما الغريب بسنكلير. كان رأياهما عنه على طرفي نقيض، فبيتر مُرتاب به لدرجة الغضب، أما مورين فمُعجبة به، لا بل مفتونة.

قرّرا المشي بعد الغداء في حديقة لوكسمبورغ.

أثناء مرورهما، كانت هناك عائلة تتمتّع بالتنزّه، ومجموعة أولادها يلهون صاخبين. كان ولدان صغيران يركضان ويلاحقان كرة قدم، فيما الأولاد الأكبر سناً والوالدان يشجعونهم مبتهجين. وقف بيتر يراقبهم مبسماً ومكتئباً في آن واحد.

لاحظت مورين تعابير وجهه، فسألته: "ما بك؟"

"لا شيء. لقد تذكّرت جميع الأهل في الوطن. أخواتي وأولادهن. لم أذهب إلى إيرلندا منذ سنتين، كما تعلمين. طبعاً، أنتِ لم تذهبي منذ مدّة طويلة جداً."

"إنها قريبة. حوالي ساعة بالطائرة من هنا."

"أعرف ذلك. صدّقيني، لقد فكّرت في الأمر. سنرى أولاً كيف تسير الأمور هنا، وإذا كان لديّ متّسع من الوقت، قد أسافر إلى هناك لبضعة أيام."

"اسمعْ يا بيتر، أنا فتاة راشدة وقادرة على مواجهة الأمر بنفسي. لماذا لا تنتهز فرصة وجودك هنا وتذهب إلى إيرلندا؟"

"وأتركك وحدك بين يدي سنكلير؟ هل جُننتِ؟"

كانت الكرة قد أصبحت بحوزة الأولاد الكبار، وطارت إلى قرب بيتر. فأوقفها برجليه برشاقة وركلها ناحية الأولاد. ثم حيّا بيده الأولاد الذين رحّبوا بفنّه الكرويّ، وتابع المشي مع مورين.

"هل ندمت يوماً على قرارك؟"

"أي قرار؟ مرافقتك إلى هنا؟"

"كلا. قرارك بأن تصبح كاهناً."

جمد بيتر في مكانه، وقد صدمَه سؤالها: "بالله عليك، ماذا دعاك لهذا السؤال؟"

"ما فعلتَه قبل لحظات. أنت تحب الأطفال. لو تزوجت لكنت أباً رائعاً!"

استأنف بيتر المشي وهو يشرح لها: "لم أندم على قراري. كان عندي رسالة ولبّيت نداءَها. وما زالت رسالتي قائمة، وأعتقد أنها ستبقى دائماً. أعرف أنك لم تستطيعي فهم ذلك."

"ولا تزال الرسالة قائمة؟"

"أجلْ. أتعلمين شيئاً هاماً عن الأمر؟"

"ما هو؟"

"أنت أحد أسباب دخولي الكهنوت."

هنا جاء دور مورين لتجمد في مكانها: "أنا؟ كيف؟ لماذا؟"

"لقد حرّضتكِ قوانين الكنيسة البالية على إيمانك. وهذا يحدث دائماً، مع أنه يُمكن تجنّبه. هناك الآن رهبانيّات شابة ومثقفة وتقدّمية تحاول أن تُحَدِّث التعاليم الدينية لتتلاءم مع القرن الحادي والعشرين وتجتذب الشباب. لقد وجدْتُ ذلك مع اليسوعيّين الأوائل الذين التقيتُ بهم في القدس. كانوا يحاولون تغيير الأشياء نفسها التي نفرتِ أنت منها، وأردتُ أن أشارك في تلك المحاولة. لقد أردتُ مساعدتك على استعادة إيمانك، أنت وأمثالك."

كانت مورين تحدّق به وهي تحاول حبس الدموع المفاجئة التي كانت تتفجّر من عينيها.

"أكاد لا أصدق أنكَ لم تخبرني بذلك من قبل."

فقال بكل بساطة: "لم تسأليني ولا مرة."

... كانت آلام عيسى الأخيرة عذاباً مطلقاً بالنسبة لنا جميعاً، لكنّها هدّت كيان فيلبس وهو يحاول التغلّب على أحزانه بسببها. كثيراً ما كان يصرخ أثناء نومه من دون أن يخبرني أو يطلب مساعدتي. وأخيراً عرفت الحقيقة من برتلماوس الذي أفادني أن فيلبس لم يشأ أن يعذبني بذكرياته المؤلمة، مع أنه كان، كل ليلة، يتعذّب من التفكير في معاناة عيسى ومن طريقة وصف جراحه.

كان الرجال ينظرون إليّ باحترام لأني الوحيدة بيننا التي شهدت آلام عيسى.

خلال وجودنا في مصر أصبح برتلماوس أكثر تلاميذي إخلاصاً. أراد أن يتعلّم أكبر قدر ممكن وبأسرع ما يمكن. كان توّاقاً إلى المعرفة متلهّفاً عليها كالجائع يرغب في الخبز. وكأن تضحية عيسى أوجدت لدى برتلماوس فراغاً لا يمكن ملؤه إلا بتعاليم الطريق. علمتُ عندها أنه صاحب دعوة خاصة، وأنه سيقوم بنشر كلمة المحبة والنور في العالم، وأن الكثيرين سيتغيّرون على يده. لذلك صرتُ، كل ليلة بعد أن ينام الأولاد والآخرون، أعلّم برتلماوس الأسرار، لكي يكون مُهَيَّئاً عندما يحين الوقت.

لكنّي لم أتأكّد من أني سأكون مستعدّة. لقد أصبحت أحبّه مثل أولادي، وصرتُ أخشى عليه لأن الآخرين لن يفهموا نقاءه وبراءته كما يفهمها محبّوه المقرّبون منه. لقد كان رجلاً صادقاً صريحاً.

إنجيل الآرك لمريم المجدلية

كتاب الرسل

الفصل السابع

منطقة لانغدوك في فرنسا
22 حزيران (يونيو) 2005

كانت مشاهد الريف الفرنسيّ تمرّ مسرعة أمام نوافذ القطار السريع فيما كان بيتر ومورين منشغلين تماماً عن هذه اللوحات الخضراء بمجموعة الخرائط والكتب والأوراق المنتشرة أمامهما.

أخذ يخربش على دفتر أصفر أمامه وهو يتمتم: "أتْ إنْ أَرْكاديا إيغو، أتْ... إنْ... أَرْ - كا - ديا... إي - غو..."

ثم استغرق في تأمُّل خريطة فرنسا التي رُسم الخط الأحمر في وسطها. أشار إلى الخط وقال: "لاحظي كيف يمرّ خط باريس نزولاً إلى منطقة لانغدوك حتى هذه البلدة هنا، الآرك. غريب اسم هذه البلدة!"

لفظ بيتر الاسم "آرك" كما تلفظ في الإنكليزية، حيث تعني الكلمة تابوتاً، أو "فُلكا" بين معانٍ أخرى.

تنبّهَت مورين إلى حيث يمكن أن يقود هذا التحليل، فهتفت متسائلةً: "كما في فُلْك نوح" أو "تابوت العهد"؟"

"تماماً. فكلمة "آرك" متعدِّدة المعاني في الأصل اللاتينيّ، ومعناها الأساسيّ هو الصندوق أو الوعاء، لكنّها قد تعني أيضاً القبر. والآن، لاحظي ما يلي".

أخذ بيتر الورقة والقلم ثانية وبدأ يرسم أحرف (أتْ إنْ أَرْكاديا إيغو). ثمّ كتب أحرف الكلمة الإنكليزية أ ر ك متباعدةً في أعلى الصفحة، وتحتها الأحرف آ ر ك من العبارة اللاتينية.

خطرت ببال مورين فكرة: "حسناً. ما رأيك بهذا: أَرْك، أَرْك ـ آديا؟ لعلّ الكلمة لا تشير إلى المكان الأسطوري أركاديا، وقد تكون مؤلّفة من أكثر من لفظةٍ مجموعةً معاً. فهل لهذا أي معنى باللاتينيّة؟"

كتب بيتر العبارة المحتملة بأحرف كبيرة: أرك آ ديا.

كانت مورين متلهّفة لمعرفة الجواب: "إذاً، قُلْ لي، هل لها معنى؟"

"إذا اعتبرناها كذلك، فيمكن أن تعني 'فُلْك الله'، وإن أعمَلْنا خيالنا نصل إلى معنى محتمل للعبارة هو 'وفي فُلْك الله أنا'."

أشار بيتر إلى بلدة الآرك على الخريطة، وقال: "أعتقد أنك لا تعرفين شيئاً عن تاريخ الآرك. إنما لو كان لهذه البلدة ارتباط بأسطورة دينية ما، فيكون معنى العبارة 'وفي قرية الله أنا'. طبعاً، هذه شطحة خيال بعيدة، لكنّها غاية ما أراه من احتمالات."

"أراضي سنكلير محاذية للآرك."

"أجلْ. لكن ذلك لا يفسّر سبب رسم نيكولا بوسّان لِلّوحة منذ أربع مئة سنة، ولا سبب سماعك تلك الأصوات في اللوفر وأنتِ تنظرين إلى اللوحة نفسها. أعتقدُ أنّ علينا الآن النظر إلى هذه الأشياء التي حدثت لك مؤخراً بمعزل عن سنكلير."

كان بيتر مصمّماً على التقليل من شأن سنكلير في ما يحدث لمورين، لأنها بدأت ترى تلك الرؤى المتعلّقة بالمجدلية قبل سماعها باسم بيرنجيه سنكلير بسنوات.

هزّت مورين رأسها موافِقةً، وقالت: "لِنفترضْ أنّ الآرك كانت تُعتبر أرضاً مقدّسة لسبب ما، أي أنها كانت 'قرية الله'، فهل أراد بوسان أن يخبرنا أن هناك شيئاً هاماً في الآرك؟ هل هذه هي نظرية: وفي قرية الله أنا؟"

أجاب بيتر بحذَر: "هذا مجرّد تخمين. على كل حال قد يكون من المفيد زيارة المنطقة المحيطة بالآرك."

كان اليومُ يومَ السوق في قرية كِيّان الواقعة في السفح الفرنسي لجبال البيرينيه،

وكانت تعجّ بالحركة في مثل هذا اليوم من كل أسبوع. كان سكان منطقة لانغدوك الداخلية يتنقّلون بين الأكشاك يشترون المحاصيل الطازجة والأسماك المجلوبة من ساحل البحر المتوسط.

سار بيتر وميورين في السوق، وكانت مورين تمسك بيدها صورة لوحة رعاة أركاديا. لاحظ أحد باعة الفاكهة الصورة وأشار إليها، وقال: "آه، بوسّان!"

ثم راح يشرح لهما الاتجاهات بسرعة بلغته الفرنسية. طلب منه بيتر أن يتمهّل في كلامه، علّه يفهم تعليماته. كان ابن البائع، وهو في العاشرة من عمره، يراقب مورين ووجهها المرتبك فيما كان والده يخاطب بيتر بالفرنسية، فقرّر أن يتجرّأ ويجرّب حظّه بلغته الإنجليزية المكسّرة.

"تريدان الذهاب إلى قبر بوسّان؟"

أجابت مورين مُنفعِلة": "أجل! نعمْ!" ولم تكن قد تأكّدت بعد أنّ القبر المرسوم في لوحة بوسّان موجود بالفعل.

"حسناً! اذهبا إلى الطريق العام، وسيرا حتى تصلا إلى الكنيسة. ومن هناك، إلى اليسار. قبر بوسّان موجود على ربوة."

شكرت مورين الصبيّ، وتناولت من حقيبتها ورقة من فئة 5 يورو، ووضعتها في يده وهي تقول: "شكراً جزيلاً." فارتسمت على ثغر الصبيّ ابتسامة عريضة.

وفيما استدار بيتر ومورين لمغادرة السوق، حيّاهما البائع بقوله: "لا شكر على واجب. حظاً سعيداً!"

وكانت الكلمة الأخيرة لابنه الذي راح يردّد "أت إنْ أَركاديا إيغو" وهو يضحك. ثمّ انطلق يعدو مُفتّشاً عن حلويات يشتريها بالنقود التي جناها.

استعرض بيتر ومورين معاً المعلومات التي استقياها من البائع وابنه، حتى عرفا الطريق الصحيح. قاد بيتر السيارة ببطء، فيما راحت مورين تراقب المنطقة عبر النافذة.

"هناك! هل هذا هو القبر؟ في أعلى التلّة."

أوقف بيتر السيارة عند أسفل منحدَر صغير تعلوه بعض الشجيرات واستطاعا أن يشاهدا، من بين الشجيرات، الطرف الأعلى لقبر حجري مستطيل.

قال بيتر: "لقد رأيتُ هذا النمط نفسه من القبور المنفردة في الأرض المقدّسة. هناك عدد منها في منطقة الجليل." ثمّ وقف لحظة عندما خطرت بباله فكرة.

سألته مورين: "ما الأمر؟"

"لقد خطرَ ببالي الآن أنه يوجد قبر مثله على الطريق إلى مجدل. وقد يكون مطابقاً له تماماً."

طافا حول جانب الطريق بحثاً عن مسلك يمكن أن يؤدّي إلى القبر. وجدا ممرّاً تسدّه نباتات زائدة، فتوجّهَت مورين نحو أسفله وجثَت على الأرض:

"انظُرْ إلى هذه النباتات! لم تنمُ هنا أصلاً."

انحنى بيتر قربها والتقط بعض الأغصان والعيدان التي وُضعت فوق مدخل الممرّ، وقال مستغرباً: "فعلاً!"

تابعت مورين: "يبدو أن شخصاً ما حاول عمداً إخفاء الممرّ".

"ربما يكون ذلك من عمل صاحب الأرض. لعلّه ضاق ذرعاً بالناس أمثالنا يروحون ويجيئون في أرضه. ويبدو أنهم كثُر حتى اضطرّ لفعل ذلك."

راحا يدوسان الأرض بحذر بين الأغصان المعترِضة، ثم سلكا بقية الممرّ نحو قمّة الرابية. ولما وصلا قبالة القبر الغرانيتيّ المستطيل، أخرجت مورين صورة لوحة بوسّان وقارنتها بالمنظر الطبيعيّ أمامها. فرأت أن الأرض الصخرية وراء القبر مُماثلة تماماً لخلفيّة الصورة.

"إنها مُطابقة كُليّاً!"

دنا بيتر من القبر ومسح يده على صفحته، وقال: "لكنّ القبر أملس، لا نقش عليه!"

علّقت متسائلةً وهي تدور حول الضريح: "هل أضاف بوسّان النقش من عنده؟" ثم لاحظت أن القبر، من الجهة الخلفيّة، مُغطّى بالأغصان والأعشاب، فحاولت أن تزيلها. ولما رأت مؤخّرة القبر بوضوح صاحت ببيتر:

"تعال إلى هنا وانظرْ!"

استدار بيتر وأتى إلى قربها، ومدّ يده ليزيح معها الأغصان والأعشاب النامية. ولما وقعت عينه على ما أثار انفعال مورين هزّ رأسه غير مُصدّق ما يراه.

كان على مؤخّرة المدفن رسْمٌ نُقشَت فيه تِسع دوائر تحيط بِقُرْص في الوسط.

كان الشكل مماثلاً تماماً للصورة المحفورة على خاتم مورين الأثريّ.

أمضى بيتر ومورين الليلة في فندق صغير في كويزا، على بُعد بضعة أميال عن بلدة الآرك. وكانت تامي قد اختارت لهما المكان لقربه من موقع تلفّه الألغاز اسمه رين لو شاتو، يُعرف في أوساط الحلقات الخاصة باسم قرية الأسرار. وكانت ستطير إلى منطقة لانغدوك ليلاً، وكان الثلاثة قد تواعدوا على اللقاء في صالة الطعام في الصباح التالي.

اندفعت تامي إلى داخل الصالة بينما كان بيتر ومورين يتناولان القهوة بانتظار وصولها.

"أَعتذرُ عن تأخّري. لقد تأخر موعد الرحلة إلى كركاسون، ولما وصلت كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل. ثم تأخّرتُ حتى غفوت، ولم أستطع أن أصحو باكراً."

قالت مورين: "لقد ساورني القلق لأنك لم تتّصلي مساءً. هل قُدتِ السيارة من كركاسون؟"

"لا. أعرف أصدقاء آخرين مدعوّين لحفلة سنكلير غداً، فسافرنا معاً. وجئنا بالسيارة مع أحدهم، وهو من المنطقة."

وكان يوجد على الطاولة سلّة مليئة بمُعجّنات الكرواسان، وجاء النادل يسأل تامي عن شرابها. انتظرَت تامي ذهابه إلى المطبخ، وأكملت كلامها:

"علينا مغادرة الفندق هذا الصباح."

استغرب بيتر ومورين قولها، وسألاها معاً: "لماذا؟"

"سنكلير غاضب جداً لأننا نزلنا في فندق. لقد ترك لي رسالة أمس. هناك غرف جاهزة في قصره لنا جميعاً."

بدا بيتر حذراً إذ أجابها: "لا أحبّذ هذه الفكرة." ثم استدار نحو مورين ليبرّر

رأيه: "أفضّل البقاء هنا، وأعتقد أن المكان آمَنٌ لكِ. فالفندق أرض محايدة، يمكننا العودة إليها إذا حدث لك أي أمر مُزعج."

لم ترحّب تامي بهذا الموقف، فراحت تقول: "اسمعا، هل تعلمان أن الناس يتمنّون أن توجَّه لهم دعوة كهذه؟ القصر رائع: إنه أشبه بمتحف حيّ. كأنكما تسعيان إلى جرح مشاعر سنكلير إذا رفضتما الدعوة! وأرجو ألا تفعلا ذلك لأنكما ستستفيدان منه كثيراً."

وقعت مورين في حيرة، وراحت تنقّل نظرها بينهما. كان بيتر محقّاً برأيه من حيث كون الفندق مكاناً تستطيع أن تلجأ إليه بحرّية ساعة تشاء، لكنّ مخيّلتها كانت تداعبها فكرةُ الإقامة في القصر ومراقبة رجل الألغاز هذا بيرنجيه سنكلير عن كثَب.

أدركت تامي مُعضِلة مورين، فتوجَّهت إليها بالقول: "لقد قلتُ لك إن سنكلير ليس خَطِراً، لا بل إنه إنسان رائع." ثم قالت لبيتر: "لكن إذا كنت ترى عكس ذلك، فانظر إلى الأمر من هذه الزاوية: هناك مثَل يقول: اجعلْ أصدقاءك قُربَك وأعداءَك أقرب."

في نهاية الفطور، كانت تامي قد أقنعتهما بمغادرة الفندق. وكان بيتر يراقبها باهتمام أثناء ذلك، فلاحظ أنها امرأة قادرة على الإقناع.

رين لو شاتو، فرنسا
23 حزيران (يونيو) 2005

كانت تامي جالسة في المقعد الخلفي، تعطي تعليماتها بشأن الطريق: "لا يستطيع إنسان أن يعثر على هذا المكان من المرة الأولى من دون أن يدلّه أحد على الطريق. استدِرْ يميناً، هنا، هل ترى ذلك الدرب هناك؟ إنه يصعد إلى أعلى التلّة، إلى رين لو شاتو."

كانت الطريق الضيّقة شبه المرصوفة تتعرّج وتتلوّى صعوداً. وعند القمة، كانت هناك لافتة بين الأشجار تعلن بخَفَر اسم تلك القرية الصغيرة.

أشارت تامي إلى فسحة صغيرة غبراء عند مدخل القرية قائلةً: "يمكنك إيقاف السيارة هنا."

عند ترجُّلهم من السيارة، نظرت مورين إلى ساعتها، ثم نظرت ثانيةً قبل أن

تقول: "غير معقول! ساعتي متوقِّفة. لقد وضعت لها بطارية جديدة قبل مغادرة أميركا."

قهقهت تامي وهتفت: "لقد بدأَت المغامرة! الوقت يأخذ بُعداً جديداً هنا في جبل الأسرار هذا. إني أضمن لك عودة ساعتك إلى طبيعتها عند مغادرة هذه المنطقة."

تبادل بيتر وموربن نظرات الاستغراب وهما يتبعان تامي تمشي أمامهما صامتة، إلى أن التفتت إليهما وقالت: "سيِّداتي، سادتي: تدخلون الآن منطقة ما وراء الواقع!"

كانت القرية بالفعل تثير انطباعاً خفيّاً بأنها أرض قد نسيها الزمن، وهي صغيرة جداً وتبدو مهجورة.

سأل بيتر: "هل يقيم أحد هنا؟"

"بالطبع. إنها قرية بكل معنى الكلمة. صحيح أن سكّانها لا يتجاوزون المئتين، لكنهم يعيشون حياتهم هنا."

قالت موربن: "غريب هذا الهدوء!"

فعلَّقت تامي: "إنها عادةً تظلّ هادئة جداً إلى أن تجيء حافلة زوّار."

عند دخولهم القرية، رأوا على يمينهم بقايا قصر، أشبه بأثَر لذلك الصرح الذي أعطى القرية اسمها بالفرنسية.

قالت تامي: "ذلك هو قصر أوبول، أو شاتو أوبول الذي كان مَعقِلاً لفرسان الهيكل أيام الحملات الصليبية. هل تلاحظان البرج؟" ودلّتهما على بُرْج متداعٍ، وأضافت: "لا يخدعَنَّكما أنّ هذا المكان منعزل وحالته كالأطلال، فقلعة الخيمياء (الكيمياء القديمة) هذه هي أهمّ مَعالِم عالَم الأسرار في فرنسا، لا بل على وجه الأرض."

عاجلها بيتر بالقول: "أَفترضُ أنك ستخبرينا السبب؟" فقد غدا في غاية الانزعاج، إذ ضاق ذرعاً بالألاعيب المغلّفة بالألغاز وتمنّى أن يسمع من أيّ كان إجابات ذات معنى.

"سوف أخبركما، لكن ليس الآن. فأيّ شيء أقوله لن يعني لكما شيئاً قبل معرفة قصة القرية. لنترك ذلك للختام. سأخبركما عند خروجنا من القرية."

مرّوا بمكتبة صغيرة على الجهة اليسرى. كانت مُقفلة، لكن ظهرت واجهتها مليئة بكتُب تدور عناوينها حول الأسرار والرموز.

همست مورين في أذن بيتر فيما تامي تمشي أمامهما: "إنها ليست قرية مزارعين كاثوليك عاديّين، كما تتمنّى!"

وافقها بيتر بقوله: "يبدو الأمر كذلك"، وهو ينظر إلى تلك الكتب الغريبة والمجوهرات والنجوم التي تزيّن الواجهة.

ولفت انتباه مورين شيءٌ غريب آخر على الحائط المقابل في الطريق الضيّقة، فيما كانا يسيران خلف تامي عبر الزقاق الحجري الضيق في تلك القرية الغريبة. رأت، على مستوى عينيها، شيئاً يُشبه الساعة الشمسيّة منقوشاً على حائط منزل. ولا شكّ في أنّ القطعة المعدنية الوسطية كانت قد وقعت منذ زمن بعيد كما يبدو من الفجوة في وسط الساعة. وتبيّن، لدى التدقيق، أن العلامات كانت غير عادية، فهي تبدأ بالرقم 9 وتنتهي بالرقم 17، تتخلّلها علامات نصف الساعة، وقد رُسمت فوق الأعداد مجموعة رموز غريبة.

نظر بيتر من فوق كتف مورين وهي تدلّه على تلك النقوش الرمزية الغامضة وتسأله: "ما معناها برأيك؟"

كانت تامي تسير متهاودة نحوهما وهي تبتسم كالمنتصر: "أرى أنكما وجدتما أوّل الأشياء الغريبة هنا في إر إل سيه."

"إر إل سيه؟"

"هذه هي الأحرف الأولى من رين لو شاتو (بالفرنسية)، كما يشيرون إلى هذا المكان، فالاسم الكامل طويل جداً. عليكما البدء بتعلّم أساليب التعبير السائدة هنا حتّى لا تكونا غريبين في الحفلة غداً؟"

استدارت مورين نحو النقش على الحائط، وكان بيتر يتفحّصه عن قُرب.

قال بيتر: "أعرف هذه الرموز، إنها الكواكب. ها هو القمر، وعُطارِد." ثم أشار إلى دائرة فيها نقطة في الوسط، وسأل: "هل هذه الشمس؟"

ردّت تامي: "أجل. وهنا زُحَل. أمّا بقيّة الرموز فتتعلّق بالتنجيم. هنا الميزان، والعذراء، والأسد، والسرطان، والجوزاء."

سارعَت مورين بالسؤال: "هل يوجد أيضاً العقرب؟ أو القوس؟"

هزّت تامي رأسها بالنفي، لكنها أشارت إلى الجهة اليسرى من الساعة الشمسية حيث الموضع الذي يوازي الساعة السابعة في ساعة عادية.

"كلّا. لاحظي هنا حيث تنقطع العلامات. هذا هو الكوكب زُحَل، ولو أنّ العلامات أُكملت بعكس اتّجاه عقارب الساعة لكنت رأيت، بعد الميزان، العقرب فالقوس."

تساءلت مورين: "ولماذا تتوقّف العلامات في هذا الموضع بالذات؟"

وأضاف بيتر متلهّفاً: "وما معنى ذلك؟"

فتحت تامي يديها للدلالة على جهلها للجواب، وقالت: "نعتقد أنّها تدلّ على تَراصُف كوكبيّ ما، ولا نعلم أكثر من ذلك."

واصلت مورين التحديق بها وهي تفكّر في لوحة ساندرو الجدارية في اللوفر، وتحاول معرفة أي علاقة مُحتملة بالعقرب في اللوحة. وأرادت أن تفهم فوائد استخدام مثل هذه الساعة الشمسيّة الغريبة، هذا إذا كانت ساعة شمسية في الأساس، فسألت: "هل هي من نوع القول: عندما يكون القمر في المنزل السابع ويقع المشتري في خط واحد مع المريخ؟"

فقال بيتر: "إذا كنتما ستبدآن الكلام على الأبراج والتنجيم فسأترككما!"

انفجر الثلاثة ضاحكين، لكن تامي أوضحت: "حسناً، مع أنها على حقّ. إنها على الأرجح إشارة إلى تراصُف كوكبيّ معيّن. وبما أنّها وُضعت هنا على واجهة بيت بارز، علينا الافتراض أنه كان من المهمّ أن يعرف بها كل إنسان في القرية."

قادتهما تامي بعيداً عن الساعة الشمسية، واستأنفت جولتها. ثم أشارت إلى دارة بعيدة أمامهم. "النقطة المركزية في القرية هي المتحف وكل منطقة الفيلّا. إنها هناك، أمامنا"

كان يوجد، عند نهاية الطريق، مبنى سكنيّ هو فيلا حجرية جذّابة، وظهرَ، على مسافة وراءَها، بُرْج حجريّ غريب الشكل، يبدو ملتصقاً بجانب الجبل.

"يتركّز لغز هذه القرية في قصة غريبة جداً حول كاهن ذائع الصيت، أو بالأحرى سيّئ الصيت، عاش هنا في أواخر القرن التاسع عشر، هو الأب بيرنجيه سونيير."

فسألها بيتر: "أليس بيرنجيه أيضاً الاسم الأوّل لسنكلير؟"

أجابته تامي موافقةً: "بلى، وليس من باب الصدفة! لقد أملَ جَدّ سنكلير أن يرث حفيده بعض مزايا هذا الكاهن إذا حمل الاسم نفسه. فالأب سونيير كان جسوراً في حماية تاريخ المنطقة وأسرارها، ومخلصاً إخلاصاً تاماً لإرث مريم المجدلية.

"على أية حال، هناك روايات كثيرة حول ما وجده الأب سونيير هنا عندما بدأ بترميم الكنيسة. هناك من يعتقد أنه وجد ذلك الكنز المفقود، كنز هيكل أورشليم، ونظراً لأن القصر المجاور كان مرتبطاً بفرسان الهيكل، فيُحتمل أنهم استخدموا هذا المركز النائي ليخبّئوا غنائمهم من الأرض المقدّسة، فمن يفكّر بالبحث عن شيء ثمين في مثل هذا المكان؟ وهناك من يقول إن سونيير اكتشف وثائق نفيسة جداً. لكن مهما كان اكتشافه، فقد أصبح رجلاً فاحش الثراء بشكل مفاجئ وغامض. لقد صرف الملايين خلال حياته، مع أن مرتّبه السنوي، ككاهن في قرية، لم يكن يتجاوز ما يوازي خمسة وعشرين دولاراً بعُمْلة اليوم. فمن أين أتى كل ذلك المال؟

"في ثمانينيات القرن العشرين، وضع ثلاثة باحثين بريطانيين كتاباً عن سونيير ولغز ثروته، أسموه، (الدم المقدّس، الكأس المقدّسة)، وكان من أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة، ويُعتبر مصدراً موثوقاً للمهتمّين بهذا الشأن. لكن مِن سيّئات الكتاب أنّه خلق هجمة محمومة على المنطقة لاصْطياد الكنز، كان من نتيجتها استنفاد الموارد الطبيعية وسرقة العلامات واللافتات المحلية على يد المتعصبين الدينيّين والباحثين عن التذكارات، حتى إن سنكلير اضطُرّ إلى وضع حُرّاس مسلّحين في أرضه لحماية القبر."

فسألت مورين: "قبر بوسّان؟"

أجابت تامي: "طبعاً. فهو محور اللغز كلّه، وذلك عائد إلى رعاة أركاديا."

وقال بيتر، "لقد ذهبنا أمس وشاهدنا القبر، ولم يكن هناك حرّاس."

أطلقت تامي ضحكتها العميقة، وقالت: "هذا لأنّه مُرحَّب بكما في أراضي سنكلير. صدّقني، إذا ذهبتما إلى هناك فهو يعلم بالأمر. وإذا كان لا يريدكما هناك، فستعلمان بالأمر."

وصلوا إلى المبنى الكبير المشرف على القرية، وكان أمامه يافطة كُتب عليها: فيلا بيتانيا ـ منزل بيرنجيه سونيير.

وفيما هم يعبرون أمام لافتة كُتبت عليها أسعار تذاكر الدخول، سألت مورين: "ألا يجب أن نشتري تذاكر؟"

هزّت تامي رأسها بالنفي وقالت: "لا، إنهم يعرفونني هنا. إني أستخدم الفيلا كموقع لتصوير فيلم وثائقي عن تاريخ الكيمياء القديمة."

تجاوزوا واجهات عرض زجاجية فيها بعض أثواب الكهنة ممّا كان يلبسه الأب سونيير في القرن التاسع عشر. توقّف بيتر يتأمّل الأثواب فيما واصلت تامي المشي حتى نهاية الرواق، ثمّ توقفت عند عمود حجري قديم حُفر فيه صليب.

"يُسمّى هذا العمود عمود الفُرْسان، ويُعتقد أن القوطيّين الغربيّين نقشوه في القرن الثامن. كان العمود جزءاً من المذبح في الكنيسة القديمة، ولما نقله الأب سونيير أثناء ترميم الفيلا اكتشف بضع لفائف مخطوطة غامضة ومُرمَّزة، أو هكذا يُقال."

عرض القيّمون على المتحف صوراً مكبَّرة لهذه المخطوطات لإبراز الرموز، فظهرت الأحرف المتفرّقة سوداء ثخينة. لكن تبيّن، لدى تدقيق النظر أن لا شيءَ غامض، إذ لاحظَت مورين العبارة (أتْ إنْ أَرْكاديا إيغو) بوضوح ضمن تلك الأحرف الكبيرة.

قالت لبيتر: "ها هي هنا أيضاً!"، واستدارت نحو تامي قائلةً: "ما معناها؟ ألا ترمز لشيء معيّن؟"

"لقد سمعتُ ما يزيد على خمسين نظريّة حول معنى هذه العبارة، حتى كاد إيجاد تفسير لها يصبح مهنة قائمة بنفسها..."

قاطعتها مورين بالقول: "لقد جاء بيتر بفكرة، أثناء رحلة القطار إلى هنا، مفادها أن في العبارة ذكْراً لقرية الآرك: في الآرك، قرية الله، أنا موجود."

بدا على تامي إعجابها بالفكرة، فتوجّهت إلى بيتر بالقول: "فكرة معقولة، أيّها الأب، لكن الاعتقاد السائد هو بإعادة ترتيب الأحرف اللاتينية نفسها لتصبح: إي تيغو أَرْكانا ديي."

ترجم بيتر العبارة قائلاً: "أُخفي أسرارَ الله."

فقالت تامي ضاحكةً: نعمْ، لكن ذلك لا يساعد كثيراً. تعالا أريد أن أريكما المنزل من الخارج."

كان بيتر لا يزال يفكّر في قبر بوسّان، فقال: "مهلاً، مهلاً. ألا يعني ذلك أن شيئاً ما كان مُخبّأً داخل القبر؟ وإذا جمعنا الاحتمالين معاً يصبح المعنى، على وجه التقريب: في الآرك، قرية الله، أُخبِّئُ الأسرار."

انتظر بيتر وموربن جواب تامي، فصمتت لحظات مُفكِّرةً، ثم قالت: "هذه نظريّة جيدة كغيرها من الاحتمالات التي سمعتُها. لكن المؤسف هو أن القبر قد فُتح وفُتّش مراراً. كما إن جدّ سنكلير حفر تراب تلك الأرض، ذَرّةً ذرّة، على مساحة ميل مربّع حول القبر. أمّا بيرنجيه، فلم يترك وسيلة تقنيّة متطوّرة إلا واستخدمها للبحث عن الكنز المدفون مثل الترددات الصوتية والرادار وغيرها."

فسألتها موربن: "ولم يجدا شيئاً؟"

"لا شيء على الإطلاق."

وعلّق بيتر قائلاً: "لعلّ شخصاً آخر سبقهما إليه. وماذا عن ذلك الكاهن سونيير؟ هل يمكن أن يكون ذلك سبب ثرائه؟ الكنز الذي اكتشفه؟"

"هذا ما يظنّه الناس. لكن المُضحك في الأمر أنه بعد سنوات وسنوات من الأبحاث الجادّة لم يتوصّل أحد إلى معرفة سِرّ سونيير، حتى يومنا هذا." كانت تامي تقودهما عبر فِناء جميل جداً فيه بركة ماء كبيرة من الحجر والرخام.

لاحظ بيتر: "غريب أن يكون هذا المنزل الفخم ملكاً لكاهن رعيّة بسيط في القرن التاسع عشر!"

"فعلاً. والأغرب من ذلك هو أن الأب سونيير الذي صرف ثروة لبناء هذا المكان لم يسكن فيه. والواقع أنّه رفض ذلك، وتركه في النهاية لِـ... لمدبّرة المنزل."

أبدى بيتر ملاحظة: "لقد تردّدتِ قبل قولك: مدبّرة المنزل!"

"أجل، لأنّ كثيراً من الناس يرون أنها كانت أكثر من مدبّرة منزله، بل كانت شريكة حياته."

"لكنْ، ألم يكن كاهناً كاثوليكياً؟"

"لا تُدينوا الناس، يا أبتِ. ذلك هو شعاري الدائم."

لم يجرِ هذا الحوار الأخير على مسمع موربن، لأنها كانت قد تقدّمت بضع

خطوات حيث استرعى انتباهها تمثال قديم في الحديقة، فسألت: "تمثال من هذا؟"

فأجابتها تامي: "جان دارك."

جاء بيتر لينظر إلى التمثال عن قرب، وقال: "أجلْ، فهذا سيفها، وهذه رايتها. لكنها لا تنتمي إلى هذا المكان!"

فسألته مورين: "لماذا؟"

"أعتقد أنها... تقليديّة. إنها رمز كلاسيكيّ تاريخيّ للمذهب الكاثوليكيّ في فرنسا، في حين أن كل شيء هنا أبعد ما يكون من الكلاسيكية والتقليدية."

عادت تامي إلى القهقهة وهي تقول: "جان دارك؟ تقليدية؟ ليس في هذه المنطقة! لكنّ هذا موضوع تاريخيّ هامّ سنعالجه لاحقاً. هل تودّان رؤية شيء غير تقليدي فعلاً؟ فلنذهبْ إذاً إلى الكنيسة."

بالرغم من الدفء والشمس الساطعة في منتصف الصيف، كان جوّ رين لو شاتو معتدلاً ظليلاً. كان لدى مورين ذلك الإحساس المُربِك بأنها مُلاحَقة، فتحسب أن خيالاً ما يتربّص بها عند كل منعطَف بين الحدائق. لاحظَت أنها استدارت مسرعةً عدّة مرات، فلم تجد أحداً يلاحقها. لقد أثارت القرية اضطرابها. يا له من مكان غريب، أوقفَ عقارب ساعتها وجعلها تحسّ باستمرار أن هناك من يزحف نحوها. لذلك لم تكترث كثيراً لجمال القرية، بل تمنّت لو تغادرها بسرعة.

قادتهما تامي خارج الحدائق حول البيت. مرّوا بفناء آخر حيث رأوا مدخلاً لكنيسة حجرية عتيقة.

"هذه كنيسة رعيّة القرية. كان في هذا الموقع كنيسة باسم مريم المجدلية منذ ألف سنة. وبدأ سونيير بترميمها في حوالي سنة 1891، أي في الفترة التي يعتقد أنه وجد فيها الوثائق السرية. أخذ الوثائق إلى باريس، ثم أصبحَ مليونيراً بين ليلة وضُحاها. وأنفق من ماله ليضيف إلى الكنيسة أشياء فريدة."

ولدى اقترابهم من الكنيسة، وقف بيتر وقرأ الكلام المنقوش باللاتينية على عتبة الباب العليا. "كم هذا المكان رهيب!"

واستوضحته مورين: "رهيب؟"

فأعاد شرح الجملة: "هذا المكان رهيب."

وسألته تامي: "هل تعرف القصة يا أبتِ؟"

أجابها بيتر: "طبعاً!"، وكأنه يخبرها بأنها، لو أرادت اختبار مدى معرفته بالكتاب المقدّس، لكان عليها البحث عما هو أصعب من ذلك. ثم أضاف: "سِفر التكوين، الإصحاح الثامن والعشرون. ذلك ما قاله يعقوب بعدما استفاق من حلمه الذي رأى فيه سُلَّماً إلى السماء."

نظرت مورين محتارةً نحو تامي وبيتر، وتساءلَت: "ولماذا يختار أيّ كاهن هذا القول ليحفره على باب كنيسته؟"

وكان ما طلعت به تامي من جواب: "يجدر بك رؤية الكنيسة من الداخل قبل محاولة إيجاد الجواب." ودخل بيتر قبلهما.

صاح بهما: "المكان مُظلم جداً!"

قالت تامي: "انتظرْ لحظةً، وراحت تبحث في حقيبتها عن قطعة نقدية، وهي تشرح لهما: "الأنوار تُضاء بالنقود." ثم وضعت قطعة يورو معدنية في صندوق قرب الباب، فأضاءت أنوار النيون. وتابعت تامي: "في زيارتي الأولى، حاولتُ رؤية الكنيسة في الظلام، وفي المرة الثانية أحضرت مِشعلاً، فرآني أحد وكلاء الكنيسة ودلّني على صندوق وَضْع النقود. وبهذه الطريقة يكون الزوّار قدْ دفعوا شيئاً للكنيسة. سيظلّ النور مُضاءً حوالى عشرين دقيقة."

صاح بيتر: "ما هذا!" فأثناء شرح تامي موضوع الإضاءة، كان قد استدار ورأى تمثال شيطان بشع يربض عند مدخل الكنيسة.

ربتَت تامي على رأس التمثال هازلةً وقالت: "آه، إنه ركس، أي الملك باللاتينيّة، مرحباً ركس! إنه بمثابة جالب الحظّ المعتمَد بالنسبة إلى رين لو شاتو. وككل شيء آخر هنا، توجد آلاف الأقوال والنظريات بشأنه. فبعض الناس يقولون إنّه الشيطان أزْموديوس، حارس الأسرار والكنوز المخبّأة، فيما يعتقد آخرون أنّه ركس موندي الذي يعود إلى تعاليم طائفة الكَتار، أو الأنقياء، وهذا ما أرجّحه شخصياً."

علّق بيتر شارحاً الاسم اللاتينيّ: "ركس موندي، أي ملك العالم؟"

وافقته تامي، وأضافت مُتوجِّهةً إلى مورين: "سيطر الكتار على هذه المنطقة

في القرون الوسطى. ولا ننسى أنه كانت توجد كنيسة هنا منذ العام 1059 عندما كان ذلك المذهب في أوجه. كان هؤلاء يؤمنون بأنّ مخلوقاً أدنى يحرس الأرض المنبسطة، اسمه ركس موندي، أي ملك الأرض، وأنّ أرواحنا هي في صراع دائم لتهزم هذا الملك فيسود ملكوت الله، وهو ما تتوق إليه الروح. وهكذا فإن ركس يمثّل كل الإغراءات الدنيوية والمادية."

هبّ بيتر سائلاً: "وماذا يفعل داخل كنيسة كاثوليكية مقدّسة؟"

"إنّه هنا تحت أقدام الملائكة، مهزوماً بالطبع. انظر فوقه." وكان فوق تمثال الشيطان تماثيل أربعة ملائكة يرسمون إشارة الصليب ويقفون على ظهره بالقرب من جُرْن للمعموديّة على شكل محارة كبيرة.

قرأ بيتر الكلام المنقوش هناك بالفرنسية، وترجمه بالقول: "بهذه الإشارة أهزمه."

مرّرت تامي يدها على رقبة الشيطان، وقالت: "الخير يغلب الشر. الروح تهزم المادّة. الملائكة فوق الشيطان. غير تقليديّ؟ أجلْ. لكنه ليس غريباً على سونيير. ثُمَّ، هل تلاحظان هذا؟ منذ بضع سنوات، تسلّل أحدهم إلى الكنيسة وقطع رأس ركس. وهذا الرأس الذي ترونه هو البديل. ولا يُعرف إذا كان الفاعل صائد تذكارات أو كاثوليكياً غاضباً لوجود رمز الشرّ هذا في مقام مقدّس. وبحسب علمي، هذا هو التمثال الوحيد لشيطان في كنيسة كاثوليكية، أليس هذا صحيحاً يا أبتِ؟"

كان السؤال موجّهاً لبيتر، فأجاب: "لا بدّ من القول إنّي لم أسمع أبداً بوجود أي شيء كهذا في أي كنيسة كاثوليكية. فهذا كُفْر صريح!"

أوضحت تامي الأمر: "كان الكَتار يقولون بالثّنويّة، فقد آمنوا بوجود قوّتين إلهيّتين متعارضتين، إحداهما تعمل للخير وتسعى لتطهير جوهر الروح، والثانية تريد الشرّ وترتبط بعالم المادّة والفساد. انظرا إلى الأرض هنا."

ولفتَت انتباههما إلى بلاط أرضيّة الكنيسة. كانت البلاطات سوداء وبيضاء ناصعة، مرصوفة جنباً إلى جنب كمربّعات رقعة الشطرنج. "وهذا دليل آخر على اعتناق سونيير الثّنويّة: أبيض وأسود، الخير والشر. إنها بعض لمساته الغريبة. لقد كان مهووساً وماكراً. كان قد وُلد على مسافة أميال من هذه القرية وفهمَ عقليّة أبناء المنطقة. علمَ أن رعيّته من نسل الكتار وأنّهم ظلوا يشكّون بسلطة روما حتى بعد قرون من أفول نجم أسلافهم. أرجو ألّا تستاء من كلامي هذا!"

أجابها بيتر: "لا بأس." فقد اعتاد على طريقة تامي في الكلام، لأنه اعتبر أنها لا تتصنّع، ولم يكترث لذلك بعدما تعوّد سماع أسلوبها الساخر، فقال: "لقد واجهَت الكنيسة بِدْعة الكَتار بحزم وصرامة، لذلك أتفهَّم سبب انزعاج السكان المحليين حتى اليوم."

توجّهت تامي لمورين بالكلام: "إنها الحملة الصليبيّة الوحيدة في التاريخ التي قتلَ فيها المسيحيّون مسيحيّين آخرين. لقد ذبحَ جيش البابا الكَتار هنا، ولم ينسَ أبناء المنطقة ما حدث. لذلك أضاف سونيير عناصر كتارية وغنوصيّة صريحة إلى كنيسته، فخلق بيئة ترتاح إليها رعيّته، مما زاد تعلّقهم بتلك الكنيسة وتردُّدهم إليها. وكانت النتيجة أن أبناء المنطقة أحبّوه لدرجة العبادة."

جال بيتر في الكنيسة مُدقِّقاً في كل تفاصيلها. ووجد كلّ عناصر زخرفتها عجيبة غريبة. كان كلّ ما فيها مبَهرَجاً ومُنتفِخاً ومبتذلاً. ومن ذلك تماثيل جبْسيّة ملوّنة لقدّيسين غير مُحتمَلين مثل تمثال القديس روك وهو يرفع رداءَه ليُظهر ساقه المجروحة أو تمثال القديسة جيرمين وهي تبدو كراعية شابة تحمل حملاً. كان في كل عمل فنّيّ في الكنيسة شيء شاذّ أو غريب، وخصوصاً منحوتة معموديّة المسيح، وهي بالحجم الطبيعي، ويبدو فيها يوحنّا المعمدان يعلو فوق المسيح ويلبس ثياباً غير مناسبة بتاتاً: ثوباً ورداء على أكمل طِراز رومانيّ!

تساءل بيتر متعجباً: كيف يُعقل أن يُلبِس أي فنّان يوحنّا المعمدان لباساً رومانيّاً؟"

صمتت تامي لحظة كأنها تفكّر في قول شيء، لكنّها لم تجب عن السؤال، بل تابعت شرحها عن التماثيل، وهي تقودهما نحو المذبح.

"تذكُر الأساطير المحلية أن سونيير صنع بعض هذه التماثيل بنفسه. ومن المؤكّد أنه نفّذ على الأقلّ جزءاً من النقش فوق المذبح. وقد كان مهووساً بمريمك". تبِعَت مورين تامي إلى حيث كان نقش بارز لصورة مريم المجدلية يشغل حيزاً هاماً في المذبح. وكان يحيط بها كالعادة أيقونة جمجمة تحت رجليها وأيقونة كتاب على جانبها، وصليباً مصنوعاً من شجرة حيّة وهي تحدّق إليها تحديقاً.

وكان بيتر مستغرقاً في تأمّل اللوحات البارزة التي تصوّر مراحل درب الصليب. وكما هو الحال في التماثيل، كان في كل رسم تفصيل غريب شاذّ يُناقِض نواميس الكنيسة.

ثم أكملوا تفحُّص تلك العناصر غير المألوفة في الكنيسة، وكانوا أمام كلّ منها يجدون لغزاً جديداً يُضاف إلى مجموعة الألغاز المتراكمة حولهم.

وفجأةً سُمع صوت طقطقة ووقعت الكنيسة في ظلام دامس.

ذُعرت مورين عندما وجدت نفسها واقفة في العتمة، وأحسّت أن الخيالات التي كانت قد لاحقتها في الخارج تحت ضوء الشمس احتشدت حولها وكادت تخنقها.

صاحت مورين مُناديةً بيتر.

صرخ بيتر: "أنا هنا. أين أنتِ؟" وتردّد صدى الصوت في الكنيسة فضاع مصدره.

صاحت مورين ثانيةً: "أنا هنا، قرب المذبح."

وسُمع صوت تامي تقول: "كل شيء على ما يُرام. لا تجزعا لأن وقتنا انتهى بحسب العدّاد."

وأسرعت تامي إلى الباب وفتحته ودخل ضوء النهار، فرأى بيتر مورين ورأته. وجاءت إليه وأمسكت به وركضت إلى خارج باب الكنيسة، وهي تنظر عمداً ناحية اليسار لتتجنّب رؤية تمثال الشيطان ثانية.

كانت مورين ترتجف بالرغم من شمس الظهيرة في منطقة لانغدوك، وقالت: "صحيح أن المسألة ميكانيكية وتتعلّق بآليّة تشغيل الضوء، لكنّ الأمر كان مروّعاً. الكنيسة كلها في غاية... الغرابة." والواقع أن القرية ليست من هذا العالم أو أنها في زمن منسيّ، ولم يسبق لمورين أن رأت مثلها، لذلك أثارت اضطرابها. كان هناك إحساس بالتشوّش والبلبلة وراء كل شيء، ومع أن القرية نفسها كانت شبه مهجورة، فقد كان صمتها مُصِمّاً للآذان. نظرت مورين إلى معصمها وتذكّرت أن ساعتها قد توقّفت تماماً منذ وصولها إلى هنا، فازداد هلعها وذعرها.

أراد بيتر أن يستفهم من تامي عن عدّة أشياء، فسألها وهم يخترقون الحديقة ويدورون حول فيلا بيتانيا: "لا يمكنني أن أتصور أن سونيير قام بكلّ هذه الأشياء من دون مواجهة مع الكنيسة. فكيف كانت علاقته بالكنيسة؟"

أجابته تامي: "لقد وقع في مشاكل كثيرة مع الكنيسة. حتّى إنهم جرّبوا مرّةً أن يجرّدوه من وظيفته ويستبدلوا به كاهناً آخر، لكنّهم لم ينجحوا في ذلك. فأبناء

المنطقة لم يقبلوا أحداً غير سونيير لأنه كان واحداً منهم. لقد كان يستحقّ تلك المكانة، على عكس ما هو منكور في مُعظم الكتب. والغريب في الأمر أن كلّ المراجع المزعومة عن رين لو شاتو تصوّر سونيير كحدث طارئ على القرية. لكن، كُنْ على ثقة، لا شيء يحدث مصادفةً في هذه المنطقة، فهناك قوى جبّارة كثيرة تفعل فعلها."

"هل تقصدين قوى بشرية أم فوق طبيعيّة؟

أجابت: "من النوعين"، وأشارت لهما ليتبعاها. ثم سارت نحو برج حجريّ يلتصق بجانب منحدَر صخريّ عند الطرف الغربي من أرض الكنيسة.

"اتبعاني. يجب أن تريا أهمّ مبنى هنا، وهو برج المجدليّة."

أثارَ الاسم فضول مورين، فكرّرته على شكل سؤال: "برج المجدليّة؟"

"أجلْ برج المجدلية، وكان مكتبة سونيير الخاصة. لكن المنظر هو الذي يستحق العناء."

سارا وراء تامي داخل البرج وهما ينظران حولهما إلى بعض أغراض سونيير الخاصة المعروضة داخل علب زجاجيّة. ثمّ تسلّق الثلاثة الدرجات الاثنتين والعشرين المؤدية إلى قمة البرج. وكان منظر لانغدوك خلّاباً.

أشارت تامي إلى تلّة بعيدة. "هل تريان تلك التلّة هناك؟ إنها الآرك. وفي الجانب الآخر من الوادي قرية كوستوسا الأسطورية حيث عاش كاهن آخر، صديق لسونيير، هو أنطوان جيليس الذي قُتل في بيته بشكل وحشيّ. وقد نُهب بيته، ويُعتقد أن الذين قتلوه كانوا يبحثون عن شيء أهمّ من المال، إذْ تركوا نقوداً ذهبية كانت على الطاولة وسرقوا كل وثيقة ومستنَد وورقة. المسكين! كان في السبعين من عمره، وقد وُجد وهو يسبح بدمائه بعدما قتلوه بملقط المدفأة وفأس."

قالت مورين مرتعشةً: "يا للهول!"، وقد تأثرت بتلك القصة الفظيعة، كما بالجوّ المحيط بها. فالمكان أثار إعجابها ونفورها في آن واحد.

علّق بيتر بكلّ وضوح: "يا إلهي! هناك أناس مستعدون للقتل من أجل هذه الأسرار."

"كان نلك منذ مئة سنة. وأتمنى أن نكون قد أصبحنا أكثر تمدّناً في هذه الأيام."

عادت مورين إلى موضوع الكاهن الغريب وملايينه الغامضة، فسألت: "لكن ماذا حدث لسونيير؟"

"لقد تطور الأمر من غريب إلى أغرب: أُصيب بسكتة دماغية بعد أن أوصى على تابوته بأيام معدودة. وبحسب الروايات، جيء بكاهن من خارج القرية ليمنحه الأسرار الأخيرة قبل الموت، فرفض القيام بذلك بعد سماعه اعتراف سونيير. ويُقال إن ذلك الكاهن المسكين غادر رين لو شاتو عابساً مُنقبِض الصدر ولم يبتسم بعد ذلك قَطّ."

"قصة غريبة! ماذا أخبره سونيير يا تُرى؟"

"لا يعرف ذلك أحد على وجه التحديد، سوى مدبِّرة المنزل البغيضة ماري دينارنو التي ترك لها سونيير كل ثروته وأسراره. وقد ماتت، في ظروف غامضة، بعد عدة سنوات، ولم تكن قادرة على الكلام في أيامها الأخيرة، لذلك لن يعرف أحد شيئاً عن هذه الأسرار أبداً.

"لقد أوجدَت هذه القرية نشاطاً اقتصادياً مزدهراً، إذ يزور هذه المنطقة المنعزلة مئة ألف سائح كل عام، يأتي بعضهم بدافع الفضول والمعرفة، ويأتي آخرون طمعاً في إيجاد كنز سونيير."

اقتربت تامي من طرف أعلى البرج ونظرت إلى الوادي الفسيح الممتدّ تحت ناظريها، وقالت: "ولا نعرف حقاً لماذا بنى البرج هنا، لكنه كان حتماً يسعى لشيء. ألا توافقني الرأي يا أبتِ؟"، وغمزته بعينها واستدارت لتنزل الدرج.

وفيما كان الثلاثة يتوجّهون نحو السيارة، أصرَّت مورين على أن تفي تامي بوعدها وتشرح لهما سبب أهمية برج الخيمياء، برج القصر المتداعي شاتو أوبول، والذي كان مهيباً فيما مضى. صمتَت تامي محتارةً، لا تعرف من أين تبدأ، فقد كُتبت مجلّدات عن المنطقة وقامت هي بأبحاث كثيرة عن الموضوع، لذلك يصعب إعطاء خلاصة موجزة.

بدأت بالقول: "في هذه المنطقة شيء ما يجذب الناس منذ آلاف السنين. ولا بدّ أنه شيء طبيعيّ، سِرٌّ ما في الأرض نفسها. وإلّا فكيف نُعلّل هذا الإقبال العامّ عليها على مدى ألفي عام من التاريخ، ومن كافة المُعتقدات الدينيّة؟

"وكسائر الأشياء في هذه المنطقة، هناك آراء لا تُحصى حول البرج. ومن الطريف البدء بروايات أولئك المجانين الذين يجزمون أن الأمر برُمّته يرتبط بمخلوقات من عوالم أخرى وبوحوش البحر."

قهقه بيتر مع مورين وهي تسالها: "وحوش البحر؟ قد أتوقع مخلوقات من عوالم أخرى، إنّما وحوش البحر؟"

"لا تستغربا الأمر، فوحوش البحر مذكورة في مُعظم حكايات المنطقة وأساطيرها. صحيح أن الأمر مُضحك نظراً لبُعدها عن ساحل البحر، لكنه ليس أغرب من أخبار مشاهدة صحون طائرة هنا وهناك، ومن المؤكد أنّ لهذه المنطقة ما يجعل الناس أشبه بالمجانين بكل معنى الكلمة.

"وهناك أيضاً عامل الوقت. ألا تزال ساعتك متوقّفة؟"

كانت مورين تعرف الجواب، لكنها نظرت إلى ساعتها للتثبُّت، ورأت أنها ما زالت متوقّفة عند 9:33 منذ أكثر من ساعة. فأومأت لتامي برأسها.

تابَعت تامي كلامها: "وستظل، على الأرجح، كذلك حتى نغادر الجبل. ثَمّةَ شيء يؤثّر على الساعات والأدوات الإلكترونية، وقد يُفسِّر ذلك لماذا لا يزال الكثيرون هنا يعتمدون الساعات الشمسية، حتى في القرن الحادي والعشرين. علماً بأن غرائب الوقت هذه لا تحدث مع كل الناس، لكنني أنا شخصياً اختبرت الكثير منها."

وشرعت تروي لهما إحدى قصصها الكثيرة حول عوامل الوقت في رين لو شاتو العصيّة على التفسير.

"كنت يوماً أقود السيارة إلى هنا مع بعض الأصدقاء، ونظرتُ إلى ساعة السيارة عندما كنّا في أسفل التلّة. ولدى وصولنا إلى القمة دَلّت ساعة السيارة على أن المسافة إلى القمة استغرقت حوالى نصف ساعة. لقد قُدتَ السيارة بنفسك قبل قليل، وكنت تقود ببطء، فكم استغرقت الرحلة؟ خمس دقائق؟"

كان السؤال موجّهاً لبيتر، فأجابها: "ليس أكثر من ذلك."

"المسافة لا تتجاوز ميلين. لذلك ظننّا أن في ساعة السيارة عطلاً، لكننا نظرنا إلى ساعاتنا، وأشارت كلها إلى التوقيت نفسه: نصف ساعة. كنّا نعلم أننا لم نُمضِ في الطريق نصف ساعة، لكنّ ثلاثين دقيقة كاملة مرّت، بطريقة أو بأخرى، ونحن في السيارة إلى القمة. هل أستطيع تفسير ذلك؟ لا. كان الأمر أشبه برحلة

في الزمن. ومنذ ذلك الحين، أخبرني كثيرون بأنهم مرّوا في مثل تلك التجربة. إن أبناء المنطقة لا يهتمّون بالأمر لأنهم اعتادوه، فإذا سألتهم عنه يتجاوزونه وكأنه شيء عادي بسيط.

"لقد سمعنا عن وقائع مماثلة حدثت قرب الهرم الأكبر وداخل بعض الأماكن المقدّسة في بريطانيا وإيرلندا. فما هو سِرّها؟ هل هو نوع من القوة المغناطيسيّة؟ أم شيء غير ملموس يستحيل على العقل البشري إدراكه؟"

أسهبَت تامي في ذكر مختلف النظريات التي طلعت بها مجموعات الباحثين المحليّين والعالميّين، فعدّدت لائحة طويلة من التعليلات المحتملة مثل خطوط الخوارق، والدوّامات، والأرض المجوَّفة، وبوّابات النجوم. ثم أضافت: "قال سلفادور دالي إن محطة القطارات في بربينيان هي مركز الكون لأن نقاط القوى المغنطيسية تتقاطع هناك."

سألتها مورين: "كم تبعد بربينيان من هنا؟"

"حوالى أربعين ميلاً. أي مسافة قريبة لتظلّ ضمن دائرة التشويق هذه. وكم أتمنّى لو أنّ لديّ تفسيراً حاسماً لكل هذه المسألة، لكن لا أنا ولا أحد غيري لديه العلم اليقين. هذا هو سبب إدماني على زيارة هذا المكان تكراراً. هل تذكران خط الزوال الذي أراكما إيّاه سنكلير في كنيسة القديس سولبيس في باريس؟"

هزّت مورين رأسها قائلةً: "تعنين خط المجدلية!"

"تماماً. وهو يمتدّ من باريس مستقيماً ويخترق هذه المنطقة. لماذا؟ لأن في هذه الأرجاء ما يتجاوز الزمان والمكان، وأعتقد أن هذا ما جذب الخيميائيين من أنحاء أوروبا منذ العصور القديمة."

علّق بيتر بقوله: "كنت أتساءل متى سنعود إلى موضوع الخيمياء؟"

"عفواً. يبدو أني أطلت الحديث عن موضوع الوقت، لكنه موضوع متشعّب. لنعُدْ إلى قصة البرج الذي نراه هناك، واسمه برج الخيمياء. يبدو أنه مبنيّ فوق نقطة القوّة الأسطورية، وخطّ المجدلية يمرّ به، وقد شهد اختبارات لا تُحصى في مجال الخيمياء."

سألتها مورين: "عندما تقولين الخيمياء، تقصدين الكيمياء القديمة، أي الاعتقاد السائد في القرون الوسطى بإمكانية تحويل الكبريت إلى ذهب؟"

" هذا التعريف صحيح أحياناً. لكن ما هو التحديد الحقيقيّ للخيمياء؟ إذا أردتِ إثارة شجار حامٍ ما عليكِ إلّا طرح هذا السؤال على مجموعة من المفكّرين المختصّين، ولا شكّ بأن الدنيا ستقوم وتقعد قبل التوصل إلى جواب نهائيّ؟"

ثمّ راحت تامي تستعرض أنواع الخيمياء المختلفة: "هناك الخيميائيّون العلميّون، الذين يحاولون فعلياً تحويل الموادّ الأساسية إلى ذهب. وقد جاء بعض هؤلاء إلى هنا مُعتقدين أن قدرة هذه الأرض هي العامل السحريّ الذي كانوا يبحثون عنه لإكمال اختباراتهم. ثمّ هناك الفلاسفة الذين يؤمنون بأنّ الخيمياء تحوُّل روحي، وأنّ غايتها تحويل العناصر الأساسية للنّفس البشرية إلى ذات ذهبيّة. وهناك أصحاب المعرفة السرية المؤمنون بفعالية استخدام العمليات الخيميائية لاكتساب الخلود والتأثير، بطريقة ما، على طبيعة الزمن. وهناك أيضاً الخيميائيّون الجنسيّون، وهم القائلون بأن الطاقة الجنسية تخلق نوعاً من التحوُّل عندما يندمج جسَدان باستخدام توليفات معيّنة من المناهج الماديّة والماورائيّة."

كانت مورين تُصغي باهتمام، وأرادت أن تعرف المزيد عن رأي تامي الخاص، فسألتها: "وإلى أيّ نظريّة تميلين؟"

"أنا شخصياً مُعجَبة بنظرية الخيمياء الجنسيّة، مع أني أعتبر أن كل النظريات الأخرى صحيحة فعلاً. وأعتقد أن الخيمياء هي، في الواقع، مصطلح يضم أقدم مجموعة مبادئ على وجه الأرض، كما ارى أن القدماء فهموا هذه القواعد في غابر الزمان مثلما فهمها مهندسو هرم الجيزة الأكبر."

جاء السؤال التالي من بيتر: "أخبرينا، ما علاقة كل هذا بمريم المجدلية؟"

"أولاً، نعتقد أنها عاشت هنا، أو على الأقل، قضت بعض الوقت هنا. وهذا يقودنا إلى السؤال: لماذا هنا؟ فهذا المكان ناءٍ حتى في أيامنا هذه بوجود كل وسائل النقل الحديثة، وهل يمكننا أن نتصوّر مشقّات اجتياز هذه الجبال في القرن الأوّل؟ ثمّ إن ظروف العيش في هذه الأرض كانت قاسية جداً، فلماذا اختارت هذا المكان؟ ولماذا اختاره الكثيرون. والجواب بسيط، وهو أنّ هناك شيئاً استثنائياً يتعلّق بهذه الأرض.

"آه، نسيت أن أذكر نوعاً آخر من الخيمياء مرتبطاً بهذا المكان، هو ما أسميتُه مؤخراً الخيمياء الغنوصيّة."

علقت مورين على التسمية بقولها: "يبدو اسماً لافتاً لدين جديد."

"أو بالأحرى، قديم! هناك اعتقاد سائد يعود إلى أيام الكَتار، أو قبلهم، وهو أن المنطقة هي مَعقِل الثنويّة، وأن ملك العالم ركس موندي بنفسه يعيش هنا. كما يعتقدون بأن التوازن الدنيوي بين النور والظلام، أي الخير والشر، يحدث في هذه القرية الصغيرة العجيبة ومحيطها القريب، وأن هذين العنصرين في عراك مستمرّ بينهما هنا بالضبط تحت أقدامنا. وإذا كنتما تعتبران السير على هذه الطرقات في وضح النهار مخيفاً حقاً، فإني لن أجسر على السير فيها في الليل ولو قدمتما لي مال الدنيا. هناك شيء هامّ حول هذا المكان وهو أنه سيّئ للغاية."

هزّت مورين رأسها موافِقةً، وقالت: "أنا أظنّ ذلك أيضاً. لعلّ دالي ابتعد مسافة أربعين ميلاً في تحديده مركز الكون، ولعلّ رين لو شاتو هي مركز الكون الفعليّ!"

وقال بيتر: "ربّما كان هذا منطقياً بالنسبة لسكّان فرنسا في القرون الوسطى لأن فرنسا كانت عالمهم. لكنْ، هل يُصدّق الناس في عصرنا هذه النظريّة؟"

"كل ما يمكنني قوله هو أنّ أحداثاً غريبة تقع هنا، ولا يستطيع أحد تفسيرها. وهي تحدث باستمرار في الآرك والمناطق المجاورة حيث بُنيَت هذه القصور. ويقول البعض إن الكَتار بنوا قلاعهم كحصون حجرية ضدّ قوى الظلام، واختاروا البناء فوق الدوّامات أو نقاط القوّة حيث يُمكنهم إقامة طقوس دينيّة للسيطرة على قوى الظلام أو قهرها. وكان لكل هذه القصور أبراج، ولهذا مغزاه."

كان بيتر يصغي باهتمام، فسألها: "لكنّ للأبراج عادةً أهدافاً استراتيجية، فهي تُبنى لأغراض دفاعية!"

هزّت تامي رأسها مؤكّدةً: "طبعاً، طبعاً. لكن ذلك لا يشرح لماذا ظهرت أساطير حول كلّ من هذه القصور تدور حول الخيمياء داخل أبراجها. فهذه الأبراج مشهورة بأنها أماكن حدوث أنواع من السحر أو التحوّلات، وكلّها تتّصل مباشرةً بالشعار الخيميائي 'كما فوق، كذلك تحت'. والأبراج تمثّل الأرض لأنها قائمة على الأرض، وتمثّل السماء كذلك لأنها ترتفع نحو السماء، ممّا يجعلها ملائمة لإجراء التجارب الخيميائية. وكان لكلّ منها اثنتان وعشرون درجة، كبرج سونيير."

سألتها مورين وقد ازداد فضولها: "ولماذا اثنتان وعشرون؟"

"العدد اثنان وعشرون عدد رئيسي، علماً بأن العناصر العددية هامة جداً في الخيمياء. والأعداد الرئيسية هي أحد عشر واثنان وعشرون وثلاثة وثلاثون، لكنّ

أكثرها اعتماداً في هذه المنطقة هو اثنان وعشرون لأنه يتعلق بالطاقة الأنثوية السماوية، علماً بأن عيد مريم المجدلية بحسب التقويم الكَنَسيّ، هو في..."

قاطعها بيتر ومورين معاً: "في الثاني والعشرين من تموز (يوليو)."

"صحيح! وللإجابة عن سؤالك: لعلّ هذا هو سبب مجيء مريم المجدليّة إلى هنا، لأنها علمت بعناصر القوة الطبيعية أو فهمَت شيئاً عن الصراع بين النور والظلام، كما هو قائم هنا. ولم يكن أهل فلسطين يجهلون هذه المنطقة، وكانت عائلة هيرودوس تملك أراضي غير بعيدة من هنا. حتى إنّه يُعتقَد أنّ أمّ مريم المجدلية كانت أصلاً من سلالة من لانغدوك. فكأن المجدلية عادت إلى موطنها."

تطلّعت تامي إلى البرج المتداعي لقصر أوبول وعلّقت: "آه، لَكَم أتمنّى لو كنتُ حشرةً خالدةً على جدار هذا البرج!"

منطقة لانغدوك
23 حزيران (يونيو) 2005

أنزلا تامي في كويزا حيث كان يُفترض أن تلتقي ببعض أصدقائها على غداء متأخّر. وأُصيبت مورين بخيبة أمل عندما علمت أن تامي لن تلتحق بهما إلّا فيما بعد، فقد كانت قلقة لاقترابها من منزل سنكلير من دون مرافقة صديقتهما المشتركة التي يمكن أن تجعل اللقاء أقلّ حرجاً. كما أحسّت مورين بتوتّر بيتر الذي حاول جاهداً إخفاءه، لكنه كان ظاهراً من حركة يديه المشدودتين على عجلة القيادة. فهل كانت الإقامة عند سنكلير غلطة؟

لكنّهما كانا قد وعداه بتلبية دعوته باستضافتهما، فإذا غيّرا رأيهما فإنهما يُهينان مضيفهما. ولم تشأ مورين المغامرة بذلك، لأن سنكلير عامل هامّ بالنسبة للّغز الذي تحاول حلّه.

قاد بيتر السيارة المستأجَرة متمهّلاً إلى خارج الطريق العامّ وعبر البوّابات الحديديّة الضخمة. ولاحظت مورين أثناء ذلك أن البوّابات مزيّنة بأشكال زهرة الزنبق مُحاطةً بِعِنب الكرمة، أو ربّما بالتفاح الأزرق. وكانت الطريق الخاصة تتعرّج صعوداً عبر الأراضي الشاسعة الغنّاء التي تحيط بقصر شاتو دي بوم بلو.

وقفا أمام القصر صامتين يتأمّلان ضخامته وعظمته، وهو قلعة من القرن السادس عشر أُعيد ترميمها وتجديدها بشكل رائع. وما إن ترجّل بيتر ومورين من

السيارة حتى خرج رولان المَهيب، كبير خدَم القصر، من الباب الأمامي، وأسرعَ خادمان يرتديان لباساً رسمياً إلى السيارة ليحملا الأمتعة وينفذا أوامر رولان.

بادرهما رولان بالتحية راسماً على وجهه الرصين ابتسامة رقيقة، فتنفّس بيتر ومورين الصعداء. "صباح الخير أيتها الآنسة باسكال، صباح الخير أيها الأب هيلي. أهلاً وسهلاً بكما في شاتو دي بوم بلو. السيد سنكلير سعيد جداً لقدومكما!"

انتظرَ بيتر ومورين في قاعة الاستقبال المُترَفة قرب المدخل، وكانت تحوي من التحف الفنية الرائعة والقطع الأثرية النادرة ما لا يوجد مثيله في كثير من متاحف فرنسا.

توقّفت مورين، ثم بيتر، عند علبة زجاجية في نقطة مركزية من الغرفة، وكان فيها كأس قربانٍ فضيّة ضخمة مُنمّقة، فيما وُضعت جمجمة بشرية في موقع بارز من وعاء الذخائر. كانت الجمجمة مبيضّة بفعل الزمن، وفيها، على أعلى الرأس، شِقّ واضح. وقد وُضعت بجانب الجمجمة خصلة شعر داخل الكأس، ومع أنها باهتة اللون، فقد حملت آثار لونها الأصلي الأحمر.

كان بيرنجيه سنكلير قد وصل وأصبح وراءهما، فقال: "اعتبرَ القدماء أنّ الشعر الأحمر مصدر سحر عظيم."

انتفضت مورين لدى سماعها الصوت غير المتوقّع، واستدارت وأجابت:

"لم يكن على القدماء الذهاب إلى مدرسة عامة في لويزيانا."

ضحك سنكلير ضحكة عميقة تنمّ عن أصله السلتيّ، ومدّ يده ومرّر أصابعه على شعر مورين مداعباً وقال: "ألم يكن في مدرستك صبيان؟"

ابتسمت مورين، لكنها أعادت انتباهها إلى الذخيرة في العلبة قبل أن تظهر حمرة الخجل على وجهها، فقرأت بصوت عالٍ ما هو مكتوب على بطاقة التعريف داخل العلبة:

"جمجمة الملك داغوبير الثاني."

قال سنكلير: "أحد أسلافي المثيرين."

استغرب بيتر الأمر وشك فيه، فتساءل: "القديس داغوبير الثاني؟ آخِر ملوك الميروفيّين؟ أنت من سلالته؟"

"نعم. أحسنتَ يا أبتِ. إن معرفتك العميقة بالتاريخ توازي معرفتك باللاتينية."

بدت مورين خارج الصورة تماماً، فسألتهما: "مهلاً. نوّراني من فضلكما. إن معرفتي بتاريخ فرنسا تبدأ بالملك لويس الرابع عشر. فمَن هم الميروفيّون؟"

أجاب بيتر: "سلالة قديمة من الملوك، حكموا ما نعرفه اليوم بفرنسا وألمانيا، من حوالى القرن الخامس حتى القرن الثامن، وانتهى حكمهم بموت الملك داغوبير هذا."

أشارت مورين إلى الشق البارز في الجمجمة، وقالت: "من الواضح أنه لم يمت ميتة طبيعيّة!"

أجابها سنكلير: "لقد أدخلَ ابنُه بالمعمودية حربةً في دماغه عبر محجر عينه، أثناء نومه."

وعلّقت مورين: "وهل هكذا يكون الولاء العائلي؟!"

"للأسف، لقد غلّبَ الواجب الدينيّ على الولاء العائليّ، وهي مُعضِلة واجهت الكثيرين عبر التاريخ. أليس هذا صحيحاً أيها الأب هيلي؟"

قطّب بيتر حاجبيه لمعرفته ما يرمي إليه سنكلير، وسأله: "وما قصدُك؟"

أشار سنكلير بفخر إلى درع عائلي معلّق على الحائط، وقد نُقش في وسطه صليب مُحاط بورود تعلوها عبارة باللاتينية.

"شعار عائلتي." وقرأ العبارة اللاتينية.

نظرت مورين إلى بيتر تنتظر توضيحاً. وكانت قد بدأت تنزعج من تبادل الرجلين معلومات لا تفهمها، فسألت: "وما معناها؟"

ترجم بيتر العبارة اللاتينية بقوله: "اختَرْ سيّداً"

وراح سنكلير يشرح: "قُتِل الملك داغوبير بأمر من روما لأن البابا كان متضايقاً من مفهومه للمسيحيّة. وقد أُمِر ابن داغوبير بالمعمودية باختيار سيّد، فاختار روما وأصبح بالتالي قاتِلاً من أجل الكنيسة."

واستفهمت مورين: "ولماذا لم يُعجب مفهوم داغوبير للمسيحية السلطات الكنَسيّة؟"

"لقد آمن بأن مريم المجدلية ملكةٌ وبأنها الزوجة الشرعية ليسوع المسيح، وأنّه من نسلهما، وهذا ما يمنحه الحق الإلهيّ في المُلك، وهو أعظم من أي قوّة أخرى دنيوية. واعتبرَ البابا حينذاك أن اعتناق أي ملك لهذا الرأي أمر خطير للغاية."

أرادت مورين أن تغيّر مجرى الحديث، فهمزت بيتر بمرفقها، وقالت مازحةً: "أتعدني بألّا تطعنني بحربة في عيني أثناء نومي."

رمقها بيتر بنظرة جانبيّة، وأجابها: "آسف. لا أستطيع أن أعدك بشيء سواء اخترتُ سيداً أم لا."

حملقت إليه مورين متصنِّعةً الهلع، وعادت لتتأمّل وعاء الذخائر الفضّي الثقيل المزيّن بشكل زهرة الزنبق.

"أنت مولع ولعاً شديداً بهذا الرمز مع أنك لست فرنسياً."

"رمز زهرة الزنبق بالطبع! لا تنسي أن الإسكتلنديّين والفرنسيّين كانوا حلفاء على مدى مئات السنين، لكنّ سبب استخدامي له مختلف. إنّه رمز..."

قاطعه بيتر مكملاً قوله: "رمز الثالوث الأقدس."

ابتسم لهما سنكلير وقال: "أجلْ، أجلْ. لكنّي أتساءل، أيها الأب هيلي، هل هو رمز ثالوثكَ الأقدس أم ثالوثي أنا؟"

لم يتمكّن بيتر ومورين من استيضاح سنكلير، إذ دخل رولان الغرفة وخاطب سنكلير مُسرِعاً بلغة تشبه الفرنسية ممزوجةً بنبرات متوسّطيّة. فتوجّه سنكلير بالكلام إلى ضيفيه: "سيرافقكما رولان إلى غرفتيكما حتى تستريحا وتجدّدا نشاطكما قبل العشاء."

ثم انحنى لهما انحناءة كاملة وغمز مورين غمزة خاطفة، وانسحب من الغرفة.

ما إن دخلت مورين غرفة النوم حتى تملّكتها الدهشة. كان الجناح فخماً جداً، وقد

تبوّأ الحيّز الأكبر منه سرير ضخم عالي القوائم مكسوّ بستائر من الجوخ الأحمر المطرّز بأزهار الزنبق المذهّبة. أمّا سائر الأثاث فكان بالطبع أثرياً وكلّه مطليّ بالذهب.

وكان أحد جدران الغرفة مغطى بلوحة بعنوان "مريم المجدلية في الصحراء" للرسام الإسباني الكبير ريبيرا، وفيها تنظر المجدلية نحو السماء. وكانت تتوزع في أنحاء الغرفة آنية زهور ثقيلة من كريستال بكارا مليئة بالورود الحمراء والزنابق البيضاء، نكّرتها بتشكيلات الأزهار التي كان سنكلير قد أرسلها إلى بيتها في لوس أنجلوس.

وقبل أن يدقّ الخدم على الباب للدخول وإفراغ الحقائب كانت مورين تناجي نفسها: "أخشى أن أعتاد هذه العظمة."

كانت غرفة بيتر أصغر من غرفة مورين، لكنّها مع نلك منمّقة وملوكيّة. لم تكن حقيبة ثيابه قد وصلت بعد، لكنه وجد في حقيبة اليد السوداء الصغيرة بعض ما كان يحتاجه حينها. أخرج منها نسخة الكتاب المقدس المغلفة بغطاء جلدي ومسبحته ذات الحبّات البلوريّة.

أمسك بيتر المسبحة وألقى نفسه على السرير. كان تعباً، مرهَقاً من الرحلة، ومُثقلاً، جسدياً ونفسياً، بِهَمّ مسؤوليته عن مورين وسعادتها. وفوق نلك، كان في أرض مجهولة، مما أثار أعصابه. كما إنه لم يثق بسنكلير، والأسوأ أنه لم يثق بموقف ابنة عمته من سنكلير. لا شك في أن ثروة نلك الرجل ومظهره يشكلان سحراً يجذب النساء إليه.

لكنّه، على الأقلّ كان يعرف أن مورين لا تنجرف بسهولة. والواقع أن بيتر كان على علم بالعلاقات القليلة التي كانت لها مع بعض الرجال. وكان كُره أمّها لأبيها قد أثّر سلباً على نظرتها إلى العلاقات الغرامية، فقد رأت كيف انتهى زواجهما المشؤوم إلى مأساة، فاتخذت مورين نلك سبباً لتنأى بنفسها عن أي ارتباط غرامي.

لكنها أنثى على كل حال، وإنسانة قبل كل شيء، وهي سريعة التأثر وخصوصاً في كل ما يمت إلى أحلامها بصلة. لذلك جعل بيتر شغلَه الشاغل منع

سنكلير من استغلال ضعف مورين للتلاعب بها. لم يكن يعلم بعد مدى ما يعرفه سنكلير، لكنه كان مصمماً على اكتشاف ذلك بأسرع ما يمكن.

أغمض بيتر عينيه وبدأ يصلّي طالباً الهداية من الله، لكن صوت طَنين متواصل قطعه عن صلاته الصامتة. حاول تجاهل تردّد الصوت، لكنه لم يستطع، فقام وعبَر الغرفة إلى حيث كانت حقيبة السفر موضوعة، وتناول الهاتف الخلوي وأجاب عليه.

لِحُسْن الحظ، كانت غرفة بيتر قريبة من غرفة مورين في الرواق نفسه، ولولا ذلك لما تمكّنا من أن يجد واحدهما الآخر في قصر سنكلير الفسيح. وقد سلب القصر لُبّ مورين، فكانت تستغرق في تأمّل كل أثر فني أو هندسي وهما يمرّان من جناح لآخر.

كانا في طريقهما لاستكشاف المحيط خارج القصر، إذ كان أمامهما بضع ساعات قبل العشاء، وكانا مفتونين بما شاهداه حول القصر. دخلا رواقاً عريضاً يدخله نور طبيعي عبر نافذة يحيط بزجاجها غطاء رصاصيّ. وكانت هناك، على طول الرواق، جداريّة ضخمة غريبة تصوّر مشهد صَلْب المسيح بأسلوب شبه تجريدي.

توقفت مورين معجَبةً بذلك العمل الفنيّ. كان قرب المسيح المصلوب امرأة تلفّ رأسها بخمار أحمر وتظهر ثلاث أصابع من يدها مرفوعة وتبدو على خدّها دمعة كرّت من عينها. وكانت تقف بجانب تجمّع ماء، لعلّه نهر، تقفز منه ثلاث سمكات صغيرة خارج الماء: واحدة حمراء واثنتان زرقاوان. وقد بدا أن شكل السمكات الثلاث وأصابع المرأة يحاكي شكل زهرة الزنبق بطريقة تجريديّة.

كانت تلك اللوحة مفصّلة، وعصرية حتماً، وكانت زاخرة بالدقائق الفنّيّة. وكانت مورين واثقة أنّها مليئة بالرموز، لكنّها لن تقف ساعات أمام كل منها، لا بل إنها قد تحتاج إلى سنوات لتفهمها كلها.

تراجع بيتر خطوات إلى الوراء ليشاهد منظر الصلب، وكان لافتاً ببساطته، فقد عُتّمت السماء بدائرة أشبه بشمس سوداء فوق الصليب وشقّها خطّ من وميض البرق.

علّق بيتر على اللوحة بقوله: "ألا تُحاكي أسلوب بيكاسو؟"

ظهر مُضيفهما في نهاية الرواق، وقال: "إنّها لجان كوكتو، أغزر فنّاني فرنسا إنتاجاً، وأحد الشخصيّات المحبّبة إليّ. لقد رسمها هنا حين نزل ضيفاً على جَدّي."

هتفت مورين مشدوهة: "كوكتو نزل هنا؟ لا شك بأن هذا المنزل كنز وطني بالنسبة لفرنسا، فكل الأعمال الفنية فيه استثنائية. اللوحة التي في غرفتي..."

"لوحة ريبيرا؟ هذه أفضل صورة لمريم المجدلية بنظري. فهي تعكس جمالها وبهاءها الإلهي أكثر من أيّ لوحة أخرى. إنها رائعة!"

لكن بيتر شكّ في ذلك، وقال: "لا تقل لي إنها أصليّة. لقد رأيتُ الأصلية في متحف برادو بمدريد."

"إنها بالفعل أصليّة. لقد رسمها ريبيرا بناءً على طلب ملك أراغون. فقد رسم، في الواقع، اثنتين، لذلك السبب لستَ مخطئاً، لكن الصغرى هي التي في برادو. وقد أهدى الملك الإسباني هذه اللوحة لجدّ آخر من أجدادي، وكان من عائلة ستيوارت، كعربون للسلام. وكما تريان فإن الفن الجميل وثيق الارتباط بالسيّدة. سوف أُطلعكما على مزيد من الأمثلة أثناء العشاء لاحقاً. لكنْ أتسمحان لي الآن بالسؤال: إلى أين تذهبان؟"

أجابته مورين: "كنّا بصدد القيام بجولة قبل العشاء. لقد لمحت بعض الآثار في أعلى التلة خلال مرورنا بالسيارة، وأردت رؤيتها عن كثب."

"فكرة جيدة. ويشرّفني أن أكون دليلكما في هذه النزهة، إذا لم يكن لدى الأب هيلي مانع!"

قال بيتر مبتسماً: "لا مانع أبداً." لكن مورين لاحظت طرفي فمه المشدودين عندما أمسك سنكلير ذراعها.

روما
23 حزيران (يونيو) 2005

كان نور الشمس يسطع في روما أشدّ منه في أي مكان آخر في العالم، أو بالأحرى، ذلك ما أحسّ به المطران ماغنوس أوكونور وهو يمشي بخطىً حثيثة بين جدران كاتدرائية القديس بطرس المقدّسة. وكان في نشوة عظيمة لنيله شرف الدخول إلى الهيكل الخاص في الكاتدرائية.

ولدى دخوله الهيكل المقدس، وقف أمام التمثال الرخامي للقدّيس بطرس حاملاً مفاتيح الكنيسة، وقبّل رجلي القدّيس بطرس الحافيتين. ثمّ تهادى في مشيته نحو مقدّمة الكنيسة وجلس في المقعد الأمامي. شكر الله الذي منحه نعمة الحضور إلى ذلك المكان المقدّس، ودعا الله لرعايته ورعاية أبرشيّته وحماية أمّنا الكنيسة المقدّسة.

وعند انتهاء ماغنوس أوكونور من صلاته توجّه إلى مكتب الكردينال توماس دي كارو حاملاً الملفات الحمراء التي كانت جواز سفره إلى دوائر الفاتيكان.

"إنها هنا كاملةً، يا صاحب النيافة."

شكره الكردينال، وصرفه بإيماءة صارمة برأسه، ولم يزد على ذلك شيئاً. ولو كان أوكونور يتوقّع أن يفتح معه الكردينال حديثاً طويلاً، لكان أُصيب بخيبة أمل كبيرة.

كان دي كارو متلهّفاً لرؤية محتويات الملفات، وفضّل القيام بقراءته الأولى لها منفرداً.

فتح أوّل الملفات، وكانت جميعها معنونةً: إدوارد بول باسكال.

... لم أكتب بعد عن الأمّ العظيمة، مريم العظيمة. لقد انتظرتُ حتى الآن لأنني كثيراً ما تساءلت إذا كنت أعرف الكلام الذي يَقْدُرها حقّ قدرها بطيبتها وحكمتها وقوّتها. في حياة كل امرأة تأثيرٌ وتعاليم من امرأة أخرى أسمى مكانةً. وهذه المرأة بالنسبة لي ليست سوى مريم العظيمة، أمّ عيسى.

أنا لا أتذكّر أمي لأنها ماتت عندما كنت صغيرة جداً. وفي حين أنّ مرتا اهتمّت بي دائماً وعُنيَت باحتياجاتي الدنيوية كأنها أختي، فإن أم عيسى هي التي تولّت توجيهي الروحي. لقد غذّت نفسي وعلّمتني كل أمثولات الرحمة والمغفرة. بيّنت لي كيف تكون الملكات، ولقّنتني السلوك اللائق بامرأة لها مثل قدَرنا المرسوم.

عندما حان الوقت لألبس الخمار الأحمر وأصبح مريمَ حقيقيةً، كنت مستعدّة، وذلك عائد لها ولكلّ ما قدّمَته لي.

كانت مريم العظيمة مثالاً للطاعة، ولكنّ طاعتها كانت للرب وحده. لقد سمعَت رسائل الله بوضوح كليّ. وتميّز ابنها بهذه المقدرة نفسها، ولذلك مُيِّزا عن غيرهما ممّن تحدّر من نسَب شريف. صحيح أن عيسى كان ابناً للأسد، وريث عرش داود، وأن أمّه تتحدّر من طبقة هارون الكهنوتيّة العظيمة، فهي قد وُلدت ملكةً وعيسى ملكاً، لكن لم يكن نسبهما العظيم هو ما أَفْردهما عن الآخرين، إنّما روحهما ورسوخ إيمانهما برسالة الله إلينا.

ولو أنّي لم أفعل شيئاً كلّ حياتي غير السير في ظلّها لكان ذلك نعمة لي.

كانت مريم العظيمة أول امرأة في الذاكرة وُهِبت معرفة خالصة بالله. وكان هذا تحدّياً لرؤساء الكهنة الذين لم يعرفوا كيف يتقبلون امرأة بمثل تلك القوّة. لكنهم أيضاً لم يقدروا على إدانتها، فمريم العظيمة كانت ذات نسب طاهر وكان قلبها وروحها فوق أي عيب أو نقص، كما كانت سمعتها المثالية معروفة في كل البلاد.

لقد خشِيَها الرجال أصحاب النفوذ لأنهم لم يستطيعوا أن يسيطروا عليها، فهي لم تخضع إلا لله.

إنجيل الآرك لمريم المجدلية

كتاب الرسل

الفصل الثامن

شاتو دي بوم بلو
23 حزيران (يونيو) 2005

مشى سنكلير أمام مورين وبيتر عبر الممرّ المرصوف بالحصى إلى خارج منزله الكبير. كانت التلال الوعرة ذات الصخور الحمراء تحيط بهم، وتربّعَت على قمة رابية قريبة من بقايا قلعة شاهقة.

أُخذت مورين بذلك المنظر المثير، وعبّرت عن إعجابها بقولها: "هذا المكان مُذهل. إنه يثير شعوراً روحيّاً خفيّاً!"

"نحن في قلب منطقة الكتار. هذه المنطقة بكاملها كانت فيما مضى تحت سيطرة الكتار، أي الأنقياء."

"كيف اتخذوا هذا الاسم؟"

"أتت تعاليمهم عبر سلالة صافية متّصلة بيسوع المسيح عبر مريم المجدليّة، وهي مؤسِّسة الكَتاريّة."

بدا بيتر في غاية الشكّ، لكنّ مورين هي التي عبّرت عن هذا الموقف بسؤالها: "لكنّني لم أقع على مثل هذا الكلام في أيّ كتاب!"

ضحك بيرنجيه سنكلير بكل بساطة، غير مهتمّ بردّة فِعلهما سواءٌ أصدَّقاه أم لا، فهو مؤمن بمعتقداته وواثق بنفسه لدرجة عدم الاكتراث بآراء الآخرين.

"كلا. ولن تقرئيه في أيّ مكان، فتاريخ الكتار الصحيح ليس مدوّناً في الكتب، ولن تستطيعي القيام ببحث موثوق حوله إلا هنا. إن حقيقة شعب الكتار تكمن في صخور لانغدوك الحمراء وليس في أيّ مكان آخر."

قالت مورين: "لكنّي أودّ القراءة عنهم. هل تنصحني ببضعة كتب موثوقة؟"

هزّ سنكلير كتفيه نافياً، وقال: "إنّها نادرة، لا بل إني لم أجد في الكتب المترجَمة إلى الإنكليزية كتاباً واحداً جديراً بالثقة. ومعظم الكتب عن تاريخ الكتار بُنيَت على اعترافات انتُزعت أثناء التعذيب. والواقع أن كل الروايات عن الكتار في القرون الوسطى كتبها أعداؤهم. فهل نتوقّع أن تكون مثل تلك الكتب دقيقة؟ وأنت، يا مورين، يمكنك فهم هذا المبدأ بناءً على إعادة التدقيق في التاريخ بنفسك. لم يتمّ تدوين أيّ من أعْراف الكتار، وقد توارثوا تقاليدهم من جيل إلى جيل بين أبناء عائلات هذه المنطقة، على مدى ألفي عام، نقلاً شفهياً دقيقاً وصارماً".

سألته مورين وهم يسيرون على الطريق الملتوية نحو التلال الحمراء: "لكن تامي ذكرَت أنّه شنّت ضدهم حملة صليبيّة رسميّة!"

وافقها سنكلير بقوله: "أجل. لقد كانت إبادة جماعية متوحّشة، قُتل فيها أكثر من مليون شخص، وشنَّها البابا إينوقنتيوس الثالث، ولاحظي أن اسمه يعني: البريء! هل سمعت يوماً بالعبارة: اقتلوهم جميعاً ودعوا الله يصنّفهم؟"

انكمشت مورين ذُعراً، وقالت: "أجل. إنه موقف همجيّ!"

"ظهرت هذه العبارة، أول مرة، في القرن الثالث عشر، وقد ردّدها جنود البابا الذين سفكوا دماء الكتار في بيزييه. والعبارة اللاتينية تعني على وجه التحديد: اقتلوهم جميعاً، الله يعرف الذين له."

واستدار نحو بيتر مباشرة وقال له: "تعرف هذا القول، طبعاً!"

هزّ بيتر رأسه غير متأكّد ممّا يرمي إليه سنكلير، مع أنه لم يرغب في الوقوع في شرَك فِكريّ.

"إنّه مُستعار من قول قِدّيسك، القديس بولس، في رسالته الثانية إلى تيموثاوس، الإصحاح الثاني، الآية 19: إنّ الربَّ يعرف الذين له."

رفع بيتر يده ليوقف سنكلير عند حدّه: "لا يمكنك لوم بولس لأنهم حرّفوا كلامه."

"بل يمكنني! إني ألومه طبعاً، وقد لُمته فعلاً الآن. بولس هذا شوكة في حلقي. واستخدام أعدائنا كلماته ضدّنا، على مدى قرون، ليس من باب الصدفة. وهذه هي البداية."

حاولت مورين تخفيف التوتّر المتزايد بين الرجلين، فأعادت سنكلير إلى موضوع تاريخ المنطقة.

"ماذا حدث في بيزييه؟"

أجابها سنكلير: "اقتلوهم جميعاً! وهذا هو بالضبط ما فعله الصليبيّون في مدينتنا الجميلة، بيزييه. أعملوا السيف في رِقاب الجميع، من أكبر عجوز إلى أصغر طفل. لم ينجُ من سيف السفّاحين أحد. كانت حصيلة القتلى في ذلك الحصار حوالى مئة ألف إنسان. ويُعتقد أن تلالنا لا تزال حمراء حتى يومنا هذا حداداً على أرواح هؤلاء الأبرياء."

مشوا صامتين بضع دقائق احتراماً لذكرى القتلى من أبناء هذه المنطقة العريقة. صحيح أن المجازر حدثت قبل حوالى ثمانمئة سنة، إلّا أن الإحساس بتلك الأرواح المفقودة كان مستمرّاً كأنه حاضر دائماً في كل نسمة تهبّ على سفوح جبال البيرينيه. فهذه المنطقة كانت وستظلّ بلاد الكتار.

استأنف سنكلير محاضرته: "طبعاً، هرب بعض الكتار ولجؤوا إلى إسبانيا وألمانيا وإيطاليا، وحافظوا على أسرارهم وتعاليمهم، لكن لا أحد يدري ماذا حدث لكنزهم العظيم."

فسأله بيتر: "أيّ كنز؟"

نظر سنكلير حوله في إشارة إلى ارتباطه الوثيق بأرض المنطقة، فكأنها وتاريخها محفوران في روحه. فكم وكم سرد هذه القصص، لكنّه في كل مرة كان يتكلّم بصدق وشغف.

"هناك روايات كثيرة حول كنوز الكتار. يقول بعض الناس إنها الكأس المقدّسة التي شرب منها المسيح في العشاء الأخير. ويدّعي آخرون أن الكنز هو كفن المسيح الأصلي أو إكليل الشوك. لكن الكنز الحقيقي كان واحداً من أقدس كتابين. فالكتار كانوا مؤتمنين على كتاب المحبّة وهو الإنجيل الصحيح الوحيد."

صمتَ قليلاً ليؤكّد على ما قاله، ثم أضاف توضيحه العجيب:

"كتاب المحبة ـ هو الإنجيل الصحيح الوحيد لأنه كُتِبَ بالكامل بيد يسوع المسيح نفسه."

جمد بيتر في مكانه وهو يحدّق بسنكلير صامتاً.

"ما بك، أيها الأب هيلي؟ ألم يُدرِّسوكم عن كتاب المحبة في معهد اللاهوت؟"

أمّا مورين فكانت أيضاً مُندهلة ومُرتابةً: "هل تعتقد أن هذا الشيء كان موجوداً بالفعل؟"

"أجل، أجلْ، كان موجوداً. لقد أحضرَته مريم المجدلية من الأرض المقدّسة وتناقله خلَفها من بعدها بحِرص تامّ. ويُرجَّح أن كتاب المحبة كان الهدف الحقيقي للحملات الصليبية ضد الكتار. كان القائمون على الكنيسة يريدون وضع يدهم على الكتاب مهما كلّف الثمن، وأنا متأكّد أنهم لم يريدوه ليحافظوا عليه ويصونوه!"

هَزئَ به بيتر قائلاً: "لا يمكن أن تؤذي الكنيسة شيئاً مقدّساً ونفيساً!"

"حقاً؟ لكن لو كانت أصالة هذه الوثيقة مُثبَتة، ولو كانت هذه الوثيقة الأصيلة لا تكتفي بمعارضة بعض أهمّ المعتقدات، بل تشكّك أيضاً في سلطة الكنيسة نفسها، وكل ذلك بخط يد المسيح نفسه، ماذا يحدث عندها، أيها الأب المحترم؟"

"هذا مجرّد افتراض."

"لكل منّا رأيه، إلا أنّ رأيي مبنيّ على معرفة حقائق دامغة. لكن لأُكمِل معك بما اعتبرتَه افتراضات: لقد نجحت الكنيسة في مسعاها نوعاً ما. فبعد اضطهادها الكتار علناً، اضطرّ هؤلاء الأنقياء للعمل سرّاً واختفى كتاب المحبّة إلى الأبد. حتّى إنّ نفراً قليلاً من الناس اليوم يعلمون أنه كان موجوداً أصلاً. إنها مهمّة عظيمة أن تمحو من التاريخ شيئاً بهذه العظمة."

كان بيتر مستغرقاً في التأمل أثناء كلام سنكلير، فقال بعد دقيقة صمت: "قلتَ إنه أحد أقدس كتابين. فإذا كان الإنجيل الذي كتبَه يسوع أحدهما، فما هو الثاني؟"

صمت سنكلير وأغمض عينيه. كانت ريح الصيف، الشبيهة بالريح الشمالية الباردة من شرق المنطقة، تتجمّع وتهبّ، فتنفخ شعره على وجهه. أخذ نفَساً عميقاً، ثم فتح عينيه ونظر إلى عيني مورين مباشرةً وهو يجيب:

"الكتاب الثاني هو إنجيل مريم المجدلية، وهو سرد تامّ وكامل لحياتها مع يسوع المسيح."

وقفت مورين بلا حراك. ثم راحت تحدّق إلى سنكلير وقد أسَرَها انفعاله وصِدقه.

وأفاق الاثنان من صمتهما عندما سأل بيتر: "وهل ادّعى الكتار أيضاً حيازة هذا الإنجيل؟"

أزاح سنكلير نظره عن مورين بعد لحظة، ثم هزّ رأسه وهو يجيب بيتر: "كلا، لم يدّعوا ذلك. فبِعكس كتاب المحبّة الذي بَرْهَنَ وجودَه شهود تاريخيّون، لم يَرَ أحد إنجيل المجدليّة، رُبَّما لأنه لم يُعثر عليه مُطلقاً. ويُعتقد أنه قد يكون مخبّاً قرب قرية رين لو شاتو التي زرتماها قبلاً. هل أخذتكما تامي إلى برج الخيمياء؟"

أومأت مورين برأسها إيجاباً. أما بيتر فكان منشغلاً يفكّر كيف تمكّن سنكلير من معرفة كل تلك التفاصيل عن تحرّكاتهما. لكنّ مورين سهت عن ذلك، إذ إنها كانت مهتمّة بالتاريخ الحيّ وبتعلّق سنكلير به. "أجلْ، ذهبنا إلى البرج. لكنّني لم أفهم بعد سبب أهمّيته!"

"إنه مهمّ لعدة أسباب، لكن بالنسبة لما نبحثه الآن، يسود الاعتقاد بأن مريم المجدلية عاشت في الموقع الذي يقوم عليه البرج ودوّنت إنجيلها هناك. لقد كتبَت الوثائق ثم خبّأتها في كهف في مكان ما حيث ستبقى إلى أن يحين الوقت الصحيح لكشف روايتها للأحداث."

أشار سنكلير إلى سلسلة من الحُفَر الكبيرة تشبه الكهوف المنتشرة في الجبال حولهم. "هل تريان تلك الفتحات في الجبال؟ إنها آثار حفريات قامَ بها صيّادو الكنوز، خلال المئة عام المنصرمة."

"وهل كانوا يبحثون عن الإنجيلين؟"

جاءت ضحكة سنكلير قصيرة وساخرة. "المُضحك في الأمر أن معظمهم لم يعرفوا حتى عمّا يبحثون، ولم يكن لديهم معلومات موثوقة حول الكنز سوى أنهم سمعوا بحكايات كنز الكَتار أو قرؤوا أحد الكتب الكثيرة عن سونيير وثروته الغامضة. ومعظمهم لا يعرفون ما هو ذلك الكنز. فمنهم من ظنّ أنه الكأس المقدسة أو تابوت العهد، وظنّ آخرون أنّه غنائم الكنوز من هيكل أورشليم أو ذهَبٌ للقوطيّين الغربيّين مُخزَّن في قبر خفيّ.

"بِمُجرَّد لفظ كلمة (كنز) يتحوّل الناس العاقلون إلى هَمَج. لقد تقاطر الناس إلى هنا من كل بقاع العالم، طوال قرون، ليحلّوا ألغاز منطقة لانغدوك. صَدِّقاني، لقد رأيتهم بأمّ عيني مراراً. هؤلاء اللاهثون وراء الكنز استخدموا الديناميت لحفر الجبل، كما تريان، ومن دون إذن منّي."

ودلّهما سنكلير على المزيد من الحفر في الجبل، ثم تابع شرحه:

"لقد أصبح هَمّ حماية طبيعة ذلك الكنز يوازي أهمّية الكنز نفسه بالنسبة للكتار، ولهذا نجد أن قلائل هم الذين يعرفون اليوم أن هذين الإنجيلين كانا موجودين في الأصل. انظر إلى مدى الخراب الحاصل هنا بناءً على تخمينات وأقاويل، فماذا سيفعل الناس بأرضنا، يا تُرى، لو أدركوا طبيعة هذا الكنز الذي لا يُقدَّر بثمن؟"

أطلعهما سنكلير على المزيد من الأساطير المحلية حول الكنز والقصص الغريبة عن الباحثين عنه الذين لم يتورّعوا عن نهب وإتلاف الموارد الطبيعية للمنطقة. أخبرهما كيف أرسل النازيون فِرَقاً، خلال الحرب، في محاولتهم الكشف عن كنوز فنية خفيّة ظنوا أنها مدفونة في المنطقة. ويعلم الجميع أن جيوش هتلر لم تنجح في بحثها وغادرت المنطقة أخيراً فارغة اليدين، ثم خسرت الحرب بعد ذلك بفترة وجيزة.

كان بيتر هادئاً ساكتاً، قانعاً بالصمت وسماع كل ما يُقال، مُصمّماً على غربلة التفاصيل حول منطقة لانغدوك. فمن السهل أن يقع الإنسان في حبائل أساطير الكأس المقدسة والمخطوطات المقدّسة الضائعة في مثل هذا المكان المُحيِّر الغامض. وحتى إن بيتر نفسه أحسّ بتسارع نبضه لفكرة وجود مثل تلك الكنوز الفنّية الخفيّة.

مشت مورين مع سنكلير، تصغي إليه باهتمام. واحتار بيتر أيّ مورين هي هذه التي يراها متعطشة لكل كلمة يقولها سنكلير: مورين الصحفية والمؤلفة أم مورين الأنثى العزباء. لكنها على كل حال كانت تسبح في أفكارها وتركّز كامل اهتمامها على ذلك الاسكتلندي الجذّاب.

أثناء التفافهم حول رأس إحدى التلال، ظهر برج حجري كأنه زاوية بارزة من قلعة مُعلّقة بسفح التلة. وكان عالياً ومؤلفاً من عدّة طبقات، وبدا فريداً ومتناقضاً مع محيطه الصخري.

هتفت مورين متعجّبة: "إنّه يُشبه برج سونيير!"

"إننا نسمّيه تحفة سنكلير، وقد بناه جدّي. وهو بالفعل على طراز برج سونيير. طبعاً، المنظر من هنا ليس مثيراً كما في رين لو شاتو لأن منطقتنا أقلّ ارتفاعاً، لكنه رائع على كل حال. هل تودّان الصعود؟"

التفتت مورين إلى بيتر المنشغِل البال لترى إن كان مهتماً باستكشاف البرج، فهزّ رأسه بالنفي، وقال: "سأظلّ هنا، اصعدي أنت."

سحب سنكلير مفتاحاً من جيبه وفتح باب البرج. دخل أولاً وصعد أمام مورين درجات السلم الحلزونيّ. ثم فتح باباً إلى أرضية سطح البرج، وأشار إلى مورين بالمرور قبله.

كان مشهد أرض الكتار والقصر الأثري القديم من بعيد مشهداً في غاية الروعة. تأمّلت مورين المشهد معجبةً صامتةً هنيهَةً، ثم سألت سنكلير: "لماذا بناه جدّك؟"

"للسبب نفسه الذي دفع سونيير إلى بناء برجه، للإشراف من فوق. فقد كانوا يعتقدون أنهم يستطيعون أن يلمحوا كثيراً من الأسرار من هذا الارتفاع."

اتّكأت مورين على سور السطح الواقي وهمهمت متذمّرةً: "كل الأمور أمامي ألغازٌ، لماذا؟ لقد وعدتني بإجابات، لكنّك حتى الآن أثرت لديّ مزيداً من الأسئلة."

"لماذا لا تسألين الأصوات التي في رأسك؟ والأحسن أن تسألي المرأة في رؤاك! فهي التي جاءت بك إلى هنا."

صُعقت مورين، وسألته: "كيف علمت بأمرها؟"

رسم سنكلير على ثغره ابتسامة الإنسان الواثق، إنما من دون تبجُّح، وأجاب:

"أنتِ أنثى من عائلة باسكال. وهذا متوقَّع. هل تعرفين شيئاً عن أصل اسم عائلتك؟"

"باسكال. وقد وُلد أبي في لويزيانا من أصل فرنسي، كجميع أهالي لويزيانا".

"أي من الكاجون؟"

أومأت مورين برأسها إيجاباً، وأضافت: "وحسبما علمت، تُوُفِّي حين كنت طفلةً. وإني لا أتذكّر أشياء كثيرة عنه."

"هل تعلمين من أين جاءت لفظة 'الكاجون'؟ مِن 'الأركاديّين'، فالفرنسيّون الذين استقروا في لويزيانا سُمّوا أركاديّين، ثم تحوَّلت اللفظة إلى 'الاكاديين' وحُوِّرت لاحقاً إلى 'الكاجون'. أخبريني، هل بحثتِ يوماً عن كلمة 'باسكال' في قاموس إنكليزي؟"

كانت مورين تراقبه، وقد نما لديها الفضول الحذِر، وأجابته: "لا، لم أفعل."

"إني أعجب كيف أن إنسانة لها مثل براعتك في البحث والتدقيق لا تعرف شيئاً عن اسم عائلتها!"

أدارت مورين عينيها عنه وهي تكمل حديثها عن ماضيها: "بعد وفاة أبي أخذتني أمي للعيش مع أهلها في إيرلندا، ولم يعُد لي أي اتصال بعائلة والدي بعد ذلك."

"ومع ذلك، لا بد أن أَحَد والديك كان لديه إحساس داخلي بقَدَرك."

"ولماذا؟"

"اسمك! هل تعرفين معنى كلمة 'مورين'؟"

هبَّ الهواء الدافئ ثانيةً متلاعباً بشعر مورين الأحمر. أجابت مورين: "بالطبع! معناه باللغة الإيرلندية (مريم الصغيرة). وبيتر يناديني أحياناً: مريم الصغيرة."

هزّ سنكلير رأسه راضياً بأن فكرته قد وصلَت، وراح يتفرَّس في أرجاء منطقة لانغدوك. سرَّحت مورين نظرها حيث كان يحدِّق، ورأت مجموعة من الصخور الضخمة متناثرةً هنا وهناك في سهل أخضر واسع. وما إن نظرت حتى قامت بردّة فعل ثانية وسريعة، وحدّقت كأنها ترى شيئاً في ذلك المدى البعيد.

بدا سنكلير توّاقاً لمعرفة ما رأته مورين، فسألها: "ما الأمر؟"

هزّت مورين رأسها، وقالت: "لا شيء. إنه نور الشمس في عينيّ."

لكنّ سنكلير ألحّ على معرفة الأمر، فعاد يسألها: "هل أنت متأكّدة؟"

تردّدت مورين لحظات وهي تنظر إلى الحقل ثانية، ثم ألقت عليه السؤال الذي كان جاثماً على صدرها: "كل هذا الكلام على اسم عائلتي! لكن متى ستُريني الرسالة التي كتبَها والدي؟"

"أعتقد أن أموراً كثيرة ستتوضّح لك بعد انتهاء هذه الليلة."

❀

عادت مورين إلى غرفة نومها الفخمة في القصر لتستحتمّ وتبدّل ثيابها من أجل

العشاء. ولدى خروجها من الحمّام، لاحظت وجود شيء لم تره عندما دخلت الغرفة. كان على سريرها كتاب ضخم، وهو قاموس إنكليزي مفتوح.

لاحظت مورين على الصفحة المفتوحة دائرةً حمراء تحيط بمادّة كلمة "باسكال"، فقرأت التعريف:

"باسكال: أي تمثيل رمزيّ للمسيح. وحَمَلُ باسكال (أي الحَمَل الفصحيّ) هو رمز المسيح ورمز عيد الفصح."

... لقد حدّثني كثير من الناس عن هذا الرجل المدعو بولس. أثار بولس تشوُّشاً عظيماً لدى المختارين، حتّى إن بعضهم تجشّم مشقّات السفر من أماكن بعيدة مثل روما وأفسس لمعرفة رأيي بهذا الرجل وأقواله.

لا يحقّ لي الحُكم عليه، ولا أستطيع أن أعرف ما كان يدور في فكره لأني لم أقابله شخصياً ولم تقع عيناي على عينيه. لكني أستطيع أن أجزم أن بولس هذا لم يلتقِ عيسى مُطلقاً، ومن المؤسف أنه كان يتكلم باسمه وباسم كل تعاليمه عن النور والخير، أي الطريق.

رأيتُ أن كثيراً من الأمور المتعلّقة بهذا الرجل في غاية الخطورة. لقد كان في السابق نصيراً لأكثر أتباع يوحنا تزمّتاً، وكانوا جميعاً يزدرون عيسى ويعارضون تعاليم الطريق كما نقلها إلينا. علمتُ أنه كان فيما مضى يُعرف باسم شاوُل الطَّرَسوسيّ، وكان يضطهد المُختارين. وقد وقف متفرِّجاً على رَجْم إسطفانُس. وكان ذلك الرجل أول شهيد، بعدَ عيسى، يموت دفاعاً عن إيمانه بالطريق، لكنه لم يكن الأخير بسبب الاضطهاد الذي قام به رجال مثل شاوُل الطَّرَسوسيّ.

وفي ذلك ما يدعو إلى الحذَر الشديد.

إنجيل الآرك لمريم المجدلية

كتاب الرسل

الفصل التاسع

شاتو دي بوم بلو
23 حزيران (يونيو) 2005

كانت غرفة الطعام التي اختارها سنكلير في تلك الأمسية غرفة طعامه الخاصة، وهي واسعة وقاتمة، لكنها ليست رسمية بقدر قاعة الطعام الرئيسيّة في القصر. وكانت الغرفة مزيّنة بلوحات منسوخة بإتقان عن أشهر لوحات بوتيتشلي. وقد غطّت معظم مساحة أحد الجدران لوحتان منقولتان عن تحفتين تُعرفان باسم "المُنتحِبة"، ويظهر فيهما جسد المسيح، بعد إنزاله عن الصليب، في حضن أمه. وتبدو مريم المجدلية باكية، وهي تضع يديها تحت رأس المسيح في إحدى اللوحتين، وفي الثانية تُمسك برجليه. وعُلّقت على جدارين ثلاثٌ من رسوم فنّان النهضة الكبير للسيّدة العذراء، موضوعة ضمن أُطُر مذهّبة فاخرة، وهي: السيّدة وحبّة الرّمان، والسيّدة والكتاب، والسيّدة وأنشودة التمجيد.

لم ينصرف انتباه مورين وبيتر عن تلك الروائع الفنية إلّا عندما لاحظا مهرجان طعام لانغدوك التقليدي المُعَدّ لهما. أحضرَت خادمات المائدة سلطانيات مليئة بالكاسوليه الساخنة، وهي عبارة عن يخنة الفاصوليا البيضاء الكبيرة المطبوخة مع البَطّ والسجق، وامتلأت بضعة أطباق على المائدة بالخبز السميك، ووُضع الخمر الأحمر الصافي من سفوح الكوربيير في البيرينيه.

دخل سنكلير الغرفة ورحّب بهما بقوله: "أهلاً بكما في غرفة بوتيتشلي. أرى أنّكما اهتممتما مؤخّراً بعزيزنا ساندرو."

حدّق إليه بيتر ومورين.

وسأله بيتر: "هل وضعتنا تحت المراقبة؟"

أجاب سنكلير كأنّ الأمر بدَهِيّ: "طبعاً. ويسرّني أني قمت بذلك لأنني أُعجبت بتوصّلكما إلى جداريّات الزواج. فساندرو كان متفانياً في حبّه لمريم المجدلية، وهذا واضح في أشهر أعماله، كهذه اللوحة مثلاً."

وأشار سنكلير إلى لوحة منقولة عن رسم بوتيتشلي "مولد فينوس". وهي لوحة أيقونيّة تصوّر الإلهة عاريةً وهي تخرج من الأمواج وتقف على صدفة كبيرة.

"تمثّل هذه اللوحة وصول مريم المجدلية إلى شواطئ فرنسا، وغالباً ما تُصوَّر، في لوحات عصر النهضة، على هيئة إلهة الحب، ولها ارتباط وثيق بكوكب الزهرة (فينوس)".

علّقت مورين على ذلك بالقول: "لقد شاهدت اللوحة أكثر من مئة مرّة ولم يخطر ببالي أنها مريم المجدلية."

"لا يعرف ذلك إلّا عدد قليل من الناس. كان عزيزنا ساندرو عضواً فعّالاً في منظّمة توسكانيّة مكرَّسة للحفاظ على اسمها وذِكراها، اسمها جمعية مريم المجدلية. هل كانت رموز لوحات اللوفر الجدارية واضحة؟"

تردّدت مورين بالإجابة: "لست متأكّدة".

"ما هو تقديركِ؟"

"فكّرت أوّلاً بعلم التنجيم، أو بالأحرى علم الفلك. العقرب تمثّل برج العقرب، والقوس تمثل برج القوس."

"أحسنتِ. هذا صحيح تماماً. هل تعرفين شيئاً عن دائرة بروج لانغدوك؟"

"لا. لكني سمعت بدائرة بروج غلاستونبري في إنكلترا، هل هما متشابهتان؟"

"أجلْ. فلو وضعنا خريطة الأبراج فوق هذه المنطقة لوجدنا أن المدن تقع داخل أبراج معينة. ومِثل هذا يَصدق بالنسبة لغلاستونبري."

عبّر بيتر عن اختلاط الأمور بالنسبة إليه، فقال: "عفواً، لكنّي لا أستطيع أن أفهم كل هذا."

راحت مورين تشرح له: "كان هذا مبدأً عاماً اتّبعه القدماء بدءاً من المصريّين. فالمواقع المقدّسة على الأرض تُقام بحيث تعكس صورة السماء، فأهرامات الجيزة

مثلاً مبنيّة لتُقابِل الجوزاء. وقد تمّ تخطيط مدن بكاملها بطريقة تجعلها مطابقة لمواقع النجوم. وهذا يوافق المبدأ الخيميائي الفلسفي: كما فوق، كذلك تحت."

وأضاف سنكلير موضحاً: "لوحة الزواج هي خريطة. فقد أراد ساندرو أن يدلّنا على المكان الذي يجب أن نبحث فيه."

كان صبر بيتر قد نفد وخرج عن لَباقته المعهودة، فصاح: "على رِسْلك! أتقول إن أحد أعظم الرسامين في التاريخ كان مطّلعاً على نظريّة مؤامرة المجدلية هذه؟"

"في الواقع، ما أقوله، أيها الأب هيلي، هو أنّ عدداً من أعظم الرسّامين في التاريخ كانوا كذلك. هناك أشياء كثيرة حدثت بفضل المجدلية، ومنها هذه الثروة الفنّية التي أبدعها كبار الرسامين."

وسألته مورين: "مثل ليوناردو دافنشي؟"

تجهّم وجه سنكلير راساً.

بوغِتَت مورين لرؤيتها وجه سنكلير يتجّهم فجأةً قبل أن يجيبها:

"كلا. ليوناردو ليس في عِداد هؤلاء الرسامين لسبب وجيه."

"لكنّه رسم المجدلية في لوحته الجدارية 'العشاء الأخير'. وهناك أقاويل شائعة كثيرة بأنّه كان زعيم جمعية سرية توقّرها هي والأنثى الإلهيّة." فليوناردو كان الفنان الذي تردّد اسمه مراراً وتكراراً أثناء قيام مورين بأبحاثها حول مريم المجدلية. وقد صُعقت لأنها لم تتوقّع من سنكلير هذا النفور من ذكر دافنشي.

ارتشف سنكلير قليلاً من كأسه ووضعها من يده على مهل. ولما استأنف الكلام كان منفعلاً: "لن نُفسد هذه الامسية، يا عزيزتي، بالحديث عن ذلك الرجل وأعماله. لن تجدي أي إشارة إلى ليوناردو دافنشي في منزلي ولا في أي بيت آخر في هذه المنطقة. ولكنْ، لنترك هذا الموضوع لوقت آخر." ثم ابتسم ليلطّف الجوّ، وأكمل: "على كل حال، لدينا العديد من الفنانين الكبار الذين يمكن أن نتحدّث عنهم، مثل صديقنا ساندرو وبوسان وريبيرا والغريكو ومورو وكوكتو ودالي..."

سأله بيتر: "لكن لماذا تورّط كل هؤلاء الفنانين في ما هو أساساً بِدعة؟"

"هي بِدعة بنظرك أنت. لكن للإجابة عن سؤالك: كان هؤلاء الفنانون العظماء يرسمون تحت رعاية أناس أثرياء يدعمونهم ويشجعون عملهم، وكان معظم هؤلاء

الرعاة النبلاء يمتّون بصلة إلى السلالة المقدّسة ويتحدّرون من مريم المجدلية. لنأخذ مثلاً، جداريات الزواج لبوتيتشلي: كان العريس، لورنزو تورنابيوني، من أحد فروع السلالة، وعروسه، جيوفانا البيزي، مِن نسب أرفع نُبلاً. وتلاحظان أنها، في اللوحة، ترتدي الاحمر وهو رمز انتمائها إلى سلسلة نسب المجدلية. وكان زواجهما مهمّاً لأنه جمع بين سلالتين نافذتين كانتا على عداوة زمناً طويلاً."

ظلّ بيتر وموربن صامتين بانتظار أن يكشف سنكلير المزيد من التفاصيل.

"ويُقال أيضاً إن جميع هؤلاء الفنّانين كانوا من السلالة وإنّ مواهبهم الفذّة عائدة لتركيبهم الوراثي السامي. وهذا ممكن كليّاً، ومحتمل بالنسبة لساندرو. ونحن متأكّدون من صحّته بالنسبة لبعض كبار الفنانين الفرنسيّين مثل جورج دو لا تور الذي رسم مُلهمته وجنّته العليا مراراً وتكرارً."

تحمّست موربن لأنها تعرف شيئاً عن هذا الفنان. "لقد شاهدتُ إحدى لوحات دو لا تور أثناء بحثي. فلوحة "المجدلية التائبة" موجودة في لوس أنجلوس. لقد تأثّرتُ ببراعة اللوحة في استخدام النور والظلّ ومشهد مريم المجدلية وهي تضع يدها على جمجمة التوبة وتحدّق إلى ضوء شمعة مضطرب ينعكس على مرآة."

صَحَّحَ لها سنكلير معلوماتها: "لقد شاهدت إحدى لوحات المجدلية التائبة، لأن دو لا تور رسم عدّة أشكال رائعة منها، وقد ضاع بعضها، ومنها التي سُرقت من أحد المتاحف في أيام جدّي."

"كيف عرفت أن جورج دو لا تور هو من السلالة؟"

"أوّل دليل هو اسمه. دو لا تور تعني: مِن البُرْج. وهي في الواقع نوع من التورية. والاسم 'مَجْدل' مرتبط بلفظة 'مِجْدل' التي تعني البرج، فهي حرفيّاً 'مريم التي من مكان البرج'. وكما تعلمين فإن البعض يرون أن مريم هي البرج أو قائدة قبيلتها.

"ولمّا تعرّض الكتار للاضطهاد اضطُرّ الناجون منهم إلى تغيير أسمائهم لحماية حقيقة انتمائهم، لان أسماء الكتار كانت تدلّ عليهم. فاختبؤوا خلف أسماء غير بعيدة عن معتقداتهم مستخدمين أسماء مثل دو لا تور و..."، وصمت هنا لحظة لزيادة الإثارة والتشويق، وأكمل كلامه: "... ودو باسكال."

اتّسعت حدقتا موربن في تلك اللحظة، وسألته: "دو باسكال؟"

"أجلْ. لقد استُخدم اسم باسكال لحماية إحدى أهمّ عائلات نبلاء الكتار. ولم يبتعدوا كثيراً عن هذا الاسم، فسمّوا أنفسهم دو باسكال بالفرنسية ودي باسكوالي بالإيطالية، أي أبناء حَمَل باسكال (الحمل الفصحيّ)."

ثمّ أضاف سنكلير: "وأعلم أيضاً أن جورج دو لا تور هو من السلالة لأنه كان المعلّم الأكبر لجمعيّة هدفها صيانة تعاليم المسيحيّة الصافية كما جاءت بها مريم المجدلية إلى أوروبا."

جاء دور بيتر ليسأله: "وما هي هذه الجمعية؟"

أشار سنكلير لهما لينظرا حولهما، وقال: "جمعية التفاح الأزرق. إنكما تتناولان العشاء في المقرّ الرسمي لجمعية وُجدت على هذه الأرض منذ ما يزيد على ألف سنة."

تجنّب سنكلير الإفاضة في الكلام على الجمعية بحنكة وبراعة، وتحوّل إلى الحديث عن نهارهما في رين لو شاتو وأخبار الراهب الغامض بيرنجيه سونيير. أعرب سنكلير عن اعتزازه الشديد بِسَميّه، وقال: "لقد عمّد الأب سونيير جدي في تلك الكنيسة، فليس مستغرباً أن العجوز سنكلير كان شديد التعلّق بهذه الأرض."

وعلّقت مورين: "لا شكّ في أنّه أورثك هذا التعلّق!"

"أجل. عندما أسماني جدي على اسم بيرنجيه سونيير وضع فيَّ برَكة خاصة. كان أبي معارضاً للتسمية، لكن أليستر كان ذا إرادة فولانية، ولم يستطع أحد أن يقف في طريقه وخصوصاً والدي."

لم يتوسّع سنكلير في الحديث عن هذا الأمر ولم يطرح بيتر ومورين أي سؤال نظراً لأن الموضوع شخصيّ وحسّاس. وعند انتهاء العشاء، خرج سنكلير مع مورين وبيتر من غرفة الطعام، وهو يقول: "تعالا، أريد العودة معكما إلى موضوع ساندرو واكتشافكما المذهل في اللوفر. من هنا، من فضلكما."

أدخلهما إلى غرفة عصرية، مختلفة عن بقية المنزل، مليئة بأحدث آلات العَرْض وأجهزة الكمبيوتر. كان رولان، الخادم الفرنسي، جالساً قرب أحد أجهزة المراقبة التلفزيونية، فحيّاهما بـِ "بونسوار" لطيفة. ضغط رولان على لوحة مفاتيح ومال جانباً وكبس زراً على منصّة التحكّم، فتدلّت شاشة عرض على الحائط البعيد.

ظهر على الشاشة أمامهم خريطة للمنطقة، أشار عليها سنكلير إلى عدّة معالم، ثمّ بدأ الشرح: "هناك أسماء قرى تعرفونها: رين لو شاتو هنا، ونحن بالطبع في الآرك هنا، وهذا موضع قبر بوسان الذي شاهدتماه أمس."

فسألته مورين: "وهو يقع ضمن أملاكك؟"

أومأ سنكلير إيجاباً، وأضاف: "نحن على يقين أن واحداً من أغلى الكنوز في تاريخ البشرية موجود في هذه المنطقة."

ثم أعطى إشارة إلى رولان، فأسقط هذا الأخير شاشة شبكية بالأبراج أمام خريطة المنطقة. وظهرت أسماء الأبراج، فكان برج العقرب واقعاً فوق قرية رين لو شاتو مباشرة، فيما ظهرت الآرك بين برج العقرب وبرج القوس.

"لقد رسم لنا ساندرو خريطة. وكانت تلك هديّته الحقيقية للزوجين. وما أشار إليه كان دقيقاً لدرجة خطيرة ممّا دعاهم للمسارعة في محاولة إتلافه. لكن اللوحات كانت مرسومة على جدران منزل تورنابيوني، فلم يستطيعوا هدمه، ولجؤوا إلى طلاء الجدران بماء الكلس. وظلت اللوحات محجوبة حتى أواخر القرن التاسع عشر حين كُشفت مصادفةً."

اتّضح الأمر لمورين، فسارعت إلى القول: "لهذا السبب تقيمُ هنا، في الآرك! هل تظن أن مريم المجدلية خبّأت إنجيلها تحت الأرض، هنا؟"

"أنا واثق من ذلك. وها إنكما تريان أن ساندرو أيضاً كان يعلم بالأمر. انظرا إلى اللوحة ثانيةً. رولان، من فضلك."

ضغط رولان على بضعة أزرار ومفاتيح، فظهرت اللوحة التي كانا قد شاهداها في اللوفر. وأخذ سنكلير يوضح عناصر رأيه: "تلاحظان معي أن المرأة التي تحمل العقرب هنا. ثمّ بالانتقال يميناً، هناك امرأة قربها لا تحمل أي رمز، وفوقها امرأة جالسة على عرش وتحمل قوساً. لكن دقّقا النظر: هذه المرأة ملتفة برداء أحمر، أي رداء مريم المجدلية، وهي تعطي إشارة البرَكة بيدها بالضبط فوق رأس المرأة الجالسة بينها وبين المرأة التي تحمل العقرب. وتلك هي العلامة X التي تعيّن على الخريطة الموقع بين العقرب والقوس.

"كان ساندرو بوتيتشلي يعرف موقع الكنز، وكذلك بوسان بالطبع. ويجب أن نشكرهما لأنهما تركا لنا علامات تساعد على إيجاده."

رأى بيتر أن الأمر غير معقول، فتساءَل: "لكنْ، لماذا يرسم هؤلاء الرسامين خرائط تُعرض علنًا وتكشف مكان وجود كنز ثمين كهذا؟"

"لأن هذا الكنز لا يجده إلّا مَن يستحقّه، ولا يستطيع أيّ كان كشف الغطاء عنه. قد نقف كل يوم في المكان الذي طمرت فيه المجدلية كنزها، لكننا لن نراه إلا حين تقرر هي إظهاره لنا. ويبدو أنه خُبِّئ بواسطة عملية خيميائيّة، وهي أشبه بقفل لا يمكن فتحه إلا باستخدام... ما يمكن تسميته بالطاقة الملائمة. وتقول الأسطورة إن الكنز سيُظهر نفسه في الوقت المناسب، عندما يتقدّم شخص اختارته المجدلية نفسها للمطالبة به. لقد أمل ساندرو وبوسان كلاهما أن يتمّ اكتشافه خلال حياتهما، فحاولا المساعدة في ذلك.

"بالنسبة لبوتيتشلي، كان يُظنّ أن لدى جيوفانا ألبيزي إمكانيّة إيجاد الكنز. فقد كانت، من كافة الأوجه، امرأة مدهشة: فاضلة ومؤمنة وذكيّة ومثقّفة. أمّا غيرلندايو فقد ضمّن رسمَه لها حكمةً نَصُّها 'لو أن الفن يمكن أن يمثّل الخُلق والعقل، لما وُجدت لوحة أجمل من هذه على وجه الأرض'. هل تذكران اللوحة الأخرى في اللوفر؟ تلك التي يسمّونها: فينوس وإلاهات الحُسْن الثلاث يقدّمن الهدايا لامرأة شابة؟ والشابة التي ترتدي الأحمر بالكامل في اللوحة هي جيوفانا ألبيزي. وتلاحظان أنها تضع حول عنقها قلادة السلالة نفسها التي في لوحة بوتيتشلي ولوحة غيرلندايو. وهي حلية نفيسة جداً صُنعت خصّيصاً لها احتفالاً بالمصالحة بين هاتين العائلتين النافذتين. لقد عُلِّقت على جيوفانا المجيدة آمال كبيرة.

"لكن للأسف، لم يتحقّق شيء لأن جيوفانا الجميلة ماتت وهي تَلِد بعد سنتين فقط من زواجها."

كانت مورين تصغي باهتمام وهي تحلل تلك القصة التي جرت في إيطاليا بالمقارنة مع ما رأته في رين لو شاتو صبيحة ذلك اليوم، ثمّ خطرت ببالها فكرة.

"هل يمكن أن يكون سونيير قد وجد إنجيل المجدلية؟ هل كان هذا سبب ثرائه؟

كان سنكلير جازماً في نفيه، فقال: "سونيير، كلا. لا، قَطْعاً. مع أنه بحث عنه حتماً. ويقول أبناء المنطقة إنه كان يمشي مسافات في أنحاء المنطقة وهو يتفحّص الصخور والمغاور بحثاً عن دلائل وإشارات."

قال بيتر مستفهماً: "وكيف تجزم بأنه لم يجده؟"

"لأنه لو وجده لكانت عائلتي قد علمت بالأمر. وفوق ذلك، لا يمكن أن يجد الكنز غير امرأة، امرأة من السلالة اختارتها المجدلية بنفسها."

لم يعُد بيتر قادراً على كبت ظنونه:" وأنت تعتقد أن مورين هي المرأة المُختارة!"

صمت سنكلير لحظة مُفكّراً، ثم أجاب بصراحته المعهودة: "يُعجبني وضوحك أيّها الأب. وسأجيبك مباشرةً: أجلْ، أعتقدُ أن مورين هي المرأة المختارة. لم ينجح أحد حتى الآن، مع أن الآلاف جرّبوا. نعلم أن الكنز هنا، ومع ذلك فشلوا جميعاً في اكتشافه، حتى أكثرهم جرأة وإقداماً. وأنا أيضاً فشلت."

عندما استدار نحو مورين، لطُفَ لهجته ونبرته: "آمل ألّا تكوني خائفة، يا عزيزتي. أعلم أن الأمر برمّته يبدو غريباً بل مروِّعاً. كل ما أطلب منك هو أن تفكّري بما أقول. لن يُطلب منك أبداً القيام بأيّ شيء لا تريدينه. إن وجودك هنا هو بمحض إرادتك، وأرجو أن تقرري البقاء."

هزّت مورين رأسها، لكنّها لم تقل شيئاً، لأنها لم تعرف ما تقول. فكيف تتجاوب مع مثل هذا الطلب المفاجئ وهي لا تعرف حقيقة شعورها حياله. هل عليها أن تعتبره شرفاً ممنوحاً لها؟ امتيازاً؟ أم شيئاً مُخيفاً رهيباً؟ وقد تكون مجرّد ألعوبة بيد رجل غريب الأطوار وجماعته. بدا مستحيلاً أن يكون الأمر صحيحاً بل متعلّقاً بها. وفي المقابل، كانت تصرّفات سنكلير توحي بصدق مشاعره حيالها. فبالرغم من كل آرائه المتطرفة وغرابة أطواره، لم تجده شاذاً.

وأخيراً أجابته ببساطة: "أكمِلْ".

وألحّ بيتر في طلب المزيد من التفاصيل: "وما الذي جعلك تعتقد أن مورين هي المختارة؟"

نظر سنكلير إلى رولان وأومأ برأسه وهو يقول: "'الربيع'، من فضلك".

ضغط رولان على المزيد من الأزرار والمفاتيح، فظهرت صورة ملء الشاشة للوحة بوتيتشلي الرائعة "الربيع" بألوان بهيّة.

"وهذه أيضاً من أعمال محبوبنا ساندرو. تعرفانها بالطبع!"

بالكاد سُمع صوت مورين تقول: "نعم"، لأنها لم تكن تدري ماذا بعد ذلك. لكنها أحسّت بألم في معدتها وكأن أعصابها كتلة واحدة.

وأجاب بيتر: "طبعاً، طبعاً. هي من أشهر اللوحات على وجه الأرض."

"إنها رسم رمزي للربيع، وقلائل هم الذين يعرفون غاية هذه اللوحة الحقيقية. وهنا أيضاً يعبّر بوتيتشلي عن إجلاله لسيدتنا. الشخصيّة الرئيسيّة في اللوحة هي مريم المجدلية الحامل. لاحظا الرداء الأحمر. هل تعلمان لماذا تمثّل سيدتنا الربيع؟"

كان بيتر مُصغياً باهتمام ليعرف ما يرمي إليه سنكلير، فأجابه: "بسبب عيد الفصح؟"

"لأن أوّل عيد فصح وقع يوم الاعتدال الربيعي. فقد صُلب المسيح في العشرين من آذار (مارس) وقام في الثاني والعشرين منه. ويُذكر في حكاية، يرويها الخاصة في هذه المنطقة، أن المجدلية كانت قد وُلدت في الثاني والعشرين من آذار (مارس) كذلك. وهذه بداية أول بُرج فلكي، وهو برج الحمل. إنه تاريخ البدايات الجديدة والقيامة، ويحمل كذلك نعمة العدد الروحي الرئيسي اثنين وعشرين الذي يمثّل الأنثى الإلهيّة. هل ينكّرك الثاني والعشرون من آذار (مارس) بشيء يا عزيزتي مورين؟"

أدرك بيتر العلاقة، واستدار نحو مورين ليرى ردّة فعلها على هذا الاكتشاف. صمتت مورين طويلاً، ثمّ جاء جوابها بصوت هامس أبَحّ:

"إنه يوم عيد ميلادي."

التفت سنكلير إلى بيتر وقال: "مولودة في يوم القيامة، ومولودة من نسل الراعية. مولودة تحت برج الحمل في أول يوم تامّ من أيام الربيع والتجدّد."

ثم التفَتَ إلى مورين ليعطيها الحكم النهائي: "يا عزيزتي، أنت حَمَل باسكال، أنت حَمَل عيد الفصح."

انصرفت مورين من الغرفة معتذرةً فوراً، وذهبت إلى غرفتها لحاجتها إلى بعض الوقت للتفكير ولتحليل سيل المعلومات وإيحاءات سنكلير وطلباته. ثم استلقت على الفراش وأغمضت عينيها.

سمعت نقرةً على الباب كانت تنتظرها، لكنها جاءت أسرع ممّا توقّعت. وكانت سعيدة لسماعها صوت بيتر من وراء الباب.

"مورين، هذا أنا. أتسمحين لي بالدخول؟"

نهضت مورين عن السرير ومشت نحو الباب وفتحته.

"كيف حالك الآن؟"

"ضائعة. ادخلْ."

أومأت إليه بالجلوس في أحد المقعدين الوثيرين، من الجلد الأحمر، الموضوعين على جانبي الموقد في زاوية الجلوس، فهزّ رأسه راغباً عن ذلك، فقد كان مضطرباً ولم يُطِق الجلوس.

"أصغي إليّ يا مورين! أريد أن أُخرجكِ من هنا قبل أن يزداد الأمر سوءاً".

تنهّدت مورين وألقت بنفسها على المقعد. "لكني بدأت الآن أتلقّى الإجابات التي جئت من أجلها، لا بل جئنا من أجلها."

"لا تهمّني كثيراً إجابات سنكلير، وانا أرى أنكِ في خطر هنا."

"مِن سنكلير؟"

"نعم".

رمقته مورين بنظرة استهجان. "لا يا بيتر! ولماذا يريد إيذائي إذا كان يرى أني سأوصله إلى هدف حياته؟"

"لأن هدفه وَهْم تلفّه خرافات وأساطير عمرها مئات السنين. هذا خطِر جداً، يا مورين. الموضوع يتعلّق بجماعات دينيّة متعصّبة. ما يقلقني هو ما سيفعله بك بعدما يكتشف أنك لست ضالته المنشودة."

صمتت مورين لحظة ثم سألت بيتر بكل هدوء.

"وما أدراك أنّي لست ضالته المنشودة؟"

صُعق بيتر من سؤالها. "وهل تصدّقين كل هذا؟"

"وكيف تفسّر هذه المصادفات يا بيتر؟ والأصوات والرؤى؟ أنا لم أجد لها تبريراً خارج تعليلات سنكلير."

جاءت نبرة بيتر حاسمة كأنه يحادث طفلة: "سوف نغادر في الصباح. يمكننا اللحاق بموعد إقلاع طائرة من تولوز إلى باريس، كما يمكننا السفر بالطائرة من كركاسون إلى لندن..."

أجابته مورين بإصرار: "لن أغادر يا بيتر. لن أذهب إلى أيّ مكان قبل أن أحصل على الإجابات التي جئت من أجلها."

كان غضب بيتر المتصاعد قد أخذ منه مأخذاً، فازداد حدّةً في كلامه: "مورين! لقد وعدتُ أمّك قبل وفاتها بأن أعتني بك دائماً، وألّا أدع ما حدث لوالدك بـ..." ثمّ أسكت بيتر نفسه، لكنّ لسانه كان قد سبقه.

بدت مورين كمن أُصيب بصفعة، وحاول بيتر إصلاح الأمر: "آسف يا مورين، أنا..."

قاطعته ببرود: "والدي! شكراً على تذكيري بسبب آخر يدعوني للبقاء هنا. يجب أن أعرف ما عند سنكلير عن والدي. لقد أمضيت معظم حياتي وأنا في شكوك وحيرة بشأنه. فكل ما أخبرتني به أمي هو أنه كان مجنوناً فظيعاً، وأظن أن هذا ما أخبرتك به أيضاً. لكنّ ذكرياتي عنه، على غموضها وإبهامها، تؤكّد لي أنّ ذلك غير صحيح. فإذا وُجد إنسان يستطيع أن يعطيني عنه صورة أوضح، فإني مستعدّة للتضحية بكل شيء في سبيل ذلك. وهذا من واجبي نحوه ونحو نفسي."

فكّر بيتر في قول شيء لكنه عدل عن ذلك، واستدار ليغادر الغرفة والقلق بادٍ على وجهه. نظرت إليه مورين لحظات، وهدأت، ثمّ نادته وقالت:

"أرجوك، حاول أن تصبر عليّ. يجب أن أفهم ما يحدث. كيف سنعرف إذا كان لهذه الرؤى أيّ معنى من دون أن أتابع الأمر للنهاية؟ وماذا يحدث إذا كان بعض ما قاله سنكلير الليلةَ صحيحاً؟ فقط بعضه؟ أريد أن أعرف الإجابة يا بيتر. وإذا تركت الآن فسأندم بقيّة حياتي، ولا أريد أن أحيا في الندم. لقد عشتُ حياتي حتى الآن هاربةً، هاربة من كل شيء. عندما كنت طفلة، هربت من لويزيانا، هربت بعيداً وسريعاً حتى إني لم أعد أذكر من لويزيانا شيئاً. وبعد وفاة أمي، هربت من إيرلندا عائدة إلى الولايات المتحدة، ولجأت إلى مدينة لا ذكريات لي فيها، إلى مكان يصبح الإنسان فيه مختلفاً عمّا وُلد عليه أصلاً. الجميع في لوس أنجلوس هكذا، هاربون من ماضيهم. وأنا ما عدت أطيق أن أكون هكذا."

عبرت الغرفة ووقفت أمامه وجهاً لوجه. "أشعر الآن أني، لأول مرة في حياتي، أهرب نحو شيء. صحيح أنه مخيف، لكني لا أستطيع التوقّف حتماً. وأفضّل ألّا أواجه الأمر من دونك. لكن إذا اخترت أنت المغادرة صباح الغد، فإني قادرة على مواجهته وحدي، وسأواجهه."

أصغى بيتر إلى فورتها بكل انتباه. وعند انتهائها، أومأ لها برأسه ودار ليغادر الغرفة. وقف لحظات صامتاً ويده على الباب، ثم استدار نحوها قبل الخروج:

"لستُ ذاهباً إلى أي مكان. لكن أرجوكِ، لا تجعليني أندم على هذا بقيّة حياتي، أو حياتك."

عاد بيتر إلى غرفته وقضى بقية ليلته يصلّي. وجد نفسه يتأمّل طويلاً وعميقاً تعاليم إغناطيوس لويولا، مؤسس الرهبانية اليسوعية. وقد سكنَه مقطع معيّن كتبه هذا القديس عام 1556:

> *"كما أظهر الشيطان مهارة كبيرة في إغراء الناس بالهلاك، يجب إظهار مهارة مماثلة في إنقاذهم. لقد درس الشيطان طبيعة كل إنسان، واستولى على سمات روحه، وكيّف نفسه مع هذه السمات، وانسلّ بالتدريج إلى ثقة كل ضحيّة من ضحاياه، فراح يغوي الطّموح بالامتياز، والبخيل بالربح، والشهواني بالبهجة، والتقيّ بوَرَع مُصطَنع. وعلى من أراد كسب أرواح الناس أن يتصرف بالقدر نفسه من الحذَر والبراعة."*

ولم تعرف عيناه النوم، فيما ظلت كلمات مؤسس رهبانيّته تتردد في قلبه وعقله.

روما

23 حزيران (يونيو) 2005

مسح المطران ماغنوس أوكونور نقطة العرق عن حاجبه. كانت قاعة اجتماعات مجلس الفاتيكان مكيّفة، لكن ذلك لم يُجدِه نفعاً في تلك اللحظة. جلس إلى وسط طاولة كبيرة بيضوية الشكل، محاطاً بكبار المسؤولين في كنيسته. كانت الملفات الحمراء التي سلّمها في اليوم السابق بيدي الكردينال الصارم والمخيف دي كارو، الذي كان يقوم بدور المستنطق.

سأله الكردينال: "وكيف تأكّدتَ أن هذه الصور حقيقيّة؟" وضع الكردينال الملفات على الطاولة، لكنه لم يفتحها لإطلاع الآخرين على محتوياتها.

حاول ماغنوس جاهداً التغلّب على لعثمة لسانه التي يُصاب بها في المواقف

العصيبة، وأجاب: "كنتُ حاضراً عندما أُخذت. لقد أُحيلت القضيّة إليّ من كاهن رعيّته."

سحب الكردينال دي كارو مجموعة صور بحجم 8×10 من الملف. كانت الصور بالأبيض والأسود، وقد اصفرّت بفِعْل الزمن، لكن ذلك لم يخفّف من هول وطأتها وهي تُمرَّر حول الطاولة.

كانت أوّل صورة تمّ تداولها، وعنوانها "المستند رقم 1"، صورة رهيبة جداً لِذراعي رجل موضوعتين جنباً إلى جنب وقد أديرتا بحيث يظهر باطن الكفّين. وكانت الذراعان مصابتين بجرحين مفتوحين داميين في المعصمين.

وأظهرَ "المستند رقم 2" صورة قدمي رجل، وفيهما كذلك جرحان مفتوحان داميان.

أما الصورة الثالثة، "المستند رقم 3"، فصورة رجل بلا قميص، وتحت أسفل الجهة اليمنى من قفصه الصدري جرح بليغ مُثلَّم ونازف.

انتظر الكردينال حتى دارت الصور المروّعة على الجميع، ثم أعادها إلى الملف وخاطب أعضاء المجلس. وكانت الوجوه حول الطاولة متجهّمةً فيما كان الكردينال يؤكّد شكوكهم.

"إننا ننظر إلى علامات مؤكّدة كالتي أصيب بها جسد المسيح عند صلبه. الجروح الخمسة كلها، وهي دقيقة كما رأيناها مكبّرة في صورة المعصمين."

شاتو دي بوم بلو
24 حزيران (يونيو) 2005

لم يرَ أحد سنكلير في صباح اليوم التالي. جاء رولان وحيّا مورين وبيتر، ورافقهما إلى الفطور. لم يكن بيتر واثقاً من أن ذلك الاهتمام البالغ الذي يُحاطان به دلالة على حسن الضيافة أم إنه نوع من الإقامة الجبرية. لكن من الواضح أن سنكلير كان حريصاً على أن يكونا دائماً برفقة أحد.

"لقد طلب مني السيد سنكلير أن أطمئنكما إلى أنكما ستزوّدان بأزياء رائعة لهذه الليلة. إنه منهمك بالتحضيرات النهائية للحفلة، لكنّه وضع السائق بتصرّفكما إذا شئتما أن تجولا في المنطقة خلال النهار. ويقترح أن تتمتّعا بزيارة القلاع الكتارية في المنطقة. ويشرّفني أن أرافقكما وأكون دليلكما إذا شئتما."

قبلا العرض وذهبا برفقة رولان العملاق الذي زوّدهما بشروح وافية. أخذهما إلى الآثار الرائعة لمعاقل الكتار التي كانت حصينة فيما مضى، وشرح لهما كيف كان نبلاء تولوز الأثرياء، في فترة من الفترات، يبارون ملوك فرنسا نفوذاً وامتيازات. كان نبلاء تولوز جميعهم من سلالات كتارية أو، على الأقل، متعاطفين مع مفاهيم الكتار. وهذا أحد الأسباب التي دعت الملك الفرنسي لتأييد الحملات الصليبية الغاشمة ضدّ الأنقياء. وقد تمكّن بفضل ذلك من مصادرة ما كان ملكاً لتولوز وتوسيع ممتلكاته الفرنسية وزيادة ثروته الخاصة، مع إضعاف سلطان منافسيه.

تحدّث رولان باعتزاز عن موطنه ولهجتهم المحليّة المسمّاة "أوك" التي أعطت المنطقة اسمها، فعبارة "لانغ (لغة) دو "أوك" أصبحت لانغدوك. وخلال مناقشة إحدى النقاط أشار بيتر إلى رولان بأنه فرنسي، فانتفض رولان مباشرةً وأكّد أنه ليس فرنسياً وإنما أوكسيتاني (أي من بلاد الأوك).

أعاد رولان سرد تفاصيل الفظائع التي ارتُكبت في أرضه وضد شعبه في القرن الثالث عشر، وكان منفعلاً وعاطفياً في حديثه عن تاريخه.

"لا يعرف كثير من الناس خارج فرنسا أي شيء عن الكَتار، وإذا سمعوا بهم يظنون أنهم كانوا فرقة صغيرة هامشيّة تقبع في هذه الجبال. ولا يدرك الناس أن الكتار، عِرْقاً وثقافةً، كانوا المسيطرين في منطقة واسعة ومزدهرة من أوروبا. وما حدث هنا كان إبادة جماعية بكل معنى الكلمة. لقد ذبحت القوات البابوية ما يقارب المليون إنسان."

ونظر إلى بيتر نظرة ودّية، وقال: "لستُ حاقداً على رجال الدين في هذا العصر بسبب خطايا الكنيسة في القرون الوسطى. فأنت كاهن، أيها الأب هيلي، لأن لديك دعوة من الله. وهذا شيء واضح تماماً."

قادهما رولان بصمت بعد ذلك، وهما يُظهران إعجابهما بتلك القلاع المبنية على قمم الجبال الوعرة منذ حوالي ألف سنة. وهي كانت تعتبر أساساً منيعةً بسبب مواقعها في الجبال، لكنها أيضاً معجزات هندسية. فقد دُهش الزائران لموارد تلك الحضارة التي أتاحت بناء تحصينات بهذه الضخامة في بيئة طبيعية قاسية ووعرة من دون توفُّر الوسائل التقنيّة الحديثة التي نعرفها اليوم.

أثناء الغداء في قرية ليمو، كانت مورين قد ارتاحت لرفقة رولان، فتجرّأت على

سؤاله عن علاقته بسنكلير. كانت جلسة ودية في مقهى يُشرف على نهر الأُود الذي سُمّيت المنطقة المجاورة باسمه. وتبيّن لمورين أن ذلك الخادم الضخم إنسان رقيق، دَمِث، ظريف بعكس ما يوحي به شكله الهائل.

راح رولان يجيبها عن سؤالها: "نشأت في شاتو دي بوم بلو، يا آنستي. توفّيت والدتي أثناء طفولتي، وكان والدي في خدمة السيّد ألِيستر ثم السيّد بيرنجيه، وعشنا في أراضي القصر. ولما مات والدي أصرَرْتُ على القيام بوظيفته في القصر. إنه بيتي، وعائلة سنكلير هم عائلتي."

ازدادت رقّة رولان وعاطفته عندما تحدّث عن فقدان والديه، وعن إخلاصه لعائلة سنكلير.

تعاطفت معه مورين وخاطبته مواسيةً: "لا شك أن موت والديك كان أمراً مؤلماً!"

تشنّج رولان وتصلّب ظهره وهو يجيبها: "أجل، يا آنسة باسكال. كما ذكرتُ، كنت طفلاً عندما توفّيت والدتي بمرض عُضال، وقد سلّمت بالأمر لأنها مشيئة الله. أمّا موت أبي فمسألة أخرى... لقد قُتِل بلا سبب منذ بضع سنوات."

شهقت مورين متأثرةً: "يا إلهي! كان الله في عونك، يا رولان". ولم تشأ أن تطلب تفاصيل أخرى.

أما بيتر، فقد تغلّب فضوله لمعرفة التفاصيل على عادته في تجنّب الحساسيّات والخصوصيّات، فسأله: "ماذا حدث؟"

قام رولان عن الطاولة في إشارة إلى انتهاء تناول الطعام والحديث، وقال: "في أرضنا، أيها الأب هيلي، خصومات مريرة منذ سنين عديدة، لا سبب لها. هذا المكان... إنه مملوء بأبهى نور. لكن هذا النور يجذب أحياناً الظلمة الرهيبة. ونحن نحارب الظلمة بقدر ما نستطيع. لكننا، كأجدادنا لا ننتصر دائماً.

"إلّا أن ثمّة شيئاً أكيداً، وهو أن محاولات الإبادة الجماعية لم تنجح هنا. فما زلنا قوم الكتار هنا، وقد كنّا دائماً كتاراً، وسنظل هكذا أبداً. صحيح أننا قد نمارس ديننا بالسرّ أحياناً، لكن ذلك جزء من حياتنا اليوم كما كان دائماً. ولا تصدّق أي كتاب تاريخ أو عالِم إذا أخبرك غير ذلك."

عندما عادت مورين إلى القصر بعد ظهر ذلك اليوم كانت إحدى الخادمات بانتظارها في غرفتها. "سوف يكون المزيّن هنا بعد قليل، يا آنسة. وقد وصل زِيّك. إذا كان هناك شيء آخر تريدينني أن..."

صرفتها مورين بقولها: "لا. شكراً، وأقفلت الباب. فقد رغبت في أن ترتاح قبل الحفلة. لقد كان يوماً جميلاً رأت فيه أجمل المشاهد في كل سفراتها، لكنه كان مُنهِكاً أيضاً، بالإضافة إلى شعورها بالأسى لما سمعته من حديث رولان عن قتل والده.

رأت كيساً كبيراً جداً من الأكياس التي توضع فيها الثياب ممدّداً على عرض السرير، وافترضت أنه يحوي زيّها للحفلة، ففتحت سحّاب الغلاف البلاستيكي السميك وأخرجت الثوب. واستغرقت لحظة لتدرك ما هو، ثم شهقت مندهشةً.

رفعت الثوب ونظرت إلى لوحة ريبيرا، فرأت أن الرداء مماثل تماماً للزي القرمزي الفضفاض الذي تلبسه مريم المجدلية في لوحة الرسام الإسباني.

لم يتحمّس بيتر لفكرة ارتداء زي قديم. فقد قرّر أولاً عدم حضور الحفلة، لأنه اعتبر ذلك غير لائق بمكانته. لكنه، بعد أحاديث سنكلير وحكاياته وتأثُّر مورين بها، صمّم على الحضور لإبقاء مورين أمام عينيه. وذلك يعني وجوب ارتدائه الزيّ المخصّص له، وهو من أزياء القرن الثالث عشر ويتألف من سترة قصيرة وكِساء قماشي للساقين وقبّعة.

أخذ بيتر الرداء من غلافه، وراح ينظر إليه محاولاً معرفة كيفيّة لبسه، وقال متذمّراً: "يا للسخافة!"

نقّ بيتر على باب غرفة مورين وهو يعدّل زيه مرتبكاً ووقف ينتظر. وقد قرّر أن يستغني عن القبّعة، لأنها ثقيلة ومزعجة على رأسه وتذكّره بأنه يبدو كالأخرق.

فُتح الباب، فخرجت منه مورين جديدةٌ. فقد كان ثوب ريبيرا مناسباً لها كأنه

صُنع على مقاسها بالكامل، مِن رباط الخصر، إلى الصدار عاري الكتفين الذي التفّ حوله بحر من قماش التفتا القرمِزي. وقد سُرِّح شعر مورين الأحمر الطويل تسريحة أضفت عليه غِنًى وكثافة، وكان لامعاً مُنسدِلاً حول كتفيها. أمّا أهمّ ما لاحظه بيتر وفوجئ به فهو تلك المِسحة الجديدة من الثقة بالنفس التي تشعّ من وجهها. فكانت كمن يؤدي دوراً يناسبه مئة بالمئة.

"ما رأيكَ؟ هل هذا كثير؟"

"طبعاً... لكنّك تبدين... كالحلم."

"رائع! أتقصد ذلك حرفيّاً؟"

غمزها بيتر وهزّ رأسه سعيداً لأنهما عادا إلى المزاح والدعابة بعد الشجار الذي وقع بينهما في الليلة السابقة. لقد كانت الرحلة في أرض الكتار الرائعة مريحة لأعصابهما وإعادة الهدوء النفسيّ إليهما.

رافقها بيتر عبر قاعات القصر العديدة بحثاً عن قاعة الحفلة في جناح بعيد، وكانت مورين تضحك كلما سمعته يتذمّر من زيّه.

أكّدت له: "أنت تبدو نبيلاً وأنيقاً."

لكنّه أجابها: "بل أبدو كالأبله!"

كركاسون
24 حزيران (يونيو) 2005

في كنيسة حجريّة عتيقة خارج مدينة كركاسون المسوَّرة، كانت التحضيرات لحَدَث من نوع آخر جارية على قدم وساق. كان مجموع أعضاء طائفة الصالحين يتجمّعون في جلال ومهابة. حضر ذلك الطقس الديني أكثر من مئتي رجل يلبسون ثياباً رسميّة ويعقدون حول أعناقهم الحبال الحمراء الخاصة بتلك الجماعة.

لم يكن في الحشد أي امرأة. لم تنتهك أي أنثى قَطّ حرمة قاعات الطائفة وكنائسها الخاصة. وكانت تعلّق، في كل مقرّات الطائفة، لوحات نُقشت فيها كلمات القدّيس بولس التي تعبّر عن وجهة نظره في المرأة، ومنها مقطع مِن رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس:

"لتصمتْ نساؤكم في الكنائس، لأنّه ليس مأذوناً لهنّ أن يتكلّمن، بل يخضعن كما يقول الناموس أيضاً. ولكنْ إن كُنّ يُرِدْن أن يتعلّمْنَ شيئاً فليسألن رجالهنّ في البيت، لأنه قبيح بالنساء أن يتكلّمن في الكنيسة."

ومقطع آخر من رسالته الأولى إلى تيموثاوس:

"ولكن لستُ آذن للمرأة أن تُعلِّم ولا تتسلّط على الرجل بل تكون في سكوت."

ومع أن الطائفة كانت تُجِلّ بولس وآراءه، فهو لم يكن المخلّص بنظَرهم.

كانت ذخائر معلّمهم الأقدم معروضة على وسادتين مخمليّتين فوق المذبح، فقد لمعت الجمجمة على ضوء الشموع، وأُخرجت بقايا عظام سبّابته اليمنى من وعاء الذخائر لهذه المناسبة السنوية. بعد الصلاة الرسمية وكلمة معلّم الطائفة سيُسمح لكل عضو بلمس الذخائر. وهذا عادةً امتيازٌ يُمنح فقط لأعضاء مجلس الطائفة بعد أدائهم قسَم الدم بالمحافظة على تعاليم الحَقّ. لكن يوم العيد السنوي كان محجّة يحضرها أعضاء الطائفة من جميع أنحاء العالم، وكان جميع المؤمنين في تلك الليلة يُمنحون شرف لمس الذخائر.

تقدّم رئيسهم من المنبر لإلقاء كلمته الافتتاحية، فدوّى صوت جون سايمون كرومويل بلهجته الإنكليزية الأرستقراطية مُجلجلاً بين جدران الكنيسة الحجرية الأثرية.

"إخواني، يجتمع هذه الليلة، في مكان قريب من هنا، نسلُ العاهرة والكاهن الشرّير، ويحتفلون بِدنَسهم الموروث بمُمارسة الفسق. لقد اختاروا عمداً تشويه هذه الليلة المقدّسة للتباهي بِشرورهم الداعرة وعرض قوّتهم الظاهرة.

"لكنّنا لن نهابهم. سوف ننتقم منهم قريباً انتقاماً ننتظره منذ ألفي سنة لنرى نور الحق ساطعاً. لقد ضربْنا راعيهم الشرّير آنذاك، وسوف نضرب أحفاده الآن. سوف ندمّر معلّمهم الأكبر وتوابعه. سنتخلّص من المرأة التي يدعونها راعيتهم ونرمي بهذه الملكة الفاجرة إلى الجحيم قبل أن تتمكّن من نشر أكاذيب العجوز القبيحة التي تتحدّر منها.

"إننا نقوم بذلك باسم الأوّل، المخلّص الحقيقيّ الوحيد، لأنّه كلّمني وهذه هي رغبته. نقوم بذلك باسم مُعلِّم الحَقّ وببركات الربّ إلهنا."

بدأ كروموِيل بإزاحة الذخائر، فلمس الجمجمة أوّلاً، ثمّ وضع يده مطوّلاً على عظام الإصبع بكلّ احترام. وكان أثناء ذلك يهمس بصوت عالٍ:

"اقتلوهم جميعاً،

اقتلوهم جميعاً."

... قال الذين أخبروني عن بولس إنه تكلّم جهاراً ضدّ دور النساء في الطريق. وهذا أسطع برهان على أن هكذا رجل لا يُمكن أن يكون قد عرف حقيقة تعاليم عيسى أو جوهر عيسى نفسه. فتقدير عيسى البالغ للنساء يعرفه جيّداً كل المختارين، وكنت أنا نفسي خير دليل على ذلك.

ولا يستطيع أحد تغيير ذلك إلا إذا أزالوني من التاريخ كلياً.

كما أُخبرتُ أن بولس هذا كان يُجِلّ طريقة موت عيسى أكثر من كلمات عيسى نفسه. وهذا يُحزنني لأن فيه إساءة إلى فهم عيسى.

لقد زجّ نيرون بهذا الرجل، بولس، في السجن زمناً طويلاً. وقيل لي إنه ألّف رسائل عديدة إلى مُخلِصيه، لقّنهم فيها تعاليم ادّعى أنها من عيسى، لكنّ الذين جاؤوا إليّ قالوا إنّه لم يكن يستحقّ أن ينطق باسم الطريق وأنّ تعاليمه مخالفة لسبيلنا.

إنّي أتفجّع على كل إنسان تعذّب وقُتل على يد ذلك الوحش، نيرون. لكن ما يثير خشيتي هو أن يُنظر إلى بولس هذا كشهيد عظيم من أجل الطريق وأن يؤمِن كثيرون بأن تعاليمه الكاذبة هي تعاليم عيسى.

لأنها ليست كذلك.

إنجيل الآرك لمريم المجدلية

كتاب الرسل

الفصل العاشر

شاتو دي بوم بلو
24 حزيران (يونيو) 2005

تبعَ بيتر وMورين صوت الأغاني القديمة الشجيّة وهما يتنقّلان بين القاعات. ولدى اقترابهما من مدخل قاعة الاحتفال، ظهرت طلائع تَرَف سنكلير وسخائه على حفلته.

خالت مورين نفسها قد انتقلت إلى زمن آخر. كُسِيَت قاعة الرقص الواسعة بستائر مخمليّة، وزُيّنت أرجاؤها بآلاف الأزهار والشموع. وكان الخدَم، وهم يلبسون أزياءهم الخاصّة ويضعون شعورهم المستعارة، يسعون بخفّة وصمت بين الساهرين الصاخبين ويقدّمون لهم الطعام والشراب ويحافظون على نظافة المكان وترتيبه.

وكان الساهرون أنفسهم هم جوهرة تلك السهرة الفخمة بأزيائهم المُتقنة، وقد تنوّعت ملابسهم التاريخية العديدة ومثّلت مختلف حقب تاريخ فرنسا وبلاد الأوك، وشملت عناصر تراث المنطقة وألغازها وتقاليدها. فقد كانت النُّخَب الخاصّة من كافّة جوانب الأرض تنتظر دعوة سنكلير كل سنة بشوق ولهفة، فتبذل في إعداد الأزياء الصبر والوقت والمال. لذلك كانت حفلاته أشبه بمسابقة لاختيار أجمل الأزياء وأكثرها طرافةً. وكان سنكلير هو اللجنة الحَكَم بأمّها وأبيها، وجوائزه توازي ثروة، فضلاً عن ضمان وجود اسم الفائز على لائحة المدعوّين إلى حفلة العام التالي.

ولدى دخول مورين وبيتر الغرفة صمتت الموسيقى فوراً وتوقّف الضحك وقرقعة كؤوس الكريستال.

قام رجل يلبس زيّاً خاصاً ويحمل بوقاً، فنفخ نغمة ترحيب، فيما تقدّم رولان إلى الأمام، وهو يرتدي ثوباً كتارياً بسيطاً، وأعلن قدومهما. فوجئت مورين لرؤيتها

رولان لابساً كسائر المدعوّين وليس مثل موظفي القصر، لكنّها لم تستطع أن تفكّر في الأمر طويلاً لانبهارها بكل ما حولها.

"يُشرِّفني أن أعلن لضيوفنا الكرام وصول الآنسة مورين باسكال والأب بيتر هيلي."

جمد الحاضرون في أماكنهم وكأنهم تماثيل من الشمع، وهم ينظرون إلى القادمينِ الجديدين. سارع رولان إلى إعطاء الفرقة الموسيقية إشارة بيده لاستئناف العزف ليُخرج مورين من حرجها وارتباكها. مَدّ يده لمورين ليرافقها إلى داخل القاعة. وظلّت الدهشة بادية على الوجوه، إنما بشكل أخفّ، وقد تمكّن الحاذقون من الحضور من السيطرة على دهشتهم والتظاهر بعدم الاكتراث.

قال لها مُطمئناً: "لا تبالي بهم، يا آنستي. فأنت وجه جديد ولغز جديد يحاولون فهمه. لكنّهم سيرحّبون بك، فليس أمامهم حَلّ آخر."

لم تفهم مورين قصد رولان من كلامه وهو يقودها نحو حلبة الرقص تاركاً بيتر وراءهما وهو ينظر حوله باهتمام بالغ.

سُمع صوت تمارة وزنوم وهي تصيح "ريني!" بلهجتها الأميركية المختلفة عن الجوّ الأوروبي المسيطر في القاعة. جاءت من الجانب الآخر لحلبة الرقص، وكانت مورين قد أنهت رقصةً مع رولان. وقد ارتدت تامي زياً غجرياً غريباً لافتاً. وكان شعرها الرائع مصبوغاً بلون أسود لامع ويتدلّى حتّى وسطها، وقد غطّت ذراعيها أساور ذهبيّة. لاحظت مورين أن رولان غمز تمارة، ثم انحنى أمامها واستأذن وانصرف.

عانقت مورين تامي، وهي مسرورة لرؤية إنسان مألوف في هذه الأرض الغريبة: "إنك تبدين رائعة! زيَّ مَن تلبسين؟"

دارت تامي حول نفسها برشاقة وشعرها الأسود يتطاير وراءها، وقالت: "أنا سارة المصرية المعروفة أيضاً بالملكة الغجرية. لقد كانت وصيفة مريم المجدليّة."

رفعت تامي قماش التفتا الأحمر في ثوب مورين بإصبعها، وقالت: "أمّا أنا فلست بحاجة لأسألك مَن أنت. هل أعطاك بيري هذا الثوب؟"

"بيري؟"

ضحكت تامي وقالت: "هذا بيرنجيه كما يناديه أصحابه."

"لم أكن أعلم أنكما مقرَّبان لهذه الدرجة!" وخشيت مورين أن تكون بقولها هذا قد أفصحت عن خيبة أملها حيال هذا الأمر.

لم تتمكّن تامي من التعليق على قول مورين، إذ اقتربت منهما شابة صغيرة ترتدي ثوباً كتارياً عاديّاً. كانت تحمل بيدها زنبقة واحدة وقدّمتها لمورين.

قالت لها: "ماري دو نيغر"، وانحنت أمامها باحترام وانسحبت بسرعة.

استدارت مورين نحو تامي تنتظر تفسيراً. "ما بها؟ ما الأمر؟"

"أنتِ. إنّكِ موضوع الحديث الليلة. هناك قاعدة واحدة بالنسبة لهذه الحفلة السنوية، وهي أنه لم يُسمح أبداً لأحد بارتداء زيّها. ثم تظهرين أنتِ نسخةً عن رسم مريم المجدلية. إنّ سنكلير يقدّمك للناس. هذه الحفلة للتعريف بكِ."

"رائع! لكن ألم يكن ممكناً إعلامي بالأمر مسبقاً؟ بأيّ اسم دعتني تلك الفتاة؟"

"ماري دو نيغر، أي مريم السوداء، وهو اسم مريم المجدلية باللهجة المحلية. وفي كل جيل تُعطى امرأة من السلالة هذا الاسم كلقب رسميّ تظلّ تحتفظ به طيلة حياتها. فهنيئاً لكِ! لأن هذا يُعتبر شرفاً عظيماً هنا. فكأنّها نادتك بالقول: يا صاحبة الجلالة!"

لم تفكّر مورين في حالة التشوّش والضوضاء التي لفّت المكان حولها كالدوّامة. كانت القاعة تموج صخَباً واضطراباً: فالموسيقى صادحة والساهرون غريبو الأطوار. لكنْ أين سنكلير؟ كانت قد سألت رولان عنه أثناء الرقص معه، لكنّ عملاق لانغدوك لم يعطها جواباً واضحاً.

راحت مورين تُجيل بصرها في أنحاء الغرفة بحثاً عن سنكلير، فسألَتْها تامي:

"هل تبحثين عن حارسك؟"

رمقتها مورين بنظرة صامتة، ولكنها هزت رأسها علامة على الموافقة، آملة أن تتركها على اعتقادها بأنها تبحث عن بيتر. وأشارت تامي إلى أن بيتر كان وراء مورين آتياً نحوهما. فطلبت مورين من صديقتها أن تكون لبقة في الكلام أمامه.

لم تُصغ تامي لطلب مورين، إذ كانت قد تقدّمت خطوة لترحّب به. "أهلاً بك إلى برج بابل، أيّها الأب."

ضحك بيتر وقال: "شكراً".

"لقد جئتَ في الوقت المناسب. كنت على وشك القيام بجولة مع سيّدتنا هذه في أنحاء هذا الاستعراض العجيب الغريب. فهل تنضمّ إلينا؟"

أومأ بيتر برأسه موافقاً، ونظر إلى مورين مبتسماً، ثمّ مشى معها وراء تامي التي أخذت تسير بخطوات سريعة في أرجاء القاعة.

قادت تامي مورين وبيتر لتعرّفهما بكلّ من في الحفلة، وكانت تخبرهما هامسةً عن كل مجموعة يمرّون بها، وتعرّفهما ببعض أصدقائها ومعارفها الذين تلتقي بهم بين حشود الساهرين. كانت مورين مدركةً تماماً أنها محطّ أنظار الجميع.

مرّ الثلاثة قرب مجموعة من الرجال والنساء يلبسون ثياباً تكشف معظم أجسامهم. وَكَزَتْ تامي مورين، وقالت:

"هؤلاء عبَدة الجِنْس. وهم يعتقدون أن مريم المجدلية كانت الكاهنة الكبرى في مجموعة غريبة من الطقوس الجنسيّة التي نشأت أصلاً في مصر القديمة."

بدت على مورين وبيتر أمارات الصدمة والاستحياء.

"ناقِل الكفر ليس بكافر، أنا أصف الواقع بكل غرائبه. انظرا هناك..."

رأيا في أقصى الغرفة أغرب مجموعة بين الحضور. فقد كانوا يرتدون ثياباً مُبهرَجة تمثّل مخلوقات فضائية، وقد برزت من رؤوسهم الأسلاك والهوائيات.

"رين لو شاتو بوابة كونيّة تفتح مباشرةً على المجرّات الأخرى."

انفجرت مورين ضاحكةً، فيما راح بيتر يهزّ رأسه لغرابة ما يراه وقال لتامي: "أنتِ مُحقّة في قولك إنه استعراض عجيب غريب!"

"طبعاً! ألا تريان ما حولنا؟"

توقّفوا ليروا مجموعة من الناس ملتفّين حول رجل بَدين قصير ملتحٍ. وكانوا يُصغون إليه باهتمام وهو يلقي أشعاراً وكلاماً مُقفّى.

سألتها مورين بصوت خفيض: "من هذا؟"

فأجابت هازئة: "نوستراداموس الأخرق، أقصد الخارِق!"

حبست مورين ضحكتها فيما أكملت مورين كلامها:

"إنّه يدّعي أنّه تجسُّد جديد لنوستراداموس، ولا يتكلّم إلا شعراً، وكلامه يثير الملل. ذكِّراني بأن أخبركما لاحقاً سبب كرهي لكل هذا الاهتمام بنوستراداموس. إنّهم مجموعة من الدجّالين والمشعوذين."

تابعت تامي حديثها وهي تسير أمامهما عبر الغرفة: "لحسن الحظ، ليس جميع الموجودين هنا من أمثال هؤلاء، فبعضهم أشخاص رائعون، وها إنّي أرى اثنين منهم هناك. هيّا."

اقتربوا من مجموعة من الرجال يرتدون أزياء نبلاء القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكان بينهم رجل إنكليزيّ أرستقراطي استقبلهم بابتسامة عريضة.

"تمارة وزدوم! لَكَم تسرّني رؤيتك! تبدين رائعة الليلة، يا عزيزتي."

أرسلت له تمارة قبلتين في الهواء على الطريقة الأوروبية، وسألته: "أين تفّاحتك؟"

ضحك الرجل الإنكليزيّ وأجاب: "تركتُها في إنكلترا. عرّفيني بصاحبيكِ".

قامت تامي بالتعريف وأشارت إلى الرجل الإنكليزي باسم السير إسحاق. شرح الرجل سبب اختياره زيّه بقوله: "السير إسحاق نيوتن مُهِمّ لأشياء أخرى بالإضافة إلى قصّة التفاحة، فاكتشافه قوانين الجاذبية جاء عَرَضاً خلال قيامه بأبحاث أخرى أَهمّ. فهو، كما يرى البعض، كان مِن أبرع علماء الخيمياء في التاريخ."

عند انتهاء السير إسحاق من كلامه، دنا منهم شاب أميركيّ طويل القامة يبدو متضايقاً من زيّ توماس جيفرسون الذي يرتديه وشعره المستعار. "حبيبتي تامي".

عانق تامي عناقاً شديداً والتصق بها وقبّلها على شفتيها، فضحكت تامي وخاطبت مورين:

"أُقدّم لكِ ديريك وينرايت لقد كان أول دليل لي في فرنسا عندما بدأت أبحاثي حول هذا الجنون. إنه يتكلّم الفرنسية بطلاقة، وقد ساعدني كثيراً."

انحنى ديريك أمام مورين وتكلّم بلهجة أميركية مع مَطّ الحروف على طريقة أهل منطقة كيب كود في ماساشوستس: "توماس جيفرسون في خدمتك يا سيّدتي." ثمّ أومأ لبيتر وقال: "تشرّفنا أيّها الأب المحترم."

كان ديريك أوّل شخص في المجموعة يلاحظ وجود بيتر. وقد تنبّهت مورين لذلك قبل أن يبادره بيتر بالسؤال: "وما علاقة توماس جيفرسون بـ... بكلّ هذا؟"

"كان البنّاؤون الأحرار، أي الماسونيّون، هم الذين أسّسوا بلادنا العظيمة. وكل الرؤساء الأميركيّين، من جورج واشنطن حتى جورج بوش الابن، هم من نسل السلالة بطريقة أو بأخرى."

فوجئت مورين بهذا القول، وصاحت: "حقّاً؟"

وأجابت تامي: "أجلْ. ويستطيع ديريك أن يُثبت ذلك بالوثائق. لقد كان دائم البحث أيام الدراسة."

تقدّم إسحاق وربّت على كتف ديريك، وأعلن بلهجة واثقة: "كان بولس أوّل مَن حرَّفَ تعاليم يسوع. أليس ذلك صحيحاً، يا تامي؟"

رماه بيتر بنظرة حادّة، وسأله: ماذا قلت؟"

فأجابه الرجل الإنكليزي: "هذا من أقوال جيفرسون المثيرة للجدل."

ودُهشت مورين بدورها، وقالت: "هل قال جيفرسون ذلك فعلاً؟"

أومأ ديريك برأسه إيجاباً. لكنه بدا غير مُصْغٍ تماماً، إذ كان ينظر مراقباً جميع الساهرين، فيما راحت تامي تتكلّم: "أين دراكو؟ "أعتقد أن مورين قد تُسَرّ بلقائه."

انفجر الثلاثة ضاحكين، وأجابها إسحاق: "لقد أغضبتُه، وتركني ليبحث عن التنانين الحُمْر الآخرين. لا بُدّ أنّهم الآن مختبئون في زاوية ما مع كاميراتهم الخفيّة ومنهمكون في تدوين ملاحظاتهم عن الجميع. لكنّهم يلبسون لونهم الخاص هذه الليلة، فلا يمكن أن تخطئهم العين.

أثار كلامه فضول مورين، فتساءلت: "مَن هُم؟"

أجابها ديريك مُتصنّعاً الإثارة والجدّيّة: "فرسان التنّين الأحمر."

وعلّقت تامي وهي تحرّك أرنبة أنفها اشمئزازاً. "غريب أمرهم! إنهم يلبسون ثياباً تشبه ما يرتديه جماعة كو كلوكس كلان، لكنّها حمراء لمّاعة. عرَضوا عليّ أن

يعلّموني أسرارهم العظيمة لقاء تبرّعي لهم بدماء الحيض من أجل اختباراتهم الخيميائية. وبالطبع تلقّفتُ عرضهم!"

قالت مورين ساخرة: "بالطبع، هذا عرض لا يمكن رفضه!"، ثم انفجرت ضاحكةً، وأضافت: "أين هم؟ أريد أن أرى شكلهم"، ثم نظرت في أنحاء الغرفة فلم ترَ أحداً يشبه وصف تامي الغريب لهم.

أجاب نيوتن: "لقد شاهدتُهم يخرجون. لكن، هل من الحكمة أن نجعل مورين تتعرّض لهم؟ قد لا تكون مستعدّة لذلك بعد."

وقالت تامي: "إنهم جمعية تلفّها الأسرار، وكلّهم يدّعون انتسابهم إلى الملوك أو المشاهير. وزعيمهم رجل اسمه دراكو أورموس."

سألتها مورين: "مَن؟ يبدو اسمه مألوفاً."

"إنه كاتب، وينشر كتبه لدى ناشر معروف في بريطانيا، ويمكن أن تكوني قد رأيتِ بعض كتبه أثناء سفرك بحثاً عن موضوع المجدلية. والغريب أنّه يكتب عن أهميّة عبادة الإلهة الأنثى ومكانة المرأة، ومع ذلك لا يُدخلون أيّ أنثى في ناديهم الذكوريّ."

لكز ديريك السير إسحاق بمرفقه، وقال: "مع أنّ ذلك من صفات البريطانيين!"

فاضطرب إسحاق وأجابه:

"لا تُدخلني في جماعة ذلك المعتوه، يا راعي البقر. فليس جميع البريطانيين على شاكلة واحدة."

تدخّلت تامي بقولها: "السير إسحاق هو طبعاً من الأخيار. هناك كثير من النوابغ الصادقين في بريطانيا، ولي بينهم أصدقاء مقرّبون. لكنّ التجربة علّمتني أن العديد من أصحاب المعرفة الإنكليز متعجرفون، فهم يظنّون أنّهم يملكون أسرار الكون وأن الآخرين، وخصوصاً الأميركيين، هم أغبياء ومتطفّلون على المعرفة والبحث العلمي. ويحسب الواحد منهم، إذا كتب ثلاثمئة صفحة عن هندسة لانغدوك المقدسة وسطّر مئتي صفحة أخرى من أشجار النسب الخيالية، أنه كاشِف الأسرار وشارح الألغاز. لكنّهم لو عادوا إلى أنفسهم لعرفوا أن الكنز المفقود هو أثمن وأسمى مما يصوّرونه في كتاباتهم."

مالت تامي برأسها في إشارة إلى جماعة في الناحية المقابلة من الغرفة،

يرتدون أزياء من طراز العصر الإليزابيثيّ، وقالت: "هؤلاء منهم. وأنا أسميهم زمرة الأدوات الهندسيّة. إنهم يمضون حياتهم في تحليل الهندسة المقدّسة لخرائط مسح الأراضي. وإذا طُلب رأيهم حول معنى القول (اتْ إنْ أرْكاديا إيغو) فإنهم يُعطون تشكيلات لا تُحصى لهذه الأحرف بمختلف اللغات ويترجمونها إلى معادلات رياضيّة."

ثمّ دلّت على امرأة جذّابة، تبدو متغطرسة، وقد ارتدت لباساً رائعاً من عهد أسرة تيودور. وكان حول رقبتها سلسلة تدلّى منها حرف (م) ذهبيّ ولؤلؤة باروكيّة الطراز. وقد تحلّق حولها زمرة الأدوات الهندسية يتودّدون إليها.

"تلك المرأة في الوسط تدّعي أنّها من نسل ماري ملكة إسكتلندا."

وكأنّها أحسّت أنهم يتكلّمون عنها، فاستدارت وحدّقت بهم. ركّزت نظرها على مورين وتفرّست بها من رأسها حتى أخمصَيْها بكلّ ازدراء. ثم أدارت وجهها نحو أتباعها المحيطين بها.

قالت تامي غاضبة: " يا لها مِن ساقطة متكبّرة. إنها ترأس جمعية غير سريّة هدفها إعادة أسرة ستيوارت إلى عرش بريطانيا، على أن تكون هي الملكة طبعاً."

ذُهلت مورين لذلك التنوّع الواسع في المعتقدات والجمعيات التي امتلأت بها القاعة، فضلاً عن الأشخاص الغريبين والمتطرفين.

مال بيتر نحوها وعلّق على ذلك هازئاً: "لو كان فرُويد هنا لاحتار مِن أين يبدأ تحليلاته النفسيّة!"

ضحكت مورين ثم صرفت اهتمامها مجدّداً إلى مجموعة البريطانيّين في أقصى القاعة، فسألت: "ما هو رأي سنكلير بها؟ فهو إسكتلنديّ وينتمي إلى أسرة ستيوارت." وكان فضولها بشأن سنكلير قد ازداد خصوصاً وأن تلك التي تدعي تحدّرها من ماري ملكة إسكتلندا كانت جميلةً.

"بيري يعلم أنّها معتوهة. صحيح أنّه مهووس، لكنه ليس غبياً."

قاطعهم ديريك كعادته، وهو شبه ذاهل عن حديثهم، بقوله: "لاحظوا هناك! هذا هانز وعصابته الشهيرة. سمعت أن سنكلير كاد يفرض عليهم حظراً هذه السنة."

سألته مورين: "لماذا؟"، وكانت قد ازدادت فضولاً وذهولاً بشأن لانغدوك وما أثارته عجائبها وغرائبها من آراء ومعتقدات.

انبرى السير إسحاق للإجابة: "إنّهم صيّادو كنوز بالمعنى الحرفيّ للعبارة، وتقول الشائعات إنّهم مؤخراً استخدموا الديناميت في جبال سنكلير."

نظرت مورين إلى تلك المجموعة من الألمان ضِخام الجثث. ورأت أن أزياءهم لم تُحسّن من صورتهم الحقيقيّة إذ كانوا لابسين ثياب البرابرة.

"إلامَ ترمز هذه الثياب التي يرتدونها؟"

أجاب إسحاق: "إلى القوطيّين الغربيّين، فقد كان هذا الجزء من فرنسا تحت سيطرتهم في القرنين السابع والثامن. ويَعتقد الألمان أن كنوز أحد ملوك القوطيّين الغربيّين مخبّأة في هذه المنطقة."

وأكملت تامي: "وهم يظنّون أن اكتشافهم سيوازي اكتشاف كنوز قبر توت عنخ أمون ذهَباً وجواهرَ وروائعَ فنيّة."

مرَّ أمامهم مجموعة من الساهرين يَجْرون مُتباعِدين في هرج ومرج، وكادوا يصطدمون ببيتر وتامي. كانوا خمسة رجال، يلبسون أردية طويلة، يلاحقون امرأة ملتفّة بوشائح ملوّنة ذات طراز شرق أوسطيّ. كانت المرأة تحمل شكل رأس بشريّ غريب بشع في طبق، والرجال ينادون الرأس المقطوع: "كَلِّمْنا يا شيطان، كَلِّمْنا!"

تراجعت تامي، وقالت: "معمدانيّون."

وتدخّل ديريك موضّحاً: "ليسوا معمدانيّين حقّاً، بالطبع!"

"كلّا. ليسوا حقيقيّين."

أثارت فضول بيتر هذه الزاوية الدينيّة، فسأل: "ما المقصود بأنّهم غير حقيقيّين؟"

التفتَت إليه تامي وقالت: "أنت تعلم، يا أبتاه، نحن في أي يوم على الروزنامة المسيحية."

أومأ بيتر وقال: "إنّه يوم عيد القدّيس يوحنا المعمدان."

"أتباع يوحنا المعمدان الأصيلون لا يمكن أن يحضروا حفلة كهذه في يوم عيده." وأكمل ديريك بقوله: "لأن ذلك أشبه بالتجديف."

واستطردت تامي وهي تنظر باتّجاه المرأة التي تحمل الرأس: "إنهم جماعة محافظون جداً، وخصوصاً فرعهم الأوروبي. هم نسخة ساخرة عن الأصل، لا بل تهكُّميّة إلى درجة الجنون، وأقلّ ما يُقال فيها أنْ لا مبرّر لها."

وكانت ردّات فعل الساهرين في أرجاء القاعة لرؤية هؤلاء المهرّجين متفاوتة، فبَعضٌ ضحكَ ملء قلبه، وبعضٌ هزّ رأسه، وبعضٌ بَدا مصدوماً.

وقطع ديريك الحوار، فهو لا يستطيع متابعة موضوع واحد طويلاً، وصاح: "إنّي بحاجة لكأس. مَن يريد شيئاً مِن البار؟"

وجد بيتر انصراف ديريك فرصة ليستأذن هو بدوره، فقد كان منزعجاً من ثيابه ومنزعجاً أكثر من كل ما رآه وسمعه. فأخبر مورين أنه ذاهب ليبحث عن حمّام. ولكنّه اتّخذ أقرب ممرّ إلى الفناء الخارجيّ، فهو في فرنسا ولا بدّ أنّه سيجد في الخارج مَن يقدّم له سيجارة.

جاء رجل فرنسي في غاية الأناقة، بالرغم من لباسه الكتاري البسيط، وتقدَّم من مورين وتامي. هزّ رأسه أمام تامي وانحنى لمورين، وقال بالفرنسية:

"أهلاً بك، ماري دو نيغر."

غطت مورين ارتباكها من حركته بضحكة، وقالت: "آسفة، إني لا أجيد الفرنسية."

تحدّث الرجل الفرنسي بلغة إنكليزية جيّدة، وإن بنبرة خاصة: "قلتُ: هذا اللون يناسبُك."

سُمع صوت من جانب القاعة المقابل ينادي تامي. نظرت مورين ناحية مصدر الصوت وقد عرفت أنه صوت ديريك، ثمّ التفتت إلى تامي فوجدتها تبتسم ابتهاجاً.

"آه، يبدو أن ديريك بصحبة أحد المموّلين المحتمَلين لمشروعي. عن إذنكما لحظة." انصرفت تامي فوراً تاركةً مورين وحدها مع الرجل الفرنسي المجهول

قبّل يدها اليمنى مُطيلاً النظر إلى النقش على خاتمها، ثمّ عرّف بنفسه بشكل رسميّ.

"أنا جان كلود دو لا موتّ. أخبرني بيرنجيه باننا قريبان، فجدّتي كانت من عائلة باسكال أيضاً."

فوجئت مورين بهذه الصلة بينهما، وتساءلت: "حقّاً؟"

"نعَمْ. وما زال هناك بعضٌ من آل باسكال هنا في لانغدوك. أنتِ تعرفين تاريخنا، أليس كذلك؟"

"لا أعرف الكثير. وكل ما أعرفه علِمته من اللورد سنكلير مؤخّراً. يسرّني أن تُطلعني على المزيد عن عائلتي."

كان بعض الراقصين والراقصات المرتدين ثياب قصر فرساي في القرن الثامن عشر يدورون أمامهما أثناء حديث جان كلود.

"اسم باسكال من أعرق الأسماء في فرنسا، وقد اتّخذته إحدى أعظم عائلات الكتار، وهي تتحدّر مباشرة من يسوع المسيح ومريم المجدلية. وقد أُبيدت معظم العائلة في الحملة الصليبيّة ضدّ شعبنا. والذين نجوا من مذبحة مونسيغور أُحرقوا أحياء كأنّهم هراطقة. لكنّ نفراً منهم تمكّنوا من الفرار وأصبحوا، فيما بعد، مستشارين لدى ملوك فرنسا وملكاتها."

أشار جان كلود إلى رجل وامرأة يرقصان مرتديين كماري أنطوانيت ولويس السادس عشر.

فوجئت مورين وهتفَت مُتسائِلةً: "ماري أنطوانيت ولويس؟"

"أجَلْ. فماري أنطوانيت كانت من أسرة هبسبورغ ولويس من أسرة بوربون، وكلتاهما من فروع السلالة. وبزواجهما جمعا بين هذين الفرعين، لذلك خشيهما الناس. ومن أسباب الثورة الفرنسية الخوف من اتحاد هاتين الأسرتين لأنهما يُمكن أن تؤسسا أقوى عائلة حاكمة على وجه الأرض. هل زرتِ فرساي، يا آنستي؟"

"نعمْ. وقد زرته خلال إجراء بحثي عن ماري أنطوانيت."

"إذاً، تعلمين بأمر القرية الصغيرة."

"طبعاً." فتلك القرية الصغيرة كانت، بالنسبة لمورين، أحبّ أجزاء أراضي

قصر فرساي الشاسعة. وكانت تُحسّ بتعاطُف شديد مع الملكة، وهي تجوب قاعات ذلك القصر الملكي. كانت جميع أعمال ماري أنطوانيت اليومية تجري بحضور شهود من النبلاء، مِن جلوسها في المرحاض إلى استعدادها للنوم. وقد وُلِد أبناؤها بحضور نبلاء محتشدين في غرفة نومها.

وقد تمرّدت الملكة ماري على تقاليد المَلكيّة الفرنسيّة الخانقة فأوجدت ملاذاً لها تهرب إليه من سجنها المذهّب وبَنَتْ قرية خاصّة، أشبه بديزني لاند مصغّرة، تحيط ببركة بَطّ فيها قوارب بمجانيف، وكانت المطحنة المصغّرة وبيت المزرعة الصغير مسرحاً ريفياً للحفلات واللقاءات مع مجموعة من الأصدقاء المقرّبين.

"ولا بُدّ أن تكوني على عِلْم أيضاً بأن ماري كانت مُغرَمة بارتداء ثياب الراعية، ولم يكن يلبس هذا الزيّ سواها في جميع اجتماعاتها الخاصّة."

بدت مورين مشدوهة وهي ترى أجزاء الصورة تتجمّع وتكتمل. "كانت ماري أنطوانيت تتزيّا بزيّ الراعية. أعرف ذلك منذ أن زرتُ فرساي. لكنّي لم أكن على عِلم بكل هذا." وأشارت إلى المشهد العاصف حولهما.

استطرد جان كلود قائلاً: "لهذا السبب أُقيمت القرية بعيداً عن مبنى القصر وأُحيطت بحراسة مُشدّدة. لقد كانت وسيلة ماري للاحتفال بتقاليد السلالة بحرّيّة. لكنّ الآخرين علموا بالامر طبعاً، لانه لم يكن في فرساي أسرار، فالجواسيس كُثُر وصراع المصالح والنفوذ على أشُدِّه. وقد كان ذلك أحد العوامل التي أدّت إلى موت ماري وإلى قيام الثورة.

"كان أفراد عائلة باسكال موالين للأسرة المالكة طبعاً، ويُدعون دائماً إلى احتفالات ماري الخاصة، لكنّهم أُجبروا على الهرب من فرنسا خلال عهد الإرهاب."

أحسّت مورين بالقشعريرة تسري في عروقها، فمأساة ملكة فرنسا النمساويّة الأصل كانت مَثار اهتمامها منذ فترة طويلة، وكانت من أهمّ دوافع تأليف كتابها. ثمّ اكمل جان كلود كلامه:

"ذهب معظم هؤلاء إلى الولايات المتحدة واستوطنوا لويزيانا."

عادت مورين إلى تركيز انتباهها، وقالت: "عائلتي من لويزيانا!"

"على كلّ حال، كُلّ من لديه نظَر يعرف أنّك من عِرْق السلالة الملكيّة. أنت ترين الرؤى، أليس هذا صحيحاً؟"

تردّدَت مورين في الإجابة، فهي لا ترغب في الحديث عن رؤاها حتى مع أقرب المقرّبين، فكيف الحال أمام رجل غريب؟ لكنها كانت تشعر براحة كبرى عندما تكون برفقة آخرين مثلها، أي ممّن يعتبرون هذه الرؤى شيئاً طبيعياً. فأجابته بكل بساطة: "نعمْ".

"من الطبيعي أن ترى حفيدات السلالة رؤى عن المجدلية، وحتى الرجال أحياناً كذلك، مثل بيرنجيه سنكلير الذي تأتيه الرؤى منذ أن كان طفلاً. وليس ذلك بمُستغرَب."

لكن مورين فكّرت في نفسها أن ذلك مُستغرَب فعلاً، بيد أنّ ذلك الاكتشاف الجديد عن سنكلير أثار فضولها، فهو لم يُطلعها على شيء منه. فسألت محدّثها: "سنكلير يرى رؤى؟"

لكنّها قد تتاح لها فرصة سؤال سنكلير مباشرة، لأنه جاء بنفسه، وكان مرتدياً لباسَ آخِر النبلاء الذين حكموا تولوز.

"جان كلود، أرى أنك وجدت قريبتك الضائعة منذ زمن."

"أجلْ. وهي مفخرة لاسم العائلة."

"فعلاً. أتسمح لي بأن آخذها منك بعض الوقت؟"

"بشرط أن تأذن لي بمرافقتها غداً. أريد أن أريها بعض المعالم العائدة إلى اسم باسكال. أنتِ لم تذهبي إلى مونسيغور، يا عزيزتي."

"مونسيغور، لا. لقد ذهبنا مع رولان اليوم، لكننا لم نصل إلى مونسيغور."

"إنها أرض مقدّسة بالنسبة لعائلة باسكال. هل تمانع يا بيرنجيه؟"

"أبداً. لكن مورين هي صاحبة القرار."

"هل تمنحيني شرف مرافقتك؟ سنزور مونسيغور ثم نذهب إلى مطعم تقليدي، حيث يقدّمون الطعام المُعَدّ بالطريقة الكتارية الأصيلة."

ما كانت مورين لتجد طريقة مهذّبة للرفض حتى ولو أرادت ذلك، لكن سحر ذلك الفرنسي وفضولها للتعمّق في تاريخ عائلتها جعلا العرض لا يُقاوَم.

أجابته: "ذلك من دواعي سروري".

"إذاً، أراكِ غداً، يا عزيزتي، في الحادية عشرة."

قبّل جان كلود يدها ثانيةً، ثم ودّع بيرنجيه قائلاً: "أَستاذن الآن. عليَّ إعداد بعض التحضيرات للغد."

ثمّ انصرف فيما مورين وسنكلير يودّعانه مبتسمين.

"أرى أنّكِ تركتِ انطباعاً جيّداً في نفس جان كلود. وهذا ليس مستغرباً، فأنت تبدين رائعة في هذا الثوب، كما توقّعتُ."

"شكراً لكَ على كل ما فعلتَه." وكانت مورين متأكّدة من أنّها احمرَّت خجلاً، فهي غير معتادة على أن تكون مَحَطّ أنظار الرجال. فأعادت الحوار حول جان كلود.

"يبدو رجلاً لطيفاً."

"إنّه عالِم لامِع وخبير متعمّق في تاريخ فرنسا وبلاد الأوك. لقد عمل سنوات في دار الكتب الوطنية، ممّا أتاح له فرصة الاطّلاع على أهمّ المراجع. لقد ساعدني أنا ورولان كثيراً."

تساءلت مورين مستغربةً: "رولان؟"، وقد فوجئت بأنّ سنكلير يتكلّم باحترام عن خادمه، وهذا ليس من عادة الأرستقراطيّين.

أجابها سنكلير: "رولان هو ابن لانغدوك البارّ. وهو كثير الاهتمام بتاريخ شعبه." ثمّ أخذ يد مورين وبدأ يقود خطواتها عبر الغرفة قائلاً: "تعالي، أريد أن أريك شيئاً."

قادها على درجات صاعدة وصولاً إلى غرفة جلوس صغيرة لها سطيحة خاصة. وكان هناك شرفة كبيرة تطلّ على الفناء الخارجي والحدائق الفسيحة الممتدّة وراءها. كان للحدائق بوّابات مزيّنة بزهرة اللوتس، وقد أُقفلت ووقف عدد من الحراس على جهتيها.

"لماذا كل هؤلاء الحرّاس عند البوابة؟"

"ذلك المكان هو مكان خاصّ جداً، أشبه بأرض مقدَّسة. وأنا أسمّي هذه الحدائق حدائق الثالوث الأقدس، ولا أسمح بدخولها إلّا لعدد قليل جدّاً من الزوّار. صدّقيني، كثير مِن ضيوفي الليلة يتلهّفون للدخول وراء تلك البوّابات."

ثم أشار سنكلير إلى الساهرين في الفناء تحتهما، واستطرد قائلاً: "حفل الأزياء الراقص هو تقليد. إنه مناسبة سنوية أضمُّ فيها هؤلاء الذين يجمع بينهم اهتمام مشترك. إنني أحترم بعضهم، لا بل أجلّهم، وأعتبر بعضهم أصدقاء لي، أما

الآخرون... فهم مجرّد تسلية. لكنّي أراقبهم جميعاً، ومنهم مَن أراقبه بدقّة.

"رأيتُ أنّك قد تتمتّعين برؤية هؤلاء الناس يفدون من كل أنحاء العالم للتحقّق من أسرار لانغدوك."

راقبَت مورين المشهد من الشرفة مُستمتعةً بنسمات مطلع الصيف العليلة، وكانت تحمل أريج حديقة الورد المجاورة. رأت تامي واقفة تتودّد إلى ديريك الذي استحوذَت عليه تلك الملكة الغجرية المثيرة. ورأتها من بعيد تنظر إلى شخص حسِبَته بيتر، لكنها استبعدَت ذلك لأنه كان يدخّن سيجارةً وبيتر قد أقلع عن التدخين منذ كان مراهقاً.

استدارت مورين فجأة نحو سنكلير وسألته: "كيف وجدتني؟"

رفع يدها اليمنى برقّة، وقال: "الخاتم".

"الخاتم؟"

"يظهر الخاتم في إصبعك في صورتك على غلاف الكتاب."

هزّت مورين رأسها إذ أدركت الرابط، وقالت: "أنت تعرف معنى هذا النقش؟"

"لديّ نظريّة حول هذا الشكل، وهو سبب مجيئنا إلى هذه الشرفة بالذات. تعالي!"

أمسك سنكلير يد مورين بلطف وقادها إلى الداخل حيث كانت قطعة فنيّة موضوعة بداخل صندوق زجاجيّ معلّق على الحائط. كانت قطعة صغيرة لا تتجاوز مقاس صورة 8×10، لكن طريقة وضعها والإضاءة المسلّطة عليها أظهرتا تفاصيلها.

راح سنكلير يشرح لمورين: "هذا رسم منقوش من القرون الوسطى ويمثّل الفلسفة والفنون العقلية السبعة."

"مِثل جدارية بوتيتشلي."

"تماماً. وهذا عائد إلى النظرية الكلاسيكية القائلة إن الإنسان إذا تملّك الفنون العقلية السبعة كلّها يُمكن أن ينال لقب فيلسوف. لذلك تُصوَّر الأنثى في الوسط هنا بصِفة الإلهة فيلوسوفيا والفنون العقلية عند قدميها تحت تصرُّفها. لكن هذا ما أعتقد أنك ستجدينه مثيراً."

بدأ يتتبَّع الفنون العقلية بأصابعه، من جهة اليسار، ويسمّيها. وتوقّف عند الفن السابع، أي الأخير.

"هذا هو علم الكون. هل ترين أي شيء يبدو مألوفاً؟"

شهقت مورين منفعلةً، وصاحت: "خاتمي!"

كانت الشخصية التي تمثّل علم الكون تحمل قرصاً منقوشاً عليه الرسم نفسه الذي على خاتم مورين. عدّت مورين النجوم ومدّت يدها نحو الرسم.

"إنّه مماثل تماماً، حتّى أدقّ التفاصيل مِثل مسافات الدوائر عن المركز." صمتت برهة وهي تحاول أن تستوعب كل ما تراه، ثم عادت إلى سنكلير تسأله:

"لكن، ما معنى كل هذا؟ وكيف ينطبق على مريم المجدلية؟ وعلَيَّ؟"

"هناك تطبيقات روحيّة وخيميائية. وبلُغة لغز المجدليّة، أعتقد أن هذا الرمز يَظهر مراراً كمفتاح للحل وللتذكير بوجوب التنبُّه إلى العلاقة الخطيرة بين الأرض والنجوم. كان القدماء يعرفون هذا الأمر، لكننا نسيناه في العصر الحديث. كما فوق كذلك تحت. والنجوم تذكّرنا كل ليلة أن أمامنا فرصة لخلق السماء على الأرض. وهذا برأيي، ما أرادا أن يعلّمانا إيّاه. وتلك هديّتهما الكبرى إلينا، لا بل رسالة الحبّ منهما."

"هما؟"

"يسوع المسيح ومريم المجدلية، جدّنا الأعلى وجدّتنا العليا."

وكأنّ ساعة توقيت كَوْنيّة كانت قد ضُبطت لإخراج كلامه في الوقت المناسب. فقد انطلقت الأسهم النارية بألوانها وأضوائها فوق الحديقة، وراح الساهرون ينظرون إليها مبتهجين. عاد سنكلير ومورين إلى الخارج لمشاهدة وابل الألوان حول القصر. وضع يده حول خصرها، فلم تمانع، بل أحسّت براحة غريبة وبدفء يده وقوّة قبضته.

أمّا في الأسفل، في الفناء، فلم يكن الأب بيتر هيلي يراقب الألعاب النارية في السماء. كان انتباه بيتر منصبّاً على بيرنجيه سنكلير الواقف على الشرفة ويده ثابتة حول خصر ابنة عمّته. وعلى عكس مورين، لم يكن بيتر مرتاحاً لا لسنكلير ولا لضيوفه ولا لما يخططون له جميعاً.

وكانت هناك عيون أخرى تراقب ما يجري بين مورين وسنكلير. إذ إن ديريك كان يراقبهما ناظراً إلى فوق من مكانه في الجهة المقابلة في الفناء. وقد لاحظ ديريك، وهو يمسح الشرفة بناظريه، أن زميله الفرنسيّ موجود في موقع جيّد في الدور الأعلى وعلى مسافة قريبة قد تمكّنه مِن استراق السمع إلى الحديث الجاري بين مضيفهما والمرأة المرتدية لباس مريم المجدلية.

تحسّس ديريك وينرايت جسمه بحذر ليتأكّد من أن الحبل الرسمي الأحمر لطائفته مُغطّى جيداً تحت ثنايا زيّ توماس جيفرسون الذي يرتديه، فهو سيحتاجه لاحقاً في تلك الليلة عندما يعود إلى كركاسون.

... قد أكون الإنسان الوحيد المُدافع عن الأميرة المدعوّة سالومة، لكنّ هذا واجب عليّ. وإنّي نادمة على تأخّري في الدفاع عنها لأنها لم تستحقّ مصيرها المشؤوم. كان الحديث عنها وعن أعمالها، في وقت مضى، يعني الموت، فلم أستطع أن أدافع عنها خشية المجازفةِ بسلامة أتباع عيسى ومسيرة الطريق. لكنّ سالومة، مِثل العديدين مِنّا، دانَها من لم يعرفوا الحقيقة ولا حتى أيّ أثر منها.

عليّ أن أقول أوّلاً إن سالومة أحبّتني وأحبّت عيسى أكثر منّي. ولو أُعطِيت هذه الفتاة فرصةً ووُجدت في مكانٍ وزمان مختلفين أو في ظروف أخرى لكانت أصبحت تلميذاً أميناً لعيسى ومن أصدق أتباع طريق النور. لذلك أضمُّها إلى كتاب رُسُله لأنّها كان يمكن أن تكون منهم. كان على سالومة أن تؤدّي دوراً مرسوماً لها، تماماً كما كان الحال مع يهوذا وبطرس وغيرهما، ولم يكن باستطاعتها الإفلات من ذلك الدور. لقد حُفِر اسمها في حجارة إسرائيل منقوشاً بدم يوحنا، وربّما بشيء من دم عيسى.

لو كانت قصّتها قصّة تصرّفات الطيش وتهوّر الشباب، قصّة فتاة يافعة لا تزن كلامها قبل أن تنطق به، لكانت فعلاً مُذنبة. لكنْ أن تظلّ تُذكر هكذا: إنسانة ملعونة ومحتقَرة كعاهرة أمرَت بقتل يوحنا المعمدان، فهذا برأيي موقف ظالم وغير عادل.

لعلّها ستَصفح عنّي في يوم الدينونة،

لعلّ يوحنا سيصفح عنّا جميعاً.

إنجيل الآرك لمريم المجدلية

كتاب الرسل

الفصل الحادي عشر

شاتو دي بوم بلو
24 حزيران (يونيو) 2005

أَوَتْ مورين إلى فراشها بعد انتهاء استعراض الألعاب الناريّة بوقت قصير. فقد ظهر بيتر وهي تنزل الدرج برفقة سنكلير وعرض مرافقتها حتى غرفتها، فرحّبت بذلك لأنها كانت بحاجة للراحة والاختلاء بنفسها بعد كلّ ما مرّت به في الأربع والعشرين ساعة السابقة.

استفاقت مورين خلال الليل لاحقاً على أصوات في الممّر. قدّرَت أن تامي كانت تتكلم همساً، وسمعت رجلاً يجيبها بصوت خفيض. ثمّ تأكّدت أنها تامي بالذات إذ سمعت ضحكتها العميقة التي لا يمكن أن تخطئها، وسُرّت لأن صديقتها كانت تستمتع بالحفلة.

ابتسمت وعادت إلى النوم وقد أيقنت أنّ صوت الرجل الهامس ودّاً ورِقّةً في أذن تامي لم يكن أميركيّاً.

كركاسون
25 حزيران (يونيو) 2005

تأوّه ديريك وينرايت عندما سطعت شمس الصباح على غرفته في الفندق. كان هناك شيئان يتمنّى تجنّبهما ذلك اليوم، وهما الصداع الذي خلّفه إسرافه في الشراب في الليلة السابقة والرسائل الثماني المسجلّة على هاتفه الخلويّ.

نهض متباطئاً ليقيس مدى حِدّة صداعه وتعَبه، وجَرّ رجليه إلى حيث كانت

حقيبة سفره، وهي من الجلد الإيطالي، وأخرج منها قارورة أدوية تحتوي على تشكيلة من الحبّات. فَتَّش فيها واختار ما يريد، فرمى في حلقه حبّة "فيكودين" أتبَعَها بثلاثة أقراص "تايلنول" ليضمن سرعة تحسّن حاله. وهكذا، بعد أن اتّخذ هذا الاحتياط اللازم، نظر إلى هاتفه الموضوع على المنضدة قرب السرير. وكان قد أقفله لمّا عاد إلى الفندق في آخِر الليل لأنه لم يُرِد سماع أيّ رنين ولا الإصغاء إلى الرسائل.

هكذا كان دَأْب ديريك دائماً، إذ قضى معظم حياته هارباً من المسؤولية. كان الابنَ المدلَّل في عائلة واسعة الثراء والنفوذ في ولايات الساحل الشرقي، وهو أصغر أولاد إيلاي وينرايت، أحَد أهمّ أصحاب العقارات والأراضي. وجد ديريك طريقه إلى جامعة يال العريقة بسهولة بفضل سمعة والده وأخيه الأكبر، ثمّ ضمنَ وظيفة مرموقة في شركة استثمار كبرى بالرغم من مستواه الأكاديمي المتواضع. لم يبقَ ديريك في وظيفته أكثر من سنة إذ وجدَ أنها تُعيق تمتّعه بحياة اللهو والسَهر. وهو لم يكن بحاجة للعمل، فأموال عائلته تكفيه طيلة حياته، وكذلك حياة أولاده وأحفاده إذا ما قرَّر الاستقرار والزواج.

كان إيلاي وينرايت، على غير عادته، متسامحاً مع ابنه الأصغر مع كل نقائصه. فديريك لم يكن مُجِدّاً في دراسته كإخوته، لكنه كان شديد الاهتمام بعنصر أساسيّ في حياة العائلة ونجاحها، ألا وهو عضويّتها في طائفة الصالحين. عُمِّد ديريك أوّلاً حين كان طفلاً، ثمّ ثانيةً في الخامسة عشرة بحسب تقاليد الطائفة، وكان ذا ميل طبيعي إلى تلك الجمعية وتعاليمها. اختار الوالد ديريك ليكون مِثْله من كبار الأعضاء الأميركيين في منظَمة تلك الطائفة المنتشرة في كل أنحاء العالم الغربي، لا بل في آسيا والشرق الأوسط كذلك. وكانت طائفة الصالحين تضمّ في عضويّتها بعض كبار أصحاب النفوذ في عالم الأعمال والسياسة الدولية.

كانت العضويّة محصورة فقط في أبناء عائلات الطائفة، وكان على الرجال المُعمَّدين اختيار زوجاتهم من بين "بنات الحَقّ"، أي بنات أعضاء الطائفة اللواتي يربّين تربية خاصّة صارمة. كانت البنات يُدرَّبْن على أصول التصرّفات السليمة للزوجة والأم بناءً على دروس مستندة إلى مخطوط قديم يتوارثونه منذ مئات السنين يُدعى "كتاب الكأس المقدّسة الأساسي." لذلك فإن بعض أكبر الحفلات الراقصة الأولى للفتيات، في كل ولايات الساحل الشرقي نزولاً إلى الجنوب ووصولاً

إلى تكساس، كانت في الحقيقة حفلات للتعريف ببنات الحقّ والإعلان رسمياً عن استعدادهنّ لدخول العالم كزوجات مطيعات ومُناسِبات لأعضاء الطائفة.

كان أولاد إيلاي وينرايت الأكبر سنّاً متزوجين مِن بنات الحقّ، وكانوا جميعهم مستقرّين في حياتهم الاجتماعية الأرستقراطية. لذلك أخذت الضغوط على ابن وينرايت الأصغر تتزايد ليستقرّ كأشقّائه لأنّه أصبح في الثلاثينيات من عمره. لكنّ ديريك لم يكن راغباً في ذلك، مع أنّه لم يجسر على مصارحة والده بموقفه هذا. كان يسأم من شدّة طهارة فتيات الطائفة وسذاجتهنّ، ويشمئزّ من فكرة معاشرة إحدى أولئك الأميرات المثاليّات الباردات كل ليلة. كان باستطاعته طبعاً أن يفعل كإخوته وسائر أعضاء الطائفة، أي الزواج من الفتاة المناسبة والمقبولة لتكون أمّاً لأولاده مع إقامة علاقة مع امرأة متحرّرة لإشباع رغباته. لكنْ لِمَ يلجأ إلى ذلك الآن وهو لا يزال شاباً وثرياً جدّاً ومسؤولياته محدودة. وطالما وُجدت نساء جِسيّات ومثيرات مثل تمارة وزدوم فهو لن يكبّل نفسه بامرأة مُمِلّة مثل والدته لتكون أمّاً لأولاده. ولو ظلّ والده مقتنعاً أنه مهتمّ فقط بأمور الطائفة، فإنّه قد يتمكّن من التهرّب من مسؤولياته الأخرى بضع سنوات.

لكن ما لم تلاحظه عينا إيلاي وينرايت، الوالد الذي لا يريد أن يرى عيوب ابنه، هو أنّ ديريك لم يكن منجذباً إلى فلسفة الطائفة بقدر ميله إلى غموض تلك الجمعية المحظورة وطقوسها والشعور بالانتماء إلى النخبة التي تعرف الأسرار المتحدّرة منذ قرون والمصونة بالدماء. ولعلّ الجانب الحقيقيّ هو المعرفة بأن أي تصرّف مشين يرتكبه أي عضو يمكن لفلفته وإخفاؤه بسرعة بفضل شبكة نفوذ الطائفة عالميّاً. وكان ديريك مرتاحاً لهذا الوضع وللطريقة التي يُعامَل بها أينما ذهب بسبب غِنى والده ونفوذه، أو على الأقلّ تمتّعه بذلك سابقاً قبل أن يتوفّى معلّم الحق السابق، في ظروف غامضة نوعاً ما ويحلّ محلّه الرجل الإنكليزيّ المتعصّب الذي حكم الطائفة بقبضة حديديّة.

لقد غيّر قائدهم الجديد كل شيء. كان يتباهى بصفاته الموروثة عن أوليفر كروموِيل التي اكتشفها في سلفه عند دراسته أساليبه القاسية المخيفة في التعامل مع معارضيه. ولمّا تسلّم جون ساموِيل كروموِيل مقاليد منصبه كمعلّم الحق، قام بأوّل أعماله المثيرة. صحيح أن الرجل المقتول كان عدوّاً للطائفة وزعيماً لمنظّمة مناهضة لها منذ مئات السنين، لكنّ الرسالة كانت واضحة: سوف أقضي على كل مَن يتحدّاني، وسيكون ذلك بأبشع طريقة ممكنة. وهكذا كان قطع رأس الرجل

بالسيف وبَتْر سبّابته اليمنى عنواناً صارخاً معبّراً عن أسلوب رئيسهم الجديد وتطرّفه وتعصّبه.

حاول ديريك أن يُخرِج تلك الصورة بالذات من ذهنه المضطرب وهو يأخذ هاتفه الخلوي ويشغّله ليسمع الرسائل الصوتية المسجّلة فيه. فقد آن الأوان لمواجهة القضيّة بجرأة. كان أمامه عمل عليه إنجازه، وهو مصمّم على ذلك. لقد عقد العزم على أن يلقّن ذلك الوغد البريطانيّ درساً، وضاق ذرعاً بسخريته منه هو والرجل الفرنسي. فقد كانا يعاملانه كأنه أحمق، وهذا ما لم يَسمح به لأحد سابقاً.

ولمّا بدأ ديريك سماع الرسائل راح يشحن نفسه ضدّ لكنة أكسفورد الإنكليزية، وكانت وتيرة النغمة تزداد مع كل رسالة جديدة. ولمّا انتهت آخر كلمات الرسالة الثامنة، أدرك ديريك ما ينبغي فِعْله.

شاتو دي بوم بلو
25 حزيران (يونيو) 2005

سرَّحَت تمارة وزدوم شعرها الأسود اللامع بالفرشاة أمام المرآة الكبيرة ذات الإطار المذهّب. كانت شمس الصباح النابضة بالحياة قد أنارت غرفتها التي لم تكن تقلّ فخامةً، بكلّ تفاصيلها، عن غرفة مورين. كان على كل الطاولات مزهريّات من الكريستال مليئة بالورد من مختلف درجات الأصفر والأرجواني الشاحب. وكانت ستائر المخمل الأرجواني المطرَّز تلف سريرها الضخم الذي نادراً ما كانت تأوي إليه وحيدةً.

ابتسمت قليلاً واستعادت في ذاكرتها لحظات دافئة من الليلة السابقة، فحرارة جسده تركت أثرها على جلدها حتى بعد مغادرته غرفتها قبيل الفجر. ونظراً لأن تمارة عاشت حياة متهوّرة وأقدمت على تجارب واختبارات كثيرة، فإنها عرفت علاقات غرامية عديدة، لكنّها كلّها لم تَرْقَ إلى درجة هذه الأخيرة. لقد فهمت أخيراً ما عناه الخيميائيّون في حديثهم عن العمل العظيم، أي الاتحاد المتكامل بين رجل وامرأة في اتّصال الجسد والعقل والروح.

تلاشت ابتسامتها إذ عادت إلى عالم الواقع وفكّرت في ما عليها القيام به في ذلك اليوم.

كان الأمر في البداية ممتعاً مثل مباراة شطرنج كبرى تقام بين قارّتين. لقد ازداد اهتمامها بمورين بشكل سريع، والواقع أنّهم جميعاً اهتمّوا بمورين. كما اهتمّوا بابن خالها الكاهن الذي تبيّن في النهاية أنه لم يكن فضولياً متطفّلاً كما كانوا يخشون. كان باطنيّاً على طريقته الخاصة وبعيداً كل البعد عن الجدل العقيم كما ظنّوا.

وكانت هناك أمامها مسألة التفكير في مدى تورّطها. فدورها الشبيه بدور الجاسوسة الفاتنة ماتا هاري كان مسليّاً في أوّل الأمر، لكنّه غدا بغيضاً. وكان عليها، في ذلك اليوم، موازنة جوانب الموضوع بدقّة من أجل الحصول على المعلومات الضروريّة مع عدم خسارة نفسها في الصفقة. ووضعت، نُصبَ عينيها، عدة أهداف لتحقّقها لنفسها وللجمعيّة ولرولان. ثمّ راحت تخاطب نفسها لتقوّي عزيمتها: "فكّري بالأمر بمجمله يا تامي، إذا نجحتِ ستجنين الكثير، أما إذا فشلتِ فستكون الخسارة كبيرة، وكبيرة جداً."

لقد تبدّلت اللعبة وأصبحَت أخطر ممّا توقّع أيّ منهم بدرجات.

وضعت تامي فرشاة الشعر من يدها ورشّت عطراً نكيّاً برائحة الأزهار على باطن معصميها وعنقها، تحضيراً لما سيأتي. ولمّا استدارت لتخرج من الغرفة تأمّلت اللوحة الرائعة التي تزيّن حائط غرفتها، وهي من أعمال الرسام الفرنسيّ الرمزيّ غوستاف مورو وتصوّر الأميرة سالومة ملتفّة بوشائحها السبعة وهي تحمل رأس يوحنا المعمدان على طبق.

نظرَت إليها تامي وقالت: "هذه فتاتي!"، ثم انصرفت ذاهبة إلى أحدث وأخطر لقاء سرّيّ لها.

كانت مورين تتناول الفطور وحدها في غرفة الطعام الصباحية. مَرَّ رولان في الرواق فرآها ودخل.

"صباح الخير، يا آنسة باسكال. أنت وحدك؟"

"صباح الخير، رولان. أنا وحدي لأن بيتر لا يزال نائماً ولم أشأ إيقاظه."

أومأ رولان برأسه، وقال: "لقد تركَت لك صديقتك الآنسة وزدوم خبراً. هي تقيم الآن في القصر وتودّ أن تنضمّ إليك في العشاء هنا الليلة."

كانت مورين متشوّقة لتتحدّث إلى تامي عن الحفلة، فقالت: "عظيم. يسرّني ذلك. أين هي الآن؟"

هزّ رولان كتفيه وقال: "لقد غادرت هذا الصباح باكراً إلى كركاسون. لديها عمل يتعلّق بالفيلم الذي تُعدّه، وطلبت منّي أن أخبرك عن العشاء فحسْب. والآن، يا آنستي، سأبحث عن الموسيو بيرنجيه لأنه لن يُسَرّ إذا تناولتِ الطعام وحدك."

قطع سنكلير على مورين أفكارها عند دخوله الغرفة بعد خروج رولان بقليل.

"هل نمتِ جيداً؟"

"طبعاً، لأن النوم مريح على ذلك السرير. إنه أشبه بالنوم فوق الغيوم." وكانت مورين قد لاحظت، في الليلة الأولى، وجود فراش عالٍ من الريش تحت ملاءات القطن المصري الفاخرة.

"حسناً. ماذا ستفعلين هذا الصباح؟"

"لا شيء قبل الحادية عشرة. سوف ألتقي بجان كلود اليوم. أتذكُر؟"

"طبعاً. سيأخذك إلى مونسيغور. مكان رائع! وكم أتمنى لو كنتُ أنا دليلك في زيارتك الأولى إلى هناك."

"هل تنضمّ إلينا؟"

ضحك سنكلير، وقال: "يا عزيزتي، أعتقد أنّ جان كلود سيشنقني أو يُغرقني أو يقطعني إرباً إذا رافقتكما اليوم. أنتِ نجمة المنطقة الآن بعد نجاحك في ظهورك الأول الليلةَ السابقة، والجميع يريدون أن يعرفوا أي شيء عنك. سوف ترفعين أسهم جان كلود مئة نقطة عندما يُرى برفقتك.

"لكني لن أحسده على هذا الأمر. على كل حال، هناك ما أريدك أن تريه بعد انتهائك من الفطور، وأنا متأكّد أنك لن تنسيه بتاتاً."

وقفا على الشرفة نفسها حيث شاهدا الألعاب النارية في الليلة السابقة. وبدت حدائق القصر الرائعة تمتد تحت بصرهما.

قال سنكلير متباهياً: "تبدو الحدائق أوضح وأروع خلال النهار". وأخبرَها أنّ هناك ثلاثة أقسام منفصلة، وأضاف: "أترين كيف تؤلّف الحدائق شكل زهرة الزنبق؟"

أجابت مورين: "إنّها رائعة جداً"، وكانت بالفعل تعني ما تقول لأن الحدائق كانت مذهلة بجمالها المَهيب كما تبدو من فوق.

"إنّها تروي قصّة أجدادنا بشكل رائع يفوق قدرتي على الوصف. ويشرّفني أن أصحبك في زيارتها. هيّا بنا".

أخذت مورين يده وهو يقود خطواتها نزولاً على الدرج وعَبْرَ الردهة. ولاحظت أنّ القصر كان نظيفاً مع أن مئات الساهرين داسوا في أرجائه قبل ساعات، فلا بُدّ أنّ الخدم قد عملوا طوال الليل لتنظيف مخلّفات الحفل، إذ لم يبدُ على القصر إلّا النظام والترتيب.

مرّا عبر الأبواب الضخمة ذات الطراز الفرنسيّ، وسلكا الممرّ المرصوف نحو البوّابات الذهبيّة المنمّقة. أخرج سنكلير مفتاحاً من جيبه وأدخله في القفل الحديديّ المتين. ثم أرخى السلسلة ورفع قضبان البوابة المموّهة بالذهب، ممّا سمح لهما بدخول حرَمه المقدّس.

كان في وسط مدخل الحديقة نافورة رخامية زهريّة اللون، يخرخر ماؤها وتلمع تحت أشعة الشمس الضاربة على قطرات الماء وهي تقع على كتفي تمثال بالحجم الطبيعي لمريم المجدلية. والتمثال منحوت من رخام عاجيّ اللون. وكانت تحمل في يدها اليسرى وردة، وعلى يدها اليمنى الممدودة جثمت حمامة. أمّا أرض بركة النافورة فقد نُقشت فيها أشكال زهرة اللوتس التي لا يخلو منها أي مكان في القصر.

"لقد قابلتِ عدداً كبيراً من الأشخاص ليلةَ أمس، وكلّهم لديهم نظريّات حول المنطقة والكنز الغامض. ولا شك في أن الآراء العديدة التي سمعتِها تتراوح بين المعقول والسخيف".

ضحكت مورين وعلّقت: "مُعظمها سخيف جدّاً!"

ابتسم لها سنكلير، وقال: "كلّهم لديهم نظريّاتهم، وكلّهم يؤمنون، أو بالأحرى يعرفون، أنّ مريم المجدليّة هي ملكتنا هنا في جنوب فرنسا. وهذا هو، في الواقع، الشيء الوحيد الذي يتوافَق عليه جميع مَن كانوا في القاعة الليلةَ السابقة."

كانت مورين تصغي إلى سنكلير باهتمام، وتأثرت به وهو يتكلّم متحمّساً مندفعاً.

"وجميعُهم يعلمون أنّ السلالة موجودة، وهي سلسلة نسب ملكيّة تفرّعت من مريم المجدليّة وأولادها. لكنّ قلّة منهم يعرفون كل الحقيقة. ولا يعلم كامل القصّة إلّا أتباع الطريق الحقيقيّون، الطريق كما علّمتنا إيّاها سيّدتنا المجدلية، الطريق كما علّمنا إيّاها يسوع المسيح نفسه."

قاطعته مورين متردّدة نوعاً ما: "أتسمح لي بسؤالك ما إذا كان هذا هو هدف جمعيّتك، جمعيّة التفاح الأزرق؟"

"جمعيّة التفّاح الأزرق قديمة وموضوعها متشعّب. سوف أخبرك عنها بالتفصيل لاحقاً، لكنّي أكتفي الآن بالقول إن الجمعية موجودة للدفاع عن الحقيقة وحمايتها والمحافظة عليها.

"والحقيقة هي أنّ مريم المجدلية كانت أمّاً لثلاثة أبناء."

هتفت مورين مندهشةً: "ثلاثة؟"

أومأ سنكلير برأسه واستطرد قائلاً: "لا يعرف القصّة كاملةً إلّا نفر قليل من الناس، لأنّ التفاصيل قد حُجبت عمداً لحماية المتحدّرين من السلالة. كانوا ثلاثة أولاد أي ثالوثاً. وقد أسس كل منهم فرعاً من السلالة الملكيّة التي ستغيّر وجه أوروبا، وفي نهاية المطاف ستغيّر العالم. وتمثّل الحدائق الثلاث هنا هذه الفروع. لقد أقام جدّي هذه الحدائق، وعملتُ أنا على توسيعها، وأخذت على نفسي عهداً بالمحافظة عليها."

كانت تتفرّع من الحديقة الرئيسيّة ثلاثة ممّرات مُقنطَرة منفصلة.

"هيّا. سنبدأ بسلفنا الأعلى أنا وأنتِ"

وقاد مورين المنذهلة عبر البوّابة الوسطى، وسألها: "ما بك؟ هل فوجئتِ بأننا قريبان؟ إنّها قرابة بعيدة طبعاً، لكنّنا نتحّدر من سلالة أساسيّة واحدة."

"إني أحاول أن أستوعب الأمر. قد تكون هذه معلومات عاديّة بالنسبة لك، أمّا أنا فأجدها خطيرة. ولست أدري موقف الآخرين من هذا الأمر؟"

دخلا حديقة ورد غنّاء. وكانت هناك أيضاً أزهار من الزنبق متعدّدة الأنواع مزروعة في دائرة حول تمثال آخر. وقد شكّل هذا المزيج من الورد والزنبق الشذى الطيّب نفسه الذي تنشّقته مورين في الليلة السابقة.

هدلَت حمامة بيضاء ورفرفت فوق الورود اليانعة الملتفّة، فيما كان سنكلير وموربن يمشيان معاً صامتين. توقّفت مورين لتشمّ عميقاً وردة حمراء متفتّحة.

"الورد. إنّه رمز كل إناث السلالة. أمّا الزنبق فهو رمز مُخصّص لمريم المجدلية. فالوردة يمكن أن ترمز إلى أي امرأة من السلالة، لكنْ وفقاً لتقاليدنا لا يُسمح باستخدام زهرة الزنبق إلّا لها."

ثم أخذ مورين إلى حيث التمثال الرئيسي، وهو يمثّل امرأة شابة ممشوقة القوام وذات شعر مسترسل.

وجدت مورين صعوبة في إخراج صوتها، فجاء سؤالها أشبه بالهمس: "هل هذه هي الابنة؟"

"اسمحي لي أن أعرّفك بسارة ـ تامار، الابنة الوحيدة ليسوع المسيح ومريم المجدلية. وهي أساس العائلات الملكيّة الفرنسية، وجدّتُنا العليا المشتركة منذ ألف وتسعمئة سنة."

حدّقت مورين إلى التمثال، ثمّ التفتت إلى سنكلير قائلة: "الأمر برمّته لا يُصدَّق، لكنّي لا أجد صعوبة في تقبّله. إنه غريب جداً، ومع ذلك يبدو... صحيحاً."

"ذاك لأن روحك تعرف الحقيقة."

سُمع صوت حمامة تسجع بين شجيرات الورد وكأنّها توافق على ما قاله.

"هل تسمعين صوت الحمائم؟ إنها رمز سارة ـ تامار وعنوان قلبها الطاهر. وأصبحت فيما بعد رمزاً للمتحدّرين منها، أي الكتار."

"وهل هذا هو سبب إبادة الكنيسة للكتار كأنهم هراطقة؟"

"إلى حدّ ما، نعم. لأنّه كان باستطاعتهم أن يبرهنوا أنّهم يتحدّرون من يسوع ومريم، استناداً إلى أشياء ووثائق معيّنة في حوزتهم. وهذا ما جعل مجرّد وجودهم، رجالاً ونساءً وأطفالاً، تهديداً لروما. لذلك حاولت الكنيسة إفناءَهم جميعاً لطيّ هذا السرّ. لكنْ هناك أسباب أخرى، تعالي!"

تقدّم سنكلير مورين، ومشيا نصف دائرة بين الورود مما أتاح لهما التمتّع عن قُرب بروعة الحديقة تحت أشعة الشمس الصيفيّة في صباح لانغدوك الذهبيّ. أمسك يدها، فطاوعته، واستغربت إحساسها بالراحة مع ذلك الرجل الغريب. تبعَتْه وهو يقودها برفق عائدينِ إلى خارج البوابة ثم دارا حول نافورة تمثال المجدليّة.

"حان الآن وقت لقاء الأخ الأصغر". لاحظت مورين أن اندفاعه أخذ يشتدّ ثانيةً، وتساءلت ما هي حقيقة إحساس المرء عندما يحفظ سرّاً بهذه الأهميّة. ثم أدركَت مذعورةً أنها ستختبر ذلك بنفسها قريباً.

مرّا تحت القنطرة التي في أقصى اليمين، ودخلا حديقة أخرى تختلف عن السابقة في أنّها مقلّمة ومشذّبة بدقّة وإحكام. ووصفتها مورين بقولها: "تبدو إنكليزيّة الطابع!"

"أجل، يا عزيزتي، صدقتِ، وسأخبركِ السبب."

كانت النقطة المركزية في النافورة الرئيسيّة الكبيرة في هذا القسم تمثالاً لشاب طويل الشعر يحمل كأساً إلى العلاء، يتدفّق منها ماء صافٍ كالبلّور.

"هذا يشوع ـ داود، الابن الأصغر ليسوع ومريم. وهو لم يعرف أباه لأنّ المجدلية كانت حُبلى به عند صَلْب المسيح. وقد وُلد في الإسكندرية بمصر حيث لجأت أمّه وحاشيتها قبل الإبحار إلى فرنسا."

تسمَّرَت مورين في مكانها، ووضعت يدها على بطنها، لا شُعوريّاً.

"ما الأمر؟"

"كانت حاملاً. لقد رأيتُ ذلك! كانت حُبلى في طريق الآلام... وعند الصَّلْب."

بدأ سنكلير يهزّ رأسه إقراراً بهذا الواقع، ثمّ توقّف فجأة. وجاء دور مورين بالسؤال:

"ما الأمر؟"

"هل قلتِ الصَّلْب؟ هل شاهدتِ رؤيا عن الصَّلْب؟"

كانت مورين قد بدأت تشعر كأنّ في حلقها كتلة وكأنّ الدموع تحرق داخل عينيها. خشيَت أن تتكلّم لحظةً لِئلّا يخونها صوتها، فلاحظ سنكلير ذلك وخاطبها برِقّة فائقة.

"حبيبتي مورين، ثقي بي. أرجوكِ أخبريني: هل شاهدتِ رؤيا عن المجدلية عند الصلب؟"

كَرَّت دموع مورين، ولم تشعر بحاجة لِكَبْتها. فبكاؤها كان مُتنفَّساً لها، لا بل مبعث اطمئنان لوجود شخص يفهمها. فأجابت هامسةً: "نعمْ، وقد حدث ذلك في كاتدرائية نوتردام."

مدّ سنكلير يده ومسح دمعة عن خدّها، وقال: "هل تعلمين، يا عزيزتي، أهميّة هذا الأمر؟"

هزّت مورين رأسها، وأكمل سنكلير كلامه برقّة: "في كلّ تاريخ المنطقة، رأى المِئات من أبناء السلالة أحلاماً ورؤى عن سيّدتنا، وأنا منهم. لكن الرؤى كلها تقف قبلَ يوم الجمعة العظيمة. وبحسب علمي، لم يسبق لأيّ إنسان آخر أن رأى رؤيا كاملة عنها عند الصلب."

"وما سبب أهمية ذلك؟"

"النبوءة."

انتظرت مورين التفسير الذي كانت تعلم أنّه آتٍ.

"هناك نبوءة تتناقلها الأجيال منذ وقت بعيد جداً. وتذكر الروايات أن تلك النبوءة كانت جزءاً من كتاب نبوءات ورؤى مدوّن باليونانيّة، وكان موجوداً في الماضي. ويُنسب الكتاب إلى سارة ـ تامار، لذلك كان يمكن أن يكون إنجيلاً بحدّ ذاته. ونعلم أن أميرة عظيمة الشأن من السلالة، هي الأميرة ماتيلدا التوسكانية، دوقة اللورين، كانت تملك الكتاب الأصليّ عندما بنت دير أورفال في القرن الحادي عشر".

"وأين تقع أورفال؟"

"على الحدود البلجيكيّة اليوم. هناك عدّة مواقع دينيّة هامة في بلجيكا لها علاقة بقصّتنا، إنّما أورفال هي حيث حُفظت نبوءات سارة ـ تامار عدّة سنوات. ونعلم أن كتابها الأصليّ كان، فيما بعد، بحوزة كتار لانغدوك مدّة من الزمن. لكنّه للأسف اختفى، ولا يُعرف شيء عن مصيره. ومعلوماتنا الوحيدة عن محتوياته أتت من نوستراداموس."

راح رأس مورين يدور وهي تصيح: "نوستراداموس؟"، وخالت أنّها لن تجد نهاية لهذه المفاجآت التي تبرز كلّما ظهر خيط جديد في القصّة أو رابط بين خيوطها.

تقلّبَت عينا سنكلير وهو يجيبها: "أجلْ، أجلْ. والفضل في ذلك يعود إلى بصيرته وحدّة إدراكه. لكنّها ليست نبوءاته، بل نبوءات سارة ـ تامار. والظاهر أنّ نوستراداموس وقعَ، عندما زار أورفال، على نسخة منقولة عن الكتاب الأصلي بخطّ اليد. ويمكنك أن تتخيّلي مصيرها."

ضحكت مورين وقالت: "لا عجبَ إذاً كيف تذكره تامي باستخفاف. لقد انتحل نوستراداموس الكتاب!"

"وبشكل نكيّ جداً. لكن علينا أن نقرّ بأنّه أوجد الرباعيّات، فهي من اختراعه. لكنّه أعاد صياغة نبوءات سارة ـ تامار في قالب أخفى مصدرها الأصليّ وأثّر في أبناء عصره. لقد كان ميشال العجوز نكياً حقّاً ومكّنته معرفته الواسعة في الخيمياء مِن فَكّ رموز تلك الوثيقة المعقّدة.

"لكنْ بقي لدينا القليل من وثيقة سارة ـ تامار خارج أعمال نوستراداموس وكذلك النبوءة الوحيدة الراسخة في نفوس بعضنا هنا."

"وماذا تقول تلك النبوءة؟"

نظر سنكلير إلى الماء المتدفّق من الكأس، ثم أغمض عينيه وتلا مقطعاً من النبوءة:

"ماري دو نيغر سوف تقرّر متى يحين وقت المُنتظر. هي التي تولد مِن حَمَل باسكال عندما يتساوى الليل والنهار، وهي ابنة القيامة. تلك التي تحمل الكأس المقدّسة سوف تُمنَح المفتاح لدى رؤية يوم الجمجمة الأسود. سوف تصبح الراعية الجديدة للطريق."

أُصيبت مورين بالخدَر، وأخذ سنكلير يدها ثانيةً. "يوم الجمجمة الأسود. كلمة الجلجلة، الهضبة التي صُلب عليها يسوع، تعني: مكان الجمجمة. واليوم الأسود هو ما نسمّيه اليوم الجمعة العظيمة. فالنبوءة تشير إلى أنّ ابنة السلالة التي ترى رؤيا الصلب سوف يكون لديها بالتالي المفتاح."

كانت مورين لا تزال مرتبكة ومشوَّشة، والأفكار تتخبّط في رأسها، فسألته: "أيّ مفتاح؟"

"المفتاح لكشف سرّ مريم المجدليّة. إنجيلها، روايتها بلسانها لوقائع حياتها وعصرها. وقد خبّأته مستعينةً بنوع مِن الخيمياء، كما هو معروف. ولا يمكن اكتشافه إلّا حين تُستوفى بعض المعايير الروحية."

أومأ إلى تمثال الشاب في النافورة وخصوصاً إلى الكأس التي يحملها. "وهذا ما يبحث عنه الكثيرون منذ زمن بعيد."

كانت مورين تحاول أن تفكّر وتنظّم سيل الأفكار المتدفّق إلى ذهنها. الكأسُ! وجَدَتْها: "الكأس التي يحملها، هل هي الكأس المقدّسة؟"

"أجل، إنّها الكأس المقدّسة. والكلمة القديمة لها تعني دم الله، وهي دلالة السلالة المقدّسة بالطبع. لكنّهم لم يكونوا يفتّشون عن عامّة أبناء السلالة فحسب. فمعظم فرسان الكأس المقدّسة كانوا من السلالة نفسها، وكانوا جميعاً مدركين لمعنى ذلك التراث، وبحثُهم إنّما كان مُنصبّاً على إيجاد سليل مُحدَّد: أميرة الكأس المقدّسة المعروفة أيضاً باسم "المنتظر". وهي الابنة التي تحمل المفتاح الذي يريدونه كلّهم."

"مهلاً، مهلاً. أتعني أن كل عمليات البحث عن الكأس المقدّسة لم تكن إلّا بحثاً عن المرأة في النبوءة التي أخبَرتَني عنها؟"

"هذا صحيح جزئيّاً. فهذا الابن الأصغر، يشوع ـ داود، ذهب إلى غلاستونبري في إنكلترا مع شقيق جدّه الأكبر وهو الرجل المعروف تاريخيّاً بيوسف الرامي، وأسسا معاً أوّل مستوطنة مسيحيّة في بريطانيا. وقد نبعت أساطير وحكايات الكأس المقدّسة من هناك."

أشار سنكلير إلى تمثال آخر داخل الحديقة نفسها، على مسافة منهما، بدا كأنه تمثال ملك يحمل سيفاً كبيراً.

"هل تعلمين لماذا عُرف الملك آرثر باسم الملك السابق واللاحق؟ بسبب تحدّره من سلالة يشوع ـ داود. وهناك نبلاء بريطانيون من نسله حتى يومنا هذا، ومعظمهم في إسكتلندة."

"وأنتَ منهم؟"

"أجلْ، من ناحية أمي. كما إني أتحدّر أيضاً من فرع سارة ـ تامار من ناحية أبي، مثلك أنت."

قاطعَه صوت رنين متقطّع، فلعنَ الهاتف الخلويّ وتناولَه وتكلّم به بالفرنسية بسرعة، ثم أقفله.

"كان هذا رولان، وقد أخبرني أنّ جان كلود وصل ليأخذك منّي."

لم تستطع مورين أن تخفي خيبة أملها، فهي لم تكن مستعدّةً للذهاب بعد. "لكنّي لم أرَ الحديقة الثالثة!"

بدأ وجه سنكلير يكفهرّ، ومع أن ذلك لم يبدُ جليّاً عليه، إلّا أنّه كان مغتاظاً.

قال: "لعلّ ذلك أفضل، على كل حال،" وهَزَّ رأسه وتابع: "إنّه يوم جميل جدّاً، والثالثة هي حديقة ابن مريم المجدلية الأكبر."

وكأنّه أراد أن يجيب عن السؤال في خاطر مورين بالطريقة الغامضة المُلغزة التي يبرع فيها أبناء المنطقة:

"ومع أنّ هذه الحديقة جميلة بِحَدّ ذاتها، فهي مليئة بالظلال التي لا تناسب يوماً كهذا".

❀

وأثناء عودة مورين وسنكلير من الحدائق، توقّف سنكلير أمام البوّابات المذهّبَة.

"هل تذكرين أنّك سألتني يوم وصولك عن سبب تعلُّقي بزهرة الزنبق؟ إليكِ السبب: تعلمين أنّ الزنبق هو رمز مريم المجدلية، وزهرة الزنبق تمثّل ذرّيّتها، وهُم ثلاثة، تماماً كبَتَلات الزهرة الثلاث."

وأظهر لها ذلك بتمرير يده على فروع الزهرة الثلاثة.

"الفرع الأوّل، ابنها الأكبر يوحنا ـ يوسف، وهو ذو شخصيّة مُعقَّدة، وسأخبرك عنه في الوقت المناسب. لكنْ أكتفي الآن بالقول إن ورثته ازدهروا في إيطاليا. وتمثّل الورقة الوسطى، الابنة سارة ـ تامار، والثالثة الابن الأصغر يشوع ـ داود.

هذا هو سِرّ زهرة الزنبق المصون، وهو سبب تمثيلها نبلاء إيطاليا وفرنسا وسبب وجودها على دروع شعارات النبالة البريطانية. وأوّل مَن استخدمها كان نسل مريم المجدلية من أولادها الثلاثة. وقد كانت فيما مضى رمزاً سِريّاً محميّاً حتّى يتمكّن المطّلعون على هذه الحقائق فقط من التعرّف بعضهم على البعض خلال أسفارهم في أنحاء أوروبا."

تعجّبت مورين لذلك، وقالت: "لكنّها أصبَحت الآن من الرموز الشائعة جدّاً إذْ تجدها على الجواهر والثياب والمفروشات وغير ذلك. فهي مختبئة أمام أعين الناس وهم ليس لديهم أدنى فكرة عمّا ترمز إليه."

منطقة لانغدوك

25 حزيران (يونيو) 2005

كانت مورين جالسة في المقعد الأمامي بجانب السائق في سيارة جان كلود

المكشوفة من طراز رينو، وهما ينتظران أن تُفتح بوّابة القصر الإلكترونيّة المؤدية إلى الطريق العام، عندما رأت، بطرف عينها، رجلاً يتحرّك بشكل مُريب، بمحاذاة السياج الخارجيّ.

لاحظ جان كلود تعابير وجهها، فسألها: "ما بك؟"

"هناك رجل قرب السياج. لقد اختفى الآن لكنّه كان هناك قبل لحظات."

هزّ جان كلود كتفيه مظهراً لامبالاته الفرنسيّة التقليديّة، وقال: "قد يكون البستانيّ، أو أحد رجال أمن بيرنجيه. من يدري؟ فالعاملون عنده كثيرون."

تساءلَت مورين: "هل هناك حرّاس أمن في الخدمة دائماً؟" فهي مهتمّة بمعرفة كل شيء عن القصر وما يتعلّق به وبصاحبه.

"أجلْ. لكنّكِ نادراً ما ترينهم لأن ذلك من أساسيّات عملهم. وقد يكون ذاك واحداً منهم."

ولم تُتَح لمورين فرصة إطالة التفكير في الأساليب العملية لإدارة القصر، إذ راح جان كلود يتحدّث عن عائلة باسكال وما يعرفه عنها.

علّقت مورين على حديثه عند روايته بعض العناصر التاريخية ذات الصلة بالموضوع، بقولها: "إنّك تتحدّث الإنكليزيّة بطلاقة!"

"شكراً. لقد أمضيتُ سنتين أَصقُلها في أكسفورد."

أثار حديث ذلك المؤرخ الفرنسيّ الرصين مورين وأخذت تعلّق على كلماته وهو يقود السيارة بين التلال الواقعة عند سفوح تلك الجبال الحمراء المثيرة. كانت وجهتهما مونسيغور، الرمز المأساوي العظيم لآخِر مواقع مقاومة الكَتار.

هناك أماكن على وجه الأرض تختلج في جنباتها هالة الغموض والمأساة. وهذه الأماكن النادرة المصبوغة بأنهار الدم والملتفّة بعباءة التاريخ الطويلة تسكن روح زائرها سنوات وسنوات بعد مغادرتها إلى ملاذه الآمن في عالمه المعاصر. لقد زارت مورين مواقع عديدة كهذه خلال أسفارها، فأثناء إقامتها في إيرلندا، اختبرَت مثل هذه المشاعر في مدن تاريخيّة مثل دروغيدا حيث ذَبحَ أوليفر كرومويل قديماً سكانها جميعاً، وكذلك في القرى التي ضربتها المجاعة الكبرى في أربعينيات القرن

التاسع عشر. وخلال وجودها في إسرائيل، تسلّقت جبل مساده لتشاهد الشمس تشرق فوق البحر الميت. وتحرّكت مشاعرها ودموعها وهي تجول بين آثار القصر الذي أقدمَ فيه عدّة مئات من اليهود على الانتحار الجماعي هرباً من الخضوع للرومان والاستعباد.

وفيما كان جان كلود يقود السيارة إلى داخل الموقف عند أسفل التلّة التي تقع عليها مونسيغور، أحسّت مورين أنّ هذه المدينة هي أحد تلك الأماكن الاستثنائية. فحتّى في هذا اليوم الصيفيّ المُشرق بدَت المنطقة كأنّها مغلّفة بضباب الزمن. ونظرَت إلى الجبل الشامخ أمامها فيما قادها جان كلود نحو الدرب الصاعد.

"الطريق طويلة إلى فوق. لذلك طلبتُ منكِ انتعال حذاء مريح."

كانت مورين مستعدة لأنّها تأخذ معها في أسفارها عادةً أحذية رياضيّة، فالمشي والتسلّق هما رياضتها المفضّلة. بدآ مسيرتهما الطويلة لتسلُّق الجبل، وكانت مستاءة لافتقادها لياقتها البدنية المعهودة بسبب انهماكها في عملها مؤخّراً وإهمالها التمارين الرياضيّة. لم يكن جان كلود على عجلة، فسارا في خطى متمهّلة وهو يواصل حديثه عن الكتار وأسرارهم ويجيب عن أسئلة مورين.

"ما مدى ما نعرفه عن عاداتهم وممارساتهم؟ أعني على نحو دقيق. فاللورد سنكلير يقول إنّ معظم ما كُتب عنهم مجرّد تخمينات."

"هذا صحيح، فكثير ممّا نُسب إليهم كتبه أعداؤهم ليشيعوا أنّهم هراطقة ومتطرّفون. والناس لا يُمانعون أن يُذبح المنبوذون، لكن إذا قُتل أمثالهم المسيحيّون الذين يظنّون أنهم أقرب إلى المسيح من أنفسهم، فإنّهم لا يتقبّلون ذلك. وهكذا اختلق المؤرّخون حكايات كثيرة عن ممارسات الكتار في كل العصور. لكنْ أتدرين ما هو الأمر غير المشكوك في صحّته؟ إنّ حجر الزاوية في الإيمان الكتاريّ هو الصلاة الربّانيّة."

توقّفت مورين عندئذ لتستردّ أنفاسها وتسأل: "حقّاً؟ الصلاة الربّانية نفسها التي نصلّيها في أيّامنا هذه؟"

أومأ برأسه وقال: "نعم، هي نفسها، إنّما تُتلى بلغة الأوك طبعاً. هل زرتِ كنيسة الصلاة الربّانية في جبل الزيتون عندما ذهبتِ إلى القُدس؟"

أجابته مورين: "نعمْ"، لأنّها تعرف المكان. فهناك كنيسة شرقيّ القدس

مشيّدة فوق كهف يُعتقد أنه المكان الذي لقّن فيه المسيح الصلاة الربّانية أوّل مرّة. وقد عُرضت، في رواق الكنيسة الخارجيّ، كلمات الصلاة الربّانيّة في لوحات موزاييك بأكثر من ستّين لغة. والتقطت مورين صورة لِلّوحة التي تظهر فيها الكلمات في إحدى لهجات اللغة الإيرلندية القديمة لتعطيها لبيتر.

تابع جان كلود كلامه: "الصلاة معروضة هناك بلغة الأوك. وكان كلٌّ كتاري يتلوها عندما يستيقظ كل صباح، لكن ليس بشكل ميكانيكي كمعظم الناس في عَصرنا، إنما كفِعْل تأمّل وصلاة حقيقيّة، حيث إنّ كل كلمة فيها هي بالنسبة إليهم قانون مقدّس."

تأمّلَت مورين هذا الأمر وهي تمشي مع جان كلود الذي استطرد: "هكذا، كانوا أناساً يعيشون بسلام ويعلّمون ما أسموه 'الطريق'، أي الحياة القائمة على تعاليم المحبّة. فأساس ثقافتهم يقوم على اعتبار الصلاة الربّانية أقدس النواميس."

أدركَت مورين غايته، فقالت: "إذاً، لو كنتَ مكان الكنيسة وأردتَ التخلّص من هؤلاء الناس، فإنّك لن تشيع أنّهم مسيحيّون صالحون."

"أجلْ. وقد لُفِّقَت طقوس غريبة واتهامات ضد الكتار لجعل مسألة ذبحهم مقبولة."

توقّف جان كلود في تلك اللحظة، وكانا قد وصلا قرب نُصُب في وسط الدرب. والنصب عبارة عن بلاطة غرانيتية كبيرة، عليها صليب لانغدوك المتساوي الأضلاع.

قال جان كلود: "هذا نُصب الشهداء. وقد أقيم هنا في مكان المحرقة."

ارتعدَت مورين وتملّكها ذلك الشعور الثقيل والمثير كأنها تقف في مكان رهيب من التاريخ. وأخذت تصغي لجان كلود وهو يسرد قصة آخِر مواقف مقاومة الكتار على ذلك الجبل.

في أواخر عام 1243، كان الكتار قد عانوا ما يقارب خمسين عاماً من اضطهاد جيوش البابا. وقد قُتل سكّان مدن بكاملها، وجرَت أنهار دماء الأبرياء في مدن مثل بيزييه. كانت الكنيسة مصمِّمة على محو ما اعتبرَته بدعة بأيّ ثمن، وسُرَّ ملك فرنسا بهذه الحملات ودعمها بجيشه لأن كل انتصار على نبلاء الكتار الأغنياء كان يضمن له السيطرة على مساحات جديدة بعد أن كان حكّام تولوز النبلاء

يهدّدون بإقامة دولتهم المستقلّة. وهكذا رأى الملك أن من المناسب استغلال غضب الكنيسة منهم لوضع حَدّ لهم من دون أن يتحمّل هو وحده أمام التاريخ وِزرَ هذا العمل.

وقد وقف من تبقّى من زعماء الكتار موقفهم الأخير في قلعة مونسيغور في شهر آذار (مارس) عام 1244. وكما حدث في مساده، قبل ذلك بأكثر من ألف سنة، التقوا ليصلّوا معاً كجماعة من أجل خلاصهم من مضطهديهم، وتعاهدوا على ألّا يتخلّوا عن إيمانهم. ويُقال إنّ الكتار، في حصارهم الأخير، استمدّوا قوّة مِن قصّة شهداء مساده. وحاولت القوات البابوية، كما فعل أسلافهم الرومان، تجويع المحاصَرين بمنع وصول الماء والطعام إليهم، لكنّ ذلك كان صعباً لأن القلعة تقع على قمّة تلّة يستحيل تطويقها من كل الزوايا. فتمكّن المحاصَرون من إيجاد سبل لاختراق الحصار.

بعد عدّة أشهر من الحصار، قرَّرَت القوّات البابويّة إنهاء المواجهة، فأصدرت إنذاراً للكتار بضمان حياتهم إذا تابوا واعترفوا بأنهم هراطقة وسلّموا أنفسهم ليخضعوا لمحاكم التفتيش وإلّا فإنهم سيُحرقون لإهانتهم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية المقدّسة. وأُعطوا مهلة أسبوعين لاتخاذ قرارهم.

وفي اليوم الأخير أشعل قادة جيش البابا المحرقة وطلبوا معرفة قرار الكتار. فجاءهم رَدٌّ ما زال صداه يُدوّي في لانغدوك حتى اليوم: خرج مئتا كتاري يلبسون ثياباً بسيطة من قلعة مونسيغور متشابكي الأيدي، وراحوا يُنشدون الصلاة الربانيّة بلغة الأوك، في نغم متساوِق، وهم يسيرون معاً نحو محرقة الموت. وماتوا، كما عاشوا، في انسجام تامّ مع إيمانهم بالله.

شاعت حكايات كثيرة عن أواخر أيام الكتار، وكلُّها مثيرة. ولعلّ أكثرها إثارة هي قصّة المندوبينَ الفرنسيّين الذين أُرسلوا للتحدّث إلى الكَتار باسم جيش الملك. دُعي المندوبون، وهم مرتزَقة عُتاة، إلى المكوث داخل أسوار مونسيغور والشهادة على تعاليم الكَتار بأنفسهم. ويُقال إنّ ما رآه الجنود الفرنسيّون في تلك الأيّام الأخيرة كان خارقاً ومذهلاً حتّى إنّ هؤلاء الجنود طلبوا الانضمام إلى مذهب الأنقياء. ولِعِلْمهم أن الموت ينتظرهم في كل الأحوال، تلَقّوا السرّ المقدّس للكتار، وهو معمودية الروح القدس، ومشوا نحو ألسنة اللهب مع إخوانهم وأخواتهم الذين انضمّوا إليهم.

مسحَت مورين دمعة عن خدّها وهي تنظر إلى الجبل ثم إلى الصليب،

وسألت: "ما هو بالضبط؟ ماذا رأى الفرنسيّون ليقرروا الموت مع هؤلاء الناس؟ هل يعرف ذلك أحد؟"

هزّ جان كلود رأسه نافياً، وقال: "لا. كلّ ما هنالك ظنون وأقاويل، فمِن الناس مَن يقول إنّ الروح القُدُس ظهر خلال صلاة الكتار وبيّنَ لهم أن ملكوت السماوات مُعَدٌ لهم، ومِنهم مَن يقول إنّه شيء آخر وهو الكنز الشهير الذي كان بحوزة الكَتار".

وراحت قصّة مونسيغور تتجلّى شيئاً فشيئاً أمام مورين وهما يُصعّدان على ذلك الدرب المنحدِر. في الأيام ما قبل الأخيرة من صمود الكَتار أُنزِل أربعة أعضاء منهم على أخطر جدران القلعة وفرّوا سالمين. ويُعتقد أنّهم استفادوا من معلومات زوَّدَهم بها المبعوثون الفرنسيّون الذين اعتنقوا الكَتارية ثمّ ماتوا مع بقيّة الكَتار في اليوم التالي.

"حمل هؤلاء معهم كنز الكَتار الأسطوري. لكن حقيقة ذلك الكنز لا تزال موضع أقاويل. ولا بدّ أنّه كان بحجم يُمكن حمله، لأن اثنين من المختارين للهرب كانا امرأتين شابّتين، ويُفترض أن تكونا نحيفتين، ولا شكّ في أنّهم كلّهم كانوا ضامرين بعد أشهر من الحصار والاقتصاد في الماء والطعام. ويظنّ بعض الناس أنّهم حملوا معهم الكأس المقدّسة، أو إكليل الشوك، أو حتّى أغلى كنز على وجه الأرض وهو كتاب المحبّة."

"ذلك هو الإنجيل الذي كتبه يسوع بنفسه؟"

أومأ جان كلود برأسه، وقال "وقد تأكّد أنّ الحكايات حوله توقّفَت منذ ذلك الحين."

لم تستطع مورين أن تنسى أنّها مؤرّخة وصحفيّة، فسألته: "هل هناك كُتُب ووثائق يمكن أن تزوّدني بمعلومات وافية عن هذا الموضوع تنصحني بالاطلاع عليها وأنا هنا في فرنسا؟"

ضحك الرجل الفرنسي قليلاً وهو يهزّ كتفيه قائلاً: "يا آنسة باسكال، إنّ أهل لانغدوك فولكلوريّون، وهم يصونون أسرارهم وحكاياتهم بالامتناع عن تدوينها على الورق، وهذا ما يجد كثيرون صعوبة في فهمه، لكن انظري حولك يا عزيزتي، ما حاجتك للكتب إذا كان لديك كل هذا ليخبر القصة؟"

وصلا إلى أعلى التلّة ورأيا بقايا القلعة جاثمة أمامهما. وفهمَت حقيقة رأي

جان كلود لدى مرأى تلك الجدران الحجرية الهائلة التي تحكي تاريخ المنطقة. ومع ذلك ظلّت ضائعة بين أحاسيسها من جهة وحاجتها كصحفيّة لتوثيق معلوماتها من جهة أخرى، فأجابته: "ذلك رأي عاطفيّ مستغرَب من رجل يعتبر نفسه مؤرِّخاً."

عندها ضحك جان كلود بلا تحفُّظ، وتردّد صدى ضحكته في الوادي الأخضر تحتهما، وقال:

"بلى، أعتبرُ نفسي مؤرخاً، لكني لست أكاديمياً. هناك فرق بين الاثنين، خصوصاً في هذا المكان، فالمفهوم الأكاديميّ لا يصحّ في كل مكان، يا آنسة باسكال".

وأحسّ أنّ تعابير وجه مورين دلّت على أنها لم تفهمه كليّاً، فتوسّع في شرحه.

"إذا أراد المرء أن ينال أرفع الألقاب في الميدان الأكاديمي فما عليه إلّا أن يقرأ الكتب المناسبة ويكتب الأبحاث الملائمة. عندما كنتُ في جولة محاضرات في بوسطن التقيتُ امرأة أميركية تحمل دكتوراه في التاريخ الفرنسي مع التخصّص في بِدَع القرون الوسطى. وهي تُعتبر اليوم من أهمّ الخبراء في هذا الحقل وقد ألّفَت كتاباً أو كتابين من المراجع الجامعيّة. والمُضحِك في الأمر أنّها لم تسافر إلى فرنسا ولا مرّة، حتّى إنّها لم تَزُرْ باريس وبالطبع لم تأتِ إلى لانغدوك، والأسوأ هو أنّها لا ترى ضرورة لذلك. ففي الشكل الأكاديمي البحت، تعتقد أن كل ما يلزمها موجود في الكتب أو الوثائق المذكورة في قاعدة بيانات الجامعة، لكن حقيقة معرفتها بالكتارية أشبه بقراءة كتاب رسوم هزلية، لا بل هي أكثر مدعاةً للسخرية. وبالرغم من كل ذلك، يعتبرها الناس مرجعاً كبيراً لأنها تحمل شهادات وألقاباً."

كانت مورين تصغي إليه وهما يسيران بين الصخور والآثار الرائعة. وقد أصابَها رأي جان كلود في الصميم لأنها طالما اعتبرَت نفسها أكاديميّة مع أن خبرتها كمراسلة صحفيّة كانت تدفعها أيضاً للبحث عن القصص في محيطها الطبيعيّ. فهي لم تتصوّر أنّ بإمكانها الكتابة عن مريم المجدلية من دون زيارة الأرض المقدّسة، كما إنّها أصرّت على التجوّل في فرساي وسجن الثورة الفرنسية، "الكونسيرجوري"، أثناء إجراء أبحاثها عن ماري أنطوانيت. وحتى في الأيام القليلة التي صرفتها مؤخراً محاطة بتاريخ لانغدوك الحيّ، أدركت أن ثقافة تلك المنطقة بحاجة إلى فهم اختباري.

ويبدو أن جان كلود لم يكن قد انتهى من شرحه، فأضاف: "لأعطيكِ مثلاً. لو قرأتِ أيّاً من النصوص التاريخيّة العديدة التي روت مأساة مونسيغور من دون أن تتسلّقي هذا الجبل أو تشاهدي المكان الذي أُضرمت فيه النار أو تري مناعة هذه الجدران بأمّ عينيكِ، فهل يمكنكِ فهم هذه المأساة حقاً؟ تعالي. هناك ما أريد أن أريك إيّاه."

تبعَت مورين الرجل الفرنسيّ إلى حافة منحدر شاهق حيث انهارت جدران القلعة التي كانت فيما مضى منيعة. وأشار إلى جانب الجبل تحت القلعة، وهو انحدار سحيق على عمق آلاف الأقدام. كانت الريح الدافئة تهبّ وتتلاعب بشعرها وهي تحاول أن تتخيّل نفسها مكان شابة كتارية في القرن الثالث عشر.

استطرد جان كلود قائلاً: "مِن هذه البقعة هرب الكتار الأربعة. تصوّري الوضع وأنت تقفين هنا. تخيّلي أنك، في ظلمة الليل، تحملين أهمّ ذخائر شعبك ملفوفاً حول جسدك، وأنت نحيلة بعد أشهُر من العذاب والجوع. أنت صغيرة السن وخائفة وتعلمين أنك قد تظلّين على قيد الحياة أمّا كل الذين تحبينهم فسيُحرقون أحياء. وفي خضمّ كل هذه الهموم التي تُثقِل فكرك، يدلّونك في الليل الداكن والبرد القارس، على ذلك الجدار بحيث قد تتعرضين للوقوع وملاقاة حتفك."

شهقت مورين بحدّة، فالوقوف حيث لا تزال الحكايات حيّة وحقيقيّة شيء شديد الوطأة.

قطع جان كلود عليها أفكارها بقوله: تخيّلي الآن لو أنّك فقط قرأتِ عن هذه الواقعة في مكتبة في نيوهافن. أليس ذلك اختباراً مختلفاً؟"

هزّت مورين رأسها موافقةً، وقالت: "لا شك في ذلك."

"ثمّة شيء آخر نسيتُ ذِكره، وهو أنّ الفتاة الصغرى التي هربت تلك الليلة ظلوا يدعونها باسكالينا، أي باسكال الصغيرة، حتى مماتها."

أحسّت مورين بخَدَر في عُروقها لدى سماعها بواحدة أخرى من أسلاف عائلة باسكال، وسألته: "ماذا تعرف عنها؟"

"معلومات قليلة. لقد ماتت امرأة عجوزاً في الدير في مونسرّا على الحدود الإسبانية، حيث لا تزال بعض السجلات المدوّنة عن حياتها موجودة. ونعرف أنها تزوّجت لاجئاً كتارياً في إسبانيا وأنجبت عدداً من الأولاد. ومن المعلومات المدوّنة أنّها أحضرت معها للدير هدية لا تُقدَّر بثمن، ولم يُفصَح عَلناً عن طبيعة تلك الهدية."

انحنت مورين وقطفت زهرة برّيّة من الأزهار النامية بين شقوق الجدران القديمة. ثمّ مشت نحو حافة المنحدَر الذي نزلته، فيما مضى، تلك الفتاة الكَتارية التي اتخذت لاحقاً اسم باسكالينا، وكانت شجاعة لأنها أمل شعبها الأخير. رمَتْ مورين الزهرة الأرجوانية الصغيرة فوق حافة المنحدَر وصَلَّت من أجل المرأة التي قد تكون، أو لا تكون، جدّتها العليا. فالمهمّ بالنسبة لمورين هو أنّ قصّة هؤلاء الناس الطيّبين وبَرَكة الأرض نفسها غيّرتا مجرى حياتها، في ذلك اليوم، تغييراً لا رَجعةَ عنه.

قالت لِجان كلود بصوت يكاد يكون همساً: "شكراً لك." فتراجَع وتركها وحدها تتأمّل كيف أن ماضيها ومستقبلها مرتبطان بهذه البقعة العريقة الغامضة.

تناولَت مورين طعام الغداء مع جان كلود في القرية الصغيرة عند أسفل سفح مونسيغور. كان المطعم، كما وعدَها، يُحضِّر المأكولات على الطريقة الكَتارية، وقائمة الطعام فيه بسيطة وتتألف أساساً من الأسماك والخضار الطازجة.

قال جان كلود: "هناك اعتقاد خاطئ بأن الكَتار كانوا نباتيّين صارمين. لكنّهم كانوا يأكلون السمك. وقد التزموا حرفياً ببعض مبادئ حياة يسوع. فبِما أنّ يسوع أطعمَ الجموع خبزاً وسمكاً فإن معنى ذلك بنظرَهم وجوب إضافة السمك إلى طعامهم."

وجدت مورين الطعام لذيذاً جدّاً وأكلت بشهيّة. ورأت أنّ سنكلير أصاب في قوله إنّ جان كلود مؤرّخ لامع، فقد ألقَت عليه أسئلة عديدة، أثناء انحدارهما من الجبل، وأجاب عنها جميعاً بصبر ونفاذ بصيرة. ولدى جلوسهما إلى مائدة الغداء كانت مستعدّة للإجابة عن أسئلته.

بدأ جان كلود بالاستفهام عن أحلام مورين ورؤاها. كان ذلك في السابق يُشعِرها بالضيق، لكن تلك الأيام الأخيرة في لانغدوك فتحت عقلها على الموضوع. فالرؤى، كتلك التي تراها هي، تُعتبر هنا شيئاً عادياً أو واقعاً حياتياً مألوفاً. وكانت ترتاح للتحدّث عنها مع مَن يتفهّمها.

سألها جان كلود: "هل كانت لديكِ تلك الرؤى منذ الطفولة؟"

هزّت مورين رأسها نافيةً.

"هل أنتِ متأكّدة من ذلك؟"

"حتى لو حصل ذلك، فلستُ أنكره. وأوّل رؤيا جاءتني حين كنت في القُدس. لكنْ، لِمَ تسألني عن هذا الأمر؟"

"بِداعي الفضول فحسْب. تابعي أرجوكِ."

راحت مورين تخبر جان كلود عن رؤاها فيما كان يصغي باهتمام ويطرح بعض الأسئلة بين الحين والآخر. وازداد اهتمامه لدى حديثها عن رؤيا الصلب في كاتدرائية نوتردام.

علّقت مورين على ذلك بقولها: "اللورد سنكلير أيضاً اعتبر أنّ تلك الرؤيا ذات مغزى هامّ."

هزّ جان كلود رأسه وقال: "إنّها هامّة جداً بالفعل. هل أخبركِ عن النبوءة؟"

"أجلْ. إنّها نبوءة مثيرة. لكن ما يقلقني هو أنه يظنّ أنني الإنسان المُنتظَر المذكور في النبوءة، لذلك تراني مشغولة البال."

ضحك جان كلود وقال: "لا،لا. هذه الأمور لا تُفرض فرضاً. فإمّا أن تكوني المنتظَر وإمّا لا. وإذا كنتِ المنتظَر فسوف ينكشف لكِ ذلك قريباً. كم ستمكثين في لانغدوك؟"

"لقد خصّصنا أربعة أيّام قبل العودة إلى باريس لنُمضي بضعة أيام أخرى. لكني الآن في حيرة، فهناك الكثير ممّا يجب أن أراه وأتعلّمه هنا. سأترك ذلك للظروف."

بدا جان كلود مستغرِقاً في التفكير وهو يُصغي إليها، ثمّ سألها: "هل حدث أيّ شيء غريب الليلة السابقة بعد الحفلة؟ أيّ شيء غير اعتيادي بالنسبة إليك؟ أيّ حلم جديد؟"

هزّت مورين رأسها وقالت: "لا. لا شيء. لقد كنتُ في غاية التعب ونمتُ نوماً عميقاً. لكن لماذا تسأل؟"

تجاهل جان كلود سؤالها، وطلب الحساب، ثم تكلّم بصوت منخفض كأنّه يخاطب نفسه: "وهذا يُضيّق المجال أمامنا."

"أيّ مجال؟"

"ما أقصده بالضبط هو أنّه إذا كنتِ تنوين مغادرتنا عاجلاً فعلينا أن نعرف ما يُمكن أن نفعله لنحدِّد ما إذا كنتِ سليلة باسكالينا، أي إذا كنتِ بالفعل المنتظر لترشدينا إلى الكنز السرّي العظيم."

ثمّ غمزها مازحاً وهو يُمسك كرسيّها لتنهض ويمضيا مغادرين تلك الأرض المقدّسة التي كانت مونسيغور في قديم الزمان، وقال: "عليّ إعادتك قبل أن يغضب منّي سنكلير."

... كيف يبدأ المرء الكتابة عن عصر يغيّر العالَم؟

لقد انتظرتُ طويلاً للبدء بذلك لانني كنت دائماً أخشى أنّ هذا اليوم سيأتي وانّه سيتعيّن عليّ أن أعيشه ثانيةً. لطالما رأيتُه في نومي خلال هذه السنين العديدة مراراً وتكراراً، لكنّه يأتي من دون استئذان ليعذّبني، وأنا لمْ أسترجع صورة ذلك اليوم قصداً ولا مرّة. ومع أنني صفحْتُ عن كلّ مَن كان له دور في آلام عيسى فإنّ الصفح لا يولّد النسيان.

لكن ليس هناك مجال آخَر، فأنا آخِر مَن تبقّى على قيد الحياة مِمّن يمكنه أن يروي حقيقة ما حدث في الأيام المُظلمَة.

هناك مَن يعتقد أنّ عيسى خطّط للأمر منذ البداية. وهذا غير صحيح لأن ما حدث كان مرسوماً لعيسى، وقد تحمّل ذلك بفضل قوّته وطاعته لِلّه. لقد شرب من الكأس التي أُعطيَت له بشجاعة ورِضاً لا مثيل لهما، مِن قبلُ ومِن بَعْدُ، سوى ما تحلّتْ به أمّه. فأمّه وحدها، مريم العظيمة، سمعَت نداء الربّ بالوضوح نفسه، وأمّه وحدها استجابَت لذلك النداء بشجاعة مُماثِلة.

أمّا نحن الآخرين فقد أدركْنا أنّ علينا أن نتعلّم مِن نِعَمهما.

إنجيل الأرك لمريم المجدلية

كتاب عصر الظلمات

الفصل الثاني عشر

كركاسون

25 حزيران (يونيو) 2005

كان منظر تمارة وزدوم وديريك وينرايت كأيّ سائحين أميركيّين عاديّين خارجَ أسوار حصن كركاسون. لمّا التقيا في ردهة الفندق الذي ينزل فيه ديريك، قبّلها بحرارة، فتظاهرت بالخجل وأبعدته بلطف.

"سيكون لدينا متّسع من الوقت لهذا فيما بعد، يا ديريك."

"أهذا وعدٌ؟"

أجابته وهي تمرّر يدها على ظهره لتُشعِره بأنها تعني ما تقول: "طبعاً! أمّا الآن، فإنك تعلم مدى التزامي بعملي. وحالما أنتهي من هذا سيكون باقي اليوم أمامنا لكي... لكي نلهو."

"حسناً، فلنذهبْ. أفضّلُ أن أقود بنفسي."

أمسك ديريك يد تامي وأخذها إلى حيث كانت سيّارته المستأجَرة في الموقف. اتّجه نحو الطريق الدائري وانطلق بالسيارة حول المدينة المسوَّرة، ثمّ انعطف ناحيةَ طريق تتّجه نحو التلال.

سألَته: "هل أنتَ متأكّد أن هذا مأمون؟"

أومأ ديريك برأسه وقال: "لقد ذهبوا جميعهم إلى باريس هذا الصباح. جميعهم لكن..."

"لكن ماذا؟"

بدا كأنه على وشك الإفصاح، لكنّه عدَل عن ذلك، وأجابها: "لا شيء. لقد بقيَ واحد هنا في منطقة لانغدوك، لكنّه مشغول اليوم ولا يمكن أن يفاجئنا."

"هل توضح لي الأمر؟"

ضحك ديريك وقال: "لا، ليس الآن. فيكفي أنني أقوم بهذه المجازفة. هل تعلمين ما هو عقابي إذا اكتُشف أمري؟"

هزّت تامي رأسها بالنفي قائلةً: "لا، ما هو؟ تعليق عضويّتك لإفشاء الأسرار؟"

نظر إليها شزَراً وقال: "أنتِ تمزحين! لكنّ هؤلاء الناس لا يعبثون." ثم مَرَّرَ سبّابته اليمنى على حلقه كأنّه يشرطه.

"هل أنت جادٌّ؟"

"أجلْ. فكَشْف أسرار الطائفة لغير أعضائها عقابه الموت."

"هل حدثَ مثل هذا فعلاً، أم إنّه الغول الذي خلقوه ليُخيفوا الأعضاء ويكثّفوا هالة السرّيّة حول الجمعيّة؟"

"معلّم الحَقّ الجديد، أي رئيسنا، في غاية التطرّف."

أخذت تامي تفكّر بالأمر بجدّيّة. وكان ديريك قد اعترف لها بانتمائه للطائفة، وذلك قبل بضع سنوات، في لحظة مُكاشَفة وهو تحت تأثير الخمر. لكنّه صمتَ بعد ذلك ورفض الخوض في الموضوع، إلى أن عاد في الحفلة خلال الليلة السابقة إلى تكرار بعض المعلومات العادية التي تعرفها. لكن سكره وشهوته الدائمة لتامي دفعاه أخيراً ليكشف لها أن مقرّ الجمعية يقع خارج كركاسون. هذا على الأقلّ ما ظنّته تامي سبب فلتة لسانه. وحتى إنه عرض عليها أن يأخذها اليوم إلى داخل المقرّ. لكن إذا كان جادّاً بشأن العواقب الوخيمة التي تنتظره في حال افتضاح أمره، فإنّها لا تريد أن تحمّل ضميرها وِزْر هذا الأمر.

"اسمع يا ديريك، إذا كان في هذا خطر فعلاً، فأنا لا أريد أن أدفعك لفِعْله. يمكنني بدلاً من ذلك أن أشير إليك باسم 'مصدر موثوق' إذا ما قرّرتُ التطرّقَ إلى الطائفة في مشاريعي، وهذا يكفي. فلْنَعُدْ إلى كركاسون ونتناول الغداء، حيث يمكنك أن تخبرني بعض الأسرار بكلّ أمان في مقهًى ما في وضح النهار."

وهكذا وفّرت له مخرجاً سهلاً، لكنّه فاجأها بعدم قبوله.

"لا، لا. بل أريدكِ أن تريه، حتى إنّي أنتظر ذلك بفارغ الصبر."

لم يرُقْ اندفاعه وحماسته لتامي، فسألته: "لماذا؟"

"سترين".

أوقف ديريك السيارة وراء بعض الشجيرات على مسافة مئات الأمتار من المكان. سارا بحذر على الطريق، ثمّ انعطفا نحو زقاق ضيّق غير مرصوف. مشيا حوالى مئة متر أخرى، فظهرت أمامهما كنيسة حجرية. إنها الكنيسة نفسها التي أقام فيها أعضاء الطائفة شعائرهم الدينية في الليلة السابقة.

"تلك هي الكنيسة. سندخلها فيما بعد إذا شئتِ."

هزّت تامي رأسها، وهي راضية باتّباعه إلى حيث يأخذها. كانت تعرف ديريك منذ سنوات، لكن العلاقة بينهما كانت معرفة عابرة. وأدركت في تلك اللحظة أنها لم تعرفه معرفة جيّدة تمكّنها من اكتشاف حقيقة دوافعه. فقد ظنّت أولاً أنّها ميوله الطبيعية الأساسية نحوها كامرأة، وهذا ما كانت تستطيع تدبّره بسهولة. لكنّ ما أظهره فجأة من عزم وتصميم كان مختلفاً ولم تعهده فيه مِن قبل. فارتاعت منه، وحمدت الله لأن سنكلير ورولان كليهما يعرفان أين ذهبَت.

قادها إلى مبنى طويل، من طابق واحد، خلفَ الكنيسة، وأخرج مفتاحاً من جيبه وفتح الباب. ونظراً إلى أن البناء كان عاديّاً بسيطاً من الخارج، فقد فوجئت تامي لدى دخولها قاعة اجتماعات الطائفة لاتّساع مساحتها وروعة زخرفتها. كانت مُترفَة جداً ومُنمّقة، وكل جدرانها مُغطّاة بأعمال فنّيّة هي جميعاً نُسَخ من لوحات بريشة ليوناردو دافنشي. كان على الحائط المواجه لمدخل القاعة نسختان معلّقتان جنباً إلى جنب من لوحتي ليوناردو بعنوان: القديس يوحنا المعمدان.

همست تامي: "إذاً فما يُقال صحيح! ليوناردو كان من جماعة يوحنا، أي هرطوقياً مُنشَقّاً."

ضحك ديريك وقال: "بأيّ مقاييس تحكمين؟ بالنسبة للطائفة، فإن المسيحيين الذين يتبعون المسيح هم الهراطقة الفعليّون. نحن نحبّ أن نسمّيه المُغتصِب والكاهن الشرّير." استدار ديريك دورة كاملة نحو اللوحة وتكلّم برصانة لم تسمعها

تامي منه سابقاً: "كان ليوناردو دافنشي معلِّمَ الحَقّ في عصره، أي رئيس طائفتنا. لقد آمن بأن يوحنا المعمدان هو المخلِّص المنتظَر الحقيقيّ الوحيد وأن يسوع اغتصب موقعه بفضل مكائد النساء."

"مكائد النساء؟"

أومأ ديريك وأجاب: "هذا أساس تعاليمنا. لقد خطَّطَت سالومة ومريم المجدليّة لموت مخلّصنا المنتظر لتضعا نبيّهما الزائف على العرش. والطائفة تشير إلى كلّ منهما، منذ القِدَم وإلى الأبَد، بصِفَة العاهرة."

نظرَت إليه تامي نظرة مِلؤها الريبة والشكّ، وسألته: "هل تؤمن فعلاً بما تقول؟ اللعنة يا ديريك، إلى أي مدى أنت مُنغمِس في هذه المُعتقدات؟ وكيف كتمتَ الأمر عنّي؟"

هزّ ديريك كتفيه وقال: "الأسرار أساس عملنا. أما المُعتقدات، فقد رُبّيتُ على الإيمان بها ودرستُ النصوص السرية سنواتٍ وسنوات. إنّها مُقنعة حقّاً."

"ما هو هذا الشيء المُقنِع؟"

"المادّة التي لدينا، أي الكتاب الذي ندعوه (كتاب الكأس المقدّسة الأساسي). نحن نتوارثه منذ أيّام الرومان مِن أتباع المعمدان الأصليّين. إنّه كِتاب آسِر وفيه وصف تفصيليّ لكلّ الوقائع المحيطة بموت يوحنا."

"هل يمكن أن أراه؟"

"سوف أعطيك نسخة منه. لديّ واحدة في غرفتي بالفندق"، وكأنّه كان بذلك يُلمِّح تلميحاً مُبَطَّناً إلى شيء آخر.

تنبَّهت تامي للأمر وحاولت ألّا تُظهر ذلك في تعابير وجهها، فهي تعلم بالضبط ما يريده ديريك مقابل ذلك الكتاب القيّم. استدارت وراحت تمشي ببطء وتنظر إلى اللوحات في القاعة.

سألها ديريك: "أتلاحظين القاسم المشترَك بينها جميعاً؟"

هزّت تامي رأسها، فهي لم ترَ غير العلاقة الظاهرة، وأجابته: "لا شيء غير أنّها جميعاً من أعمال ليوناردو. ظننتُ أوّلاً أنها كلّها تصوِّر يوحنا المعمدان. لكن الأمر مختلف، فذلك هناك رسم تفصيلي من لوحة العشاء الأخير. ولماذا تعلّقونها هنا إذا كانت الطائفة تكره يسوع وتعتبره مُغتصباً وترى أن مريم المجدلية مسؤولة عن موت يوحنا؟"

قال ديريك: "هذا هو السبب"، ورفع يده اليمنى أمام عينيه في وَضْع معيّن: صَوّبَ سبّابته صعوداً ولَفَّ إبهامه إلى أعلى وطوى أصابعه الثلاث الباقية متراصّةً إلى أدنى. نظرت تامي إلى لوحة ليوناردو الشهيرة ولاحظت أنّ أحَد الرسل يرسم الإشارة نفسها بيده، ويظهر أنها أقربُ إلى حركة تهديد في وجه يسوع.

سألَت تامي: "ما معنى هذه الحركة؟ لقد رأيتُها سابقاً في لوحة يوحنا المعمدان بمتحف اللوفر"، وأشارت إلى النسخة المعلّقة على الحائط، وأضافت: "كتلك المعلّقة هناك. لقد ظننتُها أوّلاً إشارةً إلى الفردوس لأنه يشير نحو السماء."

قهقه ديريك ساخراً وقال: "لقد خيَّبْت أملي يا تامي: ألا تعلمين أنّ ليوناردو كان يتعمّد الإبهام؟ نُسمّي هذه الحركة 'تذكّروا يوحنا'، وهي ذات معانٍ متعدّدة. أوّلاً، إذا دقّقتِ النظر ترين أنّ السبّابة والإبهام يشكّلان الحرف (ل)، أي يوحنا، كما إن اتّجاه السبّابة إلى الاعلى يدلّ على الرقم واحد. فَمُجمَل الحركة يعني أن يوحنا هو المخلِّص الأوّل. وهناك أيضاً شيء هامّ آخر يتعلّق بحركة 'تذكّروا يوحنا' وهو الذخيرة."

"هل لديكم ذخيرة من يوحنا؟"

تصنّع ديريك ابتسامة عريضة وأجاب: "يا ليتها كانت هنا لأريك إيّاها، لكن معلّم الحَقّ يبقيها دائماً بحوزته. لدينا عظام سبّابة يد يوحنا اليمنى، وهي الإصبع نفسها التي تشكّل الحركة المستخدمة ككلمة السرّ الخاصّة بنا أمام الناس منذ ألف سنة. لقد مكّنت الفرسان والنبلاء من معرفة بعضهم بعضاً بسرّيّة في القرون الوسطى، وما زلنا نستخدمها اليوم. كما إن إصبع يوحنا تدخل في شعائر قبول أعضاء جُدد، وكذلك رأسه."

لفت ذلك انتباه تامي فاستفهمَت: "وهل لديكم رأس يوحنا أيضاً؟"

ضحك ديريك عميقاً وقال: "أجلْ، ومعلّم الحقّ يُلمّعه كل يوم، وهو مِحور كل طقوس الطائفة."

"وهل أنتم متأكّدون أنّه رأس يوحنا فعلاً؟ أظنّ أن رأسه موجود في كاتدرائيةٍ في أميان."

"هل تدركين كم عدد الأماكن التي يُدَّعى أنها تحوي بقايا مِن المعمدان؟ صدّقيني، نحن على يقين من أن الذخائر التي لدينا أصليّة، وقد وصلَت إلينا منتقِلةً مِن جيل إلى جيل. ووراء كل ذلك قصّة عظيمة لن أسردها لك لأنك ستقرئينها في

'كتاب الكأس المقدسة الأساسي'. انظري، هناك المزيد من صور حركة الإصبع فهي تظهر في كل هذه اللوحات."

لاحظت تامي أنّ تركيز ديريك محدود حتّى وهو يناقش أمراً بهذه الخطورة، فكان ينتقل من موضوع إلى آخر. وتساءلَت: هل ذلك مقصود؟ هل لديه غاية يريد الوصول إليها؟ فهي لم تعتقد سابقاً أنّه ذكيّ، أما الآن فقد بدأت تظنّ أنّها بَخستْهُ حقّه. وراحت الخواطر تدور في رأسها وهي تحاول أن تُظهر رباطة الجأش. هل هذا الرجل متعصّب؟ وكيف غفلت سابقاً عن ملاحظة مدى اقتناعه بهذه المعتقدات؟ وحاولَت تامي ألّا تغرق في هواجسها التي تُنذرها بمصير مشؤوم.

أخذ ديريك يريها اللوحات ويشير في كل منها إلى حركة 'تذكّروا يوحنا'. ولاحظت أن يوحنا المعمدان في صوره يرسم بنفسه هذه الحركة، أما في لوحة العشاء الأخير فإن أحد الرسل يقوم بها، وهو توما الذي يبدو حانقاً.

قال ديريك: "كان عدد من الرسل من أتباع يوحنا قبل مجيء المسيح بزمن. واللافت في هذه اللوحة بالذات من لوحات العشاء الأخير هو أنّ يسوع يُعْلِم تلاميذه بأن أحدَهم سيخونه. ونرى توما هذا يؤكد ذلك ويخبره السبب مستخدماً إشارة 'تذكّروا يوحنا'، أي إنّه يستحضر ذكرى يوحنا: سيكون مصيرك كمصير يوحنا. هذا هو ما يصرّح به رافعاً سبّابته في وجه النبيّ الزائف، سوف تُقتَل كما قُتل يوحنا، ستدفع الثمن."

ذُعرت تامي من هذا التفسير المروّع لواحدة من أشهر اللوحات، فسارعت إلى سؤاله:

"إذاً، ألا تظنّ أن مريم المجدلية هي التي تجلس بجانب المسيح في لوحة العشاء الأخير؟"

أجابها ديريك بأن بصق على الأرض، وأردف قائلاً: "هذا هو رأيي بتلك النظرية وكلّ من يأخذ بها."

طرح ديريك موضوع لوحة العشاء الأخير جانباً، لكنّه لم ينتهِ من تلقين تامي درساً في تاريخ الفن. قادها إلى الحائط الكبير الذي عُلّقت عليه لوحتان لليوناردو بعنوان 'سيّدة الصخر'، وأشار أوّلاً إلى اللوحة التي في الجهة اليمنى.

"كُلِّفَ ليو، أي ليوناردو، برسم لوحة للعذراء والطفل بمناسبة عيد الحبَل بلا

دنَس. ويبدو أن هذه اللوحة لم تكن كما أرادت أخويّة الحبل بلا دنس، فرفضَتْها. لكنها أصبحت أثراً فنيّاً كلاسيكيّاً بالنسبة لطائفتنا، نحتفظ جميعاً بصُوَر عنها في منازلنا."

تتركّز اللوحة على سيّدة تحيط يدها اليمنى بطفل، وتضع يدها اليسرى فوق رأس طفل آخر جالس دونها، وإلى يمين الصورة ملاك ينظر إليهم. "يعتقد الناس أنّ هذه هي مريم، لكنّهم مخطئون. فقد كان العنوان الأصلي لِلّوحة 'سيّدة الصخر' وليس 'عذراء الصخر' كما يُشار إليها أحياناً. انظري جيّداً، هذه اليصابات أم يوحنا المعمدان."

لم تقتنع تامي بكلامه، فسألته: "وما يدعوك لهذا الاعتقاد؟"

أجابها بغطرسة وجزم: "تعاليم الطائفة، بالدرجة الأولى. ثمّ إنّ في تاريخ الفنّ ما يدعم هذا الرأي. لقد حدث شِجار حامٍ بين ليوناردو والأخويّة حول أتعاب هذه اللوحة. فانتقم منهم بإيهامهم أنه يسلّمهم المنظر التقليديّ الذي طلبوه. لكنّه في الحقيقة رسمَ معبّراً عن مُجمَل فلسفتنا ورمى اللوحة بوجههم، وكان بذلك ساخراً بارعاً. والحقيقة أنّ ليوناردو استخدم فنّه كثيراً ليهزأ بالكنيسة وينجو من أيّ لوم لأنّه كان أذكى من مؤيدي البابا الأغبياء في روما."

حاولت تامي ألّا تُظهر لديريك دهشتها لِشِدّة تعصّبه. فهي لم ترَ هذا الجانب في شخصيّته سابقاً، ممّا أثار هَلَعها. تلمَّسَت جيوبها بحذر للتأكد من وجود هاتفها الخلويّ الذي قد تحتاجه لبَثّ نداء استغاثة إذا ازداد الوضع سوءاً وخطراً، مع أنّها كانت حائرة، فما تراه وتسمعه لا يُقدَّر بثمن بالنسبة لها كمؤلّفة وصانعة أفلام، لكن هل تجرؤ على ذِكره؟

استأنف ديريك حديثه عن بطله ليوناردو: "هل تعلمين أنّ الموناليزا هي، في الواقع، لوحة ذاتية. لقد رسم ليوناردو نفسه رسماً أوّلياً ثمّ أكملَ اللوحة وجعلها كما نراها اليوم. لقد كانت مزحة منه. وأصبحنا اليوم كلّنا موضع سخريته عندما نقف صفوفاً طويلة ساعاتٍ وساعات بانتظار رؤية اللوحة. كان، كما هو معلوم، يكره النساء بسبب أمّه. حتى إنه زاد القيود على الإناث في الطائفة عقاباً للنساء جميعاً انتقاماً لما عاناه في طفولته. وهذا وارد في نسخة معدّلة من كتاب الكأس المقدّسة الأساسيّ، وستقرئينه."

استفاض ديريك في الحديث عن ليوناردو، فأخبرها أن أمّه الطبيعيّة تخلّت عنه وعاش طفولة مضطربة مع زوجة أبيه. والواقع أن ما دُوِّن عن ليوناردو يُظهر أنّ

كلّ علاقاته بالنساء كانت سلبيّة ومُحزنة. وقد قام المؤرّخون بأبحاث مستفيضة حول كرهه للنساء وذكروا أنّه أُوقف وسُجن لارتكابه اللواط. لكن أكبر لطخة في سُمعته كانت أنّه تبنّى ولداً في العاشرة من عمره كمتدرِّب مبتدئ في الرسم وأبقاه كرفيق له عدة سنوات. وبالرغم من أن حياة ليوناردو الشخصية كانت مُخزية فإنه نأى بنفسه عن الاصطدام بالسلطة بفضل رسومه للكنيسة والاعتماد على بعض الأثرياء الذين يطلبون خدماته.

"وكلّما اضطرّ لرسم امرأة، مثل الموناليزا، كان يحوّل الأمر إلى دُعابة ليسلّي نفسه. وهكذا كان يفعل عندما يُجبر على رسم موضوعات لا تروق له."

استدار ديريك نحو لوحة 'سيّدة الصخر'، واستطرد قائلاً: "ونعلم أنّ الأنثى الوحيدة التي كان يحترمها هي أليصابات، المرأة والأمّ المثالية، السيّدة الحقيقيّة. لاحظي أنها هنا تض ع يدها حول هذا الطفل، وهو ابنها. إنه يوحنا بالطبع."

هزّت تامي رأسها، فقد كان واضحاً أن الطفل الذي تضع المرأة يدها حول كتفيه هو يوحنا المعمدان.

"لاحظي الآن يد أليصابات اليسرى، إنّها تدفع الطفل يسوع بعيداً لتُظهر أنه أدنى من ابنها، كما أن ليوناردو وضع يسوع فعليّاً في مستوى دون يوحنا ليدلّل على أنّه أقلّ شأناً. وأخيراً، انظري إلى عيني الملاك أوريئيل. إلى مَن ينظر مُوَقِّراً؟ وهو في اللوحة الأولى يشير إلى يوحنا، كما إنه يرسم إشارة 'تذكّروا يوحنا'.

"لم ترضَ زمرة الحبل بلا دنس باللوحة الأصليّة لتعبيرها الواضح عن مبادئ جماعة يوحنا. وفرضوا على ليوناردو أن يرسم لوحة أخرى وأصرّوا على أن يضع هالة القداسة حول رأسي مريم ويسوع وعلى ألّا يشير الملاك إلى يوحنا. وهكذا، كما ترين هنا، نالوا ما أرادوه، نوعاً ما. فهالة القداسة موجودة، في الرسمة الثانية، حول رأس كل من مريم ويسوع، لكنّها أيضاً حول رأس يوحنا. كما أنّه حمّل يوحنا عصا المعموديّة ليزيد في توضيح هويته ويعطيه مزيداً من السلطة. وفي كلتا اللوحتين نرى يسوع يمنح بركته ليوحنا. لذلك، وبالنظر إلى هاتين اللوحتين، فأيٌّ من الاثنين كان ليوناردو يبجّل بصفته المخلّص المنتظر وأيّهما النبيّ الحقيقيّ؟"

أجابت تامي بكل صراحة: "واضح أنّه يوحنا المعمدان."

"طبعاً. والملاك أوريئيل يؤكّد أن المعمدان أعلى شأناً، كما تؤكّد ذلك أمّ

يوحنا. ووفقاً لتقاليدنا فإننا نبجّل اليصابات بالطريقة نفسها التي يبجّل بها المسيحيّون المُضلّلون أمّ يسوع. حتى إن بناتنا يُربّين ليكُنَّ على مِثال اليصابات ويصبحن بنات الحَقّ."

رفعَت تامي حاجبها واستفهمَت: "ما معنى ذلك بالضبط؟"

ابتسم ديريك ابتسامة ماكرة واقترب منها قائلاً: "معناه أنّ على النساء أن يعرفن واجبَهنّ، وواجبُهنّ هو أن يكنّ مطيعات وخاضعات للرجال في حياتهنّ. وليس الأمر سيئاً كم قد تظنّين، فإن الواحدة منهنّ، عندما تلد ابناً، تكتسب لقب (اليصابات) وتعامَل كملكة. لو أنّك ترين الماسات التي أُعطيت لأمّي عندما ولدت كلاًّ مِنا. وأنا واثق أنكِ لو لمستِ ما تنعَّمَت به من امتيازات لحسدتها على حياتها."

تمسّكَت تامي برأيها وأخفت انفعالها المتزايد، وسألته: "وهل تؤيّد نظريّة خضوع المرأة؟"

فهزّ كتفيه لامبالياً وأجاب: "كما أخبرتكِ، لقد رُبّيتُ على هذه المبادئ، وهي تناسبني."

هزّت تامي رأسها وراحت تضحك ضحكة امتزجت فيها سخريتها بتوتّر أعصابها.

سألها ديريك: "ما بك؟"

"كنت أتأمّل هذه الغرفة بكل ما فيها من بِدعة دافنشي مقابل غرفة سنكلير بكل ما فيها من بدعة بوتيتشلي. والأمر أشبه بمبارزة مميتة بين فنون عصر النهضة. ليوناردو ضد ساندرو."

لم يبتسم ديريك، بل علّق قائلاً: "المسألة ليست مُضحكة لأنّها في غاية الجدّيّة والخطورة. وهذه الخصومة بين نسل يوحنا ونسل يسوع قد سبَّبَت إراقة دماء الكثيرين، وما زالت تثير المشاكل الآن، أكثر ممّا تظنّين."

نظرت تامي إلى ديريك متظاهرة بالاستغراب، فقد أرادت أن تخفي عنه أنها تعلم بالضبط ما يرمي إليه، فسألته ببراءة: "أتقول نسل يوحنا؟"

فوجئ ديريك وأجابها: "أجلْ. ألا تعلمين ذلك؟"

ظلّت تامي على موقفها، فهزّت رأسها نافية، وقالت: "لا. لا أعلم." ودفعه ذلك لمتابعة الكلام.

"غريب! ألم تعلمي أن يوحنا أنجبَ ولداً؟ هكذا تأسَّست الطائفة على يد نسل يوحنا. إنها قصّة طويلة لأن نصفهم خضعوا فيما بعد لمؤيدي البابا وأتباع المسيح، مثل عائلة مديتشي." وظهر الاشمئزاز على وجهه وهو ينكر اسم هذه العائلة الشهيرة في تاريخ إيطاليا.

"وحتى ليوناردو نفسه انتهى به الأمر، في أواخر حياته، إلى الدخول في خدمة الأعداء، مع أننا نعتقد أنّه احتُجز في فرنسا رغماً عن إرادته. لكنّ الباقين المُخلصين أسسوا طائفتنا. وهذا الذي يخاطبك الآن هو أحد أحفاد أحفاد يوحنا المعمدان."

كانت تامي تخشى ما لا يمكن تجنّبه وهو الانتهاء إلى غرفة ديريك في الفندق وما يتبع ذلك. لكن لا مفرّ من ذلك، لأنها لا بدّ أن تضع يدها على الكتاب المسمّى: كتاب الكأس المقدّسة الأساسيّ، وتكشف حقيقة جماعة يوحنا. فأمامها فرصة لتصبح أوّل إنسان من خارج الطائفة يحصل على تلك المعلومات النادرة، وهي لن تضيّع تلك الفرصة. لقد ازداد الأمر تعقيداً يفوق أيّ تصوُّر، لكنها لن تذهب من دون الكتاب، وستُقدم على ذلك من أجل فيلمها القادم، ومن أجل أصدقائها في جمعية التفاح الأزرق، وخصوصاً من أجل رولان. لن يعرف رولان، بالطبع، مدى ما قامت به تامي للحصول على الوثائق، وسيكون عليها أن تختلق سلسلة أحداث معقولة تخبره إياها. وقد ارتاحت لأن السائق من قصر شاتو دي بوم بلو يُفترض أن يلاقيها في وقت لاحق بعد الظهر، لذا سيُتاح لها، أثناء رحلة العودة إلى الآرك، الوقت الكافي للتفكير في روايتها.

أصرّت تامي على تناول الغداء قبل العودة إلى الفندق الذي ينزل فيه ديريك، وواصلت طلب الكثير من نبيذ بلاد الأوك الأحمر. وراقبته وهو يتناول بضع حبّات دواء لمّا أحسّ بتأثّره بالشراب، فلاح لها بصيص أمل بأنّ مزيج الشراب والدواء قد يجعل ديريك ليّناً سهل الانقياد إن لم يكن غائباً عن الوعي.

أثناء تناول الغداء، اعترف ديريك لتامي بأنه يكشف لها أسرار الطائفة لأنه أراد منها أن تنشرها كتابةً وفي الفيلم. ومع أنّه أراد إبقاء اسمه طيّ الكتمان، فإن هدفه الواضح كان أن يقوم شخص آخر بكشف حقيقة الطائفة.

سألته تامي: "لِمَ تفعل ذلك؟" فقد اعتبرت الأمر غير منطقيّ؛ لأن ديريك مُنغمِس في الطائفة حتى أذنيه ومتأثّر بتعاليمها، والفضل الأكبر في الثروة التي جمعَتها عائلته إنما يعود لها. فلماذا ينقلب ضدّها؟

مال نحوَها فوق الطاولة وهمس في اذنها: "اسمعي يا تامي، إنّي على استعداد لأن أخبرك أشياء كثيرة، أشياء تتعلق بجرائم خطيرة، منها القَتْل. لكن إيّاكِ أن تكشفي أمري لأيّ كان وإلّا قُتلتُ."

أجابته تامي: "ما زلت عاجزةً عن فهم سبب خروجك عن منظّمة مهمّة جداً لك ولعائلتك."

قال ديريك: "معلِّم الحَقّ الجديد"، وبصق على الأرض، وأكمل: "كرومويل، ذلك اللعين المجنون، سوف يقضي علينا. والحقيقة أن ما أقوم به هو مِن إخلاصي للطائفة وليس فيه خيانة لها. والأمل الوحيد لخلاص الطائفة هو في التخلُّص منه قبل أن يدمّرها. أريدك أن تفضحي أمره هو لا الطائفة. أَظْهري حقيقته كإنسان متهوِّر ومتعصِّب متزمّت."

ازداد قلق تامي ورأت أن المسألة تفوق تصوّرها وتزداد غموضاً، فسألته: "وما يدعوك لتأتمنني على ذلك؟"

بدا ديريك واثقاً من نفسه وهو يمرّ بيده على ذراعها ويقول: "لأنّكِ طموحة، ولأنك تتمنّين أن تكوني أوّل من ينشر هذا في كتاب ويعرضه في فيلم، ولأن أموالي توازي الدخل القومي الإجمالي لعدّة بلدان مستقلّة وتعلمين أنّي سأحرّر لك الشيكات التي تريدينها لتمويل مشروعك. هل أنا على صواب؟"

واجهته تامي بابتسامة عذبة واضعةً يدها فوق يده، وحاولت ألّا تُظهر اشمئزازها لرغبتها في متابعة الأمر للنهاية، وقالت له: "طبعاً، طبعاً."

وما لم يَبُحْ به ديريك في ذلك الحديث هو أن الوفد الأميركيّ كان يخطِّط لانقلاب في الطائفة. كان عليهم أوّلاً إنجاز بعض المهمّات في أوروبا وذلك بالتخلّص مِن كبار اللاعبين هناك. وكانوا يهيّئون والده، إيلاي وينرايت، لاحتلال منصب معلّم الحقّ، على أن يكون ديريك خليفته فيما بعد. ولن يتسنّى لهم ذلك إلّا إذا أضعفوا أصحاب النفوذ الأوروبيّين.

ابتسم ديريك وينرايت ابتسامة المفترس الماكر. لقد كان منذ البداية يستغلّ

تامي لهذا الغرض. ولو ظنَّت أنّها أغوَتْه بأنوثتها ليفشي أسرار طائفته فإنّها تكون مجرّد عاهرة غبيّة تستحقّ أن تُستغَلّ بالطريقة نفسها التي أرادتها. ومع ذلك، فإنه سيُمضي وقتاً ممتعاً بعد الظهر. وعلى كل حال، لطالما أثارته تلك الفاسقة التافهة بمفاتنها، ولَمّا ينلْها بعد!

حرصت تامي على عدم إيقاظ ديريك وهي تلملم حاجياتها. فقد كانت تريد المغادرة فوراً وتتمنى لو تصل بسرعة إلى القصر وتأخذ دشاً. وتساءلت كم ستضطرّ لِفَرْك جسدها لتزيل نتانة متعصّبي الطائفة العالقة بجلدها.

كانت مسرورة لأن أسوأ الاحتمالات لم يحدث وأن حساباتها كانت في محلّها، فبعد دقائق من وصولها مع ديريك إلى غرفته في الفندق غطّ في النوم متأثراً بما تناوله من شَراب وحبوب دواء، بالإضافة إلى التعب.

احتاجت تامي، في البداية، للمراوغة والمقاومة، فقد بدا ديريك نشطاً مندفعاً، لكنّها صرفته ببراعة إلى هاجسه الأساسيّ وهو القضاء على غريمه جون سايمون كرومويل. أصرَّت على الحصول على كل المعلومات الممكنة لتصبح شريكته في هذه اللعبة الخطرة. فزوَّدها ديريك بأكثر ممّا وعد به من وثائق وأسرار ومعلومات، بما فيها وصف تفصيلي دقيق لجريمة وحشيّة كانت قد ارتُكبت في مرسيليا قبل بضع سنوات.

استنفدت تامي كل ما أمكنها من رباطة الجأش لتتحمّل الوقائع التي سردها ديريك عن قتل ذلك الرجل من لانغدوك. لقد قُطع رأسه وبُترت السبّابة من يده اليمنى رمزاً لانتقام الطائفة. إنّ تامي تشمئزّ عادة من سماع حصول مثل ذلك لأيّ إنسان، لكنّ الأفظع هنا هو أنها تعرف شيئاً عن القتيل: لقد كان المعلّم الأكبر السابق لجمعية التفاح الأزرق. لذلك أرادت ألّا تكشف لديريك، ولو تلميحاً، أنها تعرف وقائع الجريمة التي كان يصفها، فضبطت أعصابها ومَحت عن وجهها أي تعبير أو ردّة فعل.

راحت تامي تلملم أغراضها بسرعة لمغادرة غرفة ديريك، لكنها ضربَت مصباحاً على الطاولة فوقع أرضاً، فتململَ ديريك مستفيقاً على الصوت. لعنَت تامي حظها وسمعت ديريك يتمتم:

"إلى أين؟"

"سيّارة سنكلير هنا لإعادتي إلى الآرك. عليّ أن أكون هناك قبل العشاء مع مورين."

حاول أن يجلس وأمسك رأسه وأخذ يئِنّ. لم يقوَ على النهوض، فألقى نفسه ثانيةً على الفراش، لكنّه تمكّن من الكلام: "آه، مورين. اللعنة! كنتُ أنسى أن أنبّهك."

جمدت تامي في مكانها وسألته: "ما الأمر؟"

"قد تكون في خطر اليوم."

"كيف؟"

"لقد خرجت مع جان كلود دو لا موت اليوم. صحيح؟"

هزّت تامي رأسها وأعملته بسرعة لتفهم ما يرمي إليه هذا الذي يتقلّب ويتمطّى أمامها قبل أن يستأنف كلامه:

"انتبهي يا فتاتي. جان كلود واحِد منّا، أو بالأحرى منهم! إنّه الساعد الأيمن لذلك المعتوه معلّم الحَقّ ورئيس فرع الطائفة في فرنسا منذ شبابه، واسمه الحقيقي ليس جان كلود، إنّه جان باتيست، أي المعمدان." وتوقّف قليلاً ليضحك لهذه النكتة، ثمّ أكملَ: "لكنّه من غير المحتمَل أن يؤذيها، الآن. إنّهم مهتمّون بمعرفة ما إذا كانت ستتمكّن من إيجاد الكنز المزعوم أثناء وجودها هنا. وكلانا نعلم أنّ هناك حدّاً زمنياً لهذا الاحتمال."

أخذ رأس تامي يدور، فهي لم تستطع تقبُّل فكرة كون جان كلود خائناً غادراً. لقد كان صديقاً لسنكلير ورولان طيلةَ سنوات، وكانا يثقان به ثقةً مُطلَقة. كم مضى على اختراقه ولعبه الدور المزدوج؟ لكنّ شيئاً آخر كان يقلقها وتريد التحقُّق منه. وتمنّت ألّا يكون قد ظهر عليها ما يدلّ على حقيقة مخاوفها، فسألته بكل هدوء:

"في السابق، كان يتمّ التخلّص من المنتظَر قبل التمكّن من إيجاد الكنز، فلماذا يختلف الأمر الآن؟ إذا كان جان باتيست ورئيسكم يعتقدان أنّ مورين هي المذكورة في النبوءة، فلماذا لا يتخلّصان منها قبل إنجاز مهمّتها، كما حصل سابقاً مع جان دارك وجيرمين؟"

تثاءب ديريك وهو يجيبها: "لأنّهما يتوقّعان أن توصلهما إلى كتاب المجدليّة

ليُتلفاه. بعد ذلك سيقضون على صديقتك حتى قبل أن تتمكّن مِن كتابة كلمة عن الاكتشاف."

سألته تامي باهتمام: "ولماذا تخبرني كل ذلك؟"

"لأنني أريد أن يسقط جان باتيست مع رئيسه. وأتصوّر أن معلّمكم الأكبر سنكلير سيخلّصني من ذلك الوغد الفرنسيّ عندما يعلم أنّه خدعه."

تمنّت تامي عندها لو تستطيع الصراخ بوجهه وإفهامه أن سنكلير والآخرين في منظّمتهم ليسوا مثله هو وأفراد طائفته المجرمين الحاقدين. لكنّها لم تجرؤ على التفوّه بأيّ كلمة تُفصح عن حقيقة رأيها قبل خروجها سالمة من غرفته.

ويبدو أن ديريك لم يكن قد أنهى كلامه، فأضاف: "أمّا الآن، فلْنقُلْ إنّني لو كنتُ مكانك لأخرجتُ تلك الفتاة من منطقة لانغدوك في الحال."

استدارت تامي نحو الباب ثمّ توقّفَت. كان عليها أن تسأل سؤالاً أخيراً لتعرف إلى أيّ مدى استغلّها ديريك وخدعها على مدى أعوام.

فسألته بلهجة رصينة: "ما هي حقيقة شعورك حيال كل هذا؟"

أجابها ديريك مُظهراً ملَله وتململه وكأنه يريد العودة للنوم، فقال: "لا يهمّني الأمر بأي شكل من الأشكال. إن صديقتك تبدو طيّبة، لكنّها على كل حال مِن نِتاج يسوع، وهذا ما يجعلها عدوّتي الطبيعيّة. هذه هي الحقيقة التي قد لا تتقبّلينها لكنّنا نتمسّك بها لأن تعاليمنا راسخة منذ زمن بعيد. أمّا بالنسبة للاكتشاف الفعليّ لمخطوطات العاهرة، فيبدو أن الجميع متأكّدون أنه سيحصل فعلاً هذه المرّة لأن النبوءة بكل تفاصيلها تنطبق على فتاتك. لكنّي لا أعيرُ الأمر أيّ أهمّيّة."

ثمّ ضحك قليلاً وانقلب على جانبه ورفع نفسه متّكئاً على مرفقه، ونظر إليها مستأنِفاً كلامه: "والمُضحِك في كل هذا هو أنْ لا أحدَ يريد ما في تلك المخطوطات حَقّاً. فالفاتيكان لا يريد الاعتراف بها بسبب محتواها وكذلك الطوائف المسيحيّة الأخرى، والمؤرّخون لا يريدونها لأنّها ستُظهر أن كل الأكاديميّين وعلماء الكتاب المقدّس مجموعة من المغفّلين. فالأرجح أن أعداءنا سيدفنون تلك المخطوطات قبل أن يعرف عامّة الناس محتواها، وبذلك يوفرون علينا عبء القيام بذلك بأنفسنا. هذا هو رأيي."

عاد للتثاؤب مرة ثانية كأنّ الموضوع برمّته تافه لا يستحّق المزيد من البحث؟ ثمّ انقلب على ظهره، وأضاف: "نحن بالطبع نكرهُ هذا الكتاب لِعِلْمنا أنّه سيحتوي على أكاذيب عن يوحنا المعمدان، ولأن امرأة عاهرة قد كتبَته."

أرادت تامي الجري إلى خارج الفندق بعيداً عن ديريك وفلسفة طائفته البغيضة بأسرع ما يمكنها. وما إن أصبحَت في الخارج حتى أدخلت يدها في جيبها وأمسكت بالهاتف الخلوي وأخرجته بسرعة. لم يكن أمامها وقت للتفكير ولا لِفعْل أيّ شيء سوى معرفة مكان وجود مورين في تلك اللحظة.

سارعت إلى الاتصال برولان، وكادت تجهش بالبكاء لمّا سمعت صوته يخاطبها بلهجته الأوكسيتانية المحبَّبة. كان الاتّصال مشوَّشاً، فاضطُرّت للصراخ لتُسمِعه صوتها: "مورين! أين مورين الآن؟ هل تعلم أين هي؟"

اللعنة! لم تسمع شيئاً مِن إجابته فصاحت ثانيةً: "ماذا قلتَ؟ لا أستطيع سماعك. ارفعْ صوتك حتى أسمعك يا رولان."

صاح رولان: "مورين هنا."

"هل أنتَ متأكّد؟"

"أجلْ. وكانت تبحث عنك..."

وانقطعت المكالَمة. ففكَّرت تامي أنّ ذلك يكفي لأنّها لم تكن قد فكّرَت بما ستقوله لرولان. فالمهمّ أن مورين سالمة في شاتو دي بوم بلو. أمّا هي فلديها الوقت الكافي لترتيب أفكارها. وسوف تلتقي بسنكلير قبل العشاء لتبحث الأمر معه.

تحقَّقَت تامي من الوقت على هاتفها الخلوي. كان من المقرَّر أن ينتظرها السائق بعد نصف ساعة قرب بوّابة المدينة. لم تكن المسافة بعيدة، لكنّها كانت متعبَة وخشيَت ألّا توصلها رجلاها المرتعشتان إلى المكان بسرعة. حاولت أن تتنفّس بانتظام، وراحت تمشي وهي تسترجع في ذاكرتها كل الفظائع التي علمَتْها من ديريك وعنه. ولمّا استجمعت كل الصورة حيّة واضحة شعرَت بالغَثَيان. ورأت أن أمامها حديقة تابعة لفندق صغير، فركضت ودخلت بين الشجيرات في الوقت المناسب وراحت تتقيّأ.

شاتو دي بوم بلو
25 حزيران (يونيو) 2005

كانت مورين تشعر بالذنب لإهمالها بيتر، لكنّها فتّشت عنه لدى عودتها من رحلتها مع جان كلود، فلم تجده.

أخبرها رولان: "لم أرَ الأب منذ الصباح. لقد تناول الفطور متأخّراً، وبعد ذلك بقليل رأيته يُغادر في سيّارتكما المستأجَرة. على كل حال، اليوم هو الأحد، ربما ذهبَ إلى الكنيسة. وفي المنطقة كنائس كثيرة."

اكتفَت مورين بهزّ رأسها، ولم تُعِر الأمر أهميّة، فبيتر ملتزم بواجباته الدينية ويتقن اللغة الفرنسية، فمن الطبيعيّ أنّه نوى الذهاب لحضور القُدّاس في كنيسة ما ثم التجوّل بين معالم تلك المنطقة الرائعة.

كان من المقرّر أن تتناول العشاء مع تامي لاحقاً في القصر، وهذا ما كانت تنتظره بفارغ الصبر إنّما من دون إهمال بيتر وجرح مشاعره. سألَت رولان: "هل لديك وسيلة للاتصال بتمارة وزدوم؟ نسيتُ أن أسألها إذا كانت تحمل الهاتف الخلوي معها."

"أجلْ، إنّه معها. ويمكنني الاتصال بها، وأنا على كل حال أريد أن أسألها شيئاً كلّفني به اللورد بيرنجيه. لكن، هل هناك أمر خطير؟"

"لا. أودّ أن أعرف إذا كانت تُمانِع انضمام بيتر إلينا في العشاء."

"أنا متأكّد أنّها لا تمانعُ، يا آنسة باسكال. وأعتقد أنّها تتوقّع حضور الأب هيلي لأنّها طلبَت منّي إعداد المائدة لكم أنتم الأربعة في الساعة الثامنة."

شكرته مورين وتوجهت إلى غرفتها. توقّفت أوّلاً أمام غرفة بيتر وقرعت الباب، فلم تسمع جواباً. هزّت المسكة المذهّبة ودفعت الباب قليلاً وأطلّت برأسها إلى الداخل. كانت أغراض بيتر مرتّبة بجانب السرير: كتابه المقدس المغلّف بالجلد ومسبحته البلّوريّة، لكنّه لم يكن بالداخل.

عادت مورين إلى جناحها الفخم وأخرجت أكبر دفاترها المغلفة بالقماش الفاخر. أرادت أن تكتب عن مونسيغور طالما أن الأفكار حاضرة في ذهنها بعد زيارتها مباشرة. لكنّها، وهي تزيح الرباط المطاطي عن الدفتر وتفتح صفحاته، فوجئت بأن قصّة استشهاد أخرى تخطر ببالها.

كانت مورين قد تسلّقت جبال منطقة البحر الميت الوعرة عند شروق الشمس أثناء زيارتها الأرض المقدّسة. سارت على الدرب الصخرية الملتفّة إلى جانب عدد قليل من الساعين للوصول إلى القمّة، وهي لا تدري بالضبط ما الذي دفعها لتحمُّل مشاقّ تلك الرحلة. وحتّى في ذلك الوقت المبكِّر كانت الحرارة مرتفعةً. كان الآخرون كلّهم في ذلك الصباح، يهوداً يؤدّون حجّة دينيّة وعاطفيّة بالنسبة لهم، أمّا هي فلم يكن لديها ذلك الدافع الديني أو التراثي.

توقّفَت مرّات عديدة وهي صامدة لتتأمّل بإعجاب تلاعُب النور والألوان فوق الأراضي الفضيّة ولمعانها فوق صفحة المياه الساكنة. وقد نفحَتْها روعة المنظر قوّةً دفعتها لمتابعة صعود الجبل.

كانت تصل إلى مسمعها نُتَف من أحاديث الصاعدين الآخرين. ومع أنّها لم تفهم لغتهم، إلّا أنّها أحسّت بشغفهم بأداء ذلك الواجب. وتساءلت ما إذا كانوا يتذكرون شهداء مساده الذين اختاروا الموت بدلاً من العيش أرقّاء أو تعريض نسائهم وأطفالهم لاستعباد الرومان وإذلالهم.

ولدى وصولها إلى القمّة، شاهدت بقايا الحصن القديم وجالت بين غرفه المتهدّمة وجدرانه المتداعية. فوجئت بكبر مساحة الحصن، وكان الزوّار الآخرون متفرّقين، فوجدت نفسها وحيدة وأحسّت بالسكون حولها. وقد تملّكها ذلك السكون وجعلها تستغرق في تأمّل الحجارة الصامتة ونقوش الفسيفساء الرومانية. ثمّ رأتْها.

حدث ذلك بسرعة ومن دون استئذان، مثل رؤاها الأخرى. لم تستطع أن تتذكّر كيف علمَت بوجود الطفلة هناك، لكنّها أدركَت أنّها موجودة في الغرفة. على بُعد حوالى عشر أقدام منها، كانت طفلة لا تجاوز الرابعة أو الخامسة تحدِّق إليها بعينين سوداوين واسعتين. كانت ثيابها ممزّقة وملطّخة، وامتزجت دموعها بالوحل المتناثر على وجهها. لم تتكلّم الطفلة، لكن مورين عرفت أن اسمها حَنّة وأنّها شهدت أحداثاً يُفترض ألّا يتحمّلها أيّ طفل.

وعلمت مورين أيضاً أن الطفلة نجت، بطريقة ما، من مأساة مساده الفظيعة، وتركت هذا المكان وأخذت قصّته معها، وكانت رسالتها إخبار شعبها بحقيقة ما حدث هناك.

لم تحدّد مورين كم استغرقت مدّة ظهور الطفلة أمامها. كان هناك حِسّ بالانعتاق من الزمن في رؤاها. فهل كانت دقائق؟ أم ثواني؟ أم دهوراً؟

تحدّثت مورين بعد ذلك إلى أحد الأدِلّاء المرافقين للزوّار. كان شاباً صريحاً، فأخبرَته بما رأته. رأى الشاب أنه ليس مستغرَباً أن يرى المرء شيئاً كذلك في مكان مشحون بالأحاسيس والعواطف. وأشار إلى وجود حكايات عن ناجين مِن مساده، منهم امرأة وعدّة أطفال اختبؤوا في كهف ثم هربوا، وقد حملوا معهم القصة الحقيقيّة وحفظوها.

اعتقدَت مورين أنّ حَنّة الصغيرة كانت من بين أولئك الأطفال.

ولطالما تساءلت، منذ ذلك اليوم، لماذا أبصرَت تلك الرؤيا ولماذا حدث ذلك معها؟ فهل كانت تستحقّ مثل ذلك الإيحاء المتعلّق بالتاريخ القديم لأولئك الناس؟ لكنها بعد زيارة مونسيغور بدأت الأمور تتّضح لها، فرأت أن هناك ما يجمع بين حَنّة الصغيرة والفتاة الكتاريّة المعروفة باسم باسكالينا، إن لم تكن علاقة قرابة فهي علاقة روحيّة، إذ أُوكلت كل منهما بحَمَل قصة شعبها حتى لا تضيع الحقيقة، وكان قدرها أن تنقل ذلك للبشريّة. أحسّت أن التاريخ وبقاء الجنس البشري تجسّدا في قصّة هاتين الفتاتين اللتين تجاوزتا الحدود الضيّقة ومثّلتا كل الشعوب من مختلف الأعراق والمعتقَدات الدينية.

وتساءلت، بعد فهمها تلك العلاقة، ألا يمكن أن يتّحد جميع الناس ويعتبروا أنّهم كلّهم قبيلة واحدة؟

همست مورين شاكرةً حَنّة وباسكالينا لدى انتهائها من كتابة ملاحظاتها في دفترها.

وصلت تامي إلى القصر وهي تتمنّى ألّا ترى أحداً قبل أن تأخذ دشاً لأنها كانت مُنهَكة وأحسّت أن كل نقطة في جسدها متّسخة. لكنّها فوجئت بظهور رولان أمام باب غرفتها.

فتح لها الباب ودخل وراءها، وسألها باهتمام بالغ: "هل أنتِ بخير؟"

"أنا بخير." وكانت قد هيّأت في نفسها قصّة لتخبره إيّاها، وكرّرتها في فكرها أثناء العودة في السيارة. لكنّ نظرة واحدة من ذلك الأوكسيتاني الضخم أذابَت قلبها. لقد ارتاحت لعودتها وأحسّت بالأمان لوجودها في القصر ووجوده هو معها، فألقَت بنفسها على جسده القويّ وأجهشت بالبكاء.

أصيب رولان بالذهول، فهو لم يرَها بهذا الضعف من قبل. "تمارة، ماذا حدث؟ هل أساءَ إليكِ؟ أَخبريني."

حاولت تامي أن تتمالك نفسها، فتوقّفت عن البكاء ونظرت إلى رولان قائلةً: "لا، لم يؤذِني. إنّما..."

"ماذا؟ ماذا جرى؟"

رفعَت يدها ولمست وجهه، ذلك الوجه الطويل الصُّلب الذي باتت تحبّه.

قالت هامسةً: "رولان... لقد صَدَقَ ظنّك بالنسبة لمَن قتل والدك. أعتقد أنّنا نقدر أن نثبت ذلك الآن."

... كان عيسى ابن النبوءة، وهذا ما كان يعرفه الجميع. وحملَت النبوءة معها قدَراً توجِّب تحقيقُه بحذافيره. وقد قام عيسى بذلك، لا سعياً لمجد شخصيّ، إنّما ليسهّل على اليهود فهم دوره وتقبُّله بصفته المخلِّص المنتظر. فإتمام دور عيسى وفقاً لطبيعة النبوءة بشكل دقيق كان سيجعل الشعب أقوى بعد رحيله.

لكن بالرغم من كل شيء، لم نكن نتوقّع أن يحدث ذلك بالطريقة التي تمّت.

دخل عيسى أورشليم على ظهر جحش متمّماً ما قاله النبيّ زكرياً عن وصول المكرَّس. تَبِعْناه ونحن نحمل سَعَف النخل ونهتف "المجدُ لِلّه". وانضمّ إلينا حشد كبير لمّا دخلنا أورشليم، وساد المدينة جوّ من الفرح والأمل. تبعَنا الكثيرون من بيت عَنْيا، وانضمَّ إلينا رِفاق سمعان مِن فرقة الغَيورين. وحتّى إنّ بعض ممثّلي إحدى حركات الأسينيّين مِن النُّسّاك تركوا صَوامِعهم في الصحراء ليرافقونا في ذلك اليوم الأغرّ.

لقد ابتهج أبناء الشعب العبرانيّ لأنّ هذا المُختار قد أتى ليحرّرهم من روما ونير الاضطهاد والفقر والبؤس. لقد كبر ابن النبوءة وأصبح رَجُلاً ومُخلِّصاً. وكُنّا نحسّ بالقوّة في قلوبنا وفي أعدادنا المتزايدة.

إنجيل الآرك لمريم المجدلية

كتاب عصر الظلمات

الفصل الثالث عشر

شاتو دي بوم بلو
25 حزيران (يونيو) 2005

يتّخذ العشاء في القصر عادةً طابعاً احتفالياً ضخماً في حال وجود ضيوف، ولم تكن تلك الليلة مختلفة. فبيرنجيه سنكلير استنفد جهود موظّفي مطبخه ولم يوفّر موارد قَبْو الخمر في قصره، فجاء مهرجان العشاء مطبوعاً بطابع لانغدوك والقرون الوسطى وبكميّات وفيرة. كذلك كان الحديث غنيّاً. وقد تمالكت تامي نفسها، فكانت هادئة وواثقة من نفسها، واهتمّت بأناقتها المعهودة، فظهرت في أبهى حُلّة شكلاً ومضموناً.

تابعت مورين بشغف النقاش الدائر بين سنكلير وتامي من جهة وبيتر من جهة أخرى مطمئنةً إلى أنّ ابن خالها بارع في الدفاع عن آرائه في أي نقاش دينيّ، وهذا ما كانت تلمسه دائماً من خبرتها المباشرة.

بدأ سنكلير النقاش بموضوع عامّ: "نعلم تاريخياً أن العهد الجديد، في وضعه الحالي، قد شُكّل في مجمع نيقِيا. كان أمام الإمبراطور قسطنطين ومَجمعه أناجيل عديدة ليختاروا منها، لكنّهم اختاروا أربعة فقط، أربعة حُوِّرَت بشكل مثير، فتصرّفوا كهيئة رقابة غيّرَت بعملها وجه التاريخ."

دخلت تامي النقاش بقولها: "وهذا يطرح السؤال: ماذا أراد أن يُخفي عَنّا؟"

لم ينزعج بيتر بتاتاً من مناقشة تلك المسألة التي طالما سمعها مراراً من قبل. وقد فوجئ خصماه في النقاش بإجابته: "بالإضافة إلى هذا التساؤل، هناك مسألة أخرى هي أننا لا نعلم حقّاً مَن كتب تلك الأناجيل الأربعة. والواقع أنّ الشيء الوحيد الذي يمكننا التأكّد منه نوعاً ما هو أنّ كُتّابها الفعليّين لم يكونوا متّى

ومرقس ولوقا ويوحنا. ويُرجَّح أن تكون الأناجيل قد نُسبت إلى الإنجيليّين الأربعة في القرن الثاني، حتّى إنّ بعض الدارسين يرون أنّ ذلك ليس أكيداً. وثمّة شيء آخر هو أنه، بالرغم من الوثائق المذهلة المتوفرة في الفاتيكان، لا يمكننا أن نقول يقيناً بأيّ لغة كُتبت الأناجيل الأصلية."

ظهرت المفاجأة على تامي، وقالت: "كنتُ أظنّ أنها كُتبت باليونانيّة!"

هزّ بيتر رأسه وقال: "أقدم النسخ الموجودة لدينا هي باليونانيّة، لكنّها على الأرجح ترجمات عن مخطوطات أقدم منها. ولا يمكننا الجزم بذلك."

سألت مورين: "وما مدى أهميّة معرفة اللغة الأصلية؟ أعني، هل لها دلالة غير إمكانيّة وجود أخطاء في الترجمة؟"

أجاب بيتر موضِحاً: "لأن اللغة الأصليّة هي الدلالة الأولى على هويّة المؤلّف وموطنه. فمثلاً، لو افترضنا أن الأناجيل كُتبَت أصلاً باليونانية، فإن ذلك يشير إلى أنّ المؤلّفينَ كانوا هِلّينِيّي الثقافة، أي متأثّرين بالحضارة اليونانية، وهذا خاصّ بالنُّخبة والمثقّفين. والنظرة التقليدية إلى الرسل ترى أنهم غير ذلك. وهذا ما يرجّح أنّها كُتبَت أصلاً بلغة أخرى عاديّة محلّيّة مثل الآراميّة أو العبريّة. فإذا كنّا متأكّدين من أن الأناجيل الأصليّة كُتبَت باليونانية فعلينا إعادة النظر فيما يعنيه ذلك حول أتباع يسوع الأوّلين."

وأضافت تامي: "إنّ الأناجيل الغنوصيّة التي وُجدت في مصر مكتوبة باللغة القبطيّة."

صَحَّحَ بيتر كلامها بشكل رقيق: "هناك نصوص قبطيّة، لكنّ مُعظمها منسوخ أوّلاً عن أصول يونانية ثُمّ منقول إلى القبطيّة."

فسألت مورين: "وعَلامَ يدلّ هذا كلّه؟"

"نحن نعلم أنه لم يكن بين أتباع المسيح الأوّلين أيّ مصريّ. فمعنى ذلك إذاً هو أن بعض أتباع المسيح قاموا بمهمّاتهم الرسولية الأولى في مصر، وأنّ المسيحيّة ازدهرت هناك، وهذا يفسّر وجود الأقباط المسيحيّين في مصر."

"فما هي إذاً الأشياء المؤكّدة التي نعرفها عن الأناجيل الأربعة؟"، سألت مورين ذلك متشوّقةً لمعرفة نتيجة النقاش. فخلال الفترة السابقة، لم يُتِح لها انهماكُها في أبحاثها الوقت الكافي للتدقيق في المسائل المتعلّقة بتاريخ العهد الجديد، إذ ركّزت اهتمامها على المقاطع المتعلّقة بمريم المجدلية.

أجابها بيتر: "نعلم أن إنجيل مرقس أتى أوّلاً، وأن إنجيل متّى يكاد يكون نسخة عنه، حيث يصل عدد المقاطع المتطابقة بينهما إلى ستّمئة مقطع. وإنجيل لوقا هو أيضاً شبيه بهما، مع أنّ المؤلّف أضاف بعض التفاصيل التي يخلو منها إنجيلا مرقس ومتّى. أما إنجيل يوحنا فهو أكثر الأناجيل الأربعة غموضاً لأنّه يتّخذ مواقف سياسيّة واجتماعيّة مُختلفة عن الآخرين."

قالت مورين: "أعرف أن هناك مَن يعتقد أن مريم المجدلية هي التي كتبَت الإنجيل الرابع المنسوب إلى يوحنا. لقد قابلتُ مرّةً عالِماً لامعاً من هذا الرأي. ومع أني قد لا أوافقه الرأي، فإن الفكرة مثيرة."

هزّ سنكلير رأسه وردّ مُنفعلاً: "لا. أنا لا أرى ذلك. فرواية مريم ما زالت مُخبّأة بانتظار مَن يكتشفها."

قال بيتر: "الإنجيل الرابع هو أكبر ألغاز العهد الجديد. هناك نظريّات عديدة حوله، منها أنّه من تأليف لجنة، أي عدّة أشخاص، في فترة زمنيّة، في محاوَلة لنقل وقائع حياة يسوع بطريقة مُعيّنة."

كانت تامي تُصغي لبيتر باهتمام، فعلّقت قائلة: "يبدو لي أن العديد من المسيحيّين التقليديّين يُصِمّون آذانهم ويتجاهلون هذه الحقائق." فلطالَما كانت تهتمّ بهذا الموضوع وتدخل في نقاشات مستفيضة حوله. ثم أضافت: "إنهم لا يريدون أن يعرفوا هذه الوقائع التاريخية، ويؤمنون، بشكل أعمى، بما تقوله الكنيسة أو يُخبرهم به رجال الدين."

أجاب بيتر مُحتدّاً: "لا، لا. حقيقة الأمر مختلفة. المسألة ليست تَعامِياً عن الحقيقة، إنما هي الإيمان. والمؤمن لا تهمّه الوقائع بتاتاً، ويجب ألّا نقع في الخطأ الشائع بالخلط بين الإيمان والجهل."

ضحك سنكلير ضحكة ساخرة.

وتابع بيتر: "إنّي جادّ في ما أقوله. فأصحاب الإيمان مقتنعون بأن العهد الجديد أُوحِيَ به من الله، وبالتالي، فلا يهمّ مَن كتبَ الأناجيل وبأيّ لغة طالما أن الله ألهَمَهم بالكتابة، حتّى إنّ مَن اتّخذوا القرار بمراجعة الأناجيل في مجمع القسطنطينية أو مجمع نيقيا لا بدّ أن يكونوا قد عملوا بدافع وحي إلهيّ. وهكذا فالمسألة تتعلّق بالإيمان ولا مجالَ للتاريخ هنا، ولا يمكن مناقشة الأمر لأن الإيمان غير قابل للمناقشة."

لم يُعلِّق أحد بانتظار سماع المزيد من بيتر الذي استطرد قائلاً: "أتظنون أنّني لا أعرف تاريخ كنيستي؟ أنا أعرفه تماماً، ولهذا لم أغضب أبداً من أبحاث مورين ولا مِن آرائكم. وعلى فكرة، هل تعلمون أنّ بعض الدارسين يعتبر أن إنجيل لوقا قد كتبته امرأة؟"

هنا بدت الدهشة على سنكلير الذي قال: "حقّاً؟ لم أسمع بهذا الرأي مِن قبل. لكنْ، ألا تجده غريباً؟"

أجاب بيتر: "لا أستغرب هذا الرأي بتاتاً. فلا يمكننا أن نُنكر أهمّية المرأة في بدايات الكنيسة وفي استمرارية المسيحيّة. فكيف نتجاهل ما قامت به نساء عظيمات مِثل كلارا الأسيزيّة التي حافظت على الحركة الفرنسيسكانية بعد وفاة القديس فرنسيس في مُقتبل العمر؟" ولاحظ بيتر ذهول سنكلير وتامي، فقال: "اعذراني لأنّي فَوّتُّ عليكما فرصة المجادَلة، فأنا أؤيّد فعلاً الرأي القائل بأن مريم المجدلية تستحقّ لقب رسولة الرسُل."

فهتفَت تامي غير مُصدِّقة: "وهل ترى ذلك حقّاً؟"

"مئة بالمئة. يُزوِّدنا لوقا في سِفْر أعمال الرسل بشروط اعتبار الرسول رسولاً، مِنها كونه جزءاً من رسالة يسوع خلال حياته، وكونه شاهداً على صلبه وقيامته من بين الأموات. وإذا أردنا تطبيق هذه الشروط بحذافيرها، فإن إنساناً واحداً قد استوفاها جميعاً وهو مريم المجدليّة. فالرسُل الذكور لم يشهدوا الصلْب، وذلك أمر مُحرج إلى حَدّ ما. وكانت مريم المجدلية أوّل مَن ظهرَ له المسيح بعد قيامته."

حاولَت مورين جاهدةً أن تمنع نفسها من الضحك لمّا رأت تعابير وجهَي سنكلير وتامي اللذين صعقتهما آراء بيتر وشخصيّته.

وتابع بيتر: "والجدير بالذكر أنّ شروط الرسل تنطبق فعليّاً على ثلاثة آخرين هم مريم العذراء، بالإضافة إلى مريم سالومة ومريم أم يعقوب اللتين ذُكر في الإنجيل أنهما كانتا حاضرتين عند صلب المسيح في الجلجلة وعند القبر يوم القيامة."

ولمّا التقَت عينا بيتر بعيني مورين لم تستطع منع نفسها من الضحك، فتردّدت ضحكتها في أرجاء الغرفة.

تساءَل بيتر: "ما الأمر؟"

اعتذرت مورين قائلة: "آسفة" واحتست جرعة من كأس النبيذ في يدها، وأضافت: "الحقيقة أن بيتر بارع في مفاجأة الآخرين، وأنا أجد متعة في مراقبة وقع ذلك عليهم."

وقال سنكلير: "أُقِرّ أنّكَ تختلف جوهرياً عمّا ظننْتُ، أيها الأب هيلي".

فسأله بيتر: "وما كان ظنّك يا أيها اللورد سنكلير؟"

"عفواً، لكنّي توقّعت أن تكون مدافِعاً متعصّباً عن الكنيسة الكاثوليكية وغارقاً في العقائد والتعاليم."

ابتسم بيتر وقال: "لكنّك، يا لورد سنكلير، نسيتَ أمراً هاماً وهو أنّي لست كاهناً فحسب، فأنا كاهن يسوعيّ وإيرلنديّ أيضاً."

رفع سنكلير كأسه لبيتر وقال: "حسناً! أصبت أيّها الأب هيلي." والواقع أن رهبانيّة بيتر، جمعيّة يسوع، المعروفة باسمها الشائع "اليسوعيّون"، تهتمّ بالتعليم والثقافة. ومع أنهم أكبر الرهبانيّات الكاثوليكيّة فإن المحافظين في الكنيسة يتهمونهم منذ مئات السنين بأنهم مستقلّون في آرائهم. وصحيح أن اليسوعيّين يلقّبون بحُماة البابا، لكن الشائعات السائدة على مدى قرون تتّهمهم بأنهّم ينتخبون رؤساءهم ويخضعون للحبر الروماني شَكْلاً فقط.

ازداد فضول تامي لدى سماعها رأي بيتر في المرأة، فسألته: "هل لدى جميع أعضاء رهبانيتك الرأي نفسه حول دور المرأة؟"

فأجابها: "لا يجوز التعميم هنا. فكما قالت مورين، يميل الناس لتصوُّر رجال الدين في قالب واحد مُفترضين أننا جميعاً نفكّر بعقليّة واحدة، وهذا خطأ. فالكهنة بشر، وبعضهم في غاية الذكاء وذوو ثقافة عالية مع التزامهم الشديد بإيمانهم، وكلّ منهم يكوّن آراءه الخاصة.

"لكنّنا بحثْنا مطوّلاً موضوع مريم المجدلية وموضوع صحّة الأناجيل الأربعة. ولا بدّ أن يكون الرسل الذكور قد شعروا بنوع من الحرج لأن يسوع اعتمد في رسالته على تلك المرأة بغضّ النظر عن موقعها في حياته ومهمّاته. لكنّها كانت امرأة، على كل حال، في زمن اعتبر المرأة دون الرجل. لذلك اضطرّ الإنجيليّون لذكر تلك الواقعة عنها لأنها حقيقة بالرغم من الحَرَج الذي يسبّبه ذلك لهم. وحتى لو تلاعب كتّاب الأناجيل بالحقائق الأخرى لما استطاعوا تحوير ذلك العنصر الأساسي في قيامة يسوع، وهو مجيئه أوّلاً إلى مريم المجدلية، فهو لم يظهر للرسل الذكور،

إنّما ظهرَ لها. لذلك أرى أنّه لم يكن أمام كتّاب الأناجيل الأربعة خيار آخر غير ذِكْر ذلك لمجرَّد أنه الواقع."

كان إعجاب تامي ببيتر يزداد، وبدا ذلك على قسمات وجهها وهي تقول: "إذاً أنت مستعدّ لبحث احتمال أن تكون مريم المجدلية أهمّ تلاميذ المسيح؟ أو حتّى أكثر من ذلك؟"

نظر بيتر إلى تامي مباشرة وخاطبها بجدّيّة تامّة: "إني مستعدّ لأبحث أي شيء يقرّبنا من فهم صادق لطبيعة يسوع المسيح، مخلّصنا."

كانت أمسية رائعة بالنسبة لمورين. فبيتر كان أكثر نُصَحائها الموثوقين، وهي قد أُعجبت بسنكلير واعتبرته إنساناً جذّاباً، لذلك أحسّت براحة عميقة إذ لاحظت وجود أرضيّة مشتركة بين ابن خالها وذلك الإسكتلنديّ الغريب. فلعلّهما يعملان معاً لمساعدتها في فهم كل الظروف الغريبة المحيطة برؤاها.

بعد انتهاء العشاء، استأذن بيتر بالانصراف لأنه كان متعَباً بعد قضائه اليوم متجوّلاً في المنطقة. كما استأذنت تامي بداعي انشغالها بكتابة نصوص فيلمها الوثائقي. وهكذا بقيت مورين مع سنكلير وحدهما. ويبدو أن أثَر النبيذ وارتياحها للمناقشة قد نفحاها بجرعة من الجرأة، فقالت لسنكلير بكل ثقة:

"أعتقد أنه آن الأوان لتفي بوعدك."

"أيّ وعد، يا عزيزتي؟"

"أريد أن أرى رسالة والدي."

بدا أن سنكلير يقلّب الأمر، وتردّد قليلاً، ثم أذعنَ قائلاً: "حسناً، تعالي معي."

سار سنكلير مع مورين عبر ممّر متعرّج وصولاً إلى غرفة مقفلة. أخذ حلقة مفاتيح كبيرة من جيبه وفتح الباب. ثم أدخلَ مورين إلى مكتبه الخاصّ. لمسَ مفتاحاً

كهربائياً على الجهة اليمنى عند دخولهما، فأُضيئت لوحة كبيرة على الحائط المقابل.

شهقت مورين وصاحت مسرورةً: "كاوبر! إنّها لوحتي المفضّلة!"

ضحك سنكلير وقال: "هذه لوحة لوكريس بورجيا التي كانت تحكم الفاتيكان في غياب البابا إسكندر السادس. وأعترفُ أنّي حصلت عليها بعد قراءة كتابك. لقد ساومتُ متحف تايت مطوّلاً للحصول عليها، فأنا أثابر حتى الحصول على ما أريده".

اقتربت مورين من اللوحة متهيّبةً ومعجبَة ببراعة ألوان الفنان البريطاني فرانك كادوغان كاوبر، من مطلع القرن العشرين. وتصوّر اللوحة لوكريس بورجيا جالسةً على كرسيّ الفاتيكان محاطةً بمجموعة من الكرادلة المرتدين ألبستهم الحمراء. وكانت قد رأت اللوحة أول مرّة في مقرّها السابق في متحف تايت البريطاني في لندن. وقد صُعقت مورين إذ رأت أن تلك اللوحة بالذات تفسّر محاولات تهديم سُمعة الناس على مدى مئات من السنين كما حدث مع لوكريس، وهي ابنة البابا. فقد نُعتت بأبشع النعوت، كالمجرمة والعاهرة ومرتكبة سفاح القُرْبى، وعاقبها مؤرخو القرون الوسطى الذكور لأنها تجرّأت على الجلوس على عرش القديس بطرس المقدّس وإصدار الأوامر البابوية في غياب أبيها.

قالت مورين لسنكلير موضحةً موقفها: "كانت لوكريس من أهمّ دوافع تأليف كتابي، فقصّتها تجسّد قضيّة المرأة التي أُنزلت عليها اللعنات وجُرِّدت من سلطتها."

وكانت مورين قد توصّلت في أبحاثها إلى أنّ التهمة الفظيعة بارتكاب زنى القُرْبى إنّما كانت من اختراع زوجها الأوّل، وهو إنسان جِلْف عنيف أفلسَ بعد إبطال زواجهما، فأطلق الشائعات بأن لوكريس أرادت فسخ الزواج لأنها كانت مرتبطةً جنسيّاً مع والدها وأخيها. وقد سادت هذه الأكاذيب الباطلة قروناً بعد أن غذّاها أعداء عائلة بورجيا وحسّادها.

"تعلمين أن عائلة بورجيا هي من السلالة."

سألته مورين وكأنّها تشكّ في كلامه:" عائلة بورجيا! كيف؟"

"إنهم ينتمون إلى فرع سارة ـ تامار. فأجدادهم كثار هربوا إلى إسبانيا. التجؤوا أوّلاً إلى الدَيْر في مونسرا ثم اندمجوا في منطقة أراغون واتّخذوا اسم بورجيا قبل الهجرة إلى إيطاليا. ولم يكن اختيارهم للمكان ولا طموحهم الأسطوري بمحض الصدفة، فقد كان رودريغو بورجيا، أي البابا إسكندر السادس، مصمّماً على

الجلوس على العرش لإعادة روما إلى من رأى أنهم أصحاب الحق في حكمها."

هزّت مورين رأسها مُعجبةً فيما راح سنكلير يتابع حديثه:

"كان تقلُّد ابنته العرش معبِّراً عن تحدّره من أصل كتاري. ففي تعاليم 'الطريق'، النساء مساويات للرجال في كل المسائل، بما فيها القيادة الروحية. وقد اتّخذ سيزار موقفاً سبَّب الإطاحة بابنته لاحقاً. وللأسف، لا يذكر التاريخ الآن آل بورجيا إلا كأشرار وأصحاب مكائد."

وافقته مورين على قوله واضافت: "حتى إنّ بعض المؤلّفين ذهبوا إلى حَدّ وصفهم بأنّهم أوّل عائلة في عالم الجريمة المنظّمة، وفي ذلك ظلم كبير."

"إنّه فعلاً كذلك، بالإضافة إلى كونه غير دقيق."

كانت مورين لا تزال تفكّر في مسألة تحدّرهم من السلالة، فقالت: "هذه المعلومات عن انتمائهم للسلالة تضيف بُعداً تاريخياً جديداً."

فمازحها سنكلير قائلاً: "هل تحسّين باقتراب تتمّة السلالة منكِ، يا عزيزتي؟"

"إني اشعر بدنوّ نتيجة ما يزيد على عشرين عاماً من البحث. أنا منذهلة وأترقّب بفارغ الصبر معرفة نتيجة كل هذا."

"أجلْ، لكن يجدر بك أولاً أن تنظري إلى فصل من حياتك أنتِ."

جمدت مورين وأطرقت. فكم رجَته وألحّت عليه للوصول إلى هذه اللحظة، وهي سبب مجيئها إلى فرنسا، بالدرجة الأولى. لكنها الآن مضطربة وتخشى معرفة الأمر.

سألها سنكلير مُهتمّاً: "هل أنتِ على ما يُرام؟"

هزّت رأسها قائلةً: "أنا بخير، لكنّني وقد أصبحت هنا الآن... فإني متوتّرة. هذا كل ما في الأمر."

أشار سنكلير إلى كرسيّ، فشكرته مورين وجلسَت. فتح خزانة ملفات داخِلة في الجدار لها مفتاح خاص، وأخذ منها ملفاً، وراح يقول وهو يمشي نحو مورين:

"اكتشفتُ هذه الرسالة في محفوظات جدّي منذ سنوات. ولمّا سمعْتُ بعملك

ورأيت صورتك والخاتم تحرّكَت ذاكرتي بشكل غامض. كنت أعلم بوجود أناس من عائلة باسكال هنا في فرنسا، لكنّي أيضاً تذكّرت أنّه كان فيما مضى أميركيّ مهمّ اسمه باسكال. ولم أعرف السبب حتى وجدتُ هذه الرسالة."

وضع سنكلير الملف بتأنٍ أمام مورين وفتحه، فظهرت ورقة مصفرّة. عليها كتابة باهتة اللون، ثمّ سألها: "هل أترككِ وحدكِ؟"

نظرَت مورين إلى وجهه وأحسّت بالتفهّم والاطمئنان، فقالت: "لا. أرجوكَ، ابقَ معي."

أومأ سنكلير برأسه وربّت على يدها برِفْق، ثم جلس صامتاً في الجهة المقابلة من الطاولة. تناولت مورين الملفَ وأخذت تقرأ.

بدأت الرسالة بعبارة: "عزيزي السيّد جيليس،"

فسألت مورين: "جيليس؟ ظننتُ أن الرسالة موجّهة لجدّك!"

هَزّ سنكلير رأسه نافياً، وأجاب: "كلّا، لقد كانت في ملفّات جدي، لكنّها موجّهة لرجل من المنطقة من عائلة كتارية عريقة هي عائلة جيليس."

فكّرت مورين قليلاً في أنّها سمعت ذلك الاسم من قبل، لكنّها لم تتوقّف طويلاً عند تلك الفكرة، إذ إنها كانت متلهّفة لمعرفة محتويات الرسالة.

> عزيزي السيد جيليس،
>
> *اعذرني يا سيّدي، لكن ليس أمامي مَن ألجأ إليه سواك. سمعتُ أنك ذو معرفة عظيمة في الأمور الروحية، وأنك إنسان مسيحيّ صادق، وآمل أن تكون كذلك. إنني أعاني، منذ عدّة أشهر، من كوابيس ورؤى عن يسوع على الصليب. لقد أتاني وأعطاني آلامه.*
>
> *لكنّني لا أكتب لك بشأن وضعي أنا، بل إني مهتمّ بأمر ابنتي الصغيرة مورين. إنّها تصرخ في الليالي وتخبرني أنّها ترى الحلمَ المروّع نفسه الذي أراه أنا. إنّها لا تزال طفلة، فكيف يحدث لها ذلك؟ وكيف أستطيع أن أوقفه قبل أن تُصاب بالآلام التي أحسستُ بها؟*
>
> *لا أستطيع أن أتحمّل رؤية ابنتي تعاني ذلك. إنّ أمّها تلومني وتهدّدني بأخذ الطفلة بعيداً عني إلى الأبد. أرجوكَ ساعدني. مِن فضلك أخبرني ماذا أفعل لأنقذ ابنتي الصغيرة.*

مع بالغ شكري وتقديري

إدوارد باسكال.

أعادت مورين الرسالة إلى مكانها وكانت عيناها مغرورقتين بالدموع، ثمّ أجهشت بالبكاء.

عرض سنكلير على مورين البقاء معها، لكنها لم تشأ ذلك. لقد هزّت الرسالة كيانها، وأرادت أن تختلي بنفسها، خطرَ ببالها أن توقظ بيتر، لكنها سرعان ما صرفت النظر عن ذلك. كان عليها أن تفكّر في الأمر أوّلاً. ثمّ إن زلّة لِسان بيتر مؤخّراً بأنّه "وعدَ والدتها بعدم السماح لحدوث الشيء نفسه" جعلَتْها مرتابَة ومضطربة. كان بيتر دائماً سنداً لها لأنه الرجل الوحيد الذي تعتمد عليه. وكانت تثق به ثقة مطلقة وتعلم أنه لا يمكن أن يُقدم على أي عمل يمكن أن يؤذيها. لكنْ ماذا يحدث إذا كان بيتر يتصرّف بناءً على معلومات مغلوطة؟ فبيتر الذي كان يرفض الحديث عن طفولة مورين بشكل واضح إنما استقى معلوماته حول طفولتها مِن أمّها.

أمّها! جلسَت مورين على السرير الواسع متّكئةً على الوسائد المطرّزة. كانت برناديت هيلي امرأة صارمة وعنيدة، أو بالأحرى هكذا تتذكّرها مورين. والإشارات الوحيدة التي قد توحي بعكس ذلك، في أوائل طفولتها، موجودة في بعض الصور. كانت مورين تحتفظ ببعض اللقطات لأمها وهي تحملها عندما كانت طفلة صغيرة في لويزيانا، وتبدو فيها برناديت تواجه الكاميرا بوجه مشرق ونظرة اعتزاز بمولودتها الجديدة.

لقد تساءلت مورين كثيراً عمّا غيّر برناديت وحوّلها من الأم الشابّة المُفعمة بالأمل، كما في الصُّور، إلى الأم الباردة الصارمة، كما تتذكّرها. وعندما انتقلَت مورين مع أمّها إلى إيرلندا، اهتمّ بتربيتها خالها وزوجته، أي والدا بيتر. فقد أودعتها أمّها برناديت في أمان وعُزلة تلك المنطقة الزراعية النائية في غرب إيرلندا، وذهبَت هي لكي تعمل ممرّضةً في مدينة غولواي.

كانت مورين نادراً ما ترى أمّها، وذلك عندما تعود إلى المزرعة لشعورها بالواجب أو الالتزام. ثمّ غدَت تلك الزيارات متكلّفة مع ازدياد غُربة أمّها عنها. وقد تقبّلت مورين أسرة بيتر كأنها أسرتها الخاصّة، وشعرت بالدفء والبهجة مع حركة

أبناء العائلة وصخبهم. وقد عوّضتها زوجة خالها، الخالة أيليش، حنان الأم، وكوّنت حيويّتها ومرَحها بتأثير من عائلة بيتر. أمّا ميلها للتحفُّظ والنظام والحذَر فقد جاء مِن والدتها.

كانت الخالة أيليش أحياناً، بعد انتهاء زيارات برناديت المشؤومة، تأخذ مورين جانباً.

كانت تقول لها بصوت هادئ حنون: "مورين، لا تكوني قاسية في حُكمك على أمّك. إنّ برناديت تحبّك. قد يكون تبدّلها المفاجئ ناتجاً عن شدّة محبّتها لك. لقد مرَّت بظروف صعبة جداً جعلتها إنسانة مختلفة. ستفهمين ذلك عندما تكبرين."

لقد قضى الزمن والقدَر على أيّ أمل بأن تعرف مورين أمها أو تفهمها بشكل أفضل، فقد أُصيبت برناديت بمرَض الورَم اللِّمفاويّ حين كانت مورين في سن المراهقة، وسرعان ما توفِّيت. واستُدعي بيتر وكان الكاهن الذي أقام معها الصلوات والأسرار الأخيرة وهي على فراش الموت، فسمع اعترافها الأخير، وحمل على عاتقه طيلة حياته ثِقَل اعترافات عمّته المروِّعة، لكنّه كان يرفض الحديث عن الأمر مع مورين لأنّ من واجبه المحافظة على سرّ الاعتراف.

لقد ظهر أمام مورين الآن ما قد يساعد على حَلّ اللغز، فعليها أن تحاول تفسير معنى رسالة والدها، وهذا قد يُلقي بعض الضوء على الإرث الثقيل الذي تركه لها. وقرّرت أن تؤجّل المسألة إلى اليوم التالي للتباحُث بشأنها مع بيتر بذهن صافٍ.

كركاسون

25 حزيران (يونيو) 2005

نام ديريك وينرايت نوماً عميقاً جداً حتَّمَه مزيج تشكيلة الأدوية التي ابتلعها والنبيذ الذي تناوله، بالإضافة إلى شدّة تعبه.

لو كان أكثر وعياً وصحواً لربّما كان تنبَّه لوَقْع الخطوات ولصوت بابه يُفتح أو للترنيمة التي همسَ بها مُهاجِمه:

"اقتلوهم جميعاً. اقتلوهم جميعاً. الله يعرف الذين له."

لكنْ بمجرَّد أن رُبط الحبل الأحمر حول عنق ديريك وينرايت، انقضى الأمر.

وبخلاف ما حدث مع روجيه برنار جيليس، لم يحظَ ديريك بفرصة الموت قبل بدء طقوس العِقاب.

شاتو دي بوم بلو

انكمشت مورين لدى سماعها طرقاً على بابها. لم تكن مستعدّة بعد للتحدّث إلى سنكلير أو بيتر. وهدأ روعها لمّا سمعت صوت أنثى وراء الباب.

"ريني، افتحي لي."

فتحت مورين الباب لتامي التي نظرت إليها نظرة واحدة وتأوّهت. "تبدين في حالة مُزرية!"

"شكراً. أنا بألف خير!"

"هل تريدين التحدّث في الموضوع؟"

"ليس الآن. إنّي أحاول معالجة بعض الأمور الشخصيّة."

تردّدت تامي، وتنبّهت مورين فجاة إذ رأت تمارة وزدوم في حالة غريبة عنها: لقد كانت متوتّرة.

"ماذا حدث يا تامي؟"

تنهّدت تامي وهي تملّس شعرها الطويل بيدها. "لا أحبّ أن أُثقل عليكِ وأنت أصلاً في وضع مضطرب، لكنّي أحتاج حقّاً إلى أن أتحدّث معك."

أشارت مورين إلى زاوية الغرفة حيث مقاعد الجلوس، وقالت: "تعالي لنجلس."

هزّت تامي رأسها وقالت: "لا. تعالي معي. أريد أن أريك شيئاً."

أجابت مورين بكل بساطة: "حسناً"، وتبعَت تامي في ممرّات شاتو دي بوم بلو المتعرّجة. فبعدَ كل ما حدث، ظنّت أنّه لم يَعُدْ هناك شيء يمكن أن يفاجئها. لكنّها كانت مُخطِئة!

دخلنا غرفة وسائل العرض الحديثة حيث كان سنكلير قد أطلعَ مورين وبيتر على خرائط المنطقة والأبراج الفلكيّة. أشارت تامي إلى أريكة جلديّة موضوعة مقابل جهاز تلفزيون ذي شاشة كبيرة. أمسكَت جهازاً للتحكّم من بُعد وجلست قرب مورين. ثمّ أخذت نفَساً عميقاً وبدأت الكلام:

"أريد أن أريكِ جزءاً ممّا صوّرتُه لفيلمي الوثائقي الجديد، وهو عن السلالة. أَصغي جيّداً لما أقول لأنّه في غاية الأهميّة ويتعلّق لساساً بك وببورك في هذه المسألة.

"تعلمين أن لغز يسوع ومريم المجدلية قد كان وراء قيام العديد من الجمعيّات السريّة والعنيفة، التي تتداول في أمور السلالة وتؤدّي طقوساً في غاية التكتّم."

ضغطَت تامي على جهاز التحكّم فأُضيئت الشاشة وظهر عرْض لشرائح مصوّرة، صورةً بعد صورة. مَرّت أولاً صور للوحات عن مريم المجدليّة بريشة كبار رسّامي عصر النهضة وعصر الفن الباروكي.

"تضمّ بعض هذه الجماعات غُلاة المتعصّبين، لكنّ بعضها الآخر يضمّ أناساً طيّبين أتقياء. وسنكلير هو أحد هؤلاء الصالحين، فأنتِ في أمان هنا. سأوضح لك الأمر." وصمتَت لحظات لتستجمع أفكارها.

"لقد أردتُ إعداد فيلم يشرح كامل أبعاد هذا المفهوم وإلى أي مدى تصل فكرة السلالة المقدّسة في العالم الغربي وفي تاريخنا. لذلك كان عليّ إظهار الميدان الواسع الذي يضمّ كل المتحدّرين من سلالة يسوع ومريم المجدلية قديماً وحديثاً، من أشهرهم إلى المجهولين منهم."

وملأت الشاشة صوَر أشخاص تاريخيّين ودينيّين معروفين، فيما استطردت تامي:

"قد تفاجَئين بورود بعض الأسماء، مثل شارلمان والملك آرثر وروبرت بروس والقديس فرنسيس الأسيزي."

"مهلاً، مهلاً. القديس فرنسيس الأسيزي؟"

أومأت تامي وقالت: "بكل تأكيد. كانت أمّه الليدي بيكا، المولودة في تراسكون، مِن نسل كتاري صافٍ من عائلة بورلمون النبيلة المتحدّرة من فرع سارة

ـ تامار. وهذا هو سبب تسميته بذلك الاسم، فقد وُلد باسم جيوفاني، لكنّ والديه أسمياه فرنسيسكو لأنّه ذكّرهما كثيراً بأصل عائلة والدته الفرنسيّ ـ الكتاريّ. على فكرة، هل ذهبتِ يوماً إلى أسيزي؟"

هزّت مورين رأسها نافية من دون أن تنبس بكلمة لأنها كانت مذهولة لتلك المعلومات الجديدة المُضافة إلى ما اكتشفَته مؤخراً. وراحت تراقب الشاشة مفتونةً بصور أسيزي، القرية التي نشأت فيها الحركة الفرنسيسكانية.

"يجب أن تزوريها، إنّها من أجمل الأماكن على وجه الأرض، ولا تزال روح القدّيس فرنسيس ورفيقته القدّيسة كلارا حيّة هناك. وأعتقد أنهما عاشا شيئاً من حياة يسوع ومريم المجدلية. لكن انظري جيّداً إلى هذه الأعمال الفنيّة في كاتدرائية القدّيس فرنسيس. لقد كرّس الفنّان العظيم جيوتو كل رسومه في الكاتدرائية لمريم المجدلية. ومنها لوحة جدارية تصوّرها لدى وصولها إلى شواطئ فرنسا بعد صلب المسيح. لقد أراد أن يقول شيئاً في اللوحة. وهناك الكثير من الميول الكتارية فيما نعتبره مِن صُلب التفكير الفرنسيسكاني."

وتوقّفت أمام لوحة جيوتو للقدّيس فرنسيس وهو يتسلّم علامات الصَّلْب من السماء.

"وفقاً لسجلاّت الكنيسة، القدّيس فرنسيس هو القديس الوحيد الذي ظهرت عليه علامات الصَّلب في نقاطها الخمس. والسبب هو السلالة، فهو سليل يسوع المسيح. وأظنّ أن هناك براهين على أن كلّ مَن يحمل علامات جِراح المسيح بشكل مؤكّد لا بد أن يكون من السلالة. لكن المهمّ في موضوع فرنسيس هو أنّه حمل العَلامات الخمس كلّها، وهذا ما لم يحمله أحد سواه على الإطلاق."

كانت مورين تتابع كلام تامي وهي تعدّ الجراح في الصورة: "الكفّان والقدمان، تلك أربعٌ، و...؟"

"الجانب الأيمن حيث طعنَ قائد المئة الرومانيّ المسيح بحربة. لكن اسمحي لي بتصحيح معلوماتك. العلامات الصحيحة المؤكّدة لا تظهر على الكفّين إنّما على المعصمين. فعلى العكس مِن الاعتقاد الشائع، لم يُسمَّر المسيح في الكَفّين إنّما في عظمتي المعصمين لأن راحتي اليدين لا تقويان على حَمَل ثِقل الجسم.

"ومع أنّه تمّ التثَبُّت من ظهور العلامات أحياناً في الراحتين، كما في حالة القدّيس الأب بيّو، فالعلامات على المعصمين هي ما يثير اهتمام الكنيسة. وهذا ما

جعل فرنسيس في غاية الأهميّة. علماً بأن الرسّامين مثل جيوتو يُظهرون العلامات على راحتي اليدين لزيادة التأثير الدراماتيكي، لكن الروايات التاريخيّة تؤكّد غير ذلك، لأن القديس فرنسيس كان لديه العلامات الخمس بما فيها علامتا المعصمين."

أطلقَت تامي زِرّ التوقّف المؤقّت لتُظهر الصورة التالية وهي صورة تمثال جان دارك المذهَّب في باريس. ثم ظهرت صورة أخرى لجان دارك، هي صورة تمثالها في حديقة سونبير الذي كانتا قد رأتاه قبل يومين.

"هل تتذكرين أنّ بيتر سألني عن تمثال جان دارك هذا؟ وقال إنّ كل الناس يعتبرونها رمزاً للمذهب الكاثوليكي التقليدي. لكن ستعرفين الآن أنّها على العكس من ذلك تماماً."

عرضت تامي صورة لجان دارك وهي تحمل رايتها المعروفة وعليها شعارها: "يسوع - مريم".

"يظنّ المسيحيّون، منذ زمن، أنّ شعار جان دارك يشير إلى المسيح وأمّه مريم، في حين أنّه يشير فعلاً إلى المسيح ومريم المجدلية، ولهذا وُضع الاسمان تفصل بينهما شَرطة للدلالة على اتحادهما، أي يسوع وزوجته، وهما جَدّا جان دارك الأعليين."

صاحت مورين: "لكنّي أعتقد أنها كانت فلّاحة... راعية." وذُهلَت إذ تلفّظت بكلمة (راعية).

"بالضبط! راعية. وماذا عن اسمها؟ جان دارك، أي من الآرك، ممّا يعني ارتباطها بهذه المنطقة، مع أنها وُلدت في دومريمي. وفي اسمها أيضاً إشارة إلى تحدّرها من السلالة وإلى إرثِها العظيم. ألم يُطلِعْك بيري على النبوءة؟ ألم يُخبركِ عن المنتَظر؟"

هزّت مورين رأسها متمهّلةً: "أظنّ أنّ العالَم ليس مستعدّاً بعد لهذا، وأنا أيضاً غير مستعدّة."

أوقفَت تامي عرض الصور مؤقّتاً وخاطبَت مورين وجهاً لوجه: "اسمعي بقيّة قصّة جان دارك، لأنّها هامّة جداً. ما مدى ما تعرفينه عنها؟"

"ما يعرفه معظم الناس. لقد قاتلَت لتُعيد وليّ العهد إلى عرش فرنسا وحاربَت الإنكليز. وقد أُعدمت حَرْقاً بتهمة أنها ساحرة، مع أن الجميع يعلمون أنها لم تكن كذلك..."

"لقد أحرقوها لأنّها كانت ترى رؤى."

كانت مورين تفكّر في الأمر مليّاً محاوِلةً معرفة ما ترمي إليه تامي. ولمّا لاحظَت تامي انشغال بال مورين، أضافت قائلةً:

"كانت رؤى جان دارك رؤًى سماويّة، وهي كانت من السلالة. فماذا يعني ذلك برأيك؟"

لم تنتظر تامي جواباً، بل تابعَت: "كانت جان دارك الإنسان المنتظَر، وهذا ما أدركه جميع الناس وانتظروا أن تتحقّق النبوءة. كانت ترى رؤى يُمكن أن تقودها إلى إنجيل المجدلية، لذلك كان عليهم إسكاتها نهائيّاً."

صُعقت مورين وهتفَت: "لكنْ... هل كان مولد جان دارك في يوم ميلادي نفسه؟"

"نعمْ، مع أنّه لم يُدوَّن كذلك، إنّما ذُكر أنّه في كانون الثاني (يناير). وقد أُخفي عمداً لحماية هويتها كابنة ملكيّة غير شرعية وكأميرة الكأس المقدّسة المنتظرَة منذ عهد بعيد."

"وكيف تعرفين ذلك؟ هل هذه المعلومات موثّقة؟"

"أجَلْ. لكن كُفّي عن التفكير كباحثة أكاديميّة. عليك أن تقرئي بين السطور حيث المعنى الحقيقيّ، ولا تُسقِطي الحكايات المحليّة من الاعتبار، فأنتِ إيرلندية وتعرفين أهميّة التراث المحكيّ وكيفيّة توارثه. ولا يختلف الكَتار في هذا عن السلتيّين، لا بل هناك أدلّة كثيرة على أن هاتين الثقافتين اندمجتا في كافة أنحاء فرنسا وإسبانيا. كان الكتار يصونون تراثهم بالامتناع عن تدوينه لئلّا يتركوا أثراً يدلّ أعداءَهم عليهم. لكنّ قصّة جان دارك بصفتها الإنسان المنتظر سائدة هنا إذا بحثْتِ تحت ظاهر الأمور."

"كنت أظنّ أن القوّات الإنكليزيّة أعدمَت جان دارك."

"هذا غير صحيح. لقد اعتقل الإنكليز جان دارك، لكنّ رجال الدين الفرنسيّين هم الذين حاكموها وأصرّوا على قتلها. والذي عذّبها كان رجل دين اسمه كوشون. ويتندّر أبناء المنطقة حول اسمه لأن لفظة كوشون، بتهجئة أخرى، تعني في الفرنسية الخنزير. وعلى كل حال، فإن ذلك الخنزير انتزع اعتراف جان دارك ثمّ حرّف الأدلّة لتبرير إعدامها. كان على كوشون أن يقتل جان دارك قبل أن تتمكّن مِن إنجاز دورها بصفتها المنتظر."

كانت مورين صامتة تُصغي كليّاً لتامي التي أضافت: "ولم تكن جان دارك آخِر راعية تُقتل. هل تنكرين تمثال القديسة في رين لو شاتو؟ الفتاة التي تحمل حملاً؟"

"القديسة جيرمين. لقد رأيتُها في الحلم تلك الليلة."

"ذلك لأنها أيضاً مولودة في الاعتدال الربيعي وابنة القيامة. وهي تصوَّر مع الحمل الفصحي لأسباب معروفة، وكذلك مع كَبْش صغير يمثّل ميلادها في بداية برج الحمل."

تنكّرَت مورين التمثال جيّداً، فقد أُعجبَت جداً بوجه تلك الراعية الشابّة الذي يشعّ وقاراً ورزانةً.

"كانت أمّها ذات مكانة عالية في السلالة، أي أنها كانت ماري دو نيغر عصرها. وقد توفّيت أمّ جيرمين في ظروف غامضة عندما كانت طفلة. ورُبِّيَت جيرمين لدى عائلة فاسدة قتلَتْها وهي نائمة حين كانت في أواخر سن المراهقة."

أمسكت تامي يد مورين فجأة وخاطبتها بجدّيّة: "أَصغي إليّ جيّداً يا مورين. منذ ألف سنة، هناك دائماً من لا يتورّع عن القتل ليمنع اكتشاف إنجيل مريم. هل تفهمين ما أقوله لك؟"

أدركَت مورين حراجَة الموقف، فتجمّدت عروقها، فيما راحت تامي تُفصِح عن تحذيرها بشكل مباشِر:

"ما زال هناك أناس يقتلون ليمنعوا إتمام النبوءة. وإذا آمنَ هؤلاء أنّك الإنسان المنتظَر، فأنت في خطر عظيم."

كانت تامي بعيدة النظر، فقد أحضرَت معها إلى الغرفة زجاجة نبيذ محلّيّ. ملأت كأس مورين ثانية وهما جالستان صامتتين لحظات.

وأخيراً تكلّمت مورين. نظرَت إلى تامي وخاطبتها بنبرة تكاد تكون اتّهامية:

"عندما كنا في لوس أنجلوس كنتِ تعرفين أشياء كثيرة لم تخبريني بها."

تنهّدت تامي وتراجعت على الأريكة، وقالت: "آسفة جداً، يا مورين، لم أستطع أن أخبرك كل ما كنت أعرفه آنذاك."

وفكّرَت في نفسها حزينة: "ولا الآن أيضاً"، ثم أكملَت: "لم أشأ أن أخيفكِ كي لا تُلغي الرحلة وتفوتُنا الفرصة."

"تفوت مَن؟ تقصدين أنتِ وسنكلير؟ هل أنتِ عضو في جمعيّته، جمعية التفاح الأزرق؟"

"الأمر ليس بهذه البساطة. اسمعي، سنكلير سيبذل غاية وسعه لحمايتك."

"لأنّه يظنّ أنّي فتاته المنتظرَة؟"

"هذا صحيح، لكنّه أيضاً يهتمّ بك حقّاً. لقد لاحظتُ عليه ذلك، وهو يشعر بمسؤوليّته. لقد قادك إلى المذبح مثل الحمل الذي تحملين اسمه، حَمَل باسكال، لمّا قدّمك في ذلك الثوب اللعين. فهو لم يفكّر في عواقب الأمر مليّاً لشدّة حماسته."

أخذت مورين رشفة ثانية من النبيذ الأحمر الصافي، وسألت: "إذاً ماذا أفعل، برأيك؟ أنا غريبة عن هذه الأمور. هل أغادر؟ هل أنسى كل ما حدث حتى الآن وأعود لحياتي الطبيعية؟ "ثم ابتسمت ابتسامة ساخرة وأضافت: "لا مشكلة في ذلك، طبعاً".

ظهر على تامي تفهّمها لموقف مورين، وقالت: "من الأفضل أن تذهبي حفاظاً على سلامتك. يستطيع بيري إخراجك من المنطقة سرّاً أنتِ وبيتر غداً. ولا شك أنه سيفعل ذلك مكرَهاً، لكنّه سيُبعدك إذا طلبتِ منه ذلك."

"وماذا بعد ذلك؟ أأعود إلى لوس أنجلوس لتسكنني الكوابيس والرؤى طيلة حياتي؟ وفي أي جوّ نفسيّ أعمل؟ لن أستطع دراسة التاريخ كما كنت أفعل. وكيف أقوم بأبحاثي من دون أن يطاردني الخوف من عُتاة مجهولين يتربّصون بي؟ ومَن هم هؤلاء الناس الخَطِرون؟ ولماذا هم حريصون على إفشال النبوءة بأيّ ثمن حتى ولو اضطّروا لارتكاب جريمة؟"

وقفت تامي وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وأجابت: "توجَد جماعات عديدة من مصلحتها عدم كشف آراء مريم المجدلية. هناك الكنيسة التقليدية بالطبع، لكن لا خطرَ منها."

"إذاً، ما هو مصدر الخطر؟ لقد سئمت الأحاجي والألغاز يا تامي، وأنا أريد تفسيراً واضحاً الآن."

هزّت تامي رأسها وأجابتها بنغمة كئيبة: "سوف تتوضّح لك الأمور في الصباح، لكنّني لستُ مَن سيوضح لك كل شيء."

"حسناً. أين سنكلير؟ أريد أن أكلّمه حالاً."

قالت تامي كمَن ليس بيده حيلة: "آسفة، هذا غير ممكن. فقد ذهب سنكلير بُعيد مغادرتك مكتبه. لا أعرف إلى أين ذهب بالضبط، لكنّه قال إنّه سيعود متأخّراً جداً. وسيُخبرك كل شيء في الصباح، وأنا أعدكِ بذلك،"

ولمّا حان وقت عودة بيرنجيه سنكلير إلى شاتو دي بوم بلو كانت أشياء كثيرة قد حدثَت.

... تنبّهت جميع السلطات في أورشليم لدخول عيسى المدينة، من كهَنة الهيكل إلى حرّاس بيلاطس. كان الرومان قلقين بشأن عيد الفصح اليهوديّ. خافوا أن يؤدي جَيَشان مشاعر اليهود والروح الوطنية إلى قيام ثورة أو حدوث شغب. ونظراً لوجود أفراد من فرقة الغيورين معنا، تنبّه بيلاطس حتماً لِما كان يحدث.

كان بيننا مَن لهم أشقّاء في هيئة الكهنة. وقد أخبرَنا هؤلاء أن رئيس الكهنة قيافا، وهو صِهْر يوناثان حَنَان، الذي كان يكرهنا كرهاً شديداً، عقد اجتماعاً للكهنة لبحث ما اعتبره "مسألة الناصريّ الذي أصبح المخلّص".

لقد أبديتُ رأيي حول حنّان هذا سابقاً، وسأكشف هنا بعض أعماله الأخرى، لكنّي أُنبّه إلى أمر هامّ، وهو: **لا تحكموا على الجميع بسبب تصرّفات إنسان واحد.** فالكهنة كسائر الناس: بعضهم عادل وطيّب القلب، وبعضهم على العكس من ذلك. وكثيرون من الكهنة وغير الكهنة أطاعوا أوامر يوناثان حَنَان في الأيام المظلمة. وقد قام بعض هؤلاء بذلك بدافع طاعتهم للهيكل ولأنهم كانوا صالحين، ومستقيمين تماماً، كما كان أخي عندما اتّخذ قراره الفظيع.

لقد ضلّلَ شعبَنا قادةٌ فاسدون وحجبوا عنه الحقيقة مع أنّ واجبهم تنوير الناس. وعارضَنا البعض لأنهم خافوا إراقة المزيد من دماء اليهود وكان همّهم ضمان الأمن والسلام للناس في فترة عيد الفصح. ولا ألوم أحداً على مثل هذا الموقف.

هل يجب أن نُدين الذين لم يروا النور؟ كلاّ، فقد علّمَنا عيسى أنه لا يجب أن نبتعد عنهم، بل ينبغي أن نسامحهم.

إنجيل الآرك لمريم المجدلية

كتاب عصر الظلمات

الفصل الرابع عشر

شاتو دي بوم بلو
25 حزيران (يونيو) 2005

عادت مورين إلى غرفتها وقد سيطر عليها الخوف والقَلق. كان رأسها مُثقّلاً ولم تدرِ ما تفعل. لبسَت ثياب النوم على مهل، وهي تحاول تنظيم أفكارها المشوَّشة، ولم يساعدها على ذلك كثرةُ ما كانت قد شربته من خمر. وظنّت أنها ستكون ليلةً طويلة من دون نوم لشدّة انشغال بالها.

لكنّها ما إن استسلمت للراحة التي يوفّرها ذلك السرير الضخم حتى أخذَها النوم والحلم.

❀

مشَت المرأة النحيلة ذات الوشاح الأحمر صامتةً في ظلام الليل. كان قلبها يخفق بسرعة وهي تحاول اللحاق بالرجلين اللذين سارا أمامها بخطوات واسعة. كان الثلاثة يقومون بمخاطرة كبيرة لا تحتمل الفشل، وكانت بالنسبة لها أكبر مهمّة في حياتها.

نزلوا مُسرعين على الدرَج الخارجيّ، وهو أخطر مراحل مسيرتهم لأنهم سيكونون في العراء داخل أورشليم، ولم يكن أمامهم سوى الأمل بأن يكون الحرّاس قد سُحبوا، كما وُعدوا.

تبادلوا النظرات مرتاحين لمّا اقتربوا من المدخل المؤدّي إلى الطابق السفليّ ولم يجدوا حرّاساً عنده. بقيَ أحد الرجلين في الخارج للمراقبة، أمّا الرجل الآخر

الذي يعرف طريقه عبر ممّرات السجن فأخذ يسير أمام المرأة. توقّف أمام باب كبير وأخذ مفتاحاً كان يُخفيه في طيّات ردائه.

نظرَ إلى المرأة وقال لها شيئاً بأسلوب توكيديّ. كانوا جميعاً - وخصوصاً هي - يعلمون أنّ لديهم وقتاً قصيراً جداً قبل أن يُكتشف أمرهم.

أدارَ الرجل المفتاح في القفل وفتح الباب، فدخلت المرأة وأقفلَ الباب وراءها بسرعة، فأصبحت المرأة مع السجين بالداخل وحدهما.

ومهما كانت توقّعاتها عن حالته، فإنّها لم تتصوَّر ما رأته. بدا أكيداً أنّ رَجُلها الجميل قد عومِل بشكل وحشيّ. كانت ثيابه ممزّقة وآثار الكدمات واضحة على وجهه. لكنْ مع كلّ الأذى الذي أصابه، شعَّت ابتسامته دِفئاً وحُبّاً للامرأة التي ألقَتْ نفسها بين ذراعيه.

ضَمّها لحظة خاطفة لأن الوقت كان يتربّص بها، ثمّ أمسكها بكتفيها وبدأ يُصدر لها التعليمات، وكانت توجيهات صارمة ومُلِحَّة. راحَتْ تومئ برأسها أثناء كلامه لِتُطمئِنه بأنّها تفهم ما يقول وبأنّ كلّ رغَباته ستُنفَّذ. وأخيراً وضع يده برِفْق على بطنها المُنتفِخ وأصدر أمرَه الأخير. ولمّا انتهى من الكلام ضمّته للمرّة الأخيرة وهي تحاوِل، بكلّ شجاعة، أن تُخمد صوت بكائها الذي هَزَّ كِيانها.

ذلك البكاء نفسه هَزَّ كيان مورين أيضاً. لقد أجهشَت في بكاء مرير ولم تستطع السيطرة على نفسها، فدفنَت رأسها في الوسادة كي لا يسمعها الآخرون في القصر وخصوصاً بيتر لأن غرفته ملاصقة لغرفتها.

كان ذلك الحلم أسوأ أحلامها. لقد كان حقيقيّاً وحَيّاً. أحسّت بكلّ لحظات التوتّر والأسى فيه، وعاشت التعليمات والتوجيهات المُلحّة كلّها. وكانت تعلم السبب، فتلك كانت التعليمات الأخيرة التي أصدرها يسوع لمريم المجدلية عَشيّةَ الجمعة العظيمة.

وكان في الحلم أيضاً توجيه مُلِحّ آخَر صادِر لمورين. لقد سمعَت صوت الرجل في أذنها. هل كانت بالفعل أذنها هي؟ أم أذن مريم؟ لقد راقبَتْ مريمَ مِن الخارج، ومع ذلك أحسَّت، من الداخِل، بكلّ ما مرَّت به. كما سمعَت التعليمات الأخيرة:

"لأنّه آنَ الأوانُ، اذهبي واحرصي على استمرار رسالتنا."

جلسَت مورين في الفراش وحاولت أن تفكّر. أصبحت حينَها تتصرّف بدافع الغريزة وشيء آخر، شيء يتعذّر تحديده ولا يخضع لمنطق أو حجّة. كان شيئاً ينبغي أن تثق به بقلبها ولا تحلّله بعقلها.

كان الوقت متأخراً في الليل في منطقة لانغدوك، وكان الظلام شديداً والقمر فِضّيّاً. ولمع القمر الساطع في غرفة مورين ووقع شعاع منه على وجه مريم المجدلية الجميل في لوحة ريبيرا (مريم المجدلية في الصحراء) وهي تنظر إلى السماء راجيةً المشورة الإلهيّة. قرّرَت مورين أن تحذو حذوها. ولأوّل مرّة، منذ أن كانت في الثامنة من عمرها، بدأت تصلّي طالبةً الهِداية.

في وقت لاحق، لم تستطع مورين أن تتذكّر كم مضى من الوقت قبل سماعها الصوت. ثَوانٍ؟ دقائق؟ لا يهمّ. وعندما سمعَته عرفَته. لقد كان مِثل الصوت الذي سمعَته في اللوفر، صوت الأنثى المِلْحاح نفسه، يدعوها همساً ويحثّها على التقدّم. ولكنّ الصوت، هذه المرّة، ناداها باسمها.

راح الصوت يهمس بإلحاح متزايد: "مورين، مورين..."

لبسَت ثيابها وانتعلت حذاءها بسرعة مخافةَ أن تتأخّر وتفقد الاتصال بدليلها الأثيريّ الذي يقود خطواتها. فتحَت باب غرفتها بتأنٍّ راجية ألّا يَصِرَّ ويوقظ أحداً. بالنسبة لمريم المجدلية في الحلم، كان التسلّل في غاية الأهميّة. فيجب ألّا يراها أحد الآن. وهذا شيء عليها أن تقوم به وحدها.

كان قلب مورين يخفق في أذنيها وهي تمشي على رؤوس أصابعها في القصر صامتةً. كان سنكلير غائباً والباقون نائمين. ولمّا اقتربَت من الباب الخارجيّ، جمدت في مكانها إذ تذكّرت أن لجرس الإنذار شفرة خاصّة، لأنّها لاحظت كيف فتحه رولان مرّةً، لكنّها لم تنتبه للأرقام. لقد ضغطَ على لوحة المفاتيح ثلاث مرّات متتالية بسرعة، فالشِفرة إذاً مؤلّفة من ثلاثة أرقام.

وقفت أمام اللوحة، وحاولت أن تضع نفسَها مكان سنكلير، فأيّ الأرقام يختار؟ وخطرَ ببالها أن يكون قد استخدم تاريخ يوم عيد مريم المجدلية في 22 تموز (يوليو)، فضغطت الأرقام 2-2-7 بسرعة كما رأت رولان يفعل. لا شيء! لمعَ

ضوء أحمر وصدرَت إشارة صوتيّة عالية فاجأت مورين وجعلتها تقفز هلعاً: "اللعنة! أرجو ألّا يكون أحد قد استيقظ".

تمالَكَت مورين نفسها وحاولت التفكير مجدَّداً. كانت تعلم أنْ ليس هناك مجال كبير للخطأ، فلا بُدّ أنّ جرس الإنذار سينطلق إذا راحت تُدخِل أرقاماً خاطئة. رفعت رأسها ونظرت إلى فوق، وهمست: "أرجوكِ، ساعديني". لم تكن تدري ماذا تتوقّع مقابل رجائها: هل سيجيبها الصوت؟ هل ستعطيها الرقم؟ هل سيُفتح الباب مِن تلقاء نفسه؟ انتظرت لحظةً، فلم يحدث أيّ شيء.

قالت في نفسها: "هيّا يا مورين! لا تكوني غبيّة، فكّري". ثمّ سمعَتْه. لم يكن الصوت الأنثويّ العُلْويّ، لكنّه صوتٌ تردَّدَ في رأسها مِن ذاكِرتها. كان صوت سنكلير في ليلتها الأولى في القصر:

"يا عزيزتي، أنتِ حَمَل باسكال."

فاستدارت مورين نحو اللوحة وضغطَت الأرقام 2-2-3، أي يوم عيد ميلادها في الشهر الثالث وتحديداً في الثاني والعشرين منه، يوم القيامة.

سُمع صوت قصير حادّ مرّتين ولمعَ ضوء أخضر وصدرَ صوتٌ مسجّل بالفرنسيّة. لم تنتظر مورين لتعرف ما إذا كان أحد قد استيقظ على الصوت، بل فتحت الباب الضخم واندفعت إلى الخارج حيث كان ضوء القمر يُنير الطريق المرصوف بالحجارة بين القصر والطريق العامّ.

كانت مورين تعلم بالضبط إلى أين تذهب، لكنّها لم تسأل نفسها لماذا وكيف؟ فالمهمّ أنها تعرف وجهتها. لم يعد الصوت مسموعاً لأنها لم تعُدْ بحاجة إليه. لقد تولّى زمام الأمر شيء آخر، شيء ما تدركه في داخلها وتتبعه بلا تردّد.

دارَت بسرعة حول جانب البيت سالكةً الطريق نفسه الذي سارت فيه مع سنكلير عندما تجوّلوا في أراضي القصر. كان يوجد ممرّ في ذلك المكان يكسوه العشب ويصعب اجتيازه في الظلام. لكنّ نور البدر المشعّ أضاء طريقها، فاجتازته بخُطى سريعة حتى رأت مقصدها وهو الصرح الرائع الذي يعتزّ به سنكلير. إنّه البرج الذي كان قد بناه جدّة أليستر سنكلير في وسط أملاكه لسبب غير واضح.

لكنْ هناك سبَب، وهي تعرفه الآن. إنه برج مراقبة، تماماً كما كان برج المجدلية الذي بناه بيرنجيه سونيير في رين لو شاتو برجاً للمراقبة. فكلّ مِن الرجلين كان يراقب المنطقة مراقبة دقيقة بانتظار اليوم الذي تُقرّر فيه مَرْيَمُهما كشف أسرارها. وكان البرجان يُشرفان على المنطقة المعروفة بأنّها موقع وجود الكنز النفيس. تسارعَت خطواتها نحو البرج وسبقَها فكرها إليه، فانقبض قلبها لمّا تذكّرت أن سنكلير كان يقفل باب البرج لأنّه استعمل مفتاحاً عندما صعدت معه.

واعتصرت ذاكرتها: لكنْ، هل أقفلَه عندما غادرا؟ لقد كانا غارقينِ في النقاش ولا تتذكّر أنّها رأت سنكلير يُقفله. فهل كان منشغلاً بالحوار لدرجة جعلَته ينسى إقفاله؟ هل يمكن أن يكون قد عاد لاحقاً لإتمام ما غفل عنه؟ أم أنّ الباب يُقفَل أوتوماتكيّاً؟

لكن، لماذا كل هذه التحليلات؟ فسرعان ما وصلت واستدارت حول البرج لتواجِه المدخل، فرأته مفتوحاً.

تنفّسَت الصعداء ونظرت إلى السماء وقالت: "شكراً". هل كان ذلك مِن عمَل سنكلير أم هو تدخّل إلهيّ؟ لكنّه أمر عظيم على كلّ حال.

صعدت مورين الدرج بحذر. كانت العتمة شديدة داخل ذلك المبنى الحجريّ الغريب، فلم ترَ شيئاً. تجاوزَت خوفها مِن الأماكن المُغلقة وتغلّبَت على ذُعرها. وكان صوتها الداخليّ يذكّرها بأن سنكلير وسونيير قد شيّدا برجيهما بالاستناد إلى العلم الغيبي لمعاني الأرقام. فأخذت تعدّ الدرجات حتى الدرجة الثانية والعشرين، ومدّت يدها ودفعت الباب العلويّ، فانفتح، وانعكس ضوء القمر على الدرج وهي تخرج إلى سطح البرج.

وقفت هناك لحظات تملأ عينيها من جمال تلك الليلة الدافئة، وانتظرت لأنها لا تعرف عمّا يجب أن تبحث. لقد وصلت حتّى ذلك المكان فعليها أن تظلّ على إيمانها بأنّ مسيرتها لن تتوقّف هناك. توهّج نور القمر على شيء لم تلاحظه حين أتت سابقاً مع سنكلير. فقد نُحتت في الحائط الحجريّ، خلف الباب، ساعة شمسيّة شبيهة بالتي رأوها في رين لو شاتو. تلمّسَت مورين الشكل المنحوت بيدها، لكنّها لم تكن خبيرة بتلك الرموز لتعرف ما إذا كانت هذه الساعة مطابقة تماماً للساعة الأخرى أم شبيهة بها فقط. راحت تقلّب الأمر وهي تتّجه نحو نقطة المراقبة المركزيّة، فقد ظنّت أنّها لمحَت شيئاً ما في الأفق البعيد. وانتظرت وهي تراقب منطقة لانغدوك المُظلمة.

ثمّ رأته، أوّلاً على شكل ومضة ضمن مجال رؤيتها. ونظرت ثانيةً، تماماً كما فعلَت في المرّة السابقة عندما وقفت في المكان نفسه مع سنكلير. وانجذبَت عيناها إلى مكان محدَّد بِفِعْل شيء غير ملموس قد يكون ضوءاً أو حركة. استدارَت نحوه وراقبته فيما كان ضوء القمر يشتدّ ويُركِّز شعاعاً حادّاً على بقعة بعيدة مقابلها تماماً. لقد وقع الضوء على شيء ما، لعلّه صخرة أو مبنى.

وأدركَت ما هو: إنّه القبر، فالنور كان، بلا شَكّ، ساطعاً في موقع قبر بوسان.

ولِمَ لا؟ فالكنز مخفيّ في مكان واضح يظنّه الناس غير صالح ليكون مخبَأً. والواقع أن كل ما واجهَته مورين مؤخّراً كان على هذا المنوال.

ظلّ النور يتحرّك ويتبدّل، وأصبح قاتماً، ثمّ تحوّل إلى شكل بشريّ مُشِعّ ومتماوج الألوان. وراح يتنقّل ويتراقص عبر الحقول مقترباً باتِّجاهها ثمّ مُبتعِداً. فكأنه كان يدعوها لتتبعه ويدلّها على الطريق. راحت تراقبه بإعجاب شديد إلى أن تجاسرَت على اتّخاذ القرار الوحيد المُمكن، وهو اللحاق به.

فتحت مورين الباب وأبقته مفتوحاً لينير ضوءُ القمر طريقها نزولاً. هبطَت الدرجات بسرعة، وخرجت من البرج. لكنّها توقّفت هناك تفكّر في أنّ الوصول إلى القبر مسألة صعبة عمَليّاً في الظلام. فلم تكن توجد طريق في خطّ مستقيم للوصول إلى هناك لأن المنطقة وعرة ومليئة بالصخور الضخمة والأشواك والعوائق.

والمسلك الوحيد المضمون الذي استطاعت مورين تصوّره كان عبور الطريق الفرعيّ من القصر وصولاً إلى الطريق العامّ واجتيازه حول أراضي القصر وحتّى القبر. وهذا يقتضي المرور قرب مدخل القصر والظهور علَناً على الطريق العامّ. راحت مورين تعدو بأسرع ما يمكن على الممرّ الملتوي، ورأت المنزل أمامها، فبدا مُعتماً وساكناً، وهذا شيء جيّد. ركضَت على الحصى المرصوف على طرف الطريق الفرعي، ووصلت إلى البوابات الخارجية.

وسُرّت لأن تلك البوابات تعمل بواسطة كاشفات للحركة، ففُتِحت بحركة ميكانيكيّة لدى وصول مورين. فاندفعت إلى الخارج، وانعطفت يساراً لتتبع الطريق العامّ. كان من المُستبعَد مرور سيارات على الطريق في تلك المنطقة النائية بعد منتصف الليل. وكان الهدوء في المنطقة مُطبِقاً وكاد يبتلعها، فالصمت مخيف والسكون مثير للقلق. كانت أراضي القصر شاسعة جداً فلم يكن حوله جيران. لذلك كان الصوت الوحيد المسموع صادراً عن قلب مورين وهو يخفق بقوّة داخل صدرها.

حاولَت أن تظلّ على طرف الطريق، وكانت تنظر حولها بحذَر.

وفجاة، مزّق الصمتَ صوتٌ، فطارَت مورين هلعاً وحاولت أن تتمالك نفْسها. كان صوت محرّك سيارة. لكنها لم تستطع أن تحدّد من أي اتّجاه صدر. ولم تكترث لذلك بقدْر ما اهتمّت بإخفاء نفسها، فارتمت على الأرض لتبتعد عن الأنوار بين العشب والأغصان المكسّرة. ظلّت جامدة فيما مرّت السيّارة، وأنار مصباحاها الاماميّان البقعة المحيطة بها. لكن يبدو أنّ السائق لم يلاحظ وجود امرأة حمراء الشعر منبطحة أرضاً بين الاعشاب والاغصان على جانب الطريق، فلم يتوقّف ولم يُبطِّئ سرعته.

لمّا تأكّدت مورين أنّ السيارة قد ابتعدت، نهضت ونفضت ما علق بها من أغصان وعيدان، وتابعت سيرها على طرف الطريق. رمت نظرة على القصر، وكانت قد أصبحت على مسافة بعيدة منه، فرأت نوراً في نافذة علويّة، وحدّقت علّها تعرف أيّ نافذة كانت، لكنها لم تتعرّف عليها لضخامة المبنى ولأنّها لم تشأ أن تضيع الوقت في ذلك.

استأنفت مسيرتها السريعة، وازداد خفَقان قلبها انفعالاً وهي تدور على مُنعطف تعرفه. ثمّ رأت، على مرتفع أمامها، قبر بوسان يلمع تحت ضوء القمر. فخاطبت مورين نفسها قائلةً: "أتْ إنْ أرْكاديا إيغو. هَيّا بنا!"

بحثت عن الدرب الذي اكتشفَته هي وبيتر قبل بضعة أيّام، ذلك الدرب الذي أُخفِيَت معالم بدايته. وساعدَها مزيج من الحظّ والذاكرة وربّما شيء آخر على إيجاده، فصعدت الربوة ووصلت حيث يقوم القبر منذ مئات السنين ليشهد بقوّة وصمت على تراث قديم لم تنكشف أسراره بعد.

ما العمل الآن؟ نظرت مورين حولها ثمّ مشت، ووقفت بجانب القبر تفكّر وتنتظر. مرّت في لحظة شَكّ وهي تسمع صوت تامي يتردّد في ذاكرتها: "لقد حفر اليستر كلّ نقطة في تلك الارض، واستخدم سنكلير كلّ ما يمكن تصوّره مِن تقنيّات حديثة".

بالإضافة إلى ذلك، لقد جابَ هذه البقاع الآلاف من صيّادي الكنوز مراراً وتكراراً، ولم يجد أحد شيئاً. فلماذا تكون هي مختلفة؟ وما الذي دفعها لتظنّ أنّ من حقّها أن تتوقّع تفوّقها على الآخرين؟

عندها سمعَتهُ. سمعَت الصوت من حلمها، صوته هو: "لأنّه آنَ الأوانُ."

وجَفَلَت إذ سمعت صوت حفيف عالياً من بين الشجيرات، فقفزت وفقدَت توازنها، فوقعت على الأرض. ارتطمت يدها اليمنى بحجر مسنّن، وأحسّت أنّه شَقَّ راحة يدها. لم تفكّر أبداً في ألمها لأنّها كانت مُرتاعَةً من الصوت الذي لم تدرِ ما هو. انتظرت في صمت مطبق من دون حراك، حتّى إنّها كادت تقطع أنفاسها. ثمّ عاد صوت الحفيف ثانيةً إذْ طارت من بين الأعشاب حمامتان ناصعتان وارتفعَتا في سماء لانغدوك المظلمة.

هدأ روع مورين وتمالكت نفسها وسارت نحو كتلة الأعشاب التي تغطّي كومة من الصخور أمام سفح الجبل. وبحثت بيديها لترى ما إذا كان هناك أيّ شيء وراء الصخور، فلم تجد شيئاً، وضغطت بشدّة على الصخر والأرض فلم يتحرّك شيء ولم يظهر شيء. هدأت لترتاح قليلاً وتفكّر، وكانت يدها تنبض حيث جُرحَت، وراح الدم يسيل مِن كَفّها. ثمّ رفعت مورين يدها اليمنى لترى مدى إصابتها، فانعكس ضوء القمر على خاتمها ولمع الشكل الدائريّ المنقوش على صفحته النحاسيّة.

الخاتم! كانت معتادةً على نزع مجوهراتها قبل الخلود للنوم، لكنّها في تلك الليلة كانت مُنهكة جداً فنسيت عادتها، ونامت وهي لابسة الخاتم. شكل دائرة الكواكب! "كما فوق، كذلك تحت"، فهناك رسم مشابه منقوش على الناحية الخلفيّة للقبر.

انطلقت مورين نحو مؤخّرة القبر وهي تُبعِد الأعشاب والأغصان من أمامها لأنّها كانت متأكّدة أن ذلك الشكل منقوش هناك. مَرَّرَت يدها على النقش، ولطّخ الدم النازف من كفّها وسط الدائرة. حبست أنفاسها وجمدت بانتظار الخطوة التالية.

لم يحدث شيء. طال السكون دقائق حتى أحسّت مورين بأنّها عالقة في الفراغ، فكأنّ كل الهواء قد سُحب من الجوّ في تلك الليلة. وفي لحظة صاعقة، اخترق الجوّ صوتٌ ما. كان آتياً مِن مسافة غير محدّدة، ربّما من مرتفعات رين لو شاتو الغربية، وهو رنين جرس كنيسة. أحسّت مورين أن اهتزازات ذلك الصوت العميق الطنّان تسري في بدَنها، واعتبرت أنّه إمّا أقدس صوت سمعته في حياتها وإمّا أبغَض صوت. لكنْ دقّات جرس الكنيسة المتنافرة في سكون الليل المظلم كانت مروِّعة.

بدّدَ صوت الجرس الظلمة من حول مورين، وتبِعَه، بعد بُرهة قصيرة، طَقْطقة حادّة مُخيفة. كان صوتاً مدوِّياً صادراً بالتحديد من الصخور التي وراءَها مباشرة،

من حيث طارت الحمامتان. كان ضوء القمر الغريب مُسلَطاً على ذلك المكان، لكنّ المكان قد تغيّر! فحيث كان قبلاً حاجز من الأغصان والأحجار، رأت مورين شقاً في منحدر الجبل يُغريها بالدخول.

سارت مورين ببطء نحو الكهف المشقوق قبل لحظات، وكانت ترتعش بعُنف شديد، لكنّها واصلَت تقدّمها. لمّا وصلت إلى الفُتحة التي كانت واسعة بقدْر كافٍ لمرورها، رأت وهجاً خافِتاً في الداخل. أعرضَت عن خوفها عند مدخل الكهف وحنَت رأسها قليلاً ودخلَت إلى باطِن الجبل.

حبسَت أنفاسها مذهولةً ما إن أصبحت رِجْلها في الداخل. كان في جوف المغارة صندوق قديم بالٍ. إنّه الصندوق الذي رأته مورين في حلمها في باريس. لقد أرَتْها إيّاه المرأةُ العجوز ودعتها للتقدّم نحوه. هذا هو الصندوق نفسه، بلا شكّ. وكان يحيط به نور غريب غير دُنيويّ. جَثَتْ مورين ووضعت يديها عليه مُتهَيِّبةً. كان بلا قفل. دفعَت أصابعها تحت الغطاء لترفعه، وكانت مأخوذةً بما تعمله، فلم تسمع وقْع الخطوات وراءها. عندها لم تَعُد تعي شيئاً غير الألم الشديد الذي أصاب مؤخّرة رأسها فجأةً قبل أن تُظلم الدنيا في عينيها.

روما

26 حزيران (يونيو) 2005

إذا كان المطران ماغنوس أوكونور يتوقّع أن يستقبله مجلس الفاتيكان استقبال الأبطال، فإنّه سيصاب بخيبة أمل شديدة. كانت وجوه الرجال الوقورين الجالسين حول الطاولة الأثرية الصقيلة صامتةً جامدة. بدأ الكردينال توماس دي كارو استجوابه بصفته المستنطق الرئيسيّ:

"هلاّ شرحتَ للمجلس، مِن فضلك، لماذا لم تُعالَج بجدّيّة قضيّةُ أوّل إنسان تظهر عليه علامات الصلب الخمس بعد القدّيس فرنسيس الأسيزي؟"

كان المطران أوكونور يتصبّب عرقاً. أمسك محرمة كان يضعها في حُجره، ومسح قطرات العرَق عن وجهه. ثم تنحنح ليجلو حَلقه، وجاءت إجابته بصوت مرتعِش لم يستطع أن يأتي بأحسن منه:

"يا صاحب النيافة، كان إدوارد باسكال يقع في نوبات مثيرة للقلق. كان يصرخ ويبكي ويدّعي مشاهدة رؤى. وقد تقرَّر أنّ كلّ ذلك كان هذَياناً جنونيّاً صادراً عن عقل مضطرب."

"ومَن اتّخذ تلك القرارات الرسميّة؟"

"أنا، يا صاحب النيافة. واعلموا أنّ الرجل كان من العامّة، مِن الكاجون في مستنقعات لويزيانا..."

لم يَعُد دي كارو قادراً على إخفاء انزعاجه وضيقه، ولم يكترث لسماع بقيّة تبريرات المطران. فالمسألة في غاية الخطورة وينبغي التصرّف بسرعة. فطوّقه بأسئلة حازمة وبلهجة جافّة، "صِفْ رؤاه للذين لم يتسنَّ لهم قراءة الملفّات."

"كان يرى رؤى للمسيح مع مريم المجدليّة، رؤى سيّئة للغاية. لقد تحدّث عن... عن زواجهما وذكرَ وجود أولادهما. وقد ازدادت هذه الرؤى المجنونة واشتدّت بعدَ... علامات الصَّلْب."

كان أعضاء المجلس المجتمعين قد ازدادوا اضطراباً وتبرُّماً، فراحوا يتململون في مقاعدهم ويتهامَسون متشاورين. وتابعَ دي كارو استنطاقه الذي لا يَلين.

"وماذا حَلَّ بهذا الرجل، إدوارد باسكال؟"

أخذ أوكونور نفَساً عميقاً، ثمّ أجاب: "لقد تفاقمَ عذابُه بسبب أوهامه إلى أن... قتلَ نفسَه بطلقة في الرأس."

"وبعد موته؟"

"لم نسمح بدفنه في المقابر التابعة للكنيسة لأنّه انتحرَ. وخَتَمْنا ملفّاته ونسينا أمرها، إلى أن... إلى أن تنبَّهْنا لأمر ابنته."

أومأ الكردينال دي كارو برأسه، وأخذ ملفّاً أحمر آخَر عن الطاولة. ثم خاطبَ أعضاء المجلس قائلاً: "آه، وهذا يقودنا إلى مسألة ابنته."

... سيُفاجأ الكثيرون لأنّي أذكر، بينَ أتباعِنا، المرأة الرومانيّة كلوديا بروكيولا، حفيدة أغسطس قيصر وابنة الإمبراطور تيباريوس بالتبنّي. ولم يكن وَضْع كلوديا كرومانية هو ما جعل انضامها إلينا مستهجناً، إنّما لأنّها زوجة بيلاطس البنطي، الحاكِم نفسه الذي حكمَ على عيسى بالصلب.

ومِن بين العديدين الذين هبّوا لمساعدتنا في الأيّام المُظلمة، تحمّلَت كلوديا بروكيولا أكبر المخاطرات من أجل عيسى. والواقع أنّها جازفَت بأكثر ممّا جازف به الآخرون.

لكنْ، منذ تلك الليلة حينَ التقيتُ بها في أورشليم، أصبحتُ وإيّاها مُلتصِقتين قلباً وروحاً. وقد ازداد ترابُطنا مذ ذاك وجمعَنا كَوْن كلّ منّا زوجةً وأمّاً وامرأةً. أيقنتُ، مِن عينيها، أنّها ستصبح ابنة "الطريق" عندما يحين وقتها. رأيتُ فيها لَمْحة النور التي تشعّ مِن حديث أيّ إنسان يرى الله بوضوح أوّل مرّة.

كان قلب كلوديا ينبض حُبّاً وغُفراناً. وبقاؤها إلى جانب بيلاطس البنطي أثناء كلّ ما حدث هو خير دليل على إخلاصها. وظلّت حتّى النهاية تتحمّل من أجله ما لا تستطيع تحمّله إلاّ امرأة مُحِبّة حقّاً. وهذا شيء أعرفه جيّداً.

إنّ قصّة كلوديا لم تُكشَف بعد. وأتمنّى أن أفِيها حَقّها.

إنجيل الآرك لمريم المجدليّة

كتاب عصر الظلمات

الفصل الخامس عشر

شاتو دي بوم بلو
27 حزيران (يونيو) 2005

أحسَّت مورين أنّ حلقها جافّ ورأسها يَزِن أطناناً، ولم تعرف أين هي. حاولَت أن تتحرَّك، فتأوَّهت من الألم في رأسها، أمّا سائر جسمها فكان على ما يُرام. وجدَت نفسها في السرير، في القصر. لكنْ، كيف وصلَت إلى هناك؟

غموض تامّ. لا شيء واضح. خطرَ ببالها أن تكون قد خُدِّرَت أو ضُربت بهِراوة. لكنْ مَن فعل ذلك؟ وأين بيتر؟

سمعَت أصواتاً عالية خارج الباب، أصواتاً قلقة وغاضبة. أهذا صوت رَجُل؟ حاولت أن تحدّد اللهجات: هذه لهجة الأوك، إنّه رولان حتماً. والصوت المرتفع، أهو إسكتلنديّ؟ أم إيرلنديّ؟ هذا بيتر! أرادَت أن تناديه، فصدر عنها صوت أجَشّ، لكنّه كان كافياً ليصل إلى مسامعهم، فركضوا إلى داخل الغرفة.

لم يشعر بيتر في حياته بمثل ذلك الارتياح الذي أحسّ به عندما سمع الصوت مِن غرفة مورين. دفعَ رولان العملاقَ جانباً وسبقَ سنكلير إلى الغرفة، ولحق به الرجلان الآخران. كانت عينا مورين مفتوحتين، وبدَت مصابة بدُوار، لكنّها حتماً واعية. كان رأسها ملفوفاً حيث كان الطبيب قد أوقف نزف الدم، ممّا جعل شكلها أشبه بضحايا الحرب.

أمسك بيتر يدها وقال: "الحمد لِلَّه! مورين، هل تسمعيني؟"

حاولَت مورين أن تجيبه بِهَزّ رأسها، لكن رأسها دارَ بها، وزاغَ بصرها مدّة دقيقة.

تقدَّم سنكلير وأصبح خلفَ بيتر، تاركاً رولان وراءهما صامتاً. "لا تحاولي أن تتحرّكي. قال الطبيب إنّه يُستحسَن أن تظلّي ساكنةً قدر المستطاع."

ركعَ قرب بيتر ليقترب من مورين، وكانت أمارات الأسى والقلق تغزو وجهه.

أغمضت مورين عينيها بشدّة لتدلّ على أنّها فهمَت ما قاله. ولمّا أرادت أن تتكلّم، وجدت أنّها لا تستطيع، لكنّها تمكّنَت من أن تهمس: "ماء".

اتّجه سنكلير نحو المنضدة بجانب السرير وتناول صحناً بلّوريّاً فيه ملعقة، وتكلّم محاوِلاً أن يخرج بلهجة مَرِحة. "لا ماء الآن. هذه أوامر الطبيب. لكن يمكنك أخذ بعض قطع الثلج الصغيرة. بعدَ تحسُّن حالك لاحقاً، يمكنك شرب الماء."

اهتمّ سنكلير وبيتر معاً بمورين. فقد أعانها بيتر على النهوض قليلاً فيما أخذ سنكلير يلقِّمها الثلج بالملعقة في فمها.

عندما أحسَّت مورين بالرطوبة في فمها وحلقها، حاولت أن تتكلّم ثانيةً: "ماذا...؟"

ساعدَها بيتر في إكمال السؤال: "ماذا حدث"؟ ثمّ نظر إلى سنكلير فرولان، وأردفَ قائلاً: "سوف نخبرك بعد أن ترتاحي قليلاً. ورولان... رولان هو بطلك وبطلي."

وجّهت مورين نظرها نحو رولان، فحنى رأسه لها صامتاً. والواقع أنّ إعجابها بهذا الأوكسيتانيّ العملاق كان قد ازداد مؤخراً، وأحسّت بالامتنان لِما يمكن أن يكون قد فعله لإحضارها إلى القصر. لكنّ همّها الأكبر لم يكن قلقها على نفسها. فهي لم تسمع بعد إجابةً عن السؤال الذي يشغل بالها. أطعمَها سنكلير ملعقة ثانية، ونطقت مرّةً جديدة سائلةً:

"الـ... الصندوق؟"

"ابتسم سنكلير ابتسامته الأولى منذ أيّام، وأجاب: "إنّه في أمان. لقد أُحضِر إلى هنا معك، ووضعناه داخل غرفة مكتبي المُقفلة."

"ماذا...؟"

"ماذا يوجد فيه؟ لا نعلمُ بعد. لن نفتحه من دونك، يا عزيزتي لأن ذلك غير جائز. لقد أُعطي الصندوق لكِ، وينبغي الكشف عن محتوياته بحضورك؟"

أغمضَت مورين عينيها مرتاحةً، وأغرقَها أثَر الأدوية المسكِّنة في نوم دافئ وهي مُطمئنّة إلى أنّها لم تُخفِق في مهمّتها.

لمّا تململَت مورين في المرّة التالية، كانت تامي جالسةً بجانب سريرها على أحد المقاعد الجلديّة الحمراء.

وضعت تامي الكتاب الذي كان في يدها جانباً، وقالت: "صباح الخير يا حلوة. الممرّضة تامي في خدمتك. أيَّ كوكتيل أُحضِر لك: مرغريتا أو بيناكولادا؟"

أرادت مورين أن تبتسم، لكنّها لمّا تكن قادرة على ذلك.

"أم هل تقبلين ببعض قطع الثلج بدلاً من ذلك؟ آه، أراك رفعتِ إبهامك. موافقة؟ حسناً."

أحضرَت تامي الصحن البلّوريّ وجاءت إلى جانب مورين، ووضعت بعض الثلج في الملعقة: "آه، إنّه شهيّ! لقد صنعتُه طازجاً هذا الصباح."

تمكّنَت مورين هذه المرّة من الابتسام قليلاً، لكنّها مع ذلك أحسّت ببعض الألم. بعدَ عدّة ملاعق ثلج تمكّنت من التفكير. صحيح أن رأسها كان لا يزال ينبض بقوّة، لكنّ ضَبابيّته انقشعَت وذاكِرته انتعشت.

"ماذا حدث لي؟"

تلاشت مسحة الفكاهة والدعابة من وجه تامي، وجلست ثانيةً قرب مورين، وقالت بلهجة جادّة: "إنّنا نأمل أن تخبرينا أنتِ النصف الأوّل، ثمّ نُطلِعك على النصف الثاني. ليس الآن طبعاً، بل عندما تصبحين مستعدّة للكلام. لكنّ الشرطة..."

قاطعتها مورين بصوت أَجَشّ: "الشرطة؟"

"لا، لا. لا تنفعلي. ما كان يجب أن أذكر ذلك. لقد سُوِّيَ الأمر. لا حاجةَ بك الآن لهذه التفاصيل."

"بلى يا تامي." تحسَّنَ صوت مورين واستعادت بعض قوّتها وهي تقول بإصرار: "أريد أن أعرف ما حدث."

أومأت تامي وقالت: "حسَناً، سأنادي الشباب."

دخلَ الأربعة غرفة مورين: سنكلير أوّلاً، يتبعه بيتر، ثمّ رولان مع تامي. دَنا سنكلير من سريرها وجلس على الكرسيّ الوحيد قربه.

"مورين، إنّي عاجز عن التعبير عن مدى أسفي لأني أحضرتُكِ إلى هنا وعرَّضْتُكِ لهذا الخطر. لكنّي لم أتصوَّر قَطّ أن يحدث لك ما حدث. كنت واثقاً أننا نستطيع حمايتك في القصر وأراضيه، ولم نتوقّع أن تغامري بالخروج وحدَك في منتصَف الليل، كما فعلتِ."

اقتربَت تامي من مورين: "هل تذكرين أنّني أَخبرتُك بوجود أناس يريدون منعَك مِن إيجاد الكنز؟"

هزّت مورين رأسها بالموافقة، لكنها هزّته خفيفاً كي لا يعاودها الدوار، وهمسَت سائلةً: "ومَن هم؟"

تقدّم سنكلير ثانيةً وأجابها:" طائفة الصالحين. إنّهم جماعة من المتعصّبين يعملون هنا في فرنسا منذ قرون. ولديهم أهداف كثيرة، يمكننا أن نفصّلها لك فيما بعد عندما تتعافين."

بدأت مورين تعترض، وطالبَت بإجابات واضحة وكاملة. وكانت المفاجأة أنّ بيتر أيّد سنكلير.

"إنّه على صواب، يا مورين. ما زلتِ في وضع صحيّ دقيق. فَلْندَع التفاصيل المزعجة حتى يتحسّن وَضْعك."

وتابع سنكلير: "كانوا يتبعونك. إنّهم يراقبون تحرّكاتك منذ وصولِك إلى فرنسا."

"لكن كيف؟"

بدا سنكلير شاحباً ومُتعَباً وهو يميل إلى الأمام ليتابع شرحه. ولاحظَت مورين، لمّا مرَّر يديه على وجهه، السوادَ تحت عينيه، مِمّا دَلّ على قِلّة نومه.

"هذا مَكمَن تقصيري تجاهك. لقد اخترقوا صفوفنا. كان أحد أعضاء جمعيّتنا جاسوساً خائناً منذ سنوات، ولم اكتشف أمره."

ظهرَ على بيرنجيه سنكلير شِدّة ألَمه لإخفاقه وخجَله من ذلك. أمّا رولان، فقد بدا حزيناً مثله، لكنّه كان أيضاً غاضباً. فتوجّهَت إليه مورين بالسؤال:

"مَن هو؟"

بصقَ الرجل الضخم على الأرض حانقاً، وقال: "دو لاموت"، وانتقلَ إلى لهجته المحليّة الأوكسيتانية، لا الفرنسيّة، فأكملَ عنه سنكلير.

"جان كلود. لكن لا تظنّي أنّ أبناء عائلتكِ خانوكِ، فهو ليس من سلالة باسكال فعلاً. فذلك ادّعاء كاذب، كبقيّة أموره. عليه اللعنة، وليذهبْ إلى الجحيم! لقد وثقتُ به ثقةً تامّة، ولولا ذلك لما سمحتُ له بالاقتراب منكِ. عندما جاء ليصطحبك أمس، أحضرَ معه جاسوسه وتركَه في أراضي القصر."

تذكّرَت مورين كيف كان جان كلود الجذّاب لطيفاً وودوداً عندما خرجا معاً. فهلْ يُعقل أنّه كان يتآمر لإيذائِها منذ البداية؟ ولم تجد لذلك تفسيراً. وثَمّةَ شيء آخر غير معقول، لذلك طرحت السؤال: "كيف عرفوا؟ الوقت المناسب...؟"

تبادل رولان وسنكلير وتامي النظرات، وبدا على وجوههم شيء من الشعور بالذنب. ثمّ رفعت تامي يدها كأنها تستأذن بالكلام، وقالت: "أنا أخبرها."

ركعَت قرب سرير مورين، ثمّ نظرت إلى بيتر لتلفت انتباهه هو أيضاً إلى ما تقول.

"التوقيت جزء من النبوءة. هل تذكرين الساعة الشمسيّة في رين لو شاتو؟ إنّها تشير إلى تراصُف فلكيّ ذُكِر في النبوءة، وهو يحدث كل اثنتين وعشرين سنة تقريباً، ويستمرّ يومين ونصف اليوم."

وتولّى سنكلير متابعة الشرح: "وكلّ عشرين سنة ونيّف، عندما يحدث هذا التراصُف، يقوم السكّان المحلّيّون بمراقبة المنطقة بشكل متواصل بحثاً عن أيّ نشاط غير عاديّ. وهذا هو الغرض الأساسي من بناء البُرجينِ، برج سونيير وبرجنا. لقد كنتُ هناك الليلة البارحة، وكان يمكن أن نلتقي. لقد راقبتُ من برج سنكلير عدّة ساعات ثم ذهبت بالسيارة إلى رين لو شاتو، وأكملت المراقبة من هناك. وهذا هو التقليد في عائلتنا.

"ومن برج المجدلية، رأيت بقعة متوهّجة تتّسع في منطقة الآرك، وعلمتُ أنّني يجب أن أعود إلى منطقة القصر في الحال. اتّصلتُ برولان بواسطة الهاتف

الخلويّ، لكنّه كان قد خرج بحثاً عنك. فالمنطقة المحيطة بالقبر مُراقَبة بواسطة أجهزة متطوّرة، وهناك أجهزة تستشعر التحرّكات وتُصدر إنذاراً في مقرّ رولان. كان رولان طبعاً يُراقب تلك الأجهزة بدقّة بسبب حدوث التراصُف الفلكيّ ولأنّ تامي كانت قد حصلت على معلومات سرّيّة مَفادها أن أعداءنا كانوا أقرَب مِمّا ظنَنّا. خرج رولان فور صدور إنذار بحركة قرب القبر، ووصل بعد الهجوم عليك بثوانٍ. وتبعتُه أنا بعد قليل. واعلمي أنّ الذي هاجمَكِ ما زال اليوم في حالة سيّئة ولم يتحسّن مِثلك. وعندما يخرج من المستشفى سيكون عليه العناية بعظامه المكسورة وهو في السجن".

بدأت بعض الغوامض تتّضح في ذهن مورين، فقد علمت لتوّها لماذا كان باب البرج مفتوحاً، وذلك لأن سنكلير كان هناك قبيل وصولها.

واستأنف سنكلير كلامه: "كان جان كلود يعرف وقت حدوث الظاهرة الفلكيّة، مثلنا تماماً، لأنّه كان حتّى الأمس أحَد أعضاء حلقتنا الخاصّة جدّاً. عندما علِمْنا بكِ وبكتابكِ قبل أقلّ من سنتين من حدوث التراصُف الفلكيّ، أيقَنّا أنّ الوقت قد حان لو تمكّنّا مِن إحضارك إلى هنا في فترة حدوث هذا التشكُّل الفلكيّ."

طرح بيتر سؤالاً كان يشغل بال مورين أيضاً. رمقَ تامي بنظرة تنطوي على اتّهام، وقال:

"أخبريني، منذ متى تعرفين ذلك؟"

بدَت تامي حزينة جداً، وكانت عيناها محمّرتينِ مِن شِدّة الإرهاق والأرَق والدموع المكبوتة.

تكلّمَت بصوت مبحوح: "إنّي آسفة، يا مورين. لم أكن صادقة معك. عندما التقيتُ بك أوّل مرّة في لوس أنجلوس منذ سنتين، نظرتُ إليك وإلى خاتمك نظرة واحدة، وسمعتُ القصص التي أخبرتِني بها بكلّ براءة... لم أفعل شيئاً حينها، لكنّي حرصت على البقاء ضمن دائرة مَعارِفكِ وراقبتُ تقدّمك. وفور صدور كتابِكِ، أرسلتُ نسخة منه إلى بيري. فنحن صديقان منذ سنوات، وكنت أعلم ما يبحث عنه، أو ما نبحث عنه كلّنا."

لم يُسَرّ بيتر بما كشفته تامي، مع أنه كان قد أُعجب بها مؤخّراً. لكنّه، بعد تأكّده من أنها استغلّت مورين، غيَّر موقفه منها.

"كنتِ تخدعينها كلّ هذه المدّة؟"

استسلمَت تامي لدموعها التي كرّت بغزارة: "هذا صحيح، وأنا في غاية الأسف، ولا أستطيع أن أعبّر عن مدى أسفي."

وضع رولان يده على تامي ليهدّئ روعها، لكنّ سنكلير تكلّم دفاعاً عنها:

"لا تكونا قاسيينِ في حُكمكما على تامي. قد لا يعجبكما ما قامت به، لكنَّ لها أسبابَها. لقد خاطرَت تامي بأشياء كثيرة لا تعرفانها بعد. إنها إنسانة غير أنانيّة ومُدافِعة صادقة عن الطريق."

كانت مورين تحاول أن تفهم مجمل الصورة: الأكاذيب والخِداع المتعمّد وانقضاء سنوات من النبوءات والأحلام الغريبة. وكان ذلك شديد الوطأة عليها وخصوصاً في حالتها الحاضرة. وقد بدَت علامات السخْط واضحة على وجهها، فتدخّل بيتر بسرعة.

"هذا يكفي الآن. يمكنك استيضاحهما كلّ ما تريدين بعد استرداد عافيتِك!"

صمتَت مورين قليلاً، ثمّ طَرحت السؤال الخطير الذي يؤرّقها: "ومتى نفتح الصندوق؟"

وقد فوجِئت فعلاً بأنّهم لم يفتحوه بعد. فهؤلاء الناس كرّسوا معظم حياتهم لإيجاد ذلك الكنز. وفي حالة سنكلير، فإن عدّة أجيال من عائلته أنفقَت الملايين سعياً لاكتشافه. ومع أنّها الإنسان المنتظر بالنسبة لهم، فهي تعتبر أنّها لا تستحقّ أن تراه قبلهم. والواقع أنّ سنكلير أصرّ على ألّا يمسّ أحد الصندوق قبل أن تصبح مورين قادرة على التحرّك، أمّا رولان فقد أمضى الليل يحرس الصندوق ونام بينه وبين باب الغرفة.

أجابها سنكلير: "عندما تصبحين قادرة على نزول الدرج."

كان رولان يتململ بعصبيّة، وذلك مشهد لافت للنظر من ذلك الرجل الضخم. لاحظَت تامي حركته، فسألته وقد ساورها القلق: "ما بك يا رولان؟"

اقترب العملاق الأوكسيتاني من مورين، وقال: "الصندوق، يا آنستي. هو ذخيرة مقدّسة. وأعتقدُ... بل أؤمن أنه قد يشفي جراحك إذا لمستِه."

تأثّرت مورين بشدّة إيمانه، فمدّت يدها وأمسكت يده، وقالت له: "قد تكون على حَقّ. فَلْنرَ إذا كنتُ أستطيع النهوض..."

قال بيتر وقد ساورَه القلق: "أأنت متأكّدة أنك أصبحتِ قادرة على ذلك؟ فالمسافة طويلة في الممّرات، وهناك عدد من سلالم الدرجات."

نظر رولان إلى بيتر ثمّ إلى مورين، وقال مبتسماً: "يا آنستي، لا حاجة لأن تمشي."

أومات مورين مشيرةً إلى استعدادها، فرفعها رولان عن السرير وحملها برفق وسار بها في القصر.

مشى الاب هيلي صامتاً وراء العملاق الذي كان يحمل ابنة عمّته، كأنه يحمل دُمية مِن قماش، ويسير بها في القصر. لم يشعر سابقاً أنّه ضعيف بهذا القدْر لدرجة كونه عديم الفائدة. وأحسّ أن مورين قد أصبحت في مكان لا يستطيع الوصول إليه. فاكتشاف الصندوق تمّ بفضل تدخّل إلهيّ ما، وقد رأى ذلك متجلّياً فيها كما رآه الآخرون. كان يسيطر على ذلك القصر الكبير جَوّ من عِلْم الغَيْب، وكانت تتوالى فصول شيء عظيم سيترك أثره على الجميع.

وهناك وَضْع مورين الصحيّ، فالطبيب الذي ذُعر لفداحة الجرح في مؤخّرة رأسها قال إنها نجَت بأعجوبة، ورأى بيتر أن ذلك القول قد يكون حقيقةً لا مَجازاً، وأن رولان قد يكون مُصيباً. وكان بيتر قد طلب أن تؤخذ ابنة عمّته إلى مستشفى، لكنّ رولان - وليس سنكلير - رفض ذلك وأصرّ على أن تبقى مورين قريبة من الصندوق. ولعلّ ملامسة مورين لتلك الذخيرة قد فعلَت فِعْلها السماويّ لأن بقاءَها حيّة كان ظاهرة غريبة.

لمّا اقتربوا من باب مكتب سنكلير، لاحظ بيتر أنه كان يقبض بشدّة على مسبحته وهي في جيبه، حتّى إنها تقطّعت في يده.

كان الصندوق موضوعاً على الارض قرب أريكة. وضع رولان مورين بتأنٍ على وسائد الاريكة المخمليّة، وشكرته برِقّة. جلسَت تامي إلى أحد جانبيها وبيتر إلى الجانب الآخر، بينما ظَلّ سنكلير ورولان واقفين. صمتَ الجميع ولم يحرّكوا ساكناً إلى أن تنهّدت مورين.

ظلّ الآخرون ساكتين فيما مالَت مورين إلى الأمام على مهل. وضعَت كلتا يديها على غطاء الصندوق الكبير وأغمضت عينيها ونظرت إلى وجوه المحيطين بها واحداً واحداً.

قالت بصوت هامس: "إنها بالداخل. إنّي أحسّ بوجودها".

سألها سنكلير بهدوء: "هل أنتِ مستعدّة؟"

فابتسمَت له مورين ابتسامة وادعة واثقة ملأت وجهها نضارة. مَرَّت لحظة لم تكن فيها مورين هي مورين باسكال نفسها بل إنساناً مختلفاً تماماً، امرأةً تشعّ نوراً داخلياً وطمأنينة. وقد أفاد بيرنجيه سنكلير فيما بعد، وهو يتذكّر تلك اللحظة، أنّه رأى مريم المجدليّة نفسها تجلس مكان مورين.

استدارت مورين نحو تامي وقد علَت ثغرها ابتسامة وادِعة، ومَدَّت يدها لصديقتها وضغطت على يدها لحظة وتركتها. وعلمَت تامي في تلك اللحظة أنها قد صفحت عنها. لقد دُفعوا جميعاً إلى ذلك المكان لغاية مقدّسة، لعمَل عُلوِيّ صالح، وهذا ما يعرفه كلّ مَن في الغرفة. وكانت تلك المعرفة هي ما غَيَّرَ كلّ واحد منهم وجمعَ فيما بينهم إلى الأبد في الوقت نفسه. دفنَت تامي رأسها بين يديها وبكَت قليلاً.

ركع سنكلير ورولان على الأرض قرب الصندوق ونظرا إلى مورين بانتظار إشارتها. وعندما أشارت لهما، وضعا أصابعهما تحت غطاء الصندوق وشدّا متوقّعين أن تكون مهمّة صعبة. لكن يبدو أن صدأ الأيّام لم يؤثّر على مفاصل الصندوق، ففُتح بسهولة فائقة، حتى إن رولان كاد يفقد توازنه. ولم يكترث لذلك أحد لأن كلاً منهم كان منشغلاً بالتحديق، فاغرَ الفم، إلى الجرّتينِ الفخّاريّتينِ الكبيرتين، المحفوظتين سالمتين داخل الصندوق.

❀

وقف بيتر متوتّراً قرب مورين، لكنّه كان أوّلَ مَن خرج عن صمته، فهتفَ: "هاتان الجرّتان! إنّهما مماثِلتان تماماً للجرار التي استُخدمت لحفظ مخطوطات البحر الميت."

جثا رولان قرب الصندوق ومَرّ بيده على إحدى الجرّتين، وقال هامساً باحترام: "يا للروعة!"

هزّ سنكلير رأسه وقال: "شيء رائع فعلاً. لاحظوا، لا غبار ولا تآكل ولا أثر لأيّ اهتراء بفِعْل السنين. فكأنّ هاتين الجرّتين كانتا معلّقتين خارجَ الزمن."

وعبّر رولان عن ملاحظة له: "إنّهما مُقفلتان بشيء ما."

مَرَّرت مورين يدها على فتحة إحدى الجرّتين، وقفزت كأن تياراً كهربائياً صعقها، وتساءلت: "هل هذا شمع؟"

تدخَّل بيتر قائلاً: "تمهّلوا! يجب أن نبحث هذا الأمر أوّلاً. إذا كانت الجرّتان تحويان ما تأملون جميعكم، بل تؤمنون أنه موجود فيهما، فلا يحقّ لنا أن نفتحهما."

علّق سنكلير محتدّاً: "ولِمَ لا؟ ومَن يحقّ له؟ الكنيسة؟ لن تخرج هاتان الجرّتان مِن هنا قبل أن نتحقّق جميعاً من محتوياتهما. وأرفضُ حتماً أن تنتهيا إلى أحد أقبية الفاتيكان. حيثُ ستُحجّبان عن العالم ألفي سنة أيضاً."

أجاب بيتر بهدوء يفوق حقيقة شعوره: "لم أقصد ذلك. ما أعنيه هو أنّه لو كان في الجرّتين وثائق مختومة منذ ألفي سنة، فإن تعرّضهما المفاجئ للهواء قد يُتلفهما. وما أقترحُه هو أن نجد طرَفاً حيادياً مقبولاً، مثل الحكومة الفرنسية، ليقوم بفتحهما. وإذا سبَّبنا أضراراً في الوثائق، فلن يكون لديكَ شيء تعرضه بعد سَعْيك طوال عمرك، ويكون عملنا جريمة فعْليّة وروحيّة."

بدا على وجه سنكلير أنّه واقِع فعلاً في مأزق. فاحتمال إتلاف محتوَيات الجرّتين كان شيئاً رهيباً. وفي المقابل، صَعُبَ عليه إفلات حلم حياته بعد أن أصبح بين يديه. هذا بالإضافة إلى شكّه الفطريّ في كل الغريبين عن جماعته عندما يتعلّق الأمر بمسائل السلالة. لذلك استسلم للصمت. وهنا جثا رولان أمام مورين.

قال لها: "القرار لك يا آنسة. أنا أعتقد أنّها أحضرَتكِ إلينا وأنّها ستُطلعنا على إرادتها بواسطتك."

بدأت مورين بإجابة رولان، لكنّها صمتت إذ غشيَتْها موجة دُوار. وتقدّم بيتر وتامي معاً ليسنداها، ولم تعُد مورين ترى شيئاً للحظة. ثمّ جاءتها الفكرة واضحةً تماماً، وعندما تكلّمَت كان كلامها أمراً.

"افتح الجرّتين يا رولان."

كانت التعليمات صادرة مِن فم مورين، لكنّ الصوت الذي أصدرها لم يكن صوت مورين.

رفع سنكلير ورولان الجرّتين بحذَر ووضعاهما على الطاولة الخشبيّة الكبيرة.

سألها رولان باحترام بالغ: "أيّهما أوّلاً؟"

كانت مورين مستندة إلى تامي وبيتر، ولمسَت إحدى الجرّتين. لم تستطع أن تفسّر سبب اختيارها، لكنّها كانت متأكّدة أنّه الاختيار الصحيح. نفَّذ رولان تعليماتها، ومرَّر إصبعه على حافة الجرّة. وجاء سنكلير بسكّين قديم لفتح الرسائل مِن طاولته، وبدأ يعمل على إزالة أختام الشمع. ووقفت تامي جانباً، جامدةً بلا حراك وقد تسمّرت عيناها على رولان.

كان بيتر مذعوراً، فهو وحدَه مِن بينهم يُدرك بِقّة العمل على المستندات الأثرية والوثائق القديمة القيّمة. وكانت احتمالات حدوث ضرر كبيرة جداً، وحتى لو أصاب التلَف الجرّتين فقط فإن ذلك يكون تقصيراً فادحاً.

وللتأكيد على تخوّف بيتر، ملأ جوّ الغرفة المشدود صوت تكسير مزعج. فقد حطّم السكّين غطاء الجرّة الأولى وأخذ معه شظيّة مِن حافة الجرّة. انكمش بيتر خوفاً ووضع يديه على رأسه. ثمّ أزاحهما لمّا سمع صوت مورين تستنشق الهواء عميقاً وبهدوء.

قال رولان لمورين: "إنّ يديّ كبيرتان، يا آنستي".

خطت مورين خطوة إلى الأمام بالرغم مِن ارتعاش رجليها ووضعت يدها داخل الجرّة المكسورة.

وكان ما أخرَجته منها بتأنٍ وحذَر يُشبه كِتابين مدوَّنين على ورق قديم يبدو مثل الكَتّان. وظهرت الكتابة بحبر أسود في تبايُن جَلِيّ مع لون الصفحات التِّبْنِيّ. كانت الأحرف صغيرة ودقيقة وواضحة تماماً.

مال بيتر نحو مورين، وكان عاجزاً عن حَبْس انفعاله حيالَ الأوراق التي أصبحت أمامه على الطاولة. نظر إلى الوجوه الذاهلة حوله، لكنّه أعطى حُكمه لمورين مباشَرَةً، وكان صوته مبحوحاً وهو يتلفَّظ بكلماته: "الكِتابة. إنها... باليونانيّة."

سألته مورين وقد حبست أنفاسها في حلقها: "هل تستطيع أن تقرأها؟"

لكنّها كانت تعلم جوابه قبل أن يتكلّم مع أنها رأته مُمتقِع اللون. وكان كلّ الموجودين في الغرفة يعلمون أنّ عالَم الأب بيتر هيلي سيتغيَّر.

راح يقرأ مُترجِماً ببطء: "أنا مريم المدعوّة المجدلية. و..."، ثمّ سكتَ، لا ليحبس أنفاس سامعيه، بل لأنه شكَّ في أنّه سيستطيع المُتابَعة. وكانت نظرة واحدة إلى وجه مورين كافية لإقناعه بأنّه لا بدّ أن يتابِع.

"أنا الزوجة الشرعيّة ليسوع، المدعوّ المسيح المخلّص، الذي كان ابناً مَلكِيّاً من بيت داود."

الفصل السادس عشر

شاتو دي بوم بلو

28 حزيران (يونيو) 2005

عكف بيتر على الترجمة خلال الليل كله، ورفضَت مورين مغادرة الغرفة، وكانت تستريح من وقت لآخر على الأريكة المخمليّة. أحضرَ لها رولان وسائد إضافيّة وغطاءً، فشكرَته بنظرة وابتسامة وهو يدور حولها باهتمام بالغ. وفُوجئت مورين بتحسّن حالها، إذ زال ألم رأسها وأحسَّت بقوّة غريبة.

ظلَّت على الأريكة لأنّها لم تشأ أن تحوم حول بيتر، فيكفي أن سنكلير يقوم بذلك، لكن بدا أن بيتر لم يكترث لذلك حتى إنّ مورين اعتبرت أنه لم يلاحظه. كان بيتر مستغرِقاً في عمله، لا بل مأخوذاً كليّاً بمهمّته اللاهوتيّة الخطيرة.

دخلت تامي الغرفة عدّة مرات لتطمئنّ على سير العمل، لكنّها أوت إلى فراشها في ساعة متأخّرة من الليل، في الوقت نفسه الذي ذهب فيه رولان. وكانت مورين قد لاحظتهما معاً خلال النهار واستنتجَت أنّ ذلك لم يحدث مصادفةً. وتذكّرَت ليلة الحفلة عندما سمعت صوت تامي في الممرّ خارج غرفتها بصحبة رجل يتكلّم بلكنة خاصة. فلا شكّ بأن شيئاً ما كان يجري بينهما، ويبدو أنّها علاقة جديدة نشأت مؤخّراً. وقرّرَت مورين أن تسأل تامي فيما بعد عن تلك العلاقة. والواقع أنّها كانت تريد أن تعرف كل الحقائق وكل العلاقات القائمة في شاتو دي بوم بلو.

عادت بانتباهها فجأة إلى المخطوطات عندما سمعَت سنكلير يقول: "ما هذا؟ هلّا نظرت إلى ذلك!"

كان يقف وراء بيتر يراقبه مُنفعِلاً. أما بيتر فكان يكتب بسرعة على أوراق

صفراء مترجِماً الكلمات اليونانيّة ترجمة حرفيّة، قد تكون غير مفهومة في بادئ الأمر. وكان عليه، بعد الانتهاء مِن النقل، أن يعود إلى النصّ ويستخدم خبرته اللغوية لتنقيح الأسلوب ليتماشى مع لغة القرن الحادي والعشرين.

سألَت مورين: "ما الأمر؟"

رفع بيتر نظره ومسح وجهه بيديه وقال: "يجب أن تري هذا. هل يمكنك المجيء إلى هنا؟ لا أجرؤ على تحريك المخطوطة الآن."

نهضت مورين ببطء، فهي لم تنسَ أنّ في رأسها جرحاً، بالرغم من تحسّن حالها بشكل مفاجئ. اقتربَت من الطاولة وجلست إلى يمين بيتر الذي كان جالساً والأوراق التي دوّنها منثورة أمامه. أشار سنكلير إلى المخطوطات الأصلية فيما قال بيتر شارحاً:

"هذا يظهر في نهاية كل مقطع رئيسيّ، أو بالأحرى كل فصل. ويبدو مثل ختم شمع."

تبعت مورين بعينيها إصبع سنكلير إلى الرمز المشار إليه. إنه رمز أصبح مألوفاً، وهو الشكل الذي على خاتم مورين: الدوائر التسع المحيطة بدائرة عاشرة في الوسط. وقد خُتم في أسفل الصفحة.

قال سنكلير مُتهيِّباً: "الختم الشخصيّ لمريم المجدلية."

رفعت مورين خاتمها بإزاء الرسم، ورأت أنهما متطابقان، حتى إنّ الشكل على الأوراق بدا كأنه خُتِم بالخاتم نفسه.

عندما أشرقت الشمس على شاتو دي بوم بلو كان معظم الكِتاب الأوّل قد تُرجم، وكان عبارة عن قصّة حياة مريم المجدلية بلسانها. عمل بيتر على صفحات الكتاب بلهفة وتركيز، وطلب له سنكلير الشاي، لكنّه لم يتوقّف عن العمل إلّا ليأخذ بضع رشفات من فنجانه، حتّى إن الشحوب بدا على وجهه مِمّا أثار قلق مورين.

"أنت بحاجة للراحة يا بيتر. يجب أن تنام بضع ساعات."

أجابها جازِماً: "لا. لا يمكنني التوقّف الآن. قد لا تفهميني لأنك لم تري ما رأيت. عليّ الاستمرار، يجب أن أعرف ماذا ستقول بعد".

كانوا قد قرروا جميعاً الانتظار حتى يُنهي بيتر ترجمته قبل قراءة أي جزء من الكتاب. وهم يقدّرون مهارة بيتر اللغويّة والمسؤولية الخطيرة الملقاة على عاتقه، مع أنّ الانتظار صعب. فحتّى تلك اللحظة لم يطّلع أحد على محتويات المخطوطات سوى بيتر.

تابع بيتر كلامه، وكانت عيناه تشعّان توهُّجاً لم تره مورين فيه سابقاً: "لا أستطيع أن أترك المخطوطات".

"خمس دقائق فقط. تعالَ معي إلى الخارج، خمس دقائق، وتمَشّى مُستنشِقاً هواء الصباح المنعش. ستجدّد نشاطك، ثمّ نعود إلى الداخل ونُحضر لك الفطور إلى هنا".

"لا. لا طعام. لن آكل قبل الانتهاء من الترجمة. لن أتوقّف الآن".

تفهَّمَ سنكلير حقيقة موقف بيتر، لكنّه لاحظ مدى إنهاكه الجسدي، فحاول إقناعه من زاوية أخرى: "أيّها الأب هيلي، لقد قمتَ بعمل استثنائيّ، لكنّ فَرْط التعب قد يؤثّر على دقّة عملك. سأكلّف رولان بالوقوف هنا وحراسة المخطوطات أثناء استراحتك."

رنّ سنكلير جرساً لاستدعاء رولان. ونظر بيتر إلى وجه مورين القلِق قائلاً:

"مُوافق. لكن، خمس دقائق فقط لاستنشاق الهواء."

❀

فتح سنكلير أقفال بوّابات حدائق الثالوث الأقدس، ودخلت مورين مع بيتر. رأيا حمامة تطير فوق صفوف نبتات الورد فيما كانت مياه نافورة مريم المجدلية تتدفّق لامعةً تحت أشعّة شمس الصباح.

كان بيتر هو الذي بدأ بالكلام، فقال بصوت هادئ فيه شيء من الرهبة: "ما هذا الذي يحدث يا مورين؟ إنه أشبه بحلم... أو... معجزة. هل تشعرين أنه حقيقةٌ فعلاً؟"

أومأت مورين برأسها وأجابته: "نعمْ. ومع أني لا أقدر أن أفسّر الأمر، لكنّني أحسّ بالاطمئنان. كأنّ كل ما حدث كان تنفيذاً لخطّة ما، وأنت جزء منها مِثلي تماماً. بيتر، إنّ قدومك معي إلى فرنسا ومعرفتك باللغات القديمة وقدرتك على الترجمة من اليونانية ليست مصادَفات. كلّ ذلك مُخطّط... ومرسوم."

"إني أُحِسّ بالفعل أني أقوم بدور ما في مشروع كبير. لكنّي لا أعرف حتى الآن أيّ دور هو، ولماذا أنا بالذات".

توقّفَت مورين لتشمّ رائحة وردة حمراء متفتّحة، ثمّ استدارت نحو بيتر وسألته: "منذ متى وهذا العمل قائم؟ هل رُسم قبل أن نولَد؟ منذ زمن بعيد؟ هل كان قدَر جدّك أن يعمل على مخطوطات نجع حمّادي ليهيّئك لهذا العمل بالتحديد؟ أم هل إنّ الأمر خُطّط له منذ ألفي سنة عندما خبّأت مريم إنجيلها؟"

صمت بيتر لحظة ثم أجابها: "تعلمين أنّه قبل البارحة كان يمكن أن أجيبك بشكل مختلف عمّا أقوله الآن".

"والسبب؟"

"هي وما تذكره في مخطوطتها. إنّها تصف ما قُمتِ به بالضبط. شيء مذهل! إنها تقول إنّ بعض الأشياء مُحدَّدة في ما رسَمه الله وإنّ بعض الناس قد كُتب عليهم القيام بأدوار مُعيّنة. والمُدهش في الأمر يا مورين هو أني أقرأ رواية عن يسوع والرسل كتبها مصدر مباشر يتحدّث عنهم جميعاً بلغة إنسانيّة رقيقة. لا مثيل لهذا الـ..."، وتردّد قليلاً قبل التلفّظ بالكلمة وأكملَ: "... لهذا الإنجيل في كلّ كتابات الكنيسة. وأشعر أني غير جدير بالعمل عليه."

لكنّ مورين أجابته بكلّ ثقة: "لا بل إنّك جدير به. لقد تمّ اختيارك لهذا العمل. لاحِظْ كم حصل من تدخلات إلهيّة لجمعنا كلّنا في هذا المكان وهذا الوقت لنخبر هذه القصّة."

بدا بيتر مُعذَّباً، وكانت المرّة الأولى التي تراه فيها مورين كمَن يصارع نفسه بعُنف. قال: "لكن ما هي القصّة التي نخبرها؟ أي قصّة سأخبرها إذا كان هذا الإنجيل صحيحاً؟"

توقّفت مورين عن السير، ونظرت إليه غير مصدّقة ما يقول، وسألته: "وكيف تشكّ في الأمر بعد كل ما حدث حتى الآن؟" ولمسَت مؤخّرة رأسها حيث بدأ الجرح البليغ يندمل.

"لقد أصبحَت مسألة إيمان بالنسبة لي يا مورين. فالمخطوطات محفوظة بشكل سليم تماماً وليس فيها أيّ عيب ولا كلمة ناقصة. حتى إنّ الجرّتين لم يكن عليهما تُراب، فكيف يمكن ذلك؟ والجواب أحد احتمالين: إمّا إنّه تزوير عصري مُتقَن وإمّا إنّه إرادة إلهيّة."

"وماذا تعتقد فعلاً؟"

"لقد أمضيتُ عشرين ساعة متواصلة في ترجمة هذه الوثيقة المذهلة. ومعظم ما أقرؤه يُعتبر في الأساس بِدْعة، ومع ذلك فإنه يصف يسوع في صورة إنسانيّة استثنائية. لكنّ رأيي لا يهمّ، إذ يتوجّب إقرار صحّة المخطوطات وفقاً لسلسلة عمليّات دقيقة جداً، ليسلّم بصحّتها العالم كلّه."

ثمّ صمت قليلاً وهو يحاول أن يستوعب أبعاد المسألة كافّةً، وأضاف: "إذا ثبتت صحّة هذه الوثائق فإنّها تتعارض مع أسس إيمان جزء كبير من الجنس البشريّ على مدى ألفي عام، وهي تخالف كلّ ما تعلّمتُه وكل ما آمنتُ به".

نظرت مورين مطوّلاً إلى ابن خالها وأَخْلص أصدقائها. كانت تراه دائماً صامداً كالصخرة، قويّاً مستقيماً، وكان شديد الإيمان مُخلصاً لكنيسته.

لذلك سألته بكلّ بساطة: "ماذا ستفعل؟"

"لم يتسَنَّ لي التفكير في هذا الأمر. يجب أن أرى بقيّة المخطوطات لأعرف مدى تعارضها أو توافقها مع روايات الإنجيل كما نعرفها، وأتمنّى أن تكون متوافقة. لم أصِل بعد إلى وصف مريم للصلْب أو القيامة."

فهمَت مورين لماذا لم يرغب بيتر في ترك المخطوطات قبل الانتهاء من الترجمة. فرواية مريم المجدلية للأحداث التي تلت صلب المسيح، إذا ثبتت صحّتها، قد تكون حاسمة بالنسبة لمبادئ إيمان ثلث سكان الأرض. فأساس الدين المسيحي قائم على أن يسوع قد قام من بين الأموات في اليوم الثالث. وبما أن مريم المجدلية كانت، بحسب روايات الإنجيل، أوّلَ شاهد على قيامته، فإن روايتها الشخصيّة لتلك الأحداث ستكون في غاية الأهمية.

وكانت مورين قد اكتشفت في أبحاثها أنّ كل أصحاب النظريات القائلين إن مريم المجدلية كانت زوجة يسوع رأوا أن يسوع لم يكن ابن الله ولم يقم من الموت. وهناك فرَضيّات عديدة تعتبر أن يسوع بقي حيّاً بعد الصلب، كما إنّ نظرية أخرى شائعة تقول إنّ أتباعه قد نقلوا جسده. ولم يجمع أحد بين نظرية كون يسوع متزوّجاً وكونه ابن الله. ويبدو، لسبب ما، أنّ هذين الافتراضين اعتبرا دائماً متعارضين. وقد يفسّر ذلك سبب خشية الكنيسة، على مرّ العصور، مِن فكرة كون مريم أوّل الرسُل.

لا بدّ أن تكون كل هذه الأفكار قد دارَت في رأس بيتر خلال الساعات العصيبة السابقة. لذلك أجاب مورين عن سؤالها بقوله:

"يتوقّف ذلك على الموقف الرسمي الذي ستتّخذه الكنيسة."

"وماذا لو رفضَتْها؟ ما سيكون موقفكَ؟ هل ستختار مؤسسة الكنيسة، أم تختار ما تعلم فعلاً أنّه الحقيقة؟"

أجابها بيتر مُبتسماً ابتسامة ساخرة: "آمل ألّا يكون الموقفانِ متناقضينِ، ولعلّي في ذلك مُبالِغ في تفاؤلي. لكن إذا وصلتُ إلى هذا المُفترَق فيكون قد حان الوقت."

"أي وقت؟"

"الوقت لأن أختار سيِّداً."

انتهت نزهة مورين وبيتر بعد أن اقنعَتْه بأن يأخذ دُشاً وينتعش قليلاً قبل استئناف مهمّته. أمّا هي فقد عادت إلى غرفتها لتغسل وجهها وتستجمع أفكارها. كان التعب قد أخذ منها مأخذاً، لكنّها لم تستسلم، فهي لن تستكين حتى تعرف ماذا يوجد في المخطوطات.

كانت مورين تجفّف وجهها بمنشفة حمراء فاخرة لمّا سمعت خبطاً على الباب.

دخلت تامي غرفتها وقالت: "صباح الخير. هل فاتني شيء؟"

"لا شيء حتى الآن. سوف يقرأ لنا بيتر من الكتاب الأول عندما تصبح الترجمة نهائية. إنه يقول إنّ الكتاب مدهش. وهذا كل ما أعرفه."

"وأين هو الآن؟"

"إنّه في غرفتِه يستريح قليلاً. وهو أصلاً لم يُرد التوقّف عن العمل على المخطوطات، لكنّه استجاب بعد إلحاحنا. إنّه يمرّ في فترة عسيرة مع أنّه لا يُقِرّ بذلك. وهو يتحمّل الآن مسؤوليّة جسيمة."

جلسَت تامي على حافة سرير مورين وقالت: "هل تعلمين ما يحيّرني؟ لماذا يرفض الناس فكرة كون يسوع متزوّجاً وله أولاد؟ وهل يُقلّل ذلك من شأنه وشأن رسالته؟ ولماذا يعتبر المسيحيّون أنّ ذلك يهدّدهم؟"

والواقع أن هذا الموضوع طالما شغل بال تامي، لذلك تابعَت كلامها مُنفعِلة:

"ولماذا ينسون ما ذُكر في إنجيل مرقس؟ ذلك المقطع الشهير الذي يردّدونه في مراسم الزواج: منذ بدء الخليقة جعلهما الله ذكراً وأنثى. ولذلك يترك الرجل أباه وأمّه ويلزم امرأته. ويصير الاثنان جسداً واحداً. فلا يكونان اثنين بعد ذلك، بل جسد واحد."

راقبَتْها مورين مشدوهةً: "لم أتوقّع أن تحفظي مقاطع من الأناجيل بهذه الدقّة!"

غمزتها تامي وقالت: "إنجيل مرقس، الإصحاح العاشر الآيات من 6 إلى 8. إنّ الناس يستشهدون بالإنجيل ضدّنا ليقللوا من أهميّة مريم، لذلك جهدْتُ في إيجاد مقاطع تؤيّد ما نؤمن به. وما يبشّر به يسوع في الإنجيل هو أن يجد الرجل زوجة ويلزمها. فهل يُمكن أن يبشّر بشيء لا يليق به أن يفعله؟"

أصغَت مورين لتامي جيّداً وتأملَت سؤالها وأجابت: "سؤال جيّد. بالنسبة لي، إنّ فكرة كون المسيح متزوّجاً قد تجعل منه إنساناً عاديّاً."

لم تكن تامي قد أنهت كلامها، فاستطردت: "ويُشار إلى الله بأنه الآب، فلماذا لا يكون ابن الله، المخلوق على صورته، أباً لأولاد؟ وكيف يؤثّر ذلك على ألوهيّته؟ أنا لا أرى ذلك!"

هزّت مورين رأسها، فهي لم يكن لديها جواب عن ذلك السؤال الكبير.

"أعتقد أن هذا السؤال هو، في نهاية المطاف، برسم الكنيسة والأفراد وفقاً لإيمان كلّ منهم."

❀

في وقت مبكّر من المساء أعلن بيتر أنّه أنهى الترجمة الأوّليّة للكتاب الأوّل.

نهض سنكلير عن الطاولة وسأله: "هل أنت مستعدّ أيها الأب هيلي أن تقرأ لنا ممّا ترجمتَه؟ إذا كان الأمر كذلك، أودّ استدعاء رولان وتمارة لأنّهما جزء من هذا المجهود الكبير".

هزّ بيتر رأسه وقال لسنكلير: "أجلْ. فَلْيحضرا." ثم نظر إلى مورين مباشرةً، وكان في عينيه مزيج غامض من النور والظلّ، وقال: "لقد حان الوقت".

جاءت تامي ومعها رولان بسرعة وانضمّا إلى الآخرين في غرفة مكتب سنكلير. ولمّا تحلّقوا جميعاً حول بيتر، أخبرهم أنّ عدداً من المقاطع ما زال في شكل مسوّدة ويحتاج إلى بعض الوقت واستشارة خبراء آخرين ليصبح نهائياً. لكنّه كان لديه، بشكل عامّ، ترجمة جيّدة وفهم لحقيقة مريم ودورها في حياة يسوع المسيح.

"إنّها تشير إلى هذا الكتاب باسم: كتاب العصر العظيم."

أمسك الأب بيتر هيلي الأوراق الصفراء التي كتب عليها، وراح يقرأ لسامعيه بهدوء:

"أنا مريم المدعوّة المجدليّة، أميرة من سِبْط بنيامين الملَكيّ، وابنة الناصريّين. أنا الزوجة الشرعية ليسوع، المخلّص بحسب طريق الربّ، الذي كان ابناً ملكياً من بيت داود وسليلاً من طبقة هارون الكهنوتيّة.

لقد كُتبَ الكثير عنّا، وسيُكتب المزيد في المستقبل. ومعظم الذين يكتبون عنّا لا يعرفون الحقيقة ولم يكونوا موجودين في العصر العظيم. وما سأدوّنه في هذه الصفحات هو الحقيقة أمام الله. فذلك هو ما حدث أثناء حياتي وخلال العصر العظيم وعصر الظلمات وكل ما حدث بعد ذلك.

إني أترك هذه الكلمات لأبناء المستقبل، كي يجدوها عندما يحين الوقت ويعرفوا حقيقة أولئك الذين قادوا مسيرة الطريق."

وهكذا تكشّفَت أمامهم قصّة حياة مريم المجدلية بكلّ تفاصيلها ومفاجآتها المُذهلة.

الفصل السابع عشر

الجليل
العام 26 م.

كان التراب ناعماً ورَطْباً بين أصابع رجلي مريم. نظرَت إلى قدميها وهي تعلم تماماً أن ساقيها العاريتين ملطّختان، لكنّها لم تُبالِ. ولم يكن ذلك سوى واحد من المظاهر غير اللائقة التي كانت بادية عليها في ذلك اليوم. فقد تدلّى شعرها الأسمر اللامع حتى خصرها كُتَلاً مُتشابِكة غير مربوطة، وكان قميصها فضفاضاً من دون حِزام.

كانت قبل ذلك قد حاولت أن تنسَلَّ خِفْيةً من البيت، لكنّ مرتا رأتها واعترضتها.

"وإلى أين تريدين الذهاب وأنتِ بهذا المنظر؟"

ضحكت مريم ولم تكترث لاكتشاف أمرها.

"إني خارجة إلى الحديقة فقط. وهي مسوَّرة كما تعلمين، فلن يراني أحد."

لم تصدّقها مرتا، فقالت: "لا يليق بامرأة في منزلتك ومكانتك أن تترك العنان لنفسها وتخوض في التراب كأنها خادمة حافية القدمين."

كان اعتراض مرتا مسألة روتينيّة أكثر منها مُمانَعة جادّة. فقد اعتادت التصرّفات المتحرّرة لأخت زوجها التي تصغرها سنّاً. كانت مريم نسيجاً فريداً رائعاً من خَلْق الله، وكانت مرتا تحبها كثيراً. كما إنّ هذه الفتاة لم تُتَح لها فرص كثيرة لإشباع أهوائها الشخصية، فحياتها مُثقلة بمسؤولية كبيرة تتحمّلها دائماً بشجاعة تامّة. فليس من العدل أن تحرمها مرتا من متعتها في مثل تلك الأيام القليلة التي يتسنّى لها فيها التجوّل في الحدائق.

قالت مرتا لمريم: "سيعود أخوكِ قبل المغيب."

"أعلم ذلك. لا تقلقي، لن يراني. وسأرجع في الوقت المناسب لأساعدك في إعداد الطعام."

قبّلت مريم زوجة أخيها على خدّها وانطلقت مسرعةً لتنعم بحرّيتها وحيدةً في الحديقة. خرجت مريم وشيّعتها مرتا بنظرة وابتسامة حزينة. لقد كانت مريم نحيلة رقيقة العظام، ويمكن معاملتها كطفلة. لكنّ مرتا ذكّرت نفسها بأن مريم لم تعد طفلة إذ أصبحت صبيّة في سِنّ الزواج، وهي تعرف قدرها الخطير حَقّ المعرفة.

لم تفكر مريم بقدَرها عندما أتت إلى الحديقة، بل تركت ذلك إلى اليوم التالي. رفعت رأسها لمّا أحسّت بنسمات تشرين (أكتوبر) العابقة ممزوجةً بلفحات نسيم بحيرة طبريا تملأ رئتيها. ووقف جبل أربئيل عالياً إلى الشمال الشرقي وقد ملأته شمس بعد الظهر بالنور. كانت تعتبره جبلها الخاص، فهو تلة غنية بالتربة الحمراء تشرف على مسقط رأسها، وقد اشتاقت إليه كثيراً بعد أن أمضت العائلة مؤخراً وقتاً أكثر في بيتها الثاني في بيت عنيا لقربها من مكان عمل أخيها في أورشليم. لكن مريم كانت تحب جمال منطقة الجليل الطبيعيّ وسُرّت عندما قرّر أخوها أن يقضوا فصل الخريف هنا.

كانت مريم تحب تلك اللحظات حين تكون وحدها محاطةً بالأزهار البرية وأشجار الزيتون. فمثل هذه الأوقات التي تختلي فيها بنفسها أصبحت قليلة، لذلك كانت تتمتع بكل لحظة فيها. في مثل ذلك المكان، كان يتسنى لها التنعّم بروعة خلق الله وتمجيده في سكون بعيداً عن قيود التقاليد والمظاهر التي كانت جزءاً من منزلتها الاجتماعية.

وقد فاجأها أخوها مرةً هنا، وسألها عمّا كانت تفعله خلال ساعات اختفائها.

"لا شيء. لا شيء فِعْلاً!"

نظر لعازر إلى شقيقته الصغرى عابساً ثم ابتسم لها. لقد غضب عندما تغيّبت عن المائدة بعد الظهر، وكان غضبه نابعاً من خشيته عليها. فإلى جانب اهتمامه الأخويّ بشقيقته الصغيرة الجميلة ذات الذكاء المتوقّد، كان أيضاً وليّ أمرها. وكان همّه الأكبر صِحّتها وسعادتها. فيجب حمايتها مهما كلّف الأمر، وذلك هو واجبه المقدّس نحو عائلته وشعبه وأمام الله.

لمّا وصل وجدها مستلقية على العشب مغمضة العينين من دون أن تحرّك

ساكناً، فانتابه القلق. لكنّ مريم أحست بقدومه وكأنّها حدست بخوفه فتحرّكت. ونظرت إلى عيني أخيها المحدِّقَتينِ بها، وكان غاضباً جداً.

خفَّت حِدّة غضب لعازر وهي تخاطبه. لقد أيقن للمرة الأولى كم أنّها بحاجة إلى مثل تلك الفُرَص النادرة للاختلاء بنفسها. إنها الابنة الوحيدة في سلالة بنيامين، ومستقبلُها مرسوم منذ طفولتها. هو قدَر استثنائيّ اتّحد فيه عنصرا النسب الملكيّ والنبوءة. لقد كان مقدَّراً لأخته الصغرى أن تتزوَّج زواجاً ملكِيّاً، زواجاً تنبّأ به الأنبياء، ورأى كثيرون أن ذلك مشيئة الله.

تساءَل لعازر وهو يُصغي إليها كيف ستتحمّل هاتان الكتفان النحيلتان تلك المُهمَّة الجسيمة. تحدّثت مريم بطريقة كانت تتجنَّبها غالباً، فعبّرت عن رأيها بصراحة وانفعال. وهذا ما جعل أخاها يغصّ ويدرك أنها فعلاً تحسّ بالرهبة من الدَّوْر التاريخيّ المُقدَّر لها. وقد استغرب تَفهُّمه هذا لأنه نادراً ما كان يسمح لنفسه بالنظر إليها من زاوية بشريّة بَحْتة. فهي أشبه بشيء ثمين ينبغي حمايته والاهتمام به. وقد قام بواجبه في حمايتها والعناية بها بشكل رائع. لكنه كان أيضاً يحبّها، مع أنه لم يسمح لنفسه بتكوين أيّ نوع من المشاعر قبل لقائه بزوجته مرتا.

لقد كان لعازر شاباً يافعاً عندما توفّي والده. وكان حِمْل مسؤوليّة عائلته التاريخية كبيراً على مَن كان في سِنّه. لكنه كان قد تعهّد لوالده، في أيّامه الأخيرة، بأنه لن يَخذل عائلة بنيامين وشعبه وإرادة الله.

لذلك تحمَّل لَعازر مسؤولياته الجسيمة بعزم وثبات، وعلى رأسها العناية بأخته مريم. وكانت حياته حياة التزام وواجب. لقد عُنِيَ بتعليم أخته وتربيتها بما يتناسب مع حقها الطبيعيّ النبيل، ولم يَدَعْ مجالاً للعاطفة في حياته. فالمشاعر كانت بنظره ترَفاً وأحياناً عنصراً خَطِراً.

لكنّ اللَّه أنعمَ عليه عندما وضع مرتا في حياته.

كانت الكبرى بين شقيقات ثلاث من عائلة نبيلة في بيت عنيا. لقد كان في الأساس زواجاً مدبَّراً وأُعطي فرصة الاختيار من بين الأخوات الثلاث. واختار مرتا لأسباب عمَليّة، فكوْنُها الكبرى يعني أنها أرجح عقلاً وأجدر بتحمّل المسؤولية وأكثر خبرة في إدارة المنزل. وبالفِعْل كانت الفتاتان الصغريان عابِثتين ومُدلَّلتين، وخاف أن يكون لزواجه من إحداهما أثر سلبيّ على شقيقته. وصحيح أنّ الثلاثة كنّ جميلات، إلّا أن جمال مرتا كان جمالاً هادئاً، وكانت توحي له بالطمأنينة.

وقد تحوّل هذا الزواج العَقْلانيّ إلى حُبّ كبير، إذ امتلكَت مرتا قلب لعازر. وعندما توفّيت أمّه فجأة تاركة الطفلة مريم من دون حنان الأمّ وتأثيرها، ملأت مرتا ذلك الفراغ بشكل عفويّ.

كانت مريم تُفكّر في مرتا عندما توقّفت للاستراحة في ظل شجرتها المفضّلة. وفي اليوم التالي سيأتي رئيس الكهنة يوناثان حَنّان وستبدأ التحضيرات للزفاف. ولن تُتاحَ لها أيّ فرصة لتنسَلّ وتختلي بنفسها، لذلك قرّرَت أن تستمتع بتلك اللحظة قدر الإمكان. والواقع أنها، كما يعلم الجميع، ستضطرّ لمغادرة بيتها الدافئ والسفر جنوباً مع زوجها. زوجها!

عيسى.

إن مجرّد تفكير مريم في الرجل الذي كان خطيبها كان يملؤها حرارة وألَقاً. لا بدّ أن أيّ امرأة تحسدها لأنها ستكون الملكة، زوجة الملك التاريخيّ. لكنّ سبب سعادة مريم لم يكن مركز الرجل بقدر ما كان الرجل نفسه. كان الناس يدعونه يسوع، والابن البكر ووريث بيت داود، لكن مريم كانت تدعوه بلقب منذ الطفولة، وهو عيسى، بالرغم من عدم ترحيب أخيها ومرتا بذلك.

كان لعازر قد نبهها لذلك، خلال زيارة عيسى الأخيرة، قائلاً: "ليس من اللائق أن تنادي ملكنا القادم وقائد الشعب المختار بلقب طفل، يا مريم".

لكنّ صاحب الصوت الهادئ أجابه بلهجته الآسرة: "هي مَن يقرّر ذلك".

توقّف لعازر عن الكلام عند ذلك ونظر وراءه فرأى ابن الأسد، يسوع بنفسه، واقفاً هناك.

"مريم تعرفني منذ أن كانت طفلة، وهي تدعوني عيسى دائماً. ولن أطلب منها تغيير هذا الاسم أبداً."

وجد شقيق مريم نفسه مُحرَجاً، لكن ابتسامة عيسى أنقذته. وكان في ابتسامته تلك سحر دافئ ذو أثر لا يُقاوَم. وكانت بقيّة الأمسية رائعة تجمّع فيها حول عيسى أناس تحبّهم مريم، وراحوا يُصغون لِحكمة كلام عيسى.

استلقَتْ مريم تحت شجرة الزيتون الكبيرة واستغرقت في النوم تحت شمس بعد الظهر الدافئة وقد سيطرت على مخيّلتها صور الرجل الذي سيصبح زوجها.

أوّل ما أحسّت مريم بالظل يُلقى على وجهها ذُعرت ظنّاً منها أنها تأخّرت في النوم. خالت أن الظلام قد هجم وأن لعازر سيكون غاضباً.

لكنّها، لمّا حرّكت رأسها أيقنت أن الوقت هو منتصف النهار وأن الشمس لا تزال تسطع على جبل أربئيل. حدّقت مريم جيداً لترى ما هو الشيء الذي مَرَّ ظِلّه على وجهها الحالم. شهقت بقوّة وجمدت متفاجئةً قبل أن ترمي بنفسها على ذلك الواقف أمامها، بكل حيويّة الفتاة الصبيّة الغارقة في الحب.

قالت بلهفة: "عيسى!"

بسط ذراعيه وضَمّها بشدّة لحظةً، ثمّ تراجع ليتأمّل وجهها الرائع.

قال لها: "يا يمامتي الصغيرة"، وهو اللقب الذي يناديها به منذ أيام الطفولة، "إنك تزدادين جمالاً يوماً بعد يوم".

"عيسى! لم أعلم أنكَ ستأتي. لم يخبرني أحد..."

"لم أخبر أحداً بمجيئي. سيُفاجؤون هم أيضاً عندما يرونني. لم أستطع أن أتغيّب عن التحضيرات الجارية لزواجي." وركّز ابتسامته الساحرة عليها ثانية، فراحت مريم تتفرّس في قسمات وجهه وخصوصاً عينيه الداكنتين وخدّيه البارزين.

كان أجمل رَجُل رأته في حياتها، بل أجمل رجل على وجه الأرض.

"لكنّ أخي يقول إن وجودك هنا الآن غير مأمون."

أجابها عيسى مؤكّداً: "أخوكِ رجل عظيم، لكنّه يُبالغ في قلقه. الله يدبّر أمورنا ويحمينا."

نظرَت مريم إلى نفسها وهو يتكلّم، وارتاعت إذ لاحظت هيئتَها. كان شعرها الذي يصل إلى خصرها مشعَّثاً وقد علقت به بعض الأعشاب وأوراق الشجر، أمّا رجلاها وذراعاها فكانت مُغطّاة بالغبار. ولم يَبْدُ عليها، في تلك اللحظة، شكل إنسانة ستصبح ملكة. بدأت تتمتم معتذرةً عن مظهرها، لكن عيسى قاطعها بضحكة عميقة طويلة.

"لا بأس يا يمامتي الصغيرة. لقد أتيتُ لأراكِ أنتِ لا ثيابك ولا شكلك"، ومَدّ يده وأزال عن شعرها إحدى الأوراق العالقة به.

نظرت إليه مبتسمةً وهي تسوّي قميصها وتنفض عنها الغبار، وقالت له قلقةً وساخرة في آن واحد: "لأخي موقف آخر من هذا الأمر."

والواقع أن لعازر كان صارماً معها في الشكليّات ومظاهر الاحترام. ولا شك أنه سيغضب لو عرف أن اخته كانت واقفةً في الحديقة بلا مرافقة وبثياب غير لائقة في حضرة ملك داود المستقبلي.

طمأنها عيسى بقوله: "أنا أتولّى أمر لعازر. لكنْ، لتجنُّب أيّ سوء تفاهُم، يمكنك الدخول الآن والتظاهر بعدم رؤيتي. سوف أغادر من الباب الخلفيّ وأعود مساء بعد الإعلان عن قدومي بشكل رسمي. وبذلك لن يفاجَأ أخوك ولا مرتا."

أجابته مريم وقد شعرت بالخجل فجأةً: "سأراكَ هذا المساء إذاً، وتوقّفت لحظة متأمّلةً قبل أن تتّجه نحو البيت.

ناداها عيسى وقال ضاحكاً: "تظاهري بالمفاجأة!" ثم رافقها بعينيه وهي تخترق الحديقة نحو البيت.

سيظلّ ذلك النهار وتلك الليلة في ذاكرة مريم طيلة حياتها. كانت آخر مرّة تشعر فيها أنها صبيّة حرّة سعيدة واقعة في الحبّ.

جاء يوناثان حنّان في اليوم التالي، لكنه وصل ومعه برنامج عمل جديد. كانت الأجواء السياسية والروحية في أورشليم متدهورة وغير مستقرة، وعُدِّلت الخطط لتجنُّب التهديدات الرومانية المتزايدة. لقد انتخب الكهنة رئيساً جديداً في اجتماع سرّيّ تمَّ فيه أيضاً اعتبار يسوع غير مناسب لتولّي مسؤوليّات المُخلِّص. وقد جاء أعضاء المجلس مع حنّان لعرض قراراتهم.

كانت مريم ومرتا قد أُرسلتا خارجَ الغرفة لدى وصولهم، لكنّ مريم رفضت الاختفاء بسرعة من أمام أقوى أصحاب النفوذ في شعبها وهم يقررون مصيرها. ابتسم لها عيسى ليطمئنها، لكنّها رأت في عينيه شيئاً من الشكّ والالتباس، فذُعرَت لأنها لم تره في مثل هذا الحال مِن قَبْل. لذلك اختبأَتْ في الممرّ خارج الغرفة وبقيت هناك لتُصغي لما يجري في الداخل، بالرغم مِن اعتراض مرتا على ذلك.

كانت الأصوات مرتفعة في الداخل، وعلَتْ أصوات الرجال وهم يصيحون ويتجادلون. كان من الصعب سماع كل ما يُقال بدقّة، لكنّ الصوت الخشِن المرتفِع كان صوت يوناثان حنّان.

"أنتَ أوقعْتَ نفسَك في هذا بانحيازك إلى فرقة الغيورين. لن يَسمح لنا الرومان بالتحالُف معك لوجود القتَلة والمتمرِّدين بين مؤيِّديك. وإذا فعلنا ذلك فسنعرِّض شعبنا للمذابح."

تبعَ ذلك صوت رقيق عذب هو صوت عيسى:

"إنني أتقبَّل كلّ إنسان يختار أن يتبعني ويلتمس ملكوت الله. الغيورون يُقِرّون بتحدُّري من نسل داود. أنا قائدهم الشرعيّ وقائدكم".

ردّ عليه حنّان بجِدّة: "أنت لا تعلم حقيقة مَنْ نُواجه. الحاكِم الرّومانيّ الجَديد، بيلاطس البنطيّ، إنسان همَجِيّ. هو مستعِدّ لسفك الدماء لتجنّب الخضوع لمطالبنا. إنه يرفع راياته الوثنيّة في شوارعنا وينقش شعارات التجديف على عُملتنا، وكلّ ذلك ليذكّرنا بضعفنا تجاه قوّته. وهو لن يتردَّد في القضاء على أيّ من الموجودين هنا إذا أحسّ أنّنا ندعم التمرُّد على روما مِن داخِل الهيكل".

قال عيسى: "أمير الجليل سيدعمنا. قد يتدخّل مع الحاكم الجديد".

بصق حنّان على الأرض وقال: "هيرودوس أنطيباس لا يدعم سوى نفسه وشهواته وملذّاته. وهو عبد أعمى لروما، ولا يتذكّر أنه يهوديّ إلّا عندما يتعلّق الأمر به شخصياً."

قال عيسى بشكل واضح: "زوجته ناصرية".

عندها صمت الجميع. وكان عيسى قد اعتنق تعاليم الناصريين المتحرّرين، وكانت والدته من رؤساء تلك الجماعة. لم يلتزم الناصريون الشريعة بشكل متزمّت مثل اليهود التابعين للهيكل. ومِن أبرز وجوه تجديد الناصريين أنّهم أشركوا النساء في طقوسهم، حتّى إنهم أقرّوا بأن المرأة يمكن أن تكون نبيّةً. كما سمحوا لغير اليهود بالإصغاء لتعاليمهم والمشاركة في صلواتهم.

ومع أنّ حنّان شدّد على أنّ فرقة الغيورين هي السبب الأساسي لسحب المجلس دعمه لعيسى، فإن كل الموجودين في الغرفة كانوا يعلمون أن ذلك حجّة لحجب الحقيقة. فتعاليم عيسى كانت ثوريّة جدّاً ومتأثّرة بآراء الناصريين، ولن يستطيع كهنة الهيكل السيطرة عليه.

والحقيقة أنّ ذِكْر عيسى لمسألة كون زوجة هيرودوس ناصريّةً كان تحَدّياً لكهنة الهيكل. فذلك يعني أنه سيقوم بدوره المتنبَّأ به كمَلِك من بيت داود وكمخلّص

منتظر مِن دونهم، وذلك بصفته ناصرياً. وتلك الخطوة أشبه بسلاح ذي حَدّين، فهي قد تُضعف نفوذ كهنة الهيكل، كما إنها قد تؤذي عيسى إذا سحب الناس تأييدهم الشعبيّ له مفضّلين قادَتهم التقليديّين.

لكنّ حنّان لم يكن قد انتهى من هجومه، فدَوّى صوته فوق جميع الأصوات المتوتّرة في الغرفة:

"مَن كان له العروس فهو العريس."

عاد الصمت إلى الغرفة ثانيةً، وجمدت مريم في مكانها خارج الباب، وكان لسانها جافاً وثقيلاً في فمها. كانت عبارة حنّان إشارة إلى نشيد الأنشاد الذي ألّفه الملك سليمان احتفالاً باتّحاد عائلتين من النبلاء. وهو في ذلك يُلمِّح صراحةً إلى خطبة مريم وعيسى. فبحسب التقاليد، لا يتسلّم الملك حُكم شعبه إلّا إذا كان له عروس مِن نسل ملكي مساوٍ لعائلته. وكانت مريم، بصفتها سليلة الملك شاوُل من بنيامين، أعلى أميرة رُتبةً ونَسَباً بين اليهود. لذلك خُطِبَت ليسوع، ابن أسد يهوذا، منذ الطفولة. وكان سِبْطا يهوذا وبنيامين قد اتّحدا منذ القِدَم، وقد تحقّق ذلك بزواج داود وميكال ابنة شاول.

لكنّ القانون لا يُقِرّ بمُلْك الملِك ما لم تكن زوجته الملكة من سلالة ملكيّة. وكان موقف حَنّان تهديداً مباشِراً لخطبة عيسى ومريم.

بعد ذلك تكلّم شقيق مريم. كان لعازر دائماً يسيطر على مشاعره، ولم يلاحِظ التوتّر في صوته وهو يخاطب رئيس الكهنة إلّا المقرّبون منه.

"يا يوناثان حنّان، إن أختي مخطوبة ليسوع بحسب القانون. لقد أكّد الأنبياء أنّه مخلِّص شعبنا. ولا أفهم كيف سنخالف السبيل التي اختارها الله لنا"

أجابه حنّان محتدّاً: "وكيف تجرؤ على إخباري أنا بما اختاره الله لنا؟"

انكمشت مريم خوفاً خارج الغرفة. كان لَعازر رجلاً مستقيماً ويخشى الإساءة إلى رئيس الكهنة. "نحن نرى أنّ الله قد اختار إنساناً آخر، إنساناً صالحاً يصون الشريعة ويحافظ على كل ما يُقدِّسه شعبنا من دون تشكيل تحدٍّ سياسيّ للرومان."

إذاً، فهذه هي حقيقة ما يريده حنّان! فما يعنيه بإنسان صالح يصون الشريعة هو القول لعيسى إنّهم لن يقبلوا بإصلاحاته الناصرية بالرغم مِن نسَبه الأكيد.

فسأله عيسى بكلّ هدوء: "ومَن هو هذا الإنسان؟"

"يوحنّا".

لم يصدّق لعازر ما سمعه، فسأل مستغرباً: "يوحنا المعمدان؟"

سُمع صوت أجشّ آخر، لم تتأكّد مريم من صاحبه، وربّما كان الكاهن الآخر، قيافا، وهو أصغر سنّاً من حنّان وصِهْره: "إنّه من أقرباء سلالة الأسد".

قال عيسى بصوته الهادئ: "هو ليس من أبناء داود".

تدخّل حنّان مُصحِّحاً: "لا. لكنّ أمّه سليلة أسرة هارون الكهنوتيّة وأباه مِن الصدّوقيّين. ويعتقد الناس أنّه وريث النبيّ إيليّا. ويكفي أن نجعل الناس يتبعونه إذا تزوّج العروس المناسبة."

لم يتزحزحوا عن موقفهم، فحنّان إنما جاء ليضمن خطبة مريم للرجل الذي أرادوا هُم جعْلَه المخلّص. فكأنّها السلعة التي يسعى إليها الجميع لإضفاء الشرعية على شخصيّة الملك الذي يريدونه.

علا صوت جديد غاضِب وصارخ. إنّه يعقوب أخو عيسى. ومع أن مريم لم تكن قد التقَتْ به مِن قبل، فقد عرفته من صوته الذي يُشبه صوت عيسى لكن مِن دون الهدوء والصفاء اللذين يميّزان صوت أخيه الأكبر.

"لا يجوز أن تختاروا مخلِّصكم كما تختارون البضائع في السوق! نعرف جميعاً أن يسوع هو المخلِّص المختار لقيادة شعبنا وتحريره من العبودية. فكيف تجرؤون على اختيار بديل لمجرّد خوفكم على مراكزكم الرفيعة؟"

وارتفع الصراخ إذْ راح الرجال يصيحون ليسمع واحدهم الآخر. حاولت مريم أن تميّز الأصوات، لكنّها كانت ترتعد. كُلّ شيء على وشك أن يتبدّل الآن، وأحسّت بالرهبة تسري في عظامها الرقيقة.

ووصل إلى مسمعها صوت حنّان الخشن الآمِر بالرغم من صراخ الآخرين:

"يا لعازر، بصِفتك وليّ أمر الفتاة، أنتَ الوحيد القادر على اتّخاذ القرار بفسخ الخطبة القائمة وجعل ابنة بنيامين خطيبة للرجل الذي اخترناه. الأمر كلّه بيدك. لكن لا تنسَ أن والدك كان فِرّيسيّاً وخادماً مخلصاً للهيكل، وقد عرفتُه جيداً. ولا شك بأنه كان يتوقّع منك أن تقوم بما هو خير للشعب".

أحسّت مريم، من خارج الغرفة، بالحِمْل الثقيل الذي وقع على عاتق لعازر. فوالدهما كان بالفعل متفانياً في خدمة الهيكل وملتزماً بالشريعة حتى مماته. ومع أن

أمّها كانت ناصريّة، فذلك لا يغيّر شيئاً مِن أمْر رجل مِثْله. وقد أقسمَ لعازر لوالده، وهو على فراش الموت، بالمحافظة على الشريعة وصون مصالح سلالة بنيامين بكلّ ما يملك. وهو الآن أمام خيار مُرّ لا مفرّ منه.

سألَ لعازر بكل اهتمام: "هل تريد أن تزوّج أختي بالمعمدان؟"

أجاب حنّان: "إنّه إنسان صالح ونبيّ. وبعد أن يُكرَّس يوحنا مُخَلِّصاً فإن أختك سيكون لها وضع، بصفتها زوجته، مُماثِل للوضع الذي كانت ستناله مع هذا الرجل."

تدخّل عيسى مُقاطِعاً: "يوحنا ناسك زاهد، فهو لا يرغب في الزواج ولا يحتاج إلى زوجة. إنه يفضّل العيش في عزلة لأن ذلك يقرّبه من سماع صوت الله. هل تريدون تخريب نُسْكه وإنهاء عمله الصالح بإجباره على الزواج وتحمّل كل المسؤوليّات القانونيّة المترتّبة على ذلك؟"

أجاب حنّان: "كلّا. لن نجبره على شيء. سوف يتزوّج الفتاة ليُثبت وضعه أمام الشعب كمخلِّص. بعد ذلك، ستعيش هي في بيت أسرته، ويستطيع يوحنا أن يعود إلى تبشيره. فهي ستقوم بواجباتها تجاه السلالة كما يفرض القانون، وكذلك هو."

أصغت مريم لذلك الكلام، وتمنّت ألّا يتغلّب عليها الغثَيان المزعج في فم معدتها ويجعلها تفضح مكان اختبائها. وهي تعلم أن واجباتها بحسب القانون تعني معاشرة يوحنا الناسك والإنجاب. ولم يكفِ هؤلاء الرجال سوءاً أنّهم يحاولون حرمانها أعظم سعادة حلمت بها وهي زواجها من عيسى، لكنّهم مع ذلك يحاولون أن ينتزعوا عيسى مِن منزلته كملكهم القادِم.

بالإضافة إلى ذلك، لم تطمئنّ مريم ليوحنا المعمدان نفسه. ومريم لم تكن قد رأت ذلك الرجل الذي يبشّر على ضفاف نهر الأردن، لكنّه كان كالأسطورة بين الناس. كان نَسيب عيسى ويكبره سِنّاً، لكنّهما كانا مُختلفَي الشخصيّة. وكان عيسى يحترم يوحنا ولا ينفكّ يردّد أنه خادِم مُخلِص لِلّه وإنسان صالح مستقيم. لكنّه كان أيضاً يرى سلبيّات يوحنا، وقد تحدَّث عنها مع مريم مرّةً لمّا سألته عن ذلك المبشّر الناريّ الذي كان يُعمِّد بالماء. كان يوحنا يكره النساء وغيرَ اليهود والعُرْج وكلَّ من يعتبره غير كامل، أمّا عيسى فكان يؤمن بأن كلمة الله هي لكلّ مَن يحبّ سماعها، فرسالته رسالة بُشرى لكلّ الناس. وكانت هذه الاختلافات مواضيع نقاش بين عيسى ويوحنا.

وقد أمضى يوحنا زمناً طويلاً على شواطئ البحر الميت القاحلة بعد وفاة والديه. وترسّخت معرفته بالأسينيّين في قمران، وهم فِرقة من الزهّاد المُتزمّتين الذين أخذ عنهم الكثير من آرائه المتشدّدة. عاش أفراد فِرقة قمران حياة خشنة وازدروا اللاهثين وراء نعومة العيش وبشّروا بِمُعلِّم الحق الذي سيجلب التوبة والالتزام الكامل بالقانون.

وقد قضى عيسى كذلك بعض الوقت بين الأسينيّين وشرح مبادئهم لمريم. كان يُقدِّر حبّهم لِلّه والشريعة ويُثني على أعمالهم الصالحة والخيريّة. كان يعدّ الكثير من الأسينيّين مِن رفاقه المقرّبين في الحياة ويتردّد إلى قمران الهادئة في فترات التأمّل. وفي حين اعتنق يوحنا آراء الأسينيّن الصارمة، فإن عيسى اعتبر أنّ الكثير من آرائهم وأحكامهم في غاية التزمُّت والتطرّف؟

زوّد عيسى مريم بمعلومات مُفصَّلة عن يوحنا، مثل نوعية طعامه الغريبة التي أخذها عن قمران، وعن الجراد الممزوج بالعسَل، وعن لباسه الغريب المصنوع من جلد الحيوانات ووبر الجمل القاسي الذي يحتكّ بجسده ويجرحه. وأخبرها كيف قرّر نسيبه المعمدان أن يعيش في البريّة تحت السماء حيث يشعر أنّه أقرب إلى الله. ولم تكن مثل تلك الحياة لائقة بامرأة نبيلة وأولاد، ولم تكن بالطبع الحياة التي أُعِدّت مريم المجدلية لتحياها منذ طفولتها.

تأمّلت مريم حزينةً الوضع الذي أصبح برُمّته في يد لعازر. وظلّ الرجال داخِل الغرفة فيما كانت عينا مريم تدمعان بغزارة. ولم تعد تستطيع تمييز صوت مِن آخَر، فأيٌّ هو صوت لعازر؟ وماذا يقول؟ كان أخوها يحبّ عيسى ويحترم شخصّيته ونسَبه إلى سلالة داود، مع أنه لم يأخذ بإصلاحات الناصريّين. كان لعازر تقليدياً محافِظاً، فوالده كان فِرّيسياً ويقدّم الدعم المادي للهيكل في أورشليم.

كان يوناثان حنّان يضغط عليه لاتخاذ قراره في أمر مرير مؤلم: إذا أيّد لعازر عيسى، الملك الشرعي بحسب السلالة ووريث كل النبوءات، فإنّه سيُفصل من الهيكل. وكان ذلك مفهوماً بوضوح من كلام الكاهن. وإذا فعل لعازر ذلك فإنه لن يجد مَفرّاً من الانضمام إلى الناصريّين واعتناق عقيدة إصلاحية لا يؤمن بها.

وكان المعتدلون من الناس، ومن بينهم لعازر، راضين طالما أن عيسى مقبول من الجهتين: الناصريين وكهنة الهيكل. لكنّ الوضع صار على أبواب انفصال نهائي أو افتراق تامّ بين عائلات اليهود الكبرى سوف يتطوّر إلى نزاع حادّ، وسيضطرّ الناسُ العادِيّونَ إلى اتّخاذ خيارات حاسِمة مؤلمة.

لكنّ هَمّ مريم في تلك اللحظة كان مُنصباً على خيار واحد ينبغي اتّخاذه.

فقرار لعازر بتأييد قرار كهنة الهيكل لن يقتصر ضرره على تبديد أحلام طفولة مريم وإجبارها على زواج بَغيض، لكنّه أيضاً سيغيّر مجرى التاريخ، إلى غير رجعة، على مدى آلاف السنين الآتية.

اتّفق عيسى مع لعازر تلك الليلة: أراد أن ينقل الخبر إلى مريم بنفسه. ووافق لعازر على ذلك لأنه يريحه من موقف صعب كان سيجد نفسه فيه. أُحضرَت مريم إلى غرفة خاصّة للقاء الرجل الذي طالما آمنت بأنّه سيكون زوجها.

لمّا رأى عيسى بدَنها المرتجف ووجهها المبلّل بالدموع علم أنّها سمعت معظم ما دار في اللقاء العاصف. وما إن لاحظت مريم الحزن في عيني عيسى حتى علمَت أن مصيرها قد تقرَّر. ألقَت بنفسها بين ذراعيه وبكَت بكاءً مريراً حتى جفّت دموعها.

سألته: "لكن لماذا؟ لماذا وافقتَ على ذلك؟ كيف سمحتَ لهم بأخذ مَمْلكتك منك؟"

داعب عيسى شعرها لتهدئتها وابتسم لها ابتسامته المُعَزِّية المعهودة: "قد لا تكون مملكتي من هذا العالم، يا يمامتي الصغيرة."

هزّت مريم رأسها ولم تفهم ما قاله. لاحظ عيسى ذلك فأردف قائلاً:

"مريم، عملي هو أن أعلِّم الطريق، أن أبيّن للناس أن ملكوت الله آتٍ، وأنّ لدينا القوّة لتحرير أنفسنا مِن كلّ اضطهاد. أنا لا أحتاج إلى تاج دنيوي أو مملكة أرضيّة لأقوم بذلك. يكفيني فقط تبشير أكبر عدد من الناس بكلمة طريق الله.

"لقد اعتقدْتُ دائماً بأنّني سأرث عرش داود وأنّك ستجلسين قربي. لكن إذا لم يتحقّق ذلك مادّيّاً، فعلينا تَقَبُّل مشيئة الله."

فكّرت مريم مليّاً في ما قاله عيسى وحاولت جاهدةً أن تتحلّى بالشجاعة وتسلِّم بالأمر. لقد رُبِّيَت دائماً كاميرة، وكان ذلك سبب تسميتها مريم، وهو اسم مخصَّص لبنات العائلات النبيلة بحسب تقاليد الناصريّين. وقد نُشِّئَت بإشراف نساء الناصرة وعلى رأسهنّ أمّ عيسى. فمريم العظيمة تولّت تثقيف مريم المجدلية منذ

صغرها فأعدّتها للعيش مع ابن داود وعلّمتها دروساً روحيّة حول مبادئ الناصريّين الإصلاحية. وكان من المقرّر، بعد زواجها من عيسى، أن تخلعَ عليها مريم العظيمة الرداء الأحمر للكاهنات الناصريّات، وهو الرداء الأحمر نفسه الذي تلبسه مريم العظيمة.

لكنّ ذلك لن يحدث الآن!

لم تستطع مريم أن تتحمّل فكرة خسارة كل ذلك، فعادت للبكاء. وخطر ببالها سؤال خطير وقطعت بكاءَها شهقةٌ عميقة.

قالت هامسةً تخشى السؤال: "عيسى!"

"نعم".

"مَنْ... مَن ستتزوّجُ الآنَ؟"

نظر عيسى إلى مريم نظرة تفيض حناناً لدرجة أحسَّت معها أن قلبها يكاد ينفطر.

أمسك يديها وخاطبَها برِقّة وحزم معاً:

"هل تذكرين ما قالَتْه أمّي عندما جئتِ بيتَنا في المرة الأخيرة؟"

أومأت مريم برأسها مبتسمةً بالرغم من الدموع في عينيها: "لن أنسى ذلك اليوم أبداً. قالت لي: إنّ الله جعلَكِ القرينة المثالية لابني. ستصبحان جسداً واحداً. فلا تكونان اثنين بعد ذلك، بل جسد واحد. فما جمعه الله لا يفرّقه إنسان."

هزّ عيسى رأسه وقال: "أمّي أكثر النساء حِكمةً، وهي نبيّة عظيمة. لقد رأَت أنّ الله جعلك لي. وإذا شاء الله ألّا تكوني لي، فأنا لن تكون لي امرأة أخرى."

شعرت مريم بالرضا. فمِن بين الأشياء التي لا يمكن أن تتحمّلها، كانت فكرة اتّخاذ عيسى زوجة أخرى شيئاً لا يُطاق. ثمّ صدمَتْها فكرة أخرى، فقالت:

"لكن إذا أصبحتُ زوجة ليوحنا، فإنه لن يسمح لي أبداً أن أكون كاهنة ناصرية".

أجابها عيسى بجدّيّة تامّة: "بالطبع، فيوحنا سيصرّ على أن تتقيّدي بالنواميس بحذافيرها. إنّه يكره إصلاحات جماعتنا، وقد يكون قاسياً جدّاً معك ويفرض عليك عقوبات صارمة. لكن لا تنسي ما قلتُه لك وما علّمَتْكِ إيّاه أمّي. إنّ

مملكة الله في قلبكِ ولن يستطيع أي مُضطهد - لا الرومان ولا حتى يوحنا - أن ينتزع ذلك منكِ."

ثمّ رفع ذقن مريم بيده وحدّق مباشرة في عينيها العسليّتين الواسعتين، وقال: "اسمعيني جيّداً يا يمامتي. علينا أن نسير في هذا الدرب بصبر وثبات وأن نقوم بما هو مناسب لصالح شعبنا. وهذا يعني أنه لا يمكنني الآن أن أعارض يوناثان حنّان والهيكل. سوف أؤيّد قرارهم كي تستمرّ تعاليم الطريق بسلام وتنتشر في الأرض. وقد وافقتُ على القيام بأمرين لأدلّل على دعمي للقرار: سوف أحضُر، مع أمي، زفافك أنتِ ويوحنا، وسأسمح ليوحنا بأن يعمّدني علناً لأُظهر اعترافي بسُلْطته الروحيّة".

هزّت مريم رأسها بكآبة. سوف تقوم بما عليها القيام به، فذلك من مسؤوليّتها تجاه الناس، ولا شكّ بأن تمسُّكها بتعاليم عيسى عن المحبّة ودعمه لها سيساعدانها في تحمّل ذلك.

قبّلَ رأسها برقّة واستدار ليغادر.

ثمّ قال لها بصوته الوقور الهادئ: "أنتِ قويّة بالرغم من نحول جسدك. إنّي دائماً أرى فيكِ هذه القوّة. سوف تصبحين ملكة رائعة يوماً ما وقائدة عظيمة لشعبنا."

وقف عند الباب لينظر إليها مرّة أخيرة ويعطيها كلمته الأخيرة. وضع يده على قلبه وقال:

"أنا معك دائماً".

لم يكن إقناع يوحنا المعمدان بالسهولة التي تصوّرها يوناثان حنّان ومجلس الكهنة.

عندما جاؤوا إلى يوحنا بعَرْضهم تهجّم عليهم واتّهمهم بالفساد وشبّههم بالأفاعي لِخُبْثهم وغدرهم. ذكّرهم بأنّ نسيبه هو المخلّص والنبيّ المختار من الله، أمّا هو، يوحنا، فلم يكن يستحقّ القيام بتلك المهمّة. وردّ الكهنة على يوحنا بأن الناس يرون أنّه نبيّ أهمّ ويعتبرونه خليفة النبي إيليّا.

لكنّ يوحنا أجابهم: "لا، لستُ كذلك."

فسأله الكهنة: "إذاً، أخبِرْنا مَن أنتَ حتّى نعرف ماذا نخبر الناس ليتبعوك كنبيّ وملك."

أجابهم يوحنا بطريقته المبهمة: "أنا صوت صارخ في البرّيّة."

وصرفَ الفِرّيسيّين، لكنّ الكاهن الشابّ الذكيّ، قيافا، تنبّه لقول يوحنا: أنا صوت صارخ في البرّيّة، وهو ترديد لنبوءة أشعيا. فهل غاص يوحنا في متاهة النبوءات القديمة ليقول إنه نبيّ فعلاً؟ وهل كان يجسّ نبض الكهنة بهذه الطريقة؟

عاد مبعوثو الكهنة في اليوم التالي وطلبوا منه هذه المرّة أن يعمّدهم. وأصرّ على أن يتوبوا عن كلّ خطاياهم قبل أن يوافق على ذلك. فغضب الكهنة، لكنّهم سايروا يوحنا وأذعنوا لطلبه حِرْصاً على غايتهم. كما رأوا أنّ تلقّيهم المعمودية على يد يوحنا سوف يعزّز مكانتهم لدى الحشود التي كانت تقول إن يوحنا نبيّ، وهذا هو بالضبط ما يريدونه.

بعد أن أعلن الكهنة توبتهم غطّسهم يوحنا في مياه الأردن، لكنّه نبّههم قائلاً: "أنا أعمّدكم بالماء، أمّا الذي يأتي بعدي فهو أقوى منّي في عيني الله".

مكث الكهنة عند يوحنا في ذلك اليوم، وانتظروا حتى قَلَّ عدد الجموع المحتشدة على ضفّتي النهر وأطلعوه على خطّتهم، فرفضها يوحنا بالكامل. ومن أهَمّ ما اعترض عليه بشدّة الزواج، وخصوصاً من المرأة المخطوبة لنسيبه. لكنّ المجلس كان مُحتاطاً لمواجهة كلّ احتمالات رَفْض يوحنا بعد أن لمسوا سلبيّته في اليوم السابق. ذكّروه بأن لعازر رجل تقيّ نبيل من سلالة بنيامين وقالوا إن ذلك الرجل الصالح يخشى أن يؤدي زواج أخته التقيّة إلى تأثّرها بمبادئ الناصريّين.

أطرق يوحنا المعمدان لدى سماعه ذلك، فتلك نقطة ضعفه الكبرى. فبالرغم مِن إقراره بأن يسوع هو المخلّص المختار الذي بشّرت به النبوءات، كان يخشى مسيرة نسيبه مع الناصريّين وعدم التزامهم الشديد بالشريعة. لكن يوحنا صرف الكهنة ورفض مناقشة الموضوع معهم.

وهكذا عاد الكهنة أدراجهم من دون أن يفلحوا في تغيير رأي يوحنا.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، وصل عيسى إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن ليتمّم الوعد الذي قطعه لِحَنّان. وقد رافق عيسى جمع كبير، واجتنب اللقاء بين هذين الرجلين الشهيرين حشداً كبيراً من الناس على ضفتي النهر. رفع يوحنا يده ليوقف عيسى عن التقدّم.

سأله: "هل تأتي إليّ لأعمّدك؟ أنا أحتاج إلى الاعتماد على يدك لأن الله اختارك."

فأجابه عيسى مبتسماً: "اسمع يا نسيبي، دعني الآن وما أريد، فهكذا يَحْسُنُ بنا أن نُتِمّ كلّ برّ".

هزّ يوحنا رأسه ولم يُفاجَأ بقبول عيسى الواضح. وكان ذلك لقاءَهما الأوّل بعد بروز مؤامرة يوناثان حنّان. أخذ المعمدان عيسى بعيداً عن آذان الناس وخاطبه وهو يزن كلماته محاولاً معرفة موقف نسيبه:

"مَن كان له العروس فهو العريس."

لم يُظهر عيسى أيّ رَدّة فعْل لما قاله يوحنا. بل هزّ رأسه مُوافِقاً على هذا التعبير.

وتابع يوحنا كلامه: "وأمّا صديق العريس، الذي يقف يستمع إليه فإنه يفرح أشدّ الفرح لصوت العريس. إنها هديّة حَقّ غير أنانيّة، ويمكنني أن أفرح بها إذا كنت بالفعل تعطيها مِن كل قلبك".

هزّ عيسى رأسه معبّراً عن موافقته ثانيةً. "يرضيني أن أكون صديق العريس. يجب أن أَصغُر حتّى تكبُر أنت. فليكن الأمر كذلك".

كان الحوار بين النبيَّينِ العظيمينِ نوعاً من التورية الكلامية وعرف كلّ منهما الموقف السياسيّ للآخر. ولمّا أيْقنَ يوحنا أن نسيبه قد وافق على التنازل سلميّاً عن مركزه وعن عروسه، اتّجه نحو الجموع الغفيرة المحتشدة على ضفّتي النهر. وأعلن للناس قبل أن يدعو عيسى للتقدّم:

"هذا الرجل هو الآتي بعدي، وقد تقدّمني لأنه كان مِن قبلي".

غُمر عيسى بماء الأردن فيما كان يوحنا يصدح بكلماته. وهي كلمات مختارة بدقّة، وتفيد بأنّه إذا تولى يوحنا مهمّة المخلّص فإن عيسى سيكون وريث عرشه. فعبارة "لأنّه كان قبلي" إشارة واضحة إلى أنّ يوحنا ما زال يُقِرّ بالنبوءات بدءاً مِن مولد عيسى. وتلك الصيغة تحفظ ليوحنا تأييد المعتدلين الذين يساندونه ويرفضون إصلاحات الناصريّين، كما إنّها تعترف بأن عيسى هو ابن النبوءات. أمّا عبارته الأولى "هذا الرجل هو الآتي بعدي" فتدلّ على أن يوحنا كان ينوي تولّي دور المخلّص. فيوحنا، ذلك المبشّر في البرّيّة بثيابه الخشنة وأسلوبه الإنجيلي الصارم

قد يخطئ الناس تقدير مدى حِنكته، لكنّ تصرّفاته وكلماته عند ضفّة نهر الأردن في ذلك اليوم أثبتت أنه رجل سياسة أنكى ممّا ظنّه الكثيرون.

لمّا خرج عيسى من الماء، حيّا الناسُ هذين الرجلين الكبيرين، النبيّين النسيبينِ المُبارَكين مِن الربّ. ثمّ ساد الصمت في وادي الأردن لمّا ظهرَتْ في السماء حمامة بيضاء ونزلت برشاقة فوق رأس عيسى، أسد داود. كانت لحظة تاريخية لن ينساها أهل وادي الأردن وسائر الأرض حتى نهاية العالم.

عاد قيافا في اليوم التالي مع عدد من الفِرّيسيّين إلى ضفة نهر الأردن. وكان قد وضع خطّة بارعة لمواجهة يوحنا. فعمادة عيسى في اليوم السابق لم تخدم غرَض حنّان الذي ظنّ أن قبول عيسى الاعتماد على يد يوحنا علَناً سيعزّز مكانة يوحنا، لكن ما حدث ذكّر الناس بأن ذلك الناصريّ المُشاغِب كان هو المُختار بحسَب النبوءات. وكان على الفريسيّين أن يبادروا إلى إزالة الاعتقاد بأن عيسى هو المخلّص المنتظَر، ورأوا أن الطريقة الوحيدة لتحقيق ذلك هي نقل لقب المخلّص إلى شخص آخر، بأسرع ما يمكن، ولم يجدوا شخصاً يقبل به الناس سوى يوحنا.

لكنّ ظهور الحمامة البيضاء أثار قلق يوحنا، فتساءَل: ألا يُثبت نزول الحمامة من السماء أن عيسى هو مَن اختاره الله؟ لذلك تردّد يوحنا في موقفه ومال إلى تأييد نسيبه. وكان قيافا محنَّكاً بارعاً في أساليب المناورة التي تعلّمها مِن حَميه حنّان، فتوقّع مثل هذا الموقف وحضّر علاجاً مضاداً له.

قال ليوحنا: "إنّ نسيبك الناصريّ كانَ اليومَ مع البُرْص."

نزل هذا القول على يوحنا كالصاعقة. كان يوحنا يعتبر أنّه لا يوجَد أنْجَس مِن أولئك القذِرينَ الذين تخلّى عنهم الله، ومِن غير الجائز أن يذهب إليهم نسيبه وخصوصاً بعد عِماده.

وسأل يوحنا: "وهل أنت متأكّد أن هذا حدث فعلاً؟"

أجاب قيافا بكل هدوء: "أجلْ. ويؤسفني أن أخبرك أنّه ذهب هذا الصباح إلى أقذر مكان. وأُخبِرْتُ أنه بشّرهم بكلمة الله، حتى إنّه سمح لهم بلمسه."

استغرب يوحنا أن يكون نسيبه عيسى قد انحدر إلى هذا المستوى بهذه السرعة. وكان يعلم أن الناصريين قد أثّروا فيه بشكل عميق. ألم تكن أمّه مريم مِن قادة تلك المجموعة؟ لكنّها كانت امرأة، ولذلك لم تكن بنظره ذات شأن سوى أنها تركت أثراً عميقاً على ابنها. لكنْ إذا كان عيسى قد تلوّث بتلك البيئة النجسة قبل أن يمرّ يوم واحد على عماده فلا بُدّ أن يكون الله قد تخلّى عنه.

كان على يوحنا أيضاً أن يفكّر في تلك البنت، سليلة بنيامين. وكان منزعجاً من اسمها مريم، وهو اسم ناصري يدلّ على أنّها رُبِّيت على أساس مبادئهم العوجاء.

لكن ينبغي أخذ النبوءة المتعلّقة بالفتاة نفسها بعين الاعتبار، وذلك لمصلحة الشعب. فهي ابنة صهيون كما ذُكر في سِفر النبيّ ميخا. وتشير النبوءة إلى مَجْدَل عِدْر أي بُرْج القَطيع، وهي راعية تقود الشعب: "وأنتِ يا بُرْجَ القَطيع، أَكَمَةَ بنت صهيون إليك يأتي... ويجيء الحُكْم الأوّل مُلْك بنت أورشليم".

فإذا كانت مريم هي فعلاً تلك الأنثى المذكورة في النبوءة، فمن واجب يوحنا الحرص على بقائها في طريق الحَقّ. وأكّد قيافا ليوحنا أنها كانت فَتِيَّة وتقيّة وباستطاعته توجيهها كما يريد، أي بالطريقة الشرعية التقليديّة، لا بل إنّ أخاها يرجو القيام بذلك قبل فوات الأوان. وكانت خطبة ابنة بنيامين هذه إلى عيسى قد فُسخت لأن لديه ميولاً ناصريّة. وهذه حجّة مقبولة بحسب القوانين، لذلك كتب رئيس الكهنة يوناثان حنّان وثيقة الفسخ بنفسه.

بالإضافة إلى ذلك، لم يعترض عيسى وأتباعه الناصريّون على هذا القرار ووعدوا بمساندة يوحنا وتأييده في مهمّته كمخلّص. حتّى إن عيسى وافق على حضور العرس للدلالة على موافقته. لم يكن أمام يوحنا مجال للرفض. فإذا تزوّج الأميرة سليلة بنيامين وأصبح المخلّص، فإن أعداد مَن يعمّدهم ستتضاعف، وسيصل إلى المزيد من الخطأة ويُرشِدهم إلى طريق التوبة. وبذلك يصبح معلّم الحَقّ بحسب ما ورد في نبوءات أجداده.

وهكذا رأى يوحنا نفسه أمام فرصة لهداية المزيد من الخطأة وتعليم الناس سبيل التوبة والعودة إلى الله، فوافَقَ على الزواج من ابنة بنيامين وتولّي تلك المسؤولية الهامّة بالنسبة لمصير شعبه.

في تلّة قانا الجليل أُقيم عُرس مريم، ابنة أسرة بنيامين ويوحنا المعمدان مِن نسل أسرتي هارون وصادوق الكهنوتيّتين. وقد حضر العرسَ جَمْعٌ من النبلاء والناصريّين والفِرّيسيّين. وحضرَ عيسى، كما وعد، مصحوباً بوالدته وإخوته وجمع من تلاميذه.

كانت والدة يوحنا التقيّة، أليصابات قريبة أمّ عيسى، مريم. لكنّ أليصابات وزوجها، زكريّا، كانا قد توفّيا قبل عدّة سنوات من زواج ابنهما. ولم يكن ليوحنا قريب مُباشِر للاهتمام بترتيبات حفلة العرس، ولم يكن هو خبيراً بمثل هذه الأمور. لاحظت مريم العظيمة عدم توفّر العناية اللازمة بالضيوف وتدخّلت لإنقاذ الوضع بصفتها أكبر قريبات يوحنا. فتوجّهت إلى حيث كان ابنها جالساً مع بعض أتباعه، وقالت له: "ليس عندهم كميّة كافية من الخمر للمدعوّين."

أصغى عيسى باهتمام لِما قالته أمّه وأجابها: "الأمر لا يعنيني. هذا ليس عُرسي، فلا يليق بي التدخُّل."

أخبرَتْه أمّه أنها لا توافقه الرأي. فهي تريد أوّلاً أن يكون العرس لائقاً حفاظاً على سمعة عائلة قريبتها أليصابات. ثُمّ إنّها، بفضل حِكمتها وخِبْرتها بالناس ومعرفتها النبوءات، رأت أن تلك فرصة مؤاتية لتذكير جمع النبلاء والكهنة بمكانة ابنها الفريدة في مجتمعهم. وقد نزل عيسى عند رغبة أمّه بعد تردّد.

نادَت مريم الخدَم وأمرتهم بقولها: "مهما قال لكم فافعلوه".

انتظر الخدَم تعليمات عيسى. وبعد لحظة طلب أن يُحضروا له ستّة أجران مملوءة كلّها بالماء حتّى الشُفة. نفّذوا أمره، ووضعوا الأجران الحجريّة الستّة أمامه. أغمض عينيه وصلّى وهو يضع يده فوقها واحداً واحداً. ولمّا انتهى، أمرَ الخدَم بأن يغرفوا السائل من الأجران. ذُهلت الخادمة الأولى لمّا فعلَت ذلك ورمَتْ كوب السَّكْب من يدها. لم يَعُدْ في الأجران الحجرية ماء، بل أصبحت كلها مملوءة بخمرة حمراء حلوة.

أمر عيسى أحد الخدَم بتقديم كأس من تلك الخمرة إلى قيافا الذي كان يرأس الاحتفال. رفع قيافا كأسه تحيّة للعريس يوحنا، وأثنى على جودة الخمر بقوله:

"كل امرئ يقدّم الخمرة الجيّدة أوّلاً، فإذا سكر الناس قدّم ما دونها جودة. أمّا أنتَ فحفظْتَ الخمرة الجيّدة إلى الآن؟"

نظر يوحنا إلى قيافا مُرتبكاً، فلا هو ولا الكاهن كان يعرف ماذا حدث. ولم

يكن قد رشح شيء عن حدوث أمر غير اعتيادي سوى همَسات بدأ يردّدها نفرٌ من الخدَم وبعض تلاميذ الناصريّ. لكنْ سرعان ما سينتشر الخبر ويعرف الجميع في الجليل ما حدث بالضبط في عرس قانا الجليل.

بعد عُرس يوحنا ومريم، لم يكن أحد يتحدّث عن العروس والعريس. فقد غطّى على هذا الزواج بين سلالتين عريقتين حدث استثنائي كبير. كان الحديث على ألسُن الناس العاديّين يدور على مُعجزة تحويل الماء إلى خمر على يد النبيّ الشابّ. وأصبح بذلك اسم عيسى على كل شفه ولسان في منطقة الجليل الشمالية. وكان الناس هناك يعتبرونه وحده المخلّص المنتظر، ولم يأخذوا بالإشاعات التي كان كهنة الهيكل يطلقونها.

أمّا سلطة يوحنا وشهرته فقد امتدّتا جنوباً، مِن ضفّتي الأردن قرب أريحا، مروراً باورشليم، نزولاً حتّى الأراضي الجرداء حول البحر الميت. وبتشجيع مِن كهنة الهيكل، تضاعف عدد أتباع يوحنا حتى امتلأت ضفّتا النهر بالناس يريدون أن يتعمّدوا. وكان يوحنا يدعو الناس للالتزام الصارم بالشريعة مِمّا جعلهم يُقبلون على بَذْل القرابين والتقدِمات، فامتلأت خزائن الهيكل. وهكذا رضيَ الجميع عن التدبير الذي توصّلوا إليه.

لكن مريم المجدلية التي أصبحت زوجة يوحنا المعمدان لم تكن راضية.

وقد تكون الإيجابيّة الوحيدة هي أن العروس والعريس لم يرغبا في هذا الزواج أصلاً. فيوحنا لم يكن يريد إلّا البقاء في البرّيّة والتبشير بالله. ووافق على أن يلتزم بالشريعة التي تفرض أن يكون الرجال مُثمِرين ويتكاثروا، وأن يزور زوجته في الأوقات المُناسِبة بِغرَض التناسُل. أمّا خارج تلك الأوقات التي يفرضها القانون والتقليد فلم يكن راغباً في صحبة أي امرأة.

كان أوّل قرار اتّخذه يوحنا بعد زواجه هو اختيار مكان سَكَن مريم. فهو لم يُخفِ أن زوجته غير مُرحَّب بها في مكان أداء مهمّته. وفي الواقع، لم يسمح أَسينيّو قمران بإقامة النساء معهم بتاتاً، إنّما أبعدوهنّ إلى مَبانٍ منعزلة لأنّهن بنظرهم غير طاهرات طبيعيّاً. وكانت أم يوحنا قد توفّيت، وتلك مشكلة، فلو كانت اليصابات حيّة لسكنت مريم في بيت حَميها.

بحث يوحنا ولعازر المسألة، وكانت مريم قد أطلعت أخاها على رغبتها. فألح لَعازر على أن يُسمح لأخته بالعيش معه ومع مرتا في بيتي العائلة في مجدل وبيت عنيا. وبذلك لا تظلّ مريم وحيدة وتحظى بعناية رجل وامرأة تقيّين. كما إن بيت عنيا ليست بعيدة عن أريحا مِمّا يريح يوحنا في الزيارات النادرة المفروضة عليه لزوجته.

كان ذلك حلاً مناسباً وسهلاً بالنسبة ليوحنا الذي لم يهتمّ بنشاطات مريم العامة باستثناء حرصه على أن تُحسن التصرّف دائماً كامرأة ورِعة تائبة. فإذا كانت تلك الفتاة ستصبح أمّ ابنه فعليها أن تكون بعيدة عن كل عيب أو لوم. وقد أكّدت مريم ليوحنا أنّها، في غيابه، ستطيع أخاها كعادتها. وحاولت ألّا تُظهر مدى سعادتها عندما تَمّ الاتّفاق على سكنها مع لعازر ومرتا.

لكن سعادة مريم لم تدم طويلاً لأن يوحنا وضع شروطاً أخرى، منها عدم سماحه لها بالاقتراب من تعاليم الناصريين. فحظر عليها زيارة بيت مريم العظيمة، معلّمتها الأولى وصديقتها. وعليها ألّا تظهر علناً في أي مكان يتكلّم فيه عيسى. فيوحنا كان قد استشاط غضباً لأن بعض تلاميذه قد تركوا ضفّة نهر الأردن وتبعوا نسيبه، وقد عنّفَ المعمدان هؤلاء لأنّهم أصبحوا ناصريّين ونعتّهم بالساعين إلى الأمور السهلة. فالمنافسة كانت تشتدّ تدريجياً بين الرسالتين المختلفتين لكل مِن عيسى الناصريّ والمعمدان الزاهد. لذلك حرص يوحنا على ألّا تسبِّب له زوجته أيّ خزي أو عار، فيجب ألّا يسمح لها بالتواجُد حيث يكون الناصريّون. وقد انتزع يوحنا مِن لعازر عهداً قاطعاً بذلك.

كانت مريم صبيّة ساذجة لا تعرف إلّا الحبّ والصدق، فحاولت أن تناقش هذا الأمر مع يوحنا، لكنّها تلقّت أوّل صفعة من زوجها لمحاولتها الاعتراض. وتركَت يد يوحنا علامة ظلّت على خدّها طوال اليوم لتذكّرها بوجوب عدم مناقشته عندما يتعلّق الأمر بالطاعة. وترك المعمدان عروسه في مجدل في اليوم نفسه من دون أن يودّعها.

كانت مريم تخشى زيارات يوحنا، وتشكر الله على أنها قليلة ومتباعدة زمنياً. لم يكن يوحنا يأتي إلى بيت عنيا إلا عندما يكون في الجوار في مهمّاته، مثلاً أثناء انتقاله من موقعه على ضفّة النهر إلى أورشليم. كان يسأل عن صحّة مريم بطريقة شكليّة، وفي الوقت المناسب بحسب القانون، يقوم بواجباته كزوج. وكان يوحنا

يقضي الوقت في مثل تلك الزيارات في تعليم مريم مبادئ الشريعة وتلقينها واجباتها من أجل التوبة، ويكرّر على مسمعها أن ملكوت الله آتٍ.

كانت مريم تعلم أنّها، بصفتها أميرة من سلالة بنيامين، لا يليق بها أن تقارن بين زوجها وأي إنسان آخر، لكنها لم تستطع أن تتجنّب ذلك. كانت ليلاً نهاراً تفكّر في عيسى وكلّ ما علّمها إيّاه. وقد أذهلها أنّ عيسى ويوحنا يبشّران بالشيء نفسه، وهو أن ملكوت الله آتٍ. لكنّ كلاً منهما فسّره بشكل مختلف، فيوحنا اعتبره نذير شؤم أو تحذيراً مُرْعِباً للآثمين، أمّا عيسى فاعتبر ذلك فرصة مؤاتية لجميع الناس الذين يفتحون قلوبهم لِلّه.

يومَ علمت مريم أنّ عيسى سيأتي مع أمّه ومجموعة من أتباعه الناصريين إلى بيت عنيا، أحسّت بعودة الفرح إلى قلبها بعدما هجره مدّةً طويلة.

كان وجه لعازر عابساً كجدار مانع أمام رغبات أخته وهو يقول لها: "لن يقيموا معنا هنا، ولن تذهبي لرؤيتهم، يا مريم. إن زوجك يمنع ذلك."

أجابته مريم شاكيةً: "كيف تفعل بي ذلك؟ إنهم أصدقائي القدامى، وبعضهم أصدقاؤك منذ زمن. الصيّادان بطرس وأندراوس كانا يلعبان معنا في الصِّغَر على أدراج كفرناحوم وشواطئ بحيرة طبريا. فكيف تمتنع عن استضافتهم؟"

رأت مريم على وجه أخيها معاناته من تنفيذ هذا القرار. فقد كان لعازر في عذاب شديد لاضطراره لرفض أصدقاء طفولته، وكذلك عيسى ومريم العظيمة وهما من سلالة داود الموقّرة. لكنّ لعازر كان ينفّذ أوامر رئيس الكهنة بعدم استقبال جماعة الناصريّين أثناء مرورهم خروجاً من أورشليم. كما إن زوج شقيقته قد أصدر أوامر صارمة بمنع تواجدها حيث تُلقَّنُ تعاليم الناصريّين. وتعهّد لعازر بالمحافظة على نقاء مريم ووَرَعها ضمن الحدود التي رسمها زوجها.

"إني أَفعلُ ذلك حِرْصاً عليك يا أختي".

"تماماً كما زوّجْتني بالمعمدان حرصاً عليّ!"، ولم تنتظِر مريم جوابه ولا نظرت إلى الصدمة على وجهه، بل اندفعَت مخترقة البيت إلى الحديقة، وانفجرت باكيةً.

"إنّه في الواقع يقوم بما هو أفضل لك".

لم تكن مريم قد سمعت مرتا تلحق بها، لأنها كانت مستغرقة في حزنها فلم تلاحظ اقترابها منها. ومع شدّة محبّتها لمرتا، لم تكن مستعدّة لسماع أيّ موعظة عن الطاعة. بدأت مريم بالكلام، لكنّ مرتا قاطعتها:

"لستُ هنا لتأنيبك بل لمساعدتك".

نظرت مريم إلى مرتا متأمّلة. فهي تعلم أن زوجة أخيها لا تخالِف رغَبات زوجها ولا تعارضه بأي شكل من الأشكال. لكنّ عيني مرتا كانتا تُظهران قوّة صامتة، ورأت مريم تلك النظرة القويّة في عيني زوجة أخيها في تلك اللحظة.

"مريم، أنتِ مثل أختي، لا بل كابنة لي نوعاً ما. لا يمكنني أن أتحمّل رؤيتك تعانين كل هذا الألم الذي أصابك هذا العام. إني فخورة بك، وكذلك أخوك. صحيح أنه لا يُظهر لك ذلك، لكنه يُخبرني بكل شيء. لقد قمتِ بواجبك كأميرة نبيلة، وظَلّ رأسك مرفوعاً."

مسحَت مريم دموعها، فيما استطردت مرتا قائلة: "سيذهب لعازر إلى أورشليم لقضاء بعض الأعمال، ولن يعود قبل ليلة الغد. الناصريّون سيجتمعون في بيت عنيا في منزل سمعان."

اتّسعَت حدَقتا مريم لدى سماعها ذلك، ولم تصدّق أن مرتا التقيّة ترسم خطّة للتسلُّل، فتساءلَت: "سمعان؟ تقصدين ذلك البيت هناك؟"

وأشارت مريم إلى منزل قريب ظاهِر مِن حيث تَقِفانِ، فأومأت مرتا برأسها إيجاباً.

"إذا كنتِ حذرة وكتومة فسوف أغضّ النظر لتذهبي وتلتقي بأصدقائك."

طوَّقَت مريمُ مرتا بذراعيها وصاحت: "أحبُّك".

قالت لها مرتا: "اخفضي صوتك"، ونظرَت حولها لتتأكّد من أنّ أحداً لم يرَهُما، ثمّ أردفَت قائلةً: "إذا ودّعَكِ لعازر قبل مغادرَته إلى القدس فأَريهِ أنَّك غاضِبة. يجب ألّا يشكّ في شيء وإلّا وقعنا في ورطة كبيرة".

هزّت مريم رأسها موافقةً وحاولت أن تكتم ابتسامتها. وهرولَت مرتا نحو البيت لوداع زوجها تاركةً مريم تَرقص تحت شجرة الزيتون.

اقتربَت مريم من المدخل الجانبيّ لبيت سمعان وهي تغطّي شعرها الذي يعرفه الجميع من لونه، إذْ لفّت رأسها بوشاح سميك. أعطَتْ كلمة السرّ وأُدخِلَت فوراً، فسُرَّت لرؤية عدد من الوجوه المألوفة. نظرَت في أرجاء الغرفة فلم ترَ أحَبَّ الوجوه إليها لأن عيسى وأمّه لم يكونا قد وصلا. لم تتمكّن من التفكير كثيراً في الأمر فقَدْ فوجِئَت بصدور صوت أنثى من ورائها يناديها باسمها.

استدارَت مريم فرأت صاحِبة الابتسامة الرائعة، سالومة، ابنة هيرودِيّا. وهيروديا هي زوجة هيرودوس، أمير الجليل. صاحَتْ مريم مُبتهِجةً لمّا رأت صديقتها منذ كانتا تلميذتين عند مريم العظيمة، وتعانَقَتا بحرارة.

سألَتْها مريم: "ماذا تفعلين هنا بعيداً عن موطنك؟"

"لقد سمحَت لي أمّي باتّباع عيسى ومواصلة تعليمي حتّى أتمكّن من الحصول على الوُشُح السبعة." وكانت الوشُح السبعة تُعطى فقط للنساء المتدرِّبات ليصبحْن رئيسات كهنة.

"هيرودوس أنطيباس يُلبّي كل رغبات أمّي. كما إنّه يتعاطف مع الناصريّين، ولا يكره أحداً سوى المعمدان."

وضعت سالومة يدها على فمها إذْ أفلتَتْ منها تلك الكلمات، وبدَت مذعورةً وهي تعتذر: "آسِفة، نسيتُ".

ظهرت على ثغر مريم ابتسامة حزينة وهي تجيبها: "لا تعتذري يا سالومة. أنا نفسي أَنسى أحياناً أنّه زوجي!"

نظرت إليها سالومة نظرة تعاطُف وتفهُّم وهي تسألها: "هل الأمر بهذا السوء؟"

هزَّت مريم رأسها. كانت تحبّ سالومة كأخت لها، وكانت كلّ منهما تنادي الأخرى بهذه الصفة فعلاً كَعادَة كاهِنات الناصريّين. لكنّ مريم كانت أميرة وأُنشِئَت على التصرُّف كأميرة، فلا يَليق بها انتقاد زوجها أمام أحَد، فقالت: "لا. ليس سيِّئاً جدّاً، فنادِراً ما أرى يوحنا!"

ومع ذلك تابعَت سالومة كلامها إذ أحسَّت بضرورة الاعتذار عن زلّة لسانها: "أرجو ألا اكون قد أسأتُ إليكِ بكلامي هذا، يا أختي. لكنّ المعمدان ينعتُ أمّي بِصِفات بَغيضة. فهو يقول إنّها عاهرة وزانية".

أومأت مريم برأسها، لأنها كانت قد سمعت هذه الأقاويل. كانت هيروديا، أمّ سالومة، حفيدة هيرودوس الكبير وورثَت عنه بعض الصفات كالعناد والتهوُّر، فهجرَت زوجها الأوّل لتتزوَّج هيرودوس أنطيباس، أمير الجليل. كما إنّ أمير الجليل بدوره طلّق زوجته الأولى ليتزوّج بهيروديا. وقد استشاط يوحنا غضباً لأن حاكماً يهودياً خالف القوانين بشكل صارخ، وكان يعلن أن هيرودوس أنطيباس وهيروديا زانيانِ لِزواجهما، وقد أعرب هيرودوس عن ضيقه بكلام يوحنا، لكنّه لم يرغب في اتّخاذ أيّ إجراء ضدّه. وبصِفته أمير منطقة الجليل، كان مُنشغِلاً بمُعالجة رغَبات القَيْصَر وتقلُّباته ومتطلّبات منصبه. لذلك كان بِغِنى عن مشاكل مواجهة ذلك النبيّ الزاهد سليط اللسان.

ومِمّا زاد قسوةَ يوحنا على هيروديا كونها من الناصريّين، وهذا ضاعَفَ سُخْطه على تلك الجماعة. واتّخذ تلك الواقعة حجّةً ليُثبت نظريّته بمنع النساء منعاً باتّاً من تبوُّء أيّ مركز سلطة وحرمانهنّ من الحريّة الاجتماعيّة لئلّا يُصبِحن خَليعات. وكان يوحنا يتّخذ هيرودوس وهيروديا نموذجين لفساد الناصريّين.

وبقَدْر ما كان يوحنا يكره هيرودوس، كانت زوجته هيروديا مُعجبةً بِعيسى. فهي قد أرسلَت ابنتها الوحيدة لتتلقّى تعاليم الطريق عند بلوغها. وأصبحت مريم وسالومة صديقتين مُقرَّبَتين خلال وجودهما في الجليل، وجمعَ بينهما حبّهما الروحيّ لمريم العظيمة وابنها.

قالت لها سالومة، وهي تريد تغيير الموضوع: "إن أختنا فيرونيكا هنا." كانت فيرونيكا، ابنة أخت سمعان، شابّة جميلة تقيّة، تدرّبت معهما في بيت أمّ عيسى. وكانت مريم تحبّ فيرونيكا، فراحَت تنظر حولها باحثةً عنها.

أمسكَت سالومة يد مريم وجذبتها إلى الناحية الأخرى من الغرفة حيث وقفَت فيرونيكا مشرقة الوجه لرؤياهما. تعانقَتِ الأخَوات الناصريّات الثلاث بحرارة بالغة. لكن لم تُتَحْ لهنّ فرصة التحدّث طويلاً لأن عيسى دخل الغرفة.

تبِعتْهُ أمّه وأخواه الأصغران، يعقوب ويهوذا، والأخوان الجَليليّان صيّادا السمك، ورجل صارم الملامح قدّرَت مريم أنّه فيلبّس. حيّا عيسى كلّ مَن في الغرفة، لكنّه وقف أمام مريم. عانقها بحرارة، إنّما باللياقة والاحترام الواجبين تجاه امرأة نبيلة متزوجة من رجل آخر. نظر إليها مطوّلاً للدلالة على استغرابه لعِصْيانها أوامر أخيها، لكنّه لم يقُلْ شيئاً.

ابتسمَت له مريم، ووضعت يدها على قلبها قائلةً: "ملكوت الله في قلبي، ولن يستطيع أيّ ظالِم انتزاعَه."

ردّ لها عيسى الابتسامة تعبيراً عن شدّة محبّته، ثمّ انتقل إلى وسط الغرفة وبدأ يعِظ ويعلّم.

كانت أمسية رائعة، نعمَت فيها مريم بحرارة محبّة الأصدقاء وسماع كلمة الطريق، بعد أن كانت تنسى أهميّة كلمة الله بالنسبة لها وقوّة إيحاء تعاليم عيسى. لذلك جلسَت عند قدميه وسمعَت كلامه مُعتبرةً أنّ ذلك صورة أرضيّة عن ملَكوت اللّه. لم تستطِع أن تتصوّر كيف يُمكن أن يدين أحَد مثل تلك الكلمات العَذْبة، أو لماذا يرفض البعض عَمْداً تعاليم المحبّة والرحمة والإحسان.

لمّا وقف عيسى للانصراف، اقترب مِن مريم ولمسَ بطنها برِفْق قائلاً: "أنتِ حامل، يا يمامة".

شهقَت مريم. كان يوحنا قد مكث ليلة ليؤدّي واجبه خلال الفصل المنصرم، لكنّها لم تعرف أنها حملَتْ. فسألته: "حقّاً؟"

أومأ عيسى برأسه، وقال: "في أحشائك ينمو طفل ذَكَر. حافظي على صحّتك يا صغيرتي. أريدك أن تلدي بالسلامة".

وحدّق لحظة كأنّه يلمح طيفاً، وأردف قائلاً: "قولي لأخيك إنّ عليكِ أن تُمضي فترة الولادة في الجليل. اطلبي منه أن يسمح لك بالمغادرة في الغدِ مع بزوغ الفجر."

تحيّرَت مريم لهذا الطلب لأن بيت عنيا قرب أورشليم حيث يوجد أمهر القابلات والأطبّاء فيما إذا حدثت صعوبات ومضاعفات، فمن المنطق البقاء حيث هي. كما إن لعازر لن يعود قبل يومين. لكنّ عيسى لمحَ شيئاً في تلك اللحظة جعله يحثّها على مغادَرة بيت عنيا إلى ضفاف بحيرة طبريا فوراً.

وما لم تستطع مريم مَعرفته هو أنّ عيسى، في لحظة نبوءة صافية، رأى الحاجة لإبعادها عن يوحنا.

صاح يوحنا وهو يصفع مريم مراراً وتكراراً: "يا عاهرة! كنتُ أعلم أنْ لا أمَلَ بصَلاحِك وخَلاصِك مِن أساليبكم الناصريّة المُستهتِرة. كيف جرؤتِ على عِصْيان أوامر زوجك وأخيك!"

كان لعازر ومرتا في الزاوية الثانية من منزلهما في بيت عنيا، لكنّهما سمعا الصراخ والعنف الدائر في الطرَف الآخر. جلسَت مرتا على حافة السرير تبكي بكاءً خافتاً وهي تسمع الضرَبات المُنهالَة على بدَن مريم النحيل. اعتبرَت نفسها مُذنِبة لأنّها شجّعَت مريم على مخالفة أوامر زوجها وأخيها، لذلك كانت هي مَن يستحّق الضرْب!

جلسَ لعازر صامتاً بلا حَراك خوفاً ويأساً. كان غاضباً من مرتا ومريم، لكنّه كان في غاية القلَق بسبب الضرب الذي تتلقّاه أخته من زوجها، وشعر بعجزه عن فِعْل أيّ شيء. فلو تدخَّل كان سيزيد في إهانة يوحنا، وهذا ما لم يجرؤ عليه. كما إنّه من الشائع أن يضرب الرجل زوجته إذا لم تُطعه، لا بل إن ذلك مرغوب في البيوت التقليديّة. فتَصرُّف يوحنا إنّما كان وفقاً لتفسيره للشريعة.

لم يعرفوا كيف اكتشف يوحنا أن مريم حضرت اجتماع الناصريّين. فهل كان بينهم واشٍ في الليلة السابقة؟ أم كانت قوى النبوءة لدى يوحنا صافية لدرجة جعلته يرى مريم في رؤاه؟

لكنْ مهما كان الحافز، فإنّ يوحنا أتى إلى بيت عنيا بعد ظهر اليوم التالي في نوبة غضب عارم، وكان مُصمِّماً على معاقبة كل مَن شارَك في تلك الخِدْعة. علمَ أنّ زوجته الشابّة قد جلسَت بكلّ إخلاص عند قدَمي نسيبه في الليلة السابقة. والأسوأ مِن ذلك بنظره أنّها جلست مع البَذْرة الفاسِقة لهيروديا العاهِرة. فحديث مريم مع سالومة وتعبيرها عن ميولها وعواطفها الناصرية هو مصدر عارٍ وخزْيٍ ليوحنا، لأن ذلك يُمكن أن يضرّ بسمعته.

يا لتلك المرأة اللّعينة! ألم تعلم أنّ أيّ تلويث لسمعته سيُؤثّر سلباً على عمله وجهوده في نشر رسالة الله؟ وذلك برهان على أن النساء بلا عقل وغير قادِرات على التفكير في عواقب الأمور. الإناث مخلوقات خاطئات بطبيعتهِنّ، هنّ بنات حوّاء وإيزابِل. وتوصّل يوحنا إلى الاستنتاج بأنّهنّ جميعاً غير قابِلات للإصلاح.

كان يوحنا يصيح بهذه الأفكار وغيرها وهو يواصل اعتداءَه. ربضَت مريم في الزاوية واضعةً ذراعيها فوق رأسها في محاولة يائسة لحماية وجهها، لكن من دون جدوى. فقد أحاطت إحدى عينيها دائرةٌ حمراء مُزرقّة، كما تورَّمَت شفَتها

السفلى بِفِعْل ضربة من قفا يده جعلَتْها ترتطم بإحدى أسنانها فجُرِحَت وأخذت تنزف. وتمكّنت مريم مِن أن تصرخ به: "توقّف! سوف تؤذي الجنين."

تريَّثَ يوحنا في ضربته التالية، وسألها: "ماذا قلتِ؟" تنفَّست مريم عميقاً عَلَّ ذلك يريحها، وأجابَت: "إنّي حامل."

حدَّق بها يوحنا وقال: "أنتِ عاهرةٌ ناصريّة وأمضيتِ الليل في بيت رجل آخر مِن دون مُرافِقة. فلا يُمكنني التأكّد مِن أنّ ما في بطنك هو منّي."

قالت مريم بصوت متقطِّع وهي تحاول أن تقف: "لستُ كما تنعتُني. لقد أتيتُ إليك عروساً عذراء، ولم أعرف رجلاً سواك لأنّك زوجي شَرْعاً"، ثمّ شدَّدَت على كلامها وهي تتابِع: "أنتَ غاضِب لأنّي لم أُطِعْكَ وأستحِقّ غضبك."

ثمّ انتصبَت على قدميها ورفعَتْ نَفْسها ووصلَت إلى ما دون كتِفه، ونظرَت إلى وجهه مباشرة، وأردفَت قائلة: "لكنْ لا يحقّ لك أن تشكّ في طفلك. سوف يكون أميراً لشعبنا في المستقبل."

استدار يوحنا ليغادر، وهدَر صوتُه مِن حلقه مُعلناً: "سوف أبلِّغ لعازر بشروطي الصارمة بشأن الولادة." وفتحَ الباب ومشى بطيئاً في الممرّ من دون أن ينظر وراءه، وأطلق من هناك تهديده الأخير:

"إذا ولدْتِ أنثى فسوف أهجرك أنتِ وإيّاها بكل سرور."

بعد ظهر اليوم التالي قرَّرَت مريم الخروج إلى الحديقة لتملأ رئتيها بالهواء النقيّ بعد أن أمضت معظم يومها في الفراش تداوي جراحها وكدَماتها. فالحديقة منعزلة ومحاطة بِسور، لذلك لا مجالَ لأن يرى أحَد علامات العار التي تغطّي وجهها. أو هكذا ظنَّت!

سمعت مريم حفيفاً بين الشجيرات فارتاع قلبها. فما الأمر؟ ومن قد يكون هناك؟ نادت متردِّدةً: "مَن هناك؟"

سمعَت صوت أنثى تهمس: "مريم!" وازداد صوت الخشخشة، ثمّ برز شخص من وراء صَفّ الشجيرات القريبة من سور الحديقة.

"سالومة! ماذا تفعلين هنا؟" وركضَت مريم لتعانق صديقتها الأميرة الهيروديّة التي تسلَّلت كلصّ وضيع.

لم تستطع سالومة أن تجيبها فوراً، فقد جمدت في مكانها مصدومة وهي تحدّق في وجه مريم المكلوم.

أدارت مريم وجهها وسألت سالومة: "هل يبدو وجهي سيّئاً جدّاً؟"

بصقَت سالومة على الأرض وهي تقول: "أمّي على حَقّ. المعمدان حيَوان. كيف يجرؤ على مُعامَلتك بهذا الشكل؟ أنتِ امرأة نبيلة".

بدأت مريم بالدفاع عن يوحنا، لكنّها كانت خائرة القوى. أحسّت فجأة بتعب شديد، فقد أنهكَتْها أحداث الأيام السابقة بالإضافة إلى أثر الحمل على جسدها النحيل. جلسَت على مقعد حجريّ، وجلسَت صديقتها قربها.

ناولَتْها سالومة كيساً حريرياً وقالت: "أحضرْتُ لك هذا. بداخله جرّة فيها مرهم شافٍ مفيد لمعالجة الخدوش والكدمات."

سألتها مريم: "وكيف علمْتِ؟"، فقد خطر ببالها فجأة أن سالومة تعرف شيئاً لم يشهد حصوله سوى لعازر ومرتا.

هزّت سالومة كتفيها وقالت: "هو رأى ذلك". وبالطبع ليس هنا سوى "هو" واحد. وتابعت سالومة: "هو لم يخبرني ماذا حدث، لكنّه قال: خذي أفضل مرهم شافٍ لأختك مريم، فهي بحاجة إليه فوراً. ثم أمرني بأن أحرص على ألّا يراني أحَد سواك هنا بسبب يوحنا".

أرادت مريم أن تبتسم لوحي عيسى وإلهامه، لكنّ شفتها المشقوقة آلمَتْها. وعَبَسَ وجه سالومة الجميل غضباً لرؤية صديقتها تتألّم، وسألتها: "لِمَ فعلَ ذلك؟"

"لقد عصيْتُ أمره".

"كيف؟"

"حضرْتُ اجتماع الناصريّين!"

بدأت سالومة بإدراك ما حدث، وقالت" "إذاً، لقد أصبح المعمدان يعتبرنا أعداء. تُرى متى سيتهجّم على عيسى علَناً؟ لا بدّ أنه سيفعل ذلك قريباً."

تنهّدَت مريم وهي تقول: "إنّهما نسيبان، ويوحنا أقرّ بمكانة عيسى علناً عندما عمّده. لذلك لن يستطيع القيام بمثل هذا الأمر."

أجابت سالومة وهي مُنشغِلة الفكر: "ألا تعتقدين ذلك؟ لستُ أدري! تقول أمّي

إنّ يوحنا ثعبان ماكر. تأمّلي ما حصل حتى الآن: تزوَّجَك ليحظى بشرعيّة منصبه، وأنت الآن تحملين وريثه. وهو يرمي أمّي بِالزِّنى وينتقدها لأنّها ناصريّة، كما يستخدم ذلك سلاحاً ضدّنا كلّنا. فما هي خطوته التالية؟ هل سيسحب تأييده لعيسى علَناً بناءً على اعتباره أن الناصريّين يخالفون الشريعة؟ لن يهدأ ليوحنا بال إلّا إذا قضى على تعاليم الطريق!"

"لا يا سالومة، لا يمكن أن يفعل يوحنا ذلك."

ضحكت الفتاة عميقاً وقالت: "ألا توافقيني الرأي؟ لو عرفتِ الهيروديّين عن كثب كما عرفتُهم لَفوجِئتِ بما يمكن أن يقوم به بعض الرجال للمحافظة على مناصبهم وسُلطتهم."

هزّت مريم رأسها وقالت: "أعلم كم يصعب عليكِ الاقتناع برأيي. لكن يوحنا رجل صالح ونبيّ صادق. ولو لم أكن مُقتنِعة بذلك لما تزوّجْتُ به ولما وافقَ أخي على هذا الزواج. صحيح أن يوحنا يختلف عن عيسى، لكنه على خشونته وفظاظته يؤمن بملكوت الله، وقد نذَر حياته لمساعدة الناس في الاهتداء إلى الله بالتوبة والالتزام بالشريعة".

ظلّت سالومة على موقفها، وظهرت على وجهها أمارات الازدراء وهي تتابع كلامها على يوحنا: "أجلْ، يؤمن بمساعدة الناس، لكنْ ليس كل الناس، بل الرجال فقط. أمّا النساء فسيُغرقنا يوحنا قريباً في نهره العظيم بدلاً مِن هدايتنا إلى الخلاص. لقد أصبح أُلعوبة بيد الفرّيسيّين لسبب بسيط هو افتقاره إلى المهارات السياسية والاجتماعية. فهو يذهب حيث يسوقونه، وإن لم يوضع له حَدّ فسيدفعونه حتماً للتمادي في الشك بشرعية عيسى".

نظرت مريم إلى صديقتها، وقد أثارت قلقَها طريقةُ سالومة في الكلام، فشعرت بمزيج من الخوف والإعجاب لأن صديقة طفولتها قد أصبحت ذات حِنكة سياسيّة اكتسبتها مِن إقامتها في قصور هيرودوس.

"وماذا تقترحين؟"

ورفعَت مريم رأسها، وأنار وجهها شعاعٌ مِن نور الشمس، فظهرت عليه الكدمات الزرقاء والحمراء، مما أثار غضب سالومة فقالت بهدوء لكن بعزم وتصميم:" "سوف أجعل يوحنا يدفع ثمن أفعاله ضدّك وضدّ عيسى وضدّ أمّي، بطريقة أو بأخرى."

ارتعدَ بدَن مريم لدى سماعها تلك الكلمات، وبالرغم من حرارة الشمس أحسّت ببرد شديد.

تمَّ اعتقال يوحنا بسرعة مذهلة. وقد علمت مريم فيما بعد أن سالومة قد ذهبت مباشرة إلى قصر هيرودوس أنطيباس الشتويّ قرب البحر الميت حيث كانت الاستعدادات جارية للاحتفال بعيد ميلاده. وقد طلب هيرودوس من سالومة أن ترقص له ولضيوفه ـ فالفتاة كانت ذات جمال أخّاذ، وكان في القصر ضيوف جاؤوا من أماكن بعيدة لتحيّة هيرودوس. وقد قدّر أمير الجليل أنّ في رؤية ضيوفه لرقص ابنة زوجته نوع من التكريم لهم.

دخلت سالومة قاعة الاحتفال الصاخب على الطريقة الرومانية وقد ارتدت الحرير اللامع والقلائد الذهبيّة التي كان قد أهداها إياها زوج أمّها. وقد لفتَت أنظار المدعوّين فاشرأبّت أعناقهم وهم يحاولون النظر إلى تلك الأميرة الفاتنة.

قال زوج أمّها: "أنتِ أغلى جوهرة في مملكتي يا سالومة. تعالي وارقصي لنا. ولا شك بأن هؤلاء الضيوف الكرام سيسرّون جداً لرؤيتك ترقصين."

دنَتْ سالومة من عرش هيرودوس المُشرِف على المائدة، وكانت على جمالها تبدو عنيدة ممانعة، وقالت: "لستُ في حال جيّدة لأرقص يا سيّدي. إنّ قلبي حزين لما سمعْتُه خلال رحلتي، ونفسي مُنقبضة".

كانت هيروديا مُتّكِئة إلى وسادة قرب زوجها، فرفعت نَفْسَها وقالت: "ماذا حدث يا ابنتي وجعلك حزينة لهذه الدرجة؟"

سردَت سالومة لهما قصّة مُحزنة عن الرجل الفظيع المدعوّ المعمدان وكيف لاحقَتْها كلماته الرهيبة أينما اتّجهت.

وانبرى، من بين الضيوف، أحَد نبلاء الرومان، وسأل: "ومن هو هذا المعمدان؟"

رفع هيرودوس يده إشارةً لعدم الاكتراث، وقال: "لا أحَد. هذا واحِد من الذين يدّعون النبوءة، وقد كثروا هذا العام. إنّه مِن مُثيري المشاكل، لكنه غير ذي شأن."

انفجرت سالومة باكية وارتمت عند قدمي أمّها وردّدت على مسمعها الصفات الفظيعة التي كان المعمدان ينعتها بها. وعبّرَت عن خشيتها لأن ذلك النبيّ المعمدان

كان يدعو لخَلْع هيرودوس مِن الحكم ويتنبّأ بسقوط القصر على رؤوسهم جميعاً، كما كان يؤلّب الناس ضدّ هيرودوس. لذلك لم تعُدْ سالومة قادرة على السفَر مع الناصريّين بسلام إلّا إذا تنكّرَتْ.

وعلّق النبيل الروماني قائلاً: "إنّه أَشبَه بمُتمرِّد مِنه بنبيّ. ينبغي مواجهة أمثاله بسرعة."

لم يكن هيرودوس راغباً في المناورة السياسية، لكنّه لم يشأ أن يظهر ضعيفاً أمام المبعوث الروماني، فنادى حرّاسه وأصدر أمره:

"أوقفوا يوحنا المعمدان وائتوني به. سأرى إن كان لديه الجرأة لقول مثل هذه الأشياء أمامي وجهاً لوجه!"

صفّق جميع الحاضرين إعجاباً بالقرار الذي اتّخذه هيرودوس وحذَوْا حَذْوَ الضيف الروماني في رفع كؤوسهم تحيّةً لمُضيفهم. ومسحت سالومة الدموع من عينيها وابتسمت لهيرودوس أنطيباس ابتسامة رقيقة، وسألته:

"أيّ رقصة تَوَدّ أن تشاهد الليلة؟"

كان يوحنا المعمدان سجيناً مُتعِباً. ولم يقدّر هيرودوس أنطيباس قوّة أتباع يوحنا الذين كانوا قد ازدادوا عدداً. وراح الناس يَفِدون إلى القصر كل يوم مطالبين بإطلاق سراحه. وكانوا يرجون هيرودوس، بصفته يهوديّاً، آملين أن يرأف بواحد من أبناء شعبهم. ونظراً لقرب القصر الشتويّ مِن قمران، كان الأسينيّون يرسلون ممثّليهم يوميّاً ليطلبوا الحرية لذلك السجين الصالح. فلم يكن يوحنا المعمدان نبيّاً محليّاً بسيطاً يمكن معاقبته وإسكاته بسهولة، إنّما كان ظاهرة فريدة.

قرّر هيرودوس أن يستجوب يوحنا بنفسه، فطلب إحضاره. حقّق مع يوحنا متوقّعاً أن يسمع مَواعِظ الاستقامة ويرى الهذَيان الجامح الذي يَطْغى على كلّ واعِظ هائم في البريّة يدّعي أنّه المخلّص. كان ذلك أشبه بهواية لهيرودوس، وكان يتمنّى الإيقاع بذلك الرجل الذي كان مصدر إزعاج لزوجته وابنتها. وبعد أن يتلاعب بسجينه سيقرّر نوعيّة الحكم النهائي عليه.

لم يكن الاستجواب كما خطّط أمير الجليل. فبالرغم من غرابة لباس يوحنا

ومظهره البدائي، كانت كلماته على العكس من ذلك. وقد فوجئ هيرودوس بأن يوحنا نكيّ جداً بل حكيم. تحدّث بقسوة عن الخطأة والحاجة إلى التوبة، ولم يتردّد في النظر إلى عيني هيرودوس وهو يحذّر مِن أنّ مَن ارتكب مثل أخطاء أمير الجليل لن يرى ملكوت الله. لكنّ مجال الخلاص مفتوح إذا تخلّى هيرودوس عن زوجته الزانية وندم على آثامه الكثيرة.

في نهاية الاستجواب، أحسّ هيرودوس بالأسف الشديد لأنه سجنَ يوحنا. كان يتمنّى إطلاقه، لكنّه لم يستطع ذلك لئلّا تعتبره روما عاجزاً وضعيفاً. وقد كان أحد ممثّلي روما حاضراً لمّا أمر باعتقال يوحنا. فإذا أطلق سراحه سيُنظر إليه على أنه متناقِض مع نفسه وغير كُفْء لمواجَهة المتمرّدين اليهود. لذلك لم يجرؤ على إخراج المعمدان من السجن في ذلك الوقت. فخفّف القيود عليه، وسمح له برؤية زُوّارٍ مِن أتباعه ومِن الأسينيّين المَحَلّيّين.

لمّا علمَت مريم المجدلية بهذه التدابير، بعثت رسولاً إلى القصر لمعرفة ما إذا كان زوجها يرغب في رؤيتها أو يريد أن يستعلم عن حالة الجنين الذي تحمله. وتجاهل يوحنا تلك الرسالة تجاهلاً تامّاً. ولم يصل إلى مسامِع مريم مِن يوحنا أثناء سجنه إلّا الإدانة. وقد أبلغَها أقرب أتباع يوحنا أنه ما زال يشكّ في أبُوّته لطفلها وأنّه ينعتها بأبشع النعوت. كان يعتبر زوجته الشابّة مسؤولة عن سَجْنه، حتّى إنّ أتباعه المتعصّبينَ أرسلوا تهديدات لعائلتها. وأخيراً، أقنعَت مريم أخاها ومرتا بإعادتها إلى الجليل لتكون بعيدة عن المعمدان وأتباعه. فهي لم تفهم كيف أن عصياناً بريئاً حدث في ليلة واحدة لطّخ سُمْعتها ووَصَمها بالعُهْر، لكنّ ذلك كان واقِعاً عليها مواجَهته. لذلك فضّلت مريم أن تواجه ذلك وهي عند قدَمي جبل أربئيل بالقرب من الناصريّين ومُحِبيهم.

وأكملَ يوحنا رسالته من السجن، فذاع صيته وتأثيره في المنطقة الجنوبية. أما رسالة نسيبه الناصريّ الجذّاب فقد ازدهرَتْ ونشطَتْ في شمال نهر الأردن والجليل. وأطلع أتباع يوحنا معلّمهم في السجن على إنجازات عيسى وأخبار مُعجِزاته وشفائه المرضى، لكنّهم أيضاً أخبروه بأنّ الناصري ظلّ على تسامُحه مع غير اليهود وغير الأنقياء، حتّى إنّه منعَ رَجْمَ امرأة زانية، وذلك بنظرهم دليل على أنّ عيسى لم يفهم روح الشريعة، لذلك كان على يوحنا أن يتّخذ موقفاً حياله.

طلب يوحنا من أتباعه حضور اجتماع حاشد للناصريّين. ولمّا وقف عيسى

أمام الجمهور الغفير ليبدأ تعليمه، تقدّم اثنان مِن ممثّلي الزاهدين. وتحدّث أحدهما مخاطباً عيسى ثمّ الناس:

"لقد جئنا من زنزانة يوحنا المعمدان، وقد كلّفنا بنقل هذه الكلمة لكم جميعاً. فمع أنّه آمن سابقاً أنّك أنت المخلّص المرسَل من الله، إلا أنه لا يستطيع أن يعتبر أن قبولك للنجسين وغير الطاهرين هو موافِق للشريعة. لذلك هو يسألك: هل أنت المخلّص المنتظَر؟ أم أنّ على هؤلاء الناس الطيّبين انتظار مجيء مخلّص آخر؟"

تململَ الناس لدى سماعهم ذلك. فتعميد يوحنا لعيسى كان اللحظة الحاسمة بالنسبة لكثير مِن تلاميذ الناصريّ الذين تبعوه مؤخراً. فقد تحوّل الكثيرون إلى اتّباع للطريق في ذلك اليوم العظيم على ضفّتي نهر الأردن حين أعلن يوحنا أن نسيبه هو المختار وحين أظهرَ الله مشيئته على شكل حمامة. أمّا اليوم فإنّ يوحنا يتراجَع عن تأييده لعيسى بالاعتراض على مَواقفه وآرائه علَناً.

لم يُبالِ يسوع الناصريّ بذلك السؤال ولا بما ينطوي عليه مِن إهانة. بل أَسْكَتَ الجمهور وقال لهم: "الحقّ أقول لكم: لم يظهر في أولاد النساء أكبر مِن يوحنا المعمدان."

أما الرجلان اللذان سألاه، فقالَ لهما: "أرجو أن تبلّغا نسيبي تحيّاتي. اذهبا وأخبراه بما تسمعانه وترَيانه اليوم".

وقد حدَثت أشياء كثيرة ليخبراه بها. فقد كان قائد الناصريّين يسير بين الناس ويَشفي المرضى. وقيل إنّه في ذلك اليوم أعادَ البصَر لكثير من العميان، وشفى الشيوخ من الضعف، وأخرج الأرواح الشرّيرة مِن المصابين بها. بالإضافة إلى ذلك، بَشَّرَ بكلمة الطريق وهدى الناس إلى نور الله. وأخبرَ الجموع مثلاً عن امرأة غُفِرَت خطاياها لأن قلبها مليء بالإيمان والمحبّة. وكانت آخر كلمة له في ذلك اليوم:

"تُغفَر الخطايا للمملوئين حبّاً، لكن إذا كان في قلب إنسان صالح حبٌّ قليل فإنّه يُغفر له القليل."

لقد كان يوماً تحدّثت فيه رسالة يسوع الناصري طريقاً للمحبّة والغفران ودرباً للخلاص يسير عليه كل من يختار الاهتداء بنوره.

وقع هيرودوس أنطيباس في مشكلة، فقد عاد المبعوث الرومانيّ الذي كان قد شهد قبل أشهر إصدار أمر اعتقال يوحنا المعمدان. عندما سأل الرومانيّ أعوان هيرودوس عن سبب وجود عدد كبير من اليهود حول القصر، قيل له إنّهم أتباع النبيّ المسجون. ودُهش لأن هيرودوس لم يتّخذ أيّ موقف مِن ذلك المتمرّد.

وأثناء العشاء مساءً أثار النبيل الروماني المسألة مع هيرودوس بشكل جدّيّ.

"يبدو أنّك ضعيف في معالجة مسألة مثيري الشغب. أنت هنا لأن القيصر يثق بك كممثّل لروما ولأنّه يرى أنّ كَوْنَك يهودياً يساعدك في التعامل مع الشعب. لكن من الخطأ التساهل معهم. هذا الرجل يُهين روما كلّ يوم من داخِل سجنه وأنت ساكِتٌ عن ذلك!"

قال أمير الجليل مُدافِعاً عن موقفه: "هذه الأرض الصحراويّة تَجْتاحها فِرَق أَسينيّة وغيرها، وكلّهم يدعون هذا الرجل نبيّاً، فإعْدامُه سيُثير الشغَب".

"أنتَ مُواطِن روماني ومَلِك، فهل تسمح بوَضْع نفسك رهينة لهؤلاء البدو؟" وكان سؤال المبعوث الروماني توبيخاً عنيفاً.

أَدركَ هيرودوس حَراجة الموقف. فذلك المبعوث سيُغادِر إلى روما في اليوم التالي ولا بُدّ أنه سيُبلِّغ القيصر أنّ هيرودوس ضعيف وغير حازِم. كما إنّ لهيرودوس أعداءً كثيرين سيُسرّون إذا انهارَ مُلكه، لكنّه لن يسمح بذلك ولن يُفرِّط بمُلك أجداده. فجَدّه أعدمَ أولاده عندما رأى الخطر يهدّد عرشه؛ وعليه هو أن يحافظ على حَقّ العائلة في الحُكْم.

صَفَّق هيرودوس أنطيباس مرّتين ليأتي خدَمه، وأمرَ باستدعاء قائد المئة.

"نَفِّذْ حُكْمَنا على السَّجين يوحنا المعمدان فوراً. يجب إعْدامه بالسيف بسرعة".

هزّ المبعوث الرومانيّ رأسه مُظهراً تأييده الحارّ لهذا القرار، واستوى هيرودوس أنطيباس على عرشه مُتّخِذاً مكانته في التاريخ للمرّة الأولى، لكنّها لن تكون الأخيرة!

كان ليوحنا قبل إعدامه طلب واحِد وهو إرسال مبعوث إلى زوجته في الجليل،

فسُمِح له بمقابلة واحِد من أتباعه لهذه الغاية. أعطاه يوحنا تعليماته الأخيرة ودعْوَته للتوبة قبل نزول سيف قائد المئة على رقبته. فُصِل الرأس عن الجسد بضربة واحدة، وأُرسل يوحنا المعمدان، نبيّ نهر الأردن، إلى ملكوت الله.

أمر هيرودوس بوضع رأس يوحنا على حربة وعَرْضه عالياً على بوّابة القصر الخارجيّة ليبرهن للمبعوث الروماني أنّه يُواجِه الخيانة بسرعة وصَرامة. وظلّ هناك حتى غزَتْه الطيور الجارِحة ولم تُبْقِ فيه سوى العظم، لكنّه اختفى، مِن هناك، بشكل غامض، في إحدى الليالي. أمّا سائر جسد يوحنا فقد أُعطي لأتباعه الأسينيّين لدفنه.

عندما وصل إلى مريم المجدلية نبأ إعدام يوحنا كان الحَمَل قد ثقل عليها. وقد أبلغَها الرسول كلمات يوحنا الأخيرة شخصيّاً.

"توبي يا امرأة. كفّري يوميّاً عن الخطايا التي وصلَتْ بنا إلى هنا. قومي بذلك مِن أجل ذِكْري ومن أجل الطفل الذي تحملينه. وإذا كان مِن أمل للطفل بقبوله في ملكوت الله فعليكِ التوبة وعمادة الطفل لدى ولادته."

لكنّ مريم لم تعرف ما إذا كان يوحنا قد مات وهو مصدّق أن الطفل ابنه هو، أم لا. لكنّها وجدت في طلبه الأخير إرسال مبعوث لها دليلاً على أنّه يمكن أن يكون قد أيقن أن الطفل ابنه. التزمَت مريم بطلب يوحنا، فكانت تصلّي كلّ يوم من حياتها المديدة طالبةً أن يصفح عنها يوحنا. ومع أنّه عاملها بقسوة فهي لم تحقد عليه. فقد علّمها عيسى ومريم العظيمة أن التسامح صفة مُقدَّسة وهي آمنَت بذلك من كل قلبها.

لقد كان يوحنا لغزاً بالنسبة لها منذ البداية. كان إنساناً فظّاً لم يَسْعَ أبداً إلى ما فُرِض عليه، فهو لم ينوِ الزواج أصلاً. وهي قامت بكلّ ما في وسعها للتصرّف بطريقة تُرْضي طلَب يوحنا بأن تكون مطيعة، لكن ما مِن شيء فيها كان يُرْضي يوحنا. والمؤسف أنّ مريم زُوِّجَت للرجل الوحيد، بين اليهود، الذي لا يتمنّى الزواج بها. كانت جميلة وتقيّة وثريّة ومِن سلالة ملكيّة، لكن يوحنا المعمدان لم يكترث لكلّ تلك الصفات.

كان زواجهما أشبه بحُكْم ضدّ كل منهما. وكانت نِعمة ذلك الزواج، بنظَر كلّ منهما، أنّهما كانا مُنفصلينِ معظم الوقت، ولا يلتقيان إلّا عندما يضغط الفِرّيسيّون

على يوحنا لإنجاب وريث. وفي نهاية المطاف، أصبح نلك الزواج مَقيتاً بنظر يوحنا أكثر ممّا هو كذلك بنظر مريم. أمّا الآن فقد تحرّرا منه، لكن مريم كانت مستعدّة للتضحية بكل شيء لتغيير الطريقة التي نالت بها حرّيتها.

وكما اعتُبرَت مريم سبب سجن يوحنا، فإن أتباعه المقرّبين اتّهموها أيضاً بالتّسبُّب في إعدامه. ولم يَلْعنوا امرأة أخرى أكثر منها سوى سالومة. فقد اتُّهمت تلك الأميرة الهيروديّة بارتكاب أمور بغيضة منها الزنى مع زوج أمها. ونُشرت قصص مثيرة عن فسْق سالومة وفجورها وعن استخدامها مفاتنها لطلب رأس يوحنا المعمدان على طبق من فضّة. وكانت كلّ هذه أقاويل كاذبة. لقد توسَّلت سالومة خدعة سخيفة لتضع يوحنا في السجن، لكنها اعترفت لمريم لاحقاً، والدموع تملأ عينيها، أنّها لم تتوقّع أبداً أن يؤدي الأمر إلى قتله. وكلّ ما أرادته حينها كان وضع حَدّ ليوحنا وإضعاف سطوته المتنامية على الناس لإبعاد أذاه عن عيسى ومريم. كانت سالومة صغيرة وتعُوزها الخبرة في أمور السياسة والدين فلم تقدّر أن سجنه سيزيد شعبيّته بين الناس. والأسوأ من نلك أنها لم تتوقّع أن يجد هيرودوس نفسه في مُعضِلة شائكة لم يكن لها سوى حل واحد.

بعد مرور أسابيع، جاء رسول مجهول من جماعة يوحنا بتَذْكار أخير مفاجئ إلى أرملته الشابّة. لم ينبس بكلمة، بل سلّمها سَلّة من قصَب وغادر مُسرعاً. لم يكن معها رسالة مرفقة، وحتى إنّ الرسول لم ينظر إلى عينيها وهو يسلّمها السلّة. رفعت مريم الغطاء لتعرف ما بداخلها.

رأت فيها وِسادة حريريّة عليها جمجمة يوحنا المعمدان وقد ابيضّت من تعرّضها للشمس.

❀

جاءَ مريمَ المخاضُ قبل أوانه. وربما كان نلك مفيداً لها لأنّ جسدها النحيل ما كان ليتحمّل ولادة طفل أكبر حجماً. وحتّى مع الولادة المبكّرة كان الطفل ضخم البنية. وقد جاء إلى هذا العالم صائحاً صاخباً، وكانت صورته تشبه يوحنا منذ يومه الأول. وكلّ مَن سمع إلحاحه في العويل علم أنه الابن الشرعيّ ليوحنا المعمدان.

أرسلَت مريم المجدلية خبراً لمريم العظيمة وعيسى بأنّها ولدت طفلها بالسلامة وشكرتهما على دعواتهما وصلواتهما.

وأسمَت الطفل يوحنا ـ يوسف تيمّناً بأبيه.

بعد إعدام يوحنا طولِبَ عيسى بإلحاح باتّخاذ موقف من أتباع يوحنا. ذهبَ إلى البرية والتقى بالأسينيّين وتلاميذ يوحنا مبشّراً إيّاهم بملكوت الله على طريقته الخاصة. وقد اتّخذ بعض الأسينيّين عيسى مخلّصاً جديداً لهم وتبعوه لأنّه من نسل داود. وكان آخرون يعترضون على إصلاحاته الناصرية لأن يوحنا كان قد هاجم هذه المبادئ بضراوة في أواخر حياته. كان يوحنا، بنظر أغلبيّة نسّاك البريّة، معلّم الحَقّ الأوحد، وكل مَن يحاول أخذ مكانه هو دجّال.

وهذا الانقسام الحادّ بين الذين سيتبعون يوحنا والذين سيُخْلِصون لعيسى بدأ يتبلور منذ تلك الأيام. فقد اتّخذت مبادئ الناصريّين روحيّة تعاليم المحبّة والغفران، وكانت مُتاحةً لكل من أراد اعتِناقها. أمّا فلسفة يوحنا فقد كانت مُختلفة، وهي تقوم على أحكام قاسية وقوانين صارمة. وبينما كان عيسى والناصريّون يكرّمون النساء، كان أتباع يوحنا يحتقرونهنّ. فلطالما ازدرى يوحنا النساء، وكان وصفه لمريم وسالومة كصورة مجسّدة عن عاهرات بابل خير معبّر عن رأيه بدناءة المرأة.

وقد أُطلقت أقاويل كثيرة وأَوصاف ظالمة بأن مريم آثِمة تائِبة وسالومة عاهِرة مُنحَطّة. ونشرَ أتباع المعمدان هذه الافتِراءات وأبْقَوْا نارَها مُستعِرة مِئات السّنين.

اعتزم عيسى الناصري، أمير بيت داود، أن يُصحّح في أذهان الناس تصوّرهم الخاطئ عن الأميرة الأرملة، وكان أكثر مَن يعلم أن تلك المرأة الصالحة الفاضلة قد ظُلِمَت. وهي لا تزال، كما كانت، ابنة بنيامين، وسليلة عائلة ملكيّة، وصاحبة قلب نقِيّ. وهو لا يزال يحبّها.

فوجئ لعازر إذ رأى ابن أسد داود ببابه، وحيداً من دون أتباعه.

قال بكلّ بساطة: "جئت أرى مريم والطفل".

تلعثم لعازر وهو ينادي مرتا ويدعو عيسى للدخول. دخلت مرتا الغرفة، ولم

تحاول أن تُخفي دهشتها وسرورها لرؤية عيسى. فهي ناصريّة الهوى منذ زمن بالرغم مِن خلفيّة عائلتها المحافِظة، وهي تكنّ في قلبها حبّاً واحتراماً عميقين لعيسى.

قالت مرتا قبل أن تعدو خارجةً من الغرفة: "سأحضر مريم والطفل."

لمّا أصبح لعازر وحده مع عيسى في الغرفة، حاول أن يتكلّم ثانية، فقال: "يسوع! يجب أن أعتذر عن أشياء كثيرة..."

رفع عيسى يدهُ مقاطِعاً: "اطمئِنّ يا لعازر! عَهْدي بك لا تُقدم إلّا على ما تؤمن في قلبك أنّه صواب وحَقّ. أنت صادِق مع نفْسك ومع الربّ. لذلك لا حاجة للاعتذار إليّ أو لِسواي".

انفرجَت أسارير لعازر. فقد كان يحمل في قلبه حزناً دفيناً لفسخه خطبة عيسى وأخته، وشعوراً بالذنب لعدم استضافته الناصريّين في بيت عنيا في تلك الليلة التي كانت شرارة فاجعة مريم. لكنّه لم يُتح له قول ذلك لدخول يوحنا - يوسف الصغير الذي أعلن بنفسه عن وصوله ببكاء حادّ.

استدار عيسى وابتسم لمريم وابنها الصغير. مَدّ يده للطفل الذي كان مَحمَرّ الوجه من شدّة الصراخ. حمل عيسى الطفل وقال ضاحِكاً: "إنّه جميل كأمّه وعنيد كأبيه." وما إن لمسَت يد عيسى يوحنا - يوسف حتى توقّف عن البكاء. سكتَ الطفل وراح يحدّق في هذا الوجه الجديد باهتمام، ثمّ أخذ يهمهم فرحاً لمّا راح عيسى بهزّه بلطف.

قالت مريم: "إنّه يحبّك"، وظهرَ عليها الخجل لأنها تخاطب الرجل الذي غدا أسطورة بين شعبه.

نظر عيسى إلى مريم نظرة حادّة وقال: "آمل ذلك". ثمّ توجّه إلى لعازر بالقول: "أخي العزيز لعازر، أودّ أن أتحدّث مع مريم على انفراد حول مسألة هامّة. إنّها أرملة، ويجب أن أبحث الأمر معها مباشرة".

قال لعازر: "طبعاً، طبعاً." وأسرع خارجاً من الغرفة.

ظلّ عيسى حاملاً الصبيّ وأشار على مريم بالجلوس. جلسا لحظات صامتين سعيدين، فيما ظلّ الطفل يبتسم لعيسى ويُمسك شعره الطويل المُسرَّح على الطريقة الناصريّة.

"أريد أن أسألكِ حول أمرٍ يا مريم".

هزّت رأسها بصمت، من دون أن تدري ما يريد قوله، لكنّها كانت سعيدة لوجوده قربها.

"لقد تحمّلْتِ الكثير وقاسيتِ لأنّك تؤمنين بي وبالطريق. سوف أُصلِح الإساءة التي أَصابَتْكِ انتِ والصبيّ. مريمَ، أَرْغَبُ في أَن تكوني زوجتي وتسمحي لي بتربية ابن يوحنا كابني."

جمدت مريم من هَوْل المفاجأة. فهل كان ما تسمعه صحيحاً؟ إنّه مُستحيل!

قالت: "لست أدري ما أقول". وأَطرقَت لحظة وهي تحاول استيعاب ما يدور في رأسها المَذْهول من تساؤلات. ثمّ أضافَت: "صرفْتُ كلّ عمري أَحلم بالزواج منك. وعندما حيلَ بيني وبينكَ لم أَعُدْ أفكّر بذلك الحلم. لكن لا أستطيع أن أقبلَ ما تحاوِل القيام به لئلّا أؤذيك وأؤذي رسالتك، فكثير من الناس يعتبرون أنّي سبب موت يوحنا. إنّهم يكرهونني ويعتبرونني خاطئة."

"لا أبالي بذلك. كلُّ مَن يتبعُني يعرف الحقيقة، وسوف نعلِّم الحقيقة لمن لا يعرفها بعد، أمّا ملتزمو الشريعة فلن يستطيعوا الاعتراض على زواجنا. كما إنّه من اللائق أن أتّخذك زوجة لي، فأنتِ أرملة يوحنا وأنا نَسيبه. أنا أقرب أقرباء يوحنا الذكور، وبذلك يحقّ لي تربية ابنه. سوف أربّيه كأمير على شعبه، كوريثي المختار وابن النبيّ. هذا زواج مُناسِب من حيث الشريعة ومن أجل مصلحة الشعب. فأنا ابن داود وأنتِ ابنة بنيامين".

أحسَّت مريم بفرح غامر، لأنّها فوجئت بما عرضه عيسى. وكانت أقصى أحلامها أن يُعمِّد عيسى الطفل كما طلب يوحنا. لكنْ أن يتّخذ ابن يوحنا ابناً له ويتّخذها زوجةً فذلك يفوق كل توقّعاتها. وضعَت مريم رأسها بين يديها وراحت تبكي.

"لماذا تبكين يا يمامتي؟ نحن ما زلنا مُناسِبينِ واحدنا للآخَر في عيني الله كما كُنّا عندما اختارَنا منذ البداية لنكون معاً."

مسحَت مريم الدموع من عينيها وحدّقت في وجه الناصريّ، حبيبها عيسى، الذي أعاده اللّه إليها.

هَمسَت قائلةً: "لم أكُنْ أَحلم بأنّي سأذوق طعم السعادة ثانية".

على عكس العُرْس الكبير في قانا الجليل، تزوّج عيسى ومريم في احتفال بسيط حضرَتْه مريم العظيمة وجمع من الناصريّين المقرّبين. وجرى العرس على شاطئ بحيرة طبريا في قرية تدعى الطابغة.

انتشر خبر الزواج بسرعة، وبدأت الوفود بالوصول إلى الطابغة في اليوم التالي. كان بعضهم أتباعاً، وبعضهم مجرّد فضوليّين لرؤية العروس والعريس اللذين حقّقا نبوءة سليمان. كما غضب آخرون لأنّ نبيّهم الجَليليّ المحبوب قد اقترن بامرأة سيّئة السمعة. لكنّ عيسى سُرّ لوجودهم جميعاً، وكان يقول لمريم إنّ هناك فرصة كلّ يوم لتعليم الطريق لمن لم يرها من قبل ولمَنْح العميان نعمة البصَر.

وعلى مدى يومين، جاء الآلاف لدى سماعهم بنبأ زواجهما.

جاءت مريم العظيمة عند عيسى في نهاية اليوم الثاني، وذكّرته بالمعجزة الأولى في عرس قانا الجليل عندما حوّل الماء إلى خمر، وامتلأت شواطئ البحيرة بالناس الذين لم يأكلوا منذ أيّام ولم يبقَ معهم سوى القليل من الطعام. رجَتْه أن يعتبر ذلك اليوم كيوم احتفالٍ بعُرسه.

دعا عيسى أقرب أتباعه وسأل عن عدَد النّاس، فأجابه فيلبس: "هناك ما يُقارب خمسة آلاف، وليس لدينا إلّا ما يوازي مئتي دينار."

ثمّ قال أندراوس، شقيق بطرس: "ها هنا صبيّ أعرفه، وهو ابن أحد الصيّادين. لديه خمسة أرغفة من شعير وسمَكتانِ. لكن ما هذا لِمِثْل هذا العدد الكبير؟"

قال عيسى: "أقعِدوا الناس على العُشْب واجلبوا الأرغفة والسمكتين."

وضع أندراوس الأرغفة الخمسة والسمكتين في سَلّة أمام معلّمه. وبارَكَ عيسى السمكتين وكسَر الأرغِفة وأعاد السَّلّة لأندراوس وقال: "ابدَؤوا بهذه السلّة وناولوها للجموع. اجمعوا الكِسَر والفضلات كلّها وضَعوها في سِلال جديدة ووزّعوها كذلك."

نفّذ أندراوس التعليمات، يُعاونه بطرس والآخرون، وتعجّبوا لأنّ السِّلال التي لم يكن فيها سوى كِسَر امتلأت بأرغفة الخبز. وسَرْعان ما كانت هناك اثنتا عشرة سَلّة مليئة بالطعام. ومُرِّرت السلال بين الجموع، وأكل كُلّ الحاضرين حَتّى الشَّبَع.

وقد اقتنع كلّ مَن كان موجوداً في الطابغة ذلك اليوم بأنّ عيسى الناصريّ

كان حَقّاً المسيح المُخلِّص المذكور في النبوءات. وذاعَ صيته كَصانِع مُعجِزات وشافٍ من الأمراض، فتبعَه أناس كثيرون، وأصبح الشعب مستعداً لتقبُّل مريم، فإذا كان نبيّ عظيم كهذا قد اختارها فلا بُدّ أن تكون صالحة.

لكن مركز مريم ومكانتها أثارا مُشكِلة اسمها. ففي زمَن كان يشار فيه إلى النساء بأسماء أقربائهنّ الذكور، كان وَضْعها الخاصّ صعباً. فليس من اللائق الإشارة إليها بلقب أرملة يوحنا، وليس مقبولاً أن يُشار إليها فقط بعبارة زوجة عيسى، فعُرِفَت في ذلك الحين باسمها الخاصّ، كقائدة. وستتسلّم بعد ذلك زمام القيادة باسم ابنة صهيون، ومَجْدَل عِدْر أي بُرْج القطيع. كان اسمها اسم ملكة، اسماً قائماً بذاته. ودعاها الناس بكلّ بساطة:

مريم المجدليّة.

وهذه الفترة من الرسالة، التي تلَتْ مُعجِزة إطعام الجموع في الطابغة، هي التي أسمَتْها مريم المجدليّة الزمن العظيم. بعد زواج عيسى ومريم، اتّجهَ الناصريّون، ومعهم مريم المجدليّة، نحو بلاد الشام. وشفى عيسى عدداً كبيراً من الناس خلال تلك الرحلة، كما كان يُعلِّم في المعابد ويبشّر أفواجاً جديدة من الناس بكلمة الطريق. ولكنّهم عادوا بعد أشهُر إلى الجليل، فقد كانت مريم المجدلية حاملاً، وأراد عيسى أن تلدَ طفلَهما في مَوْطِنها حيث تنعم بالراحة.

رُزِق عيسى ومريم بابنة صغيرة رائعة بعد عودتهما إلى الجليل، وأعطياها اسماً أميريّاً مُزدوجاً هو سارة ـ تامار. واسم سارة كان تيمُّناً بامرأة نبيلة من العهد القديم هي زوجة إبراهيم. أمّا تامار فهو اسم جَليليّ، فيه إشارة إلى أشجار النخيل التي تنمو بكثرة في المنطقة وتستخدمه الأُسَر الملَكيّة لتسمية بناتها.

أخذت الأسرة الملَكيّة تكبر والرسالة تنمو، وتوسَّمَ الناس خيراً في المستقبَل، فكان بِحَقٍّ الزمن العظيم.

الفصل الثامن عشر

شاتو دي بوم بلو
29 حزيران (يونيو) 2005

لم يتكلّم أحد فور انتهاء بيتر من قراءة ترجمته للكتاب الأول. جلسوا جميعاً صامتين طويلاً، وكلٌّ منهم يحاول أن يستوعب، على طريقته، سيلَ الحقائق الجديدة. وكانوا كلّهم قد بكوا تأثراً في فترات مختلفة خلال الاستماع. وقد تحفّظ الرجال في بكائهم، أما المرأتان فقد بكتا صراحة لدى سماعهما نقاطاً معيّنة في قصّة مريم.

وأخيراً قطع سنكلير الصمت بقوله: "من أين نبدأ؟"

هزّت مورين رأسها قائلةً: "لست أدري أين البداية"، ثم نظرت إلى بيتر لتستطلع موقفه من الأمر، فسألته: "هل أنت مرتاح؟"، واستغربت أنه يبدو هادئاً ومبتسماً.

أومأ بيتر برأسه وقال: "أنا في أحسن حال. غريب كيف أنّي لا أشعر بالصدمة أو الهمّ أو القلق، إنما أشعر بالرضا. لا يمكنني تفسير الأمر، لكن هذا هو شعوري."

لاحظت تامي تعبه فقالت: "لقد أرهقْتَ نفسك، لكنّك قمتَ بعمل مذهل".

وأعلن سنكلير وورلان موافقتهما على ذلك، وشكره كلّ منهما على عمله الدؤوب على الترجمة.

وخاطبته مورين برقّة: "لِمَ لا تأخذ قسطاً من الراحة وتستأنف العمل على الكتب الباقية غداً؟ إنك بحاجة ماسّة إلى النوم يا بيتر".

هزّ بيتر رأسه رافضاً بحزم، وقال: "لا يمكن! بقي كتابان فقط، فهناك 'كتاب الرسل'، والكتاب التالي أَسْمَتْهُ كتاب 'عصر الظلمات'. وافترضُ أنّه روايتها عن الصّلب كشاهد عيان، ولن أترك المخطوطات قبل أن أعرف ذلك."

لمّا تيقّنوا أن بيتر لن يغيّر رأيه، طلب سنكلير إحضار الشاي له. وظلّ رافضاً تناول أيّ طعام قبل إنهائه الترجمة. تركوه وحده، وقرّر سنكلير وموررين وتامي التوجّه إلى غرفة الطعام لتناول عشاء خفيف، ودعوا رولان للانضمام إليهم لكنه اعتذر بلباقة قائلاً إنه منشغل ببعض الأمور، وغادر الغرفة بعد أن توجّه إلى تامي بنظرة خاصة.

كان العشاء خفيفاً لأنهم لم يشعروا بجوع شديد بل كانوا مشغولي البال بوصف حقيقة ردّة فعلهم على الكتاب الأول. وأخيراً تحدّثت تامي عن موضوع يوحنا.

"بعد قضاء النهار مع ديريك، بدَأت الأمور تتوضّح لي. فهمت الآن سبب كراهية أتباع يوحنا من طائفة الصالحين لمريم وسالومة، لكنّ في ذلك ظلماً كبيراً."

احتارت مورين لأنها لم تكن مطّلعة على ما تعرفه تامي، فسألتها: "ماذا تعنين؟ هل هؤلاء هم الذين هاجموني؟"

شرحت تامي كلّ ما علمته من ديريك خلال زيارتها المروّعة إلى كركاسون، فيما كانت مورين مصغيةً في ذهول صامت.

وتوجّهت مورين بالسؤال إلى تامي وسنكلير: "وهل كنتما على علم بأن مريم كان لها ابن من يوحنا المعمدان؟ فهذا الأمر قد صدمني. إنّه فعلاً لا يُصدَّق!"

أومأ سنكلير برأسه وأجاب: "معظم الناس سيُصدمون إذا علموا به. إنه أمر نعلمه نحن فقط، ولا يعرفه خارج فرقتنا، التي نفخر أنهم يعتبرونها بدعة، إلّا عدد قليل من الناس. لقد بُذلت جهود منظّمة لمحو هذه الحقائق من التاريخ قام بها الطرفان. فالظاهر أن اتباع يسوع يرفضون أن تطغى أخبار يوحنا على قصة يسوع، لذلك تنبّه مؤلّفو الأناجيل لصياغة كل ما ذُكر عن يوحنا بحذق وبراعة".

وتدخّلت تامي مكملةً: "أمّا أتباع يوحنا فلا يذكرون ذلك لأنهم يكرهون مريم المجدلية. لقد بدأتُ قراءة كتاب الطائفة الذي يسمّونه كتاب الكأس المقدّسة الأساسيّ، وسبب تلك التسمية هو أنهم يعتقدون أن الدم المقدّس الوحيد هو دم يوحنا وابنه. لذلك يؤمنون بأن سلالتهم هي السلالة الوحيدة التي يسري فيها الدم المقدّس. ولو تسنّى لهم الأمر لكانوا قد طمسوا أيّ ذِكْر لمريم المجدليّة في الكتب المقدّسة وكتب التاريخ. ومِن مبادئ طائفتهم أنّه يجب ألّا تُذكر من دون وصفها بعبارة العاهرة."

قالت مورين معلِّقةً: "لكنّ ذلك غير منطقيّ، فالمجدليّة ولدت ابن يوحنا، وهم يعتبرونه ابناً شرعياً، فلماذا يكرهونها لهذه الدرجة؟"

"إنّهم يقولون إنها خطّطت مع سالومة لموت يوحنا حتى تتمكّن من الزواج من يسوع، أي عيسى، وتتيح له المجال لأخذ دور المخلّص واستغلال مركزه كوالد لابن يوحنا وتربيته على تعاليم الناصريّين. والواقع أن جزءاً من شعائرهم هو إنكار المسيح وذلك بالبصق على الصليب ونعته بالمغتصب."

نظرت إليهما مورين وسألتهما: "إني مترددة في طرح هذه المسألة التي يصعب عليَّ تصديقها: هل جان كلود فعلاً واحد من هؤلاء الجماعة؟"

قالت تامي بكلام يقطر ازدراءً: "إنك تقصدين جان باتيست."

"لقد تبيّنَ لي، عندما كُنّا في مونسيغور، أنّه يعرف الكثير عن الكَتار. لا بل كان ينكرهم بكل تقدير وإجلال. فهل كان ذلك ادّعاءً خادِعاً؟"

تنهّد سنكلير عميقاً ومسح وجهه بيده وقال: "أجلْ، ولم يكن كل ذلك إلّا جزءاً بسيطاً من ادّعائه وخداعه. لقد اكتشف رولان أن جان كلود قد هُيِّئ منذ صغره لاختراق جمعيّتنا. وقد تمكّن بفضل ثروة عائلته وموارد طائفته من تكوين شخصيته الزائفة. وكان مُقنعاً حتى إنّي لم أشكّ به عندما أضاف لاحقاً عنصر انتمائه إلى أصول عائلة باسكال. وهو على كل حال عالم ومؤرّخ كبير ومتعمِّق في تاريخنا، ولكن ليس لهدف نبيل، إنّما مِن باب: اِعْرِفْ عدوَّكَ".

"كم مضى على هذه العداوة؟"

أجاب سنكلير: "إنها قائمة منذ ألفَيْ سنة. لكنّها من جانب واحد، فجماعتنا لا يحقدون على يوحنا، وهم دائماً يعتبرون أبناء وبنات سلالة المعمدان كإخوتنا وأخواتنا. فنحن وإيّاهم أبناء مريم المجدلية، وهذا هو موقفنا على الدوام."

علّقَت تامي ضاحكةً: "فرع العائلة الآخر هو من يثير المشاكل!"

وقال سنكلير: "لكن علينا أن ننكر أن أتباع يوحنا ليسوا جميعاً من المتعصّبين، فهؤلاء أقليّة في الطائفة. صحيح أنهم جماعة شرسون ومتطرّفون وذوو نفوذ، لكنّهم أقليّة. تعالي معي إلى الخارج، فهناك ما أريدك أن تريه".

قام الثلاثة عن المائدة، واستأذنت تامي بالانصراف وطلبت من مورين أن توافيها لاحقاً إلى غرفة العَرْض قائلةً: "طالما أنّنا عرفنا أشياء كثيرة، يمكنني أن أطلعك على المزيد مِما اكتشفته خلال بحثي."

وافقت مورين على لقاء تامي بعد ساعة، وتبعت سنكلير إلى الخارج. كانت حمرة الأفق بُعيد غروب الشمس لا تزال تلوّن السماء وهما يمشيان نحو بوّابة حدائق الثالوث الأقدس.

"هل تذكرين أنّك لم تتمكّني مِن زيارة الحديقة الثالثة عندما جئنا إلى الحدائق؟ اسمحي لي أن آخذك إلى هناك الآن".

أمسك سنكلير يد مورين وسار وإيّاها حول نافورة مريم المجدلية وصولاً إلى القنطرة الأولى ناحية اليسار. وكان يوجد بعد المدخل ممرّ رخامي طويل يقود إلى حديقة واسعة تشبه حدائق القصور الإيطالية.

وصفت مورين هندسة الحديقة بقولها: "يبدو أنّها مِن الطراز الرومانيسكيّ إلى حدّ بعيد!"

"أجلْ، وليس هناك معلومات كثيرة عن هذا الشاب يوحنا ـ يوسف. وبحسب علمي، لا شيء مدوَّن عنه، أو بالأحرى لا شيء حتى اليوم. كل ما لدينا أقاويل وروايات محلّية متوارَثة."

"وماذا تعرف عنه؟"

"ما نعرفه هو أن هذا الولد لم يكن ابن يسوع، إنما هو ابن يوحنا. واسمه الصحيح هو يوحنا ـ يوسف، مع أن بعض الأساطير تشير إليه باسم يوحنا ـ يشوع أو يوحنا ـ مرقس. وقد ورد في الحكايات أنه ذهب إلى روما في مرحلة ما وترك أمّه وأخته وأخاه هنا في فرنسا. ولا يعرف أحد ما إذا كان ذلك بمحض إرادته أم جزءاً من خطّة سماوية. ولا نعرف مصيره كذلك، فهناك رأيان حول الموضوع".

قادها سنكلير إلى تمثال رخاميّ لشابّ منحوت على طراز عصر النهضة. وقد وقف أمام صليب وحمل بإحدى يديه جمجمة.

"لقد ربّاه يسوع، فمن المحتمل أنّه ظل جزءاً من جماعة المسيحيّين المتزايدة عدداً في روما. كما يُحتمل في هذه الحالة أن يكون قد لقي حتفه شاباً لأن الكثيرين من قادة الكنيسة لقوا مصرعهم على يد نيرون. فقد ذكرَ المؤرّخ الرومانيّ تاسيتوس أنّ نيرون 'قد عاقب بقسوة ووحشيّة مجموعة المنحرفين الفاسدين المعروفين باسم المسيحيّين'، ونعلم أنّ ذلك صحيح ممّا وصلنا عن وقائع موت بطرس."

"إذاً تعتقد أنّه استشهد؟"

"هذا جائز، وربما يكون قد صُلب مع بطرس. ونظراً لنسَبه لا يمكن إلّا أن يكون قائداً، وقد أُعدِم كل القادة. ثمّ هناك رأي آخر".

أشار سنكلير إلى الجمجمة في يد تمثال يوحنا ـ يوسف، وقال: "والاحتمال الآخر هو كما يلي: تذكُر إحدى الأساطير أن غُلاة أتباع يوحنا بحثوا عن وريثه في روما وأقنعوه بأن المسيحيين قد اغتصبوا مركزه الشرعيّ، على أساس أن يوحنا كان المخلّص الحقيقيّ الوحيد وأن يوحنا ـ يوسف، بصفته ابنه الوحيد، كان وريث عرشه ومركزه. وهناك مَن يقول إنّ يوحنا ـ يوسف تخلّى عن أمّه وعائلته واعتنق مبادئ أتباع والده. ولا نعلم إلى أين انتهى به المطاف، لكنّنا نعرف أنّه توجَد فِرقة متشدّدة مِن عبَدة يوحنا في إيران والعراق يسمّون المَنْدائيّين. وهم جماعة مسالِمون، لكنّهم متشدّدون في قوانينهم وإيمانهم بأنّ يوحنا هو المخلص الحقيقيّ الوحيد. ويُحتمَل أن يكونوا متحدّرين مباشرة مِن سلالة المعمدان وأنّ يوحنا ـ يوسف أو ورثته وصلوا شرقاً إلى هناك بعد انفصاله عن المسيحيّين الأوائل. وأنتِ الآن تعرفين طبعاً بوجود طائفة الصالحين هنا في الغرب الذين يدّعون تحدرهم الأصيل من سلالة المعمدان."

ركّزت مورين نظرها على الجمجمة وهي تستمع لشرح سنكلير. ثم خطرت ببالها فكرة، فهتفت: "يوحنا! إنّها جمجمته، وهي موجودة في كل رسوم ولوحات مريم المجدلية، فهي تصوَّر دائماً مع جمجمة، ولم يعطني أحد تفسيراً منطقياً لذلك. هناك دائماً إشارة غامضة إلى الكفّارة، فالجمجمة تمثّل التوبة. لكن لماذا؟ أمّا الآن فإنّي أعلم السبب! لقد رُسمت مريم مع الجمجمة تعبيراً عن توبتها لما حدَث مع يوحنا، وذلك بإظهار جمجمته معها دائماً!"

قال سنكلير موافِقاً: "هذا صحيح. وهناك أيضاً الكتاب الذي يظهر معها دائماً في الصور".

فعَلّقت مورين قائلةً: "لكنّه قد يكون الكتاب المقدّس!"

"مُحتمَل، لكنّه غير ذلك. إنّها تصوَّر دائماً مع كتاب لأنه كتابها هي، كتابها الذي تركته لنا لنجدَه. وأرجو أن يكشف لنا الغموض حول ابنها الأكبر ومصيره، لأننا لا نعلم هذا الأمر علم اليقين. وآمل فعلاً أن تحلّ لنا هذا اللغز بنفسها!"

ثم سارا في الحديقة صامتين وقد بدأ الظلام يدبّ في السماء ويختلط بحُمْرة

الشفَق وأخذت بعض النجوم تشعّ. ثمّ تكلّمت مورين: "تذكرتَ أنّ هناك آخرينَ من أتباع يوحنا وهم غير متطرّفين!"

"أجلْ هناك ملايين منهم، ونحن ندعوهم المسيحيين".

حدّقت إليه مورين مستغربةً، فيما أردف هو قائلاً: "إنّي جادّ. خذي بلادكِ مثلاً. كم كنيسة تسمّي نفسها الكنيسة المعمدانية؟ هؤلاء مسيحيّون أدخَلوا في إيمانهم فكرة يوحنا المعمدان كنبيّ كبير، ويدعوه البعض 'السابق' ويعتبرون أنه بشّر بمجيء المسيح. وقد اتّحدت عائلات في أوروبا فدمجت سلالة المعمدان وسلالة الناصري، وأشهر هذه العائلات سلالة مديتشي، وهم يمجّدون يوحنا ويسوع. كما إن ساندرو بوتيتشلي كان منهم."

دُهشت مورين لدى سماعها ذلك، فتساءلت: "بوتيتشلي كان متحدّراً من السلالتين؟"

أومأ سنكلير وقال: "عندما نعود إلى الداخل تأمّلي ثانيةً لوحة ساندرو 'الربيع' فستجدين إلى أقصى اليسار شكل الخيميائي هِرْمِس يحمل شعاره الصولجان ويرسم بيده حرَكة 'تذكّروا يوحنا' التي أخبرَتْك عنها تامي. فساندرو يخبرنا في قصته الرمزية عن مريم المجدلية وقوّة الانبعاث أنّنا يجب أيضاً أن نعترف بيوحنا وأن الخيمياء هي نوع من التكامل. والتكامل لا يترك مجالاً للتعصّب".

كانت مورين تراقبه بدقّة، وقد ازداد إعجابها بهذا الرجل الذي كان بالنسبة لها مِن قَبْل مجرّد لُغز غامض. فهو أشبه بمتصوّف أو شاعر يبحث عن الحقائق الروحيّة، بالإضافة إلى كونه إنساناً طيّباً وحنوناً ومُخلصاً. وأيقنت، لمّا سمعَت كلماته هذه، أنّها كانت سابقاً قد استهانت به ولم تقدّره حَقّ قدره.

"وأعتقد أن روح المغفرة والتسامح هي أساس الإيمان الصادق. وقد أثبتَت لي أحداث اليومين السابقين صحّة ذلك بما لا يدع مجالاً للشكّ."

تجاوبَت معه مورين بابتسامة رقيقة ووضعت يدها بيده وسارا معاً عائدين إلى داخل القصر.

حاضرة الفاتيكان، روما

29 حزيران (يونيو) 2005

كان الكردينال دي كارو في مكتبه يُنهي مكالمة هاتفية عندما فُتح الباب فجأة. وقد

ذُهل ذلك المسؤول الكنسيّ الكبير بأنّ المطران أوكونور لم يُدرك بعد كم أنّ وجوده في روما عديم الفائدة، لكن يبدو أنّه غير قادر تماماً على فهم هذا الأمر. واحتار دي كارو هل إنّ ما يدفع ذلك المطران هو طموح زائد أم جهل مطبق، أو لعله الاثنان معاً؟

أصغى الكردينال بصبر مُصطنَع ودهشة ساخرة لِما كان يهذي به الرجل حول ما اكتشفه في فرنسا. ثمّ ذكر أوكونور أمراً أصاب دي كارو بقشعريرة. فتلك معلومات سرّيّة، وحتى ذلك الوقت لم يكن مسموحاً أن يعرف أحد بهذا المستوى بأمر المخطوطات وخصوصاً محتواها.

اصطنع الكردينال لهجة غير رسميّة، وسأله: "ومن هو مصدر معلوماتك؟"

ارتبكَ أوكونور لأنه لم يكن مستعداً بعد لكشف مصدره، فقال: "إنّه مصدر موثوق، موثوق جداً."

"يا ماغنوس، لا يمكنني أن آخذ هذه المعلومات على محمل الجدّ إذا كنت لا تريد أو لا تستطيع إطلاعي على التفاصيل. أنتَ تعلم كم يردنا مِن معلومات خاطئة، ولا نستطيع أن نفتح تحقيقاً في كل ما نسمع به".

تململ المطران ماغنوس أوكونور منزعجاً. فهو لم يجرؤ، في تلك المرحلة، على كشف مصدره، فتلك هي الورقة الوحيدة الباقية في يده. وإذا أفصح عن مصدره فسوف يذهبون إليه مباشرة ويصبح أوكونر هامشياً وبعيداً عن ذلك الحدث التاريخيّ الخطير. بالإضافة إلى ذلك، فهو مسؤول تجاه جهات أخرى غير دي كارو ومجلس الفاتيكان.

عرض أوكونور اقتراحاً بقوله: "سوف أراجع المصدر وأسأله إذا كان يسمح لي بكشف اسمه لك."

هزّ الكردينال دي كارو كتفيه لامبالياً، مِمّا أثار قلق أوكونور، فهذا الاستقبال الفاتر لأخباره التي تهزّ الكون لم يكن ما يريده أو يتوقّعه. صرفه المسؤول الكنسيّ الكبير قائلاً: "حسناً! شكراً على هذه المعلومات. بإمكانك الانصراف لمتابعة أعمالك".

"لكنْ، يا صاحب النيافة، ألا تودّ أن تعلم ماذا وجدوا بالضبط؟"

حدّق الكردينال دي كارو إلى المطران الإيرلندي من فوق نظّارتيه، وأجابه:

"المصادر غير المثبَتة لا تثير اهتمامي! ليلةً سعيدة يا سيّدي. باركك الله وحفظك".

أدار الكردينال ظهره وأخذ رزمة أوراق وراح يقلّبها وكأنه لم يسمع من المطران سوى خبر عاديّ تافه.

أحسّ المطران أوكونور بالسخط والنقمة، فهو لم يَرَ ما توقّعه مِن ذهول واهتمام وشكر. وخرج يتهادى من الباب بعد أن تمتم بضع كلمات لوداع الكردينال. لقد انتهى هنا في روما مؤقتاً. فعليه الذهاب إلى فرنسا ليعود بعد ذلك إلى هنا قوياً.

شاتو دي بوم بلو
29 حزيران (يونيو) 2005

بعد انتهاء مورين من جولتها في الحديقة مع سنكلير، ذهبت إلى غرفة آلات العرض لتلاقي تامي كما كانت قد وعدتها. مرّت أوّلاً على غرفة مكتب سنكلير لتطمئنّ على ابن خالها بيتر. وقفت بالباب فوجدته مستغرقاً في ترجمة الكتاب الثاني. نظر إليها بعينين ساهمتين وهَمْهَمَ كلاماً مُبْهماً، فأدركَتْ أنّ الوقت ليس مُناسباً لمقاطعته، فانسحبت وراحت تبحث عن تامي.

وجدت مورين خارج الغرفة حركةً وجلَبة في ممرّات القصر، فأخذت تسأل نفسها عن مدى معرفة الخدم بما يجري، لكنها افترضت أنّهم جميعاً موثوقون ومخلصون. كان رولان وسنكلير مجتمعَيْن لبحث التدابير الأمنية الواجب اتخاذها حتى إنجاز ترجمة إنجيل مريم المجدلية واتّخاذ قرار بشأن ما ينبغي عمله. لم تكن هذه المسألة قد نوقشت علناً، وكانت مورين تودّ لو تعرف كيف سيتصرف سنكلير ومتى.

رأتها تامي خارج الباب فأشارت إليها ونادتها: "تعالي، ادخلي".

غاصت مورين على الأريكة قرب تامي وأرجعت رأسها إلى الوراء وتأوّهت.

"ما بكِ؟"

ابتسمت مورين وأجابتها: "لا شيء! كنت أتساءل هل ستظلّ حياتي كما كانت؟"

فضحكت تامي ضحكتها العميقة وقالت: "لا. ويُستحسن أن تعتادي على ذلك". ثم أمسكت يد مورين وخاطبتها بكلّ ودّ: "اسمعي. أَعلمُ أن معظم ما حدث

جديد بالنسبة لك وأنك مررت بمتاعب كثيرة في فترة قصيرة. إنني حقاً أقدّر كل ما قمت به وما قام به بيتر".

أجابت مورين وهي تتنّهد: "شكراً. لكنْ، أترين أن الناس مستعدون لتقبُّل ما سيزعزع أسس معتقداتهم الدينية؟ أنا لا أرى ذلك!"

لكنّ تامي قالت بلهجة واثقة: "لا أوافقك الرأي. فالتوقيت مناسب تماماً. نحن في القرن الحادي والعشرين وقد بطلت عادة حرق الناس على الأعواد لاتهامهم بالهرطقة."

"طبعاً. طبعاً. لكنْ هناك مَن يدق رؤوس الناس!"، ووضعت مورين يدها على مؤخرة رأسها لتؤكّد على كلامها.

"عذراً، أنتِ مُحِقّة".

"لا عليكِ، كنت أبالغ"، ثم أشارت مورين إلى شاشة التلفزيون الكبيرة واستطردت سائلةً: "علام تعملين الآن؟"

"لقد انتقلنا إلى مواضيع أخرى في لقائنا الأخير هنا، ولم يتسَنَّ لي إكمال عَرْض هذا. سوف تجدينه مشوِّقاً."

كان جهاز التحكّم بيد تامي، فوجّهته نحو الشاشة وتابعت كلامها: "كنّا نشاهد صور شخصيّات من السلالة، أتذكرين؟"، ثمّ أفلتت زِرّ التوقيف المؤقّت فملأت الصور الشاشة، وراحت تامي تُعدِّد: "ملك إسبانيا فرديناند، وفتاتُك لوكريس بورجيا، وماري ملكة إسكتلندا، والأمير تشارلز إدوارد ستيوارت الملقب بالأمير الوسيم تشارلي، وإمبراطورة النمسا ماريا تيريزا، وابنتها الشهيرة ماري أنطوانيت، والسير إسحاق نيوتن." ثم أوقفت العرض عند ظهور صورة لعدّة رؤساء أميركيّين وقالت: "ونصل إلى الأميركيين بدءاً بتوماس جيفرسون وننتقل تدريجاً إلى العصر الحديث."

وملأت الشاشة صورة كبيرة لاجتماع عائلة أميركية.

"ما هذه؟"

"لقاء عائلة ستيوارت في تشيري هيل، نيوجيرسي. لقد التقطْتُها العامَ الفائت. وهذه أيضاً. يبدون أناساً عاديّين في أماكن عاديّة، لكنّهم جميعاً من السلالة."

عبّرت مورين عن فكرة حيَّرتها:" هل سبق أن ذهبت إلى منطقة ماكلين في فرجينيا؟"

وأجابتها تامي مستغربةً: "لا. لماذا تسألين؟"

أخبرتها مورين بالأحداث الغريبة التي حصلت معها في ماكلين وصاحبة المكتبة الرائعة التي قابلتها هناك، وأضافت: "واسمها ريتشل مارتل، و..."

قاطعتها تامي مذهولة: "مارتل؟ هل قلت مارتل؟"

هزّت مورين رأسها إيجاباً، فانفجرت تامي ضاحكة: "إذاً لا عجبَ في أنها كانت ترى رؤى. فعائلة مارتل من أقدم عائلات السلالة. تشارلز مارتل من سلالة شارلمان. وإذا بحثت جيّداً في تلك المنطقة من فرجينيا، أراهنك بأنك ستجدين عدداً كبيراً من عائلات السلالة. لقد التجؤوا إلى هناك هرباً في عهد الإرهاب بعد الثورة الفرنسية، وكان ذلك سبب هجرة معظم عائلات نبلاء فرنسا إلى الولايات المتّحدة. كما إنّ في بنسلفانيا عدداً كبيراً منهم."

قالت مورين ضاحكةً: "ولهذا السبب تحدثُ رؤى كثيرة هناك. عندما أعود إلى الولايات المتحدة سأتّصل بريتشل وأخبرها بذلك".

عادا إلى التركيز على الشاشة حيث ظهرت صورة أخرى لاجتماع عائلي، وصفتها تامي بقولها:

"هذا لقاء عائلة سانت كلير في باتون روج الصيفَ الماضي. وفي لويزيانا أكبر عدد من عائلات السلالة نظراً لوجود الأصول الفرنسية هناك، وأنت تعلمين ذلك طبعاً. انظري إلى هذا الرجل".

وأوقفت تامي العرض على صورة موسيقيّ شاب يعزف على الساكسوفون في الحَيّ الفرنسيّ. ثم أكملت العرض فراح الشاب يعزف موسيقى رائعة ولا أجمل. وأوقفت الصورة ثانيةً لتقول:

"اسمه جيمس سانت كلير. هو مشرَّد يعيش متسكّعاً في شوارع نيو أورلينز، لكنّه عازف ماهر جداً. لقد جلستُ في زاوية الشارع وتحدّثت إليه ثلاث ساعات. إنّه إنسان ذكيّ ورائع"

"وهل يعرف جميع هؤلاء الناس أنّهم ينتمون إلى السلالة؟"

"لا طبعاً. وهذه نقطة هامة، وهي خاتمة الفيلم الذي أُعِدُّه. فبعد ألفَي عام مِن التاريخ والتحوّلات، قد يكون على وجه الأرض ما يقارب مليون إنسان يحملون دم يسوع المسيح في عروقهم، أو أكثر من هذا العدد. وليس هناك امتياز أو سِرّ خاصّ

بهؤلاء، فقد يكون منهم صبيّ البقال الذي يحمل أغراضك أو الصرّاف في البنك، أو ذلك الموسيقيّ الذي يعيش على الطرقات ويثير الشجن في قلبك كلما أمسك الساكسوفون".

شاتو دي بوم بلو
2 تموز (يوليو) 2005

عملَ بيتر بلا كلل، لكنّ نزعته لإنجاز العمل على أكمل وجه اقتضت يومين آخرين قبل أن يصبح جاهزاً لإطلاع الآخرين على ترجمته للمخطوطات التي عمل عليها مؤخراً، وهي كتاب عصر الظلمات.

بعد ظهر اليوم الثاني، غفت مورين على الكنبة، وهي سعيدة بكونها قرب إنجيل مريم المجدلية وهو يُترجَم.

استيقظت على صوت تنهّدات ابن خالها.

نظرت إلى بيتر فرأته واضعاً رأسه بين يديه مستسلماً للإرهاق والانفعال اللذين استوليا عليه. لكنّ مورين لم تستطع تحديد نوع ذلك الانفعال؛ فهل كان حزيناً أم سعيداً؟ وحوّلت نظرها إلى سنكلير الذي كان جالساً إلى الطاولة قبالةَ بيتر، فقابلها بنظرة استفهام وتساؤل، فقد كان هو أيضاً محتاراً في معرفة حقيقة مشاعر بيتر.

اقتربت مورين من بيتر وأرخَت يدها على كتفيه برقّة وسألته: "ما الأمر يا بيتر؟"

مسح بيتر الدموع عن وجهه ونظر إلى ابنة عمّته وقال هامساً: "الأفضلُ أن تخبركم هي"، وأشار إلى الترجمة أمامه، وأردف قائلاً: "هل تنادينَ الآخرينَ من فضلِكِ؟"

هُرِعَ رولان وتامي إلى مكتب سنكلير. وكان من السهل إيجادهما لأنهما أصبحا يظلّان معاً علناً، ولم يكونا بعيدين لأنهما أصرّا على البقاء قريبين من المخطوطات بانتظار مثل هذه اللحظة.

استدعى رولان إحدى الخادمات وطلب إحضار الشاي للجميع. وما إن انصرفت الخادمة وأقفلت الباب وراءها حتى استأنف بيتر القراءة من حيث كان قد وصل.

قال بيتر: "إنها تسمّي هذا الكتاب: 'كتاب عصر الظلمات'. وهو يدور حول الأسبوع الأخير من حياة المسيح".

حاول سنكلير أن يطرح سؤالاً، لكنّ بيتر عاجله بالقول: "يُستحسنُ سماع الشرح بلسانها هي."

وبدأ يقرأ.

... مِن المهمّ معرفة حقيقة مَن هو يهوذا الإسخريوطي لفهم علاقته بي وبعيسى وبتعاليم الطريق. كان، مثل سمعان، مِن فرقة الغيورين، وكانت تتملّكه رغبة جامحة في طرْد الرومان من شواطئنا. وقد قتل عدداً كبيراً من الرومان مِن أجل عقيدته هذه وكان مستعداً لقتل المزيد من أجل ذلك. ثمّ جاء به سمعان إلى عيسى.

آمن يهوذا بالطريق، لكنّ تحوّله لم يكن سريعاً ولا سَهْلاً. فهو يتحدّر من سلالة مِن الفرّيسيّين وله نظرة صارمة للشريعة. كان قد تبعَ يوحنا في مطلع شبابه، وكان يرتاب في كل ما سمعه عنّي. لكنّنا سرعان ما أصبحنا صديقين، أخاً وأختاً في الطريق، وذلك بتأثير عيسى الذي كان العامل الموحّد بين المؤمنين. لكنّ أفكار يهوذا القديمة كانت تبرز إلى الواجهة أحياناً مِمّا يثير التوتّر بين أتباع عيسى. كان يهوذا قائداً بطبعه وينزع إلى إظهار سلطته. لذلك أُعجب به عيسى، لكنّ بعض الأتباع لم يتحمّلوه. لقد فهمْتُ حقيقةَ يهوذا، فقدَرُه كان كقَدَري وهو أن يُساءَ فهْمُه.

رأى يهوذا أننا يجب أن نبذل كل ما بوسعنا لتوسيع قاعدة أتباعنا، وذلك بالتبرّع للفقراء. وعيّنَه عيسى أميناً للصندوق، وكان مِن مسؤوليّاته جمع المال لتوزيعه على المحتاجين. كان إنساناً مستقيماً ونزيهاً في أداء مهمّته، لكنّه كان أيضاً عنيداً ومتصلباً في مواقفه.

وقد حدثَ الخلاف الكبير في تلك الليلة حين مسحْتُ عيسى بالطيب في منزل سمعان في بيت عنيا. أخذْتُ قارورة مختومة من المَرمر كانت قد أُرسلت لنا مِن الإسكندريّة، وهي مليئة بمزيج نفيس مِن الناردين العطريّ والمُرّ. فتحتُ خاتم القارورة ودهنت رأس عيسى وقدميه بالطيب إقراراً بأنه مخلّصنا المنتظَر وفقاً لتقاليد شعبنا ولِما ذكَرَهُ لنا سليمان في نشيد الأنشاد. لقد كانت، بالنسبة لنا جميعاً، لحظة روحيّة رمزية مُفعَمة بالأمل والرجاء.

لكنّ يهوذا غضب ممّا فعلتُه وانتقدني أمام الجميع بقوله: "ذلك طيب خالص غالي الثمن. كان من الممكن بَيْعُه بمبلغ كبير يوزَّع على الفقراء."

لم أُضطرّ للدفاع عن موقفي لأن عيسى تولّى ذلك، فقد أنّبَ يهوذا قائلاً: "إنّ الفقراء هم عندكم دائماً أبداً، أمّا أنا فلستُ عندكم

دائماً أبداً. الحَقَّ أقول لكم: حيثما تُعلن البشارة في العالم كلّه سوف يُذكر اسم هذه المرأة مع اسمي. ليكن ذلك إحياءً لذِكراها والأعمال الحسنة التي قامت بها مِن أجلنا".

وبذلك بدا واضحاً أنّ يهوذا لم يفهم طقوس الطريق المقدّسة فهماً كاملاً، واستاء منه بعضُ المختارين ولم يثقوا به بتاتاً بعد ذلك.

وكما ذكرتُ آنفاً، أنا لا أُضمر له الضغينة لتصرّفه هذا ولا لأيّ سبب آخر. والواقع أنّ يهوذا لم يستطع أبداً أن يتغلّب على حقيقته الكامنة في أعماقه، وكان دائماً صادقاً مع نفسه.

وما زلتُ أبكيه حتى اليوم.

إنجيل الآرك لمريم المجدلية

كتاب عصر الظلمات

الفصل التاسع عشر

أورشليم
العام 33 م.

كان يوماً حافلاً بالنسبة للناصريين، فقد استُقبل عيسى لدى دخوله أورشليم استقبالاً شعبياً كما أرادوا، بل إن الاستقبال فاق كلّ التوقّعات. لمّا دُعي الأتباع لتعلّم صلاة الطريق، التي أصبح عيسى يسمّيها الصلاة الربّانيّة، تبيّن أنّ موقع الصخرة في جبل الزيتون لا يسعهم جميعاً. وقد ملأت جموع المحتشدين لسماع تعاليم عيسى سفوح الجبل، وكلٌّ منهم ينتظر أن تتاح له فرصة الاقتراب من المخلّص ليتعلّم منه كيفيّة الصلاة.

وظلّ عيسى هناك حتّى تأكّد من أنّ كل رجل وامرأة وطفل قد تعلّم تلك الصلاة وفهمَها وحفظها في قلبه.

وأثناءَ نزول الناصريين من الجبل وتوجّههم إلى المدينة، أوقفَهم اثنان من قادة المئة الرومان، وكانا يحرسان مدخل المدينة الشرقيّ حيث أقربُ بوّابة إلى مقرّ إقامة بيلاطس في قلعة أنطونيا. أوقفا المجموعة متكلّمين بلغة آرامية مكسّرة سائلينِ عن وجهتهم. تقدّم عيسى وفاجأهما بتكلّمه اللغة اليونانية بطلاقة. وأشار إلى أحدهما بعد أن لاحظ أن يده ملفوفة ومضمّدة.

سأله بكل بساطة: "ماذا حدث لك؟"

لم يكن قائد المئة يتوقع مثل هذا السؤال، لكنّه أجاب بصراحة: "وقعْتُ على الأرض الصخرية أثناء الحراسة الليليّة".

فعلّق زميله هازئاً: "لقد شربَ الكثير من الخمر"، وبدا هذا ذا شخصيّة منفّرة، وكان على خدّه الأيسر أثر جرح كبير.

رمقه زميله المصاب بنظرة غاضبة، وتوجّه إلى عيسى بقوله: "لا تصدّق كلمة ممّا يقوله لونجينوس. لقد فقدْتُ توازني".

فقال عيسى: "إنّها تؤلمك".

أومأ قائد المئة برأسه وقال: "أعتقد أنها مكسورة. لم أتمكّن حتى الآن من رؤية الطبيب. إننا منهمكون بضبط الحشود في موسم عيد الفصح".

سأله عيسى: "أتسمح لي برؤيتها؟"

مدّ الرجل يده المضمّدة وكانت ملتوية من عند معصمه. ووضع عيسى إحدى يديه تحتها والأخرى فوقها برفْق، ثمّ أغمض عينيه وهو يتلو صلاة صامتة فيما كانت يداه تطوّقان يد قائد المئة برقّة وثبات في آن واحد. وراحت حدَقتا الروماني الزرقاوان تتسعان فيما كان الناصريون المتحلّقون حوله يراقبون عملية الشفاء التي يقوم بها يسوع، وحتى إنّ قائد المئة الآخر وقف يراقب مشدوهاً.

فتح عيسى عينيه ونظر إلى عيني الرجل قائلاً: "لقد تحسّنت حالك الآن". ولمّا ترك يده أيقن الجميع أنها أصبحت مستقيمة وسليمة. تلعثم الروماني ولم يستطع أن يتكلّم، وراح يُزيل الضماد عن أصابعه المنثنية. كانت الدموع تطفر من عينيه وهو يحدّق إلى عيسى ولم يجرؤ على قول أي شيء على مسمع من رفاقه الجنود. أدرك عيسى ذلك وخلّصه من الإحراج، فبادره بالقول:

"إنّ ملكوت الله مُعَدّ لك. بَشِّر الآخرين بذلك." ثمّ أكمل عيسى طريقه مجتازاً الممرّ حول أسوار المدينة تتبعه مريم وولداهما وأتباعه المختارون.

كانت مريم مرهَقةً لكنّها لم تتذمّر. فثقل الطفل الذي تحمله بَطَّأَ حركتها، لكنّها كانت مسرورة جداً بحملها فتحمّلت التعب من دون شكوى. نزلوا في بيت عمّ عيسى، يوسف، وهو رجل غنيّ ذو نفوذ ويملك أراضي كثيرة خارج أسوار المدينة. وقد سُرَّت مريم لأن يوحنا وتامار كانا نائمين بعدما نال منهما تعَب النهار.

تسنّى لمريم الوقت، وهي جالسة وحدها في حديقة منزل يوسف، للتفكير في قدرات عيسى في الشفاء. وكان عيسى مع عمّه وبعض الأتباع يخططون لزيارة الهيكل في اليوم التالي. وفضّلت مريم أن تتركهم يبحثون الأمر وتطمئنّ إلى الولدين

في الفراش وقضاء بعض الوقت للراحة والصلاة. أما المريمات الأخريات والإناث من الأتباع فقد اجتمعن للصلاة، لكنّ المجدليّة لم تنضّم إليهنّ فقد كانت بحاجة ماسّة للاختلاء بنفسها، وهذا ما لم يتسَنَّ لها كثيراً.

لمّا استعادت مريم حادثة شفاء الجندي الروماني في ذلك اليوم أحسّت بالانزعاج والضيق. لم تستطع تحديد شعورها بالضبط ولم تعرف لِماذا أثارت الحادثة أعصابها. كان قائد المئة نفسه إنساناً مهذّباً ولطيفاً على عكس الجنود الرومان عادةً. وقد أحسّت، كما أحسّ عيسى، بضيقه عندما كاد يبكي تأثّراً بعد معجزة شفائه. أما الجندي الآخر فكان مختلفاً، فهو إنسان فَظّ كعادة هؤلاء الجنود المرتزقة الذين سفكوا دماء شعبها. صحيح أن لونجينوس هذا قد ذُهل بمعجزة شفاء زميله، إلا أن ذلك لم يؤثّر إيجاباً لأنّه إنسان قاسي القلب لا يعرف إلّا الحرب والضرب.

أما الرجل الآخر ذو العينين الزرقاوين فلم يُشفَ فحَسْب، بل أصبح إنساناً مُختلِفاً، وقد رأت مريم ذلك في عينيه. وعندما استعادت تلك الصورة أحسّت برعشة تسري في جسدها وبإحساس غريب يلامس النبوءة كان ينبّهها دائماً إلى أنّها تلمح المستقبل. أغمضت مريم عينيها وحاولت أن تلتقط الصورة، لكنها لم تستطع. فلعلّها كانت متعبةً جداً أو لعلّه لم يكن مقدّراً لها أن ترى المستقبل!

وتساءلت: ما هي تلك القوّة؟ لقد ذاعت قدرة عيسى على الشفاء بين الشعب في السنوات الثلاث الأخيرة وأصبح الناس يعرفونه لذلك ويُجلّونه. ويبدو أنها أصبحت مؤخراً شيئاً عادياً يؤدّيه من دون عناء. فقد كان يُظهر قدرة الله على الشفاء بعفويّة غريبة.

وكان عيسى قد شفى أخاها بعدما أعلن الأطباء في بيت عنيا أنه مات. ففي العام السابق، أرسلت مرتا لعيسى ومريم خبراً مفاده أن لعازر كان مريضاً للغاية لكن الرحلة طالت أكثر من المتوقّع، وعندما وصلا كان لعازر قد مات، وظنّ الجميع أنّه قد فات الأوان، فعيسى القادر على شفاء المرضى لم يكن قد أقام أحداً من الموت. وكان من الصعب توقُّع قيام أي إنسان بذلك حتى ولو كان المخلّص.

لكن عيسى دخل بيت مرتا برفقة مريم وطلب من الامرأتين التمسّك بإيمانهما والصلاة معه. ثم دخل وحده غرفة لعازر الميت وبدأ بالصلاة.

لمّا خرج عيسى من الغرفة نظر إلى وجهي مريم ومرتا الشاحبين ثم ابتسم ابتسامة اطمئنان واستدار نحو الغرفة وقال: "يا أخي العزيز لعازر، انهضْ مِن فراشك وحَيِّ زوجتك وأختك اللتين صلّتا بإيمان من أجل عودتك إلينا."

وقفت مريم ومرتا منذهلتين وهما ترَيان لعازر يخرج من الباب ماشياً ببطء. كان شاحباً هزيلاً، لكنّه كان حيّاً.

أُقيمت احتفالات كبيرة في بيت عنيا تلك الليلة لدى انتشار خبر إقامة لعازر من الموت. وازدادت أعداد أتباع الناصريّ وذاعت أخبار معجزات عيسى وأعماله بين الناس. واستمرّ عيسى في إبراء المرضى، وكان يتوقّف عند ضفّة نهر الأردن قرب أريحا ليعمّد المزيد من الأتباع الجدد على طريقة يوحنا. وقد اضطر الناصريون للبقاء فترة أطول ممّا توقعوا عند ضفّتي نهر الأردن نظراً لاحتشاد عدد كبير من الناس طالبي الاعتماد.

وقد رحّب كثير من المعتدلين باتّخاذ عيسى دور يوحنا ورأوا أنّه فِعْلاً المخلّص المنتظر، حتّى إنّ هيرودوس انطيباس، أمير الجليل، أعلن أنّه يرى في عيسى روح المعمدان. لكنّ بعض الناس لم يتقبّلوا ذلك، فأتباع يوحنا المتعصّبون والمتطرّفون الأسينيّون انتقدوا موقف هيرودوس، وراحوا يلعنون عيسى سراً ويتّهمونه باغتصاب موقع يوحنا. لكنّ غضبَهم الخطير لم يكن مُنصباً على الرجل الناصري بقدر ما كان منصباً على الامرأة الناصريّة.

في اليوم التالي، كانت مريم عند ضفّة النهر فوقعت أرضاً وهي تمسك بمعدتها. كانت في غاية المرض، فتجمّع أتباعها حولها، وسارع عيسى إلى قربها لمّا سمع أن زوجته قد وقعت.

كانت مريم العظيمة موجودة أيضاً، فاعتنَت بمريم المجدليّة. راقبَتْ كَنَّتَها عن كثب وبعناية فائقة، ولاحظت الأعراض التي أصابتها. وتوجّهت إلى ابنها قلقةً وقالت: "لقد رأيتُ هذه الأعراض مِن قبل. ليس هذا مرضاً طبيعياً".

هزّ عيسى رأسه موافقاً وقال: "إنّه سُمٌّ".

أكّدت مريم العظيمة ما قدّره ابنها، وأضافت: "ليس مجرَّد سُمّ عاديّ. لاحِظْ أن رجليها مشلولتان. لا تستطيع تحريك أسفل جسدها بتاتاً. والسمّ يعمل بداخلها، وإذا تقيّأت ستخرج أحشاؤها. إنّه سمّ شرقيّ يدعى الشياطين السبعة لأنه مزيج من

سبعة مركّبات سامّة مميتة، وهو يعمل ببطء ويسبّب آلاماً شديدة. ولا ترياق مضادّ له. فعليكَ، يا بُنَيّ، دعاء الله لشفائها."

أخلت مريم العظيمة المكان ليتمكّن عيسى من العمل على شفاء زوجته بهدوء وطمأنينة. أمسك عيسى يديها، ثمّ صلّى حتّى أحسّ بتلاشي السمّ من جسدها وعودة العافية إليها. وفيما كان عيسى يصلّي لشفائها راح تلاميذه يحلّلون الوقائع محاولين معرفة مَن سَمَّم مريم المجدلية.

لم تتمّ معرفة الجاني وافترضوا أن يكون أحدَ غُلاة أتباع يوحنا قد وصل إلى النهر مدّعياً أنّه تائب ويريد الاهتداء إلى الطريق ودَسّ السمّ لمريم التي لم تشكّ في أمره. ومنذ ذلك اليوم، أصبحت مريم المجدلية حريصة على عدم تناول أي طعام أو شراب من أحد ما لم تكن متأكّدة من مصدره. وقد قضت بقيّة حياتها الحافلة بالأحداث معرَّضة لخطر الأذيّة من كارهيها وحاسديها.

وانتشر خبر شفاء مريم المجدلية من سمّ الشياطين السبعة على يد عيسى كأحد أهمّ إنجازاته وأعماله. وكما حدثَ في سائر تاريخ حياة مريم المجدلية، استُغِلّت هذه الحادثة أيضاً وأُسيء تفسيرها واستُعملت ضدّها.

قطعَتْ صَرخةٌ مدويّة في فناء الدار حَبْلَ ذكريات مريم. كان صوتَ يهوذا يطلبُ عيسى بإلحاح. اندفعت مريم إلى الخارج وسألته: "ما بك؟"

أجاب يهوذا لاهثاً: "ابنة قريبي يائيرس! لقد جئت مسرعاً بحثاً عن عيسى. ربما يكون قد فات الأوان. لكني بحاجة إليه. أين هو؟"

قادته مريم إلى حيث يجتمع الرجال في بيت يوسف. رأى عيسى القلق بادياً على وجه يهوذا فقام يحيّيه. أخبره يهوذا بأنفاس متقطّعة بأنّ الحُمّى المميتة المنتشرة بين أطفال أورشليم وجوارها قد أصابت ابنة قريبه، وأنّه لمّا جاءه الخبر ووصل إلى بيت يائيرس كان الأطباء قد فقدوا الأمل. ونظراً لمركز يائيرس في الهيكل والصداقة التي تربطه ببيلاطس البنطيّ فقد تمكّن من إحضار أبرع الأطباء. وكان يهوذا يعلم أنه إذا كان مثل هؤلاء الأطباء لم يأملوا شفاءها فلا بدّ أن تكون قد ماتت. ومع ذلك كان عليه أن يحاول.

كان يهوذا رقيق القلب أكثر ممّا يُظهر أمام الآخرين، ونظراً لأنه لم يتزوّج

مفضّلاً حياة النضال ضدّ الرومان، فإنه استعاض عن ذلك بحُبّ أبناء وبنات أقربائه. وكانت أحبّ هؤلاء إلى قلبه تلك المريضة المشرفة على الموت، وهي ابنة اثنتي عشرة سنة وتدعى سميديا.

أدرك عيسى مدى هلع يهوذا وقلقه من احتمال خسارة تلك الصبيّة، فنظر إلى مريم المجدلية وسألها: "هل تقدرين على السفر الليلة؟"

هزّت رأسها إيجاباً. فلا بدّ مِن أن تذهب، لأنّ هناك أمّاً تنتحب وعليها أن تقف إلى جانبها.

قال عيسى رأساً: "سنذهب الآن"، فليس من عادته التردّد، ومريم تعلم ذلك. فمهما كان الوقت متأخّراً، ومهما كان عيسى تعِباً، فهو لا يرفض أبداً مساعدة مَن يحتاجه.

تبعهما يهوذا ونظر إلى مريم نظرة شكر وامتنان. وقد سَرَّها ذلك منه، وفكَّرت في أنّ ما سيجري في تلك الليلة قد يُقرِّب قلب يهوذا حقيقةً من تعاليم الطريق، وأملَتْ ذلك مِن كل قلبها.

❀

كان وَضْع يائيرس وضعاً فريداً. فهو فِرّيسيّ ومن رؤساء الهيكل، لكنّه كان أيضاً المبعوث الخاصّ لدى الحاكم الروماني. لذلك كان يلتقي ببيلاطس البنطي أسبوعياً لمناقشة المسائل التي تهمّ روما، وبخاصّة ضمان حُسن علاقتها بالهيكل وبسكّان أورشليم.

وقد تطوّرت عُرى الصداقة بين يائيرس وبيلاطس حتى أصبحا يتناقشان مطوّلاً في الأمور السياسيّة. وكانت راحيل، زوجة يائيرس، ترافقه في زياراته إلى قلعة أنطونيا وتمضي الساعات عند كلوديا بروكيولا، زوجة بيلاطس. وقد توطّدت العلاقة بين راحيل وكلوديا بالرغم من الفوارق الأساسية بينهما: كانت كلوديا امرأة رومانية ذات مركز اجتماعي رفيع، فهي زوجة حاكم فلسطين الروماني وحفيدة قيصر رومانيّ وابنة بالتبني لقيصر آخر. أمّا راحيل فكانت امرأة يهوديّة تنتمي إلى إحدى العائلات النبيلة. لكنّ هاتين الامرأتين، على تبايُن خلفيّة كلّ منهما، التقتا على أرضيّة كونهما زوجتين لرجلين نافذين، وقبل كل شيء لكون كل منهما أُمّاً.

وكانت سميديا، ابنة راحيل، كثيراً ما تأتي مع أمّها إلى قلعة أنطونيا. كانت سميديا تحبّ اللعب في الغرف الفسيحة الفخمة، ولمّا رأت كلوديا تفتُّح صباها

سمحت لها بتفقّد مجموعتها الخاصة من العطور ومساحيق التجميل واستخدامها. كانت في الثانية عشرة، وكان حُسْنها يبشّر بأنها ستصبح امرأة باهرة الجمال.

كانت كلوديا تُكِنّ لسميديا حباً خاصاً لأنها رفيقة ابنها بيلو. وكان بيلو، ابن بيلاطس البنطي وكلوديا بروكيولا، في السابعة من عمره وكان لغزاً بالنسبة لمعظم أبناء أورشليم، حتى إنّ الذين يعلمون بأن لبيلاطس ابناً كانوا قلائل جداً. كان الصبيّ يُعاني من تشوُّه جسديّ، إذْ كانت رِجْله اليسرى ملتوية ممّا أعاق حركته وألزمَه البقاء داخل القلعة. لم يُعرِّف بيلاطس الناسَ بابنه لأنّه كان يعلم أنّه لن يصبح جندياً رومانياً ولن يصبح حاكماً كوالده، وذلك نذير شؤم ودليل على غضب الآلهة.

لكن كلوديا رأت في بيلاطس ما لم يره الآخرون، فهي تعلم كم كان يقوم في الليالي ويبكي وَضْعَ ابنه في الساعات الحالكة التي لا يراه ولا يسمعه فيها أحد. وقد أنفق بيلاطس نصف ثروته وثروة زوجته على تكاليف أطبّاء من اليونان ومتخصّصين في آلام القدَمين من الهند وحكماء من كل حدب وصوب، وانتهت جميع تلك المحاولات بزيادة ألم الفتى ونحيبه. وكانت كلوديا تظلّ قربه حتى ينام بعد ساعات البكاء المرير، أما بيلاطس فكان لا يطيق رؤيتها على هذا الحال فيبتعد إلى خارج القلعة كلّما حدث ذلك.

كانت سميديا تعامل الصبيّ بصبر لا حدود له، فتجلس معه ساعات وساعات تروي له القصص وتغنّي له. وكانت كلوديا تبتسم لرؤيتها بطرف عينيها وهي جالسة برفقة راحيل تُطرّزان. لكنْ ماذا سيقول بيلاطس إذا سمع ابنه يغنّي باللغة العِبريّة؟ إنه، على كل حال، نادراً ما يأتي إلى جناحها، لذلك لا داعي للقلق.

في إحدى هذه الزيارات، سمعت كلوديا بروكيولا باسم عيسى الناصري أوّل مرّة. كانت راحيل شديدة الإعجاب بذلك الرجل وأعماله العظيمة، وقد روَتْ لكلوديا بشغف كبير وقائع شفاء عيسى للمرضى ومعجزاته. لم يكن زوج راحيل، يائيرس، يسمح لها بالحديث عن الناصريّ فهو، نوعاً ما، خَصْم ليوناثان حنّان وقيافا. وكان هذان الأخيران يعتبران عيسى خارجاً على الشريعة وعاصياً لسلطة الهيكل. لذلك لم يكن من اللائق أن يَظهَر أن ليائيرس أيّ علاقة، مِن بعيد أو قريب، بهذا الرجل.

ومع كل ذلك أصبح يهوذا، وهو مِن أقرباء يائيرس، مِن أتباع عيسى المختارين. وذلك مُحرج ليائيرس، لكنه تمكّن من احتواء الأمر ببراعة. وسُرَّت راحيل لأنّه توفَّرَ لها بذلك مصدر مباشِر لمعرفة أخبار معجزات الناصريّ.

قالت راحيل لكلوديا مرّةً: "يجب أن تأخذي بيلو لرؤية عيسى هذا".

اكفهرَّتْ عينا كلوديا أسفاً، وقالت: "لا أستطيع! زوجي لن يسمح لنا أبداً بالظهور علناً بصحبة ذلك المبشّر الناصري. فذلك لا يليق بمركزه."

لم تنكر راحيل الأمر بعد ذلك احتراماً لحساسيّة الموضوع بالنسبة لصديقتها. لكنّ كلوديا لم تنفكّ تفكّر بذلك. ثمّ أصيبت سميديا بحُمّى شديدة مميتة، وبعد ذلك بأيّام قليلة أصاب الداء نفسه بيلو أيضاً.

كانت الحشود المنتحبة قد تجمّعت حول منزل يائيرس في المدينة. فقد جاء أبناء العائلات المخلصة للهيكل ومواطنو أورشليم الذين يحبّون يائيرس وراحيل للوقوف إلى جانبهما في محنتهما بعد أن سمعوا بموت ابنتهما المحبوبة سميديا.

شقّ يهوذا طريقه بين الجموع متجهاً بسرعة نحو بيت قريبه، وتبعه عن قُرْب عيسى ومريم، وقد أمسك عيسى يد مريم بشدّة حتى لا تبتعد عنه في الزحام. كما لحقهما بطرس وأندراوس لتأمين الحماية لهما. أيقن الواصلون الناصريّون أن الحمّى قد تغلّبَت على الطفلة، لكنّهم واصلوا تقدّمهم، حتى دخلوا بيت يائيرس.

أمّا في قلعة أنطونيا، في هذه الأثناء، فقد أُخبر بيلاطس البنطي وكلوديا بروكيولا بأن ابنهما الوحيد في حالة النزع الأخير. فقد استسلم الأطباء وأعلنوا أنْ ليس هناك ما يفعلونه للصبيّ الذي كان يعاني من الضعف أصلاً. غادر بيلاطس البنطيّ الغرفة صامتاً واقفل على نفسه مع فلاسفته الرّواقيّين بقيّة ليلته إذ أراد أن يواجه فاجعته على الطريقة الرومانية.

تُركت كلوديا وحدها مع ابنها الذاوي. انحنت قربه على سريره وبكت مريراً لأن ابنها الطيّب الشجاع كان يُحتضَر. وعلى هذه الحال وجدَ العبد اليونانيّ سيّدته لمّا دخل الغرفة.

قالت كلوديا: "إن ابني سيغادرنا! ماذا نفعل؟ كيف ستكون حياتي من دونه؟"

أسرع العبد إلى جانب سيّدته، وقال: "سيّدتي، أَحملُ لك خبراً مِن بيت راحيل

ويائيرس. إنّه خبر حزين جداً، ولكن قد يكون وراءه أمَل. لقد ماتت الطفلة المحبوبة سميديا."

صاحت كلوديا: "لا!" لم تستطع تحمُّل كل ذلك. فأين العدالة في موت فتاة جميلة مثل ابنة راحيل في الليلة نفسها التي قد يموت فيها أيضاً ابنها؟

"لكنْ مهلاً يا سيّدتي! لقد طلبَتْ مني راحيل أن أخبرك أنّ المخلّص الناصريّ، عيسى، سيذهب إلى منزلهم الليلةَ. وحتى لو كان الأوان قد فات بالنسبة لسيمديا فإن هناك أملاً بالنسبة لبيلو".

لم يكن أمام كلوديا متّسع من الوقت للتفكير في العواقب، فبيلو كان يلفظ أنفاسه الأخيرة. فقالت له: "هيّا! لُفَّهُ، ولنَأْخذْه حالاً إلى العرَبة، بسرعة. بسرعة، أرجوك".

كان ذلك العبدُ اليونانيّ أيضاً مُعلِّماً للصبيّ وكان يحبّه كثيراً، فعمدَ إلى لَفّه بتأنٍّ، وحمَله إلى العربة، وكلوديا تجري وراءه. ولم تتوقّف لتشاور بيلاطس بالأمر، حتّى إنّها لم يخطر ببالها أنه قد يلاحظ ذهابها. كما إنّها قادرة على اتخاذ قرار هامّ كهذا بنفسها، أليست هي حفيدة القيصر؟

صمد بيلو وظلّ يتنفَّس فيما كانت أمّه والعبد اليوناني يحملانه. لفّت كلوديا رأسها بخِمار داكن لئلّا يبدو عليها المظهر الملكيّ لدى وصولها إلى بيت عائلة يهوديّة في جِداد. تقدَّم العبد اليوناني بالعربة غاية ما يستطيع بين الحشود، ثم نزلَ ليساعد سيّدته والطفل على اختراق جموع الناس، وكانت تلك عمليّة شاقّة. فبالإضافة إلى الحَزانى لفَقْد الصبيّ كان قد انتشر الخبر بأن المخلّص الجليليّ صانع المعجزات سيأتي إلى المنزل، فغصّت الطُرق بالفضوليّين والمؤمنين. ومع ذلك كان الآتيان من قلعة أنطونيا عاقِدَي العزم على الوصول إلى البيت مع الصبيّ، فجاهدا ووصلا إلى الباب الخارجيّ.

أعلن العبد اليونانيّ على الباب: "نريد أن نرى راحيل زوجة يائيرس. نرجو أن تخبروها بأن صديقتها العزيزة كلوديا هنا".

فُتح الباب الخارجيّ، لكنّ الباب الداخليّ لم يُفتح لهما. كان يهوذا واقفاً هناك وأخبر الحارس بعدم السماح لأحَد بدخول الغرفة إلّا بعد ذهاب عيسى. لم يُرِد

يهوذا وجود أيّ شاهد، وذلك لحماية عيسى. فيائيرس فِرّيسيّ، وكان يحيط بالمنزل آخرون من الهيكل ينتظرون ليعرفوا ما سيحدث، وهم مُعادون لرسالة الناصريّ. وإذا لم يتمكّن عيسى مِن بَعْث الحياة في سميديا فسوف يقولون إنّه دجّال، أمّا إذا نجحت جهوده فيمكنهم أن يتّهموه بالسحر أو الخداع، وهذا لن يؤذي عيسى وحده بل يائيرس أيضاً، وأيّ رواية يرويها شاهد عيان فِرّيسيّ ذو نوايا سيّئة قد تؤدّي إلى حُكْم بالموت. فمن الأسلم إبعاد الشهود عن الغرفة باستثناء أفراد العائلة.

لم تسمع كلوديا بروكيولا سوى صوت يهوذا يقول بكل فظاظة: "لا زوّارَ الآن". لكن لمّا فُتح الباب لمحَت ما يجري في الغرفة. رأت، وراءَ دُخان البخور العابق في الغرفة، سميديا ممدَّدةً على فِراش الموت صفراء بلا حركة، وقد جلسَت راحيل قربها مُمسكةً يد ابنتها الجامدة وحانيةً رأسها استسلاماً لحزنها الألَيم. ووقفت قرب راحيل امرأةٌ ذات وشاح أحمر خاصّ بكاهنات الناصريين، وبدت كمصدر قوّة ومواساة في ذلك المحيط المأساوي. أمّا يائيرس الذي تعرفه كلوديا رجلاً قوياً وشامخاً فقد انهارَ وتَكَوَّمَ على نفسه عند قدَمَي عيسى الناصريّ، وكان يرجوه أن يُعيد إليه ابنتَه.

بعد انقضاء مدّة على أحداث تلك الليلة، وصفت كلوديا إحساسها لدى رؤية عيسى أوّل مرة بقولها: "لم يتملّكني مثلُ ذلك الإحساس من قبل. فمُجرَّد رؤيته ملأتني إحساساً بالسكينة، فكأنني كنتُ في قلب المحبّة والنور بالذات. وحتّى في تلك اللحظة الخاطفة أدركْتُ حقيقتَه وعلمتُ أنّه أكثر من إنسان وأنّنا جميعاً في نعمة أبديّة لوجودنا في حضرته حتى ولو لبضع ثوانٍ".

لم يُغلَق الباب على آخره كما توقّعت كلوديا، فيهوذا كان مشغولاً بمواساة يائيرس الحزين، والحارس خارجَ الباب كان متحيّراً مِمّا يجري في الداخل. وراقبت كلوديا، وهي في غاية الذهول، عيسى ينتقل إلى جانب السرير وينظر إلى المرأة الملتفّة بالرداء الأحمر، التي علمت كلوديا فيما بعد أنّها زوجته مريم المجدلية، ثمّ يضع يديه على كتفَيْ راحيل. همس في أذنها كلمات لم يسمعها أحد سواها، لكن راحيل عندَها رفعت رأسها. ثمّ انحنى عيسى فوق رأس الطفلة وقبَّلَ جبينها، وأخذ يدها بين كلتا يديه وأغمض عينيه ليصلّي. بعد دقيقة صامتة طويلة، قطع خلالَها جميع مَن في الغرفة أنفاسَهم، استدار عيسى نحو الطفلة وقال: "يا صبيّة قومي!"

لم تتذكّر كلوديا كلّ ما حدث بعد ذلك. كان أشبه بحلم غريب لا يتنكّره

الإنسان بالطريقة نفسها أكثر من مرّة. تحرّكت الطفلة سميديا ببطء أوّلاً، ثمّ نهضَت وبكَت طالبةً أمّها. صرخ يائيرس وراحيل وأسرعا إلى ابنتهما وعانقاها. وخَرَّت كلوديا على ركبتيها في اللحظة التي اندفعت فيها الحشود إلى الأمام. وأحدثت الجموع المحيطة بالبيت جلبة صاخبة، فأتباع الناصريّ وأصدقاء العائلة تهلّلوا واحتفلوا بمعجزة إقامة سميديا، فيما راح الفرّيسيّون ومعارضو الناصريّ يُطلقون صيحات السخرية والاستهجان ويتّهمونه بأنّه مُجدِّف وساحر مشعوذ.

أصيبت كلوديا بالذعر، فقد دفعتها الجموع الزاحفة هي والعبد اليونانيّ بعيداً عن المدخل. وكان بيلو مريضاً للغاية ويمكن أن يموت هناك على عتبات بيت يائيرس. لقد كان إحضار بيلو مجازفة خطيرة بل مؤذية، ولعلّه كان مِن الأفضل إبقاؤه في فراشه ليلفظ أنفاسه الأخيرة بسلام. وبدا لها أنّ مجيئهم ضاع سُدًى، فها هو الناصريّ يُغادِر محاطاً بأتباعه ولم تستطع كلوديا أن تصل إليه.

وفيما كانت كلوديا تودّع خيوط أملها الأخيرة رأت مريمَ المجدليّة تقف بين الجَمْع. وحدث حينئذٍ شيء ما بين الامرأتين كأنّه تواصُلٌ روحيّ بين والدتين في لحظة حاسمة. وتشابكت عيناهما لحظة طويلة، ثمّ تحوّلت نظرة مريم نحو الصبيّ بين ذراعي العبد اليونانيّ. وضعت مريم يدها بصمْتٍ على كتف عيسى، فتوقّف واستدارَ مستطلعاً ما تريده منه مريم. فالتقت عيناه بعيني كلوديا وابتسم لها، فاستبشرت أملاً وامتلأت نوراً. لم تستطع كلوديا أن تحدّد كم دامت تلك اللحظة لأنّها لم تخرج منها إلّا لدى سماعها صوت ابنها يناديها.

صاح بيلو: "ماما، ماما!"، وتلوّى بين ذراعي العبد اليوناني وقال له: "أنزِلْني!"

رأت كلوديا لون الحياة يعود إلى وجه ابنها، وبدا سليماً مُعافًى. وهكذا شُفي تماماً ابن بيلاطس وكلوديا في أقلّ من لحظة بعد أن كان على شَفا الموت. وبالإضافة إلى ذلك، لمّا لمَسَت قدماه الأرض، لاحظت كلوديا أنّ رِجله لم تعُد ملتوية. ومشى الصبيّ نحو أمّه مشية سليمة ثابتة، وهتف: "انظري يا أمّي. إنّني أمشي!"

ضمّت كلوديا ابنها الجميل وهي تلمح شكل صانع المعجزات الناصري وزوجته النحيلة ينسحبان ويتلاشيان وراء جموع أورشليم الصاخبة.

همسَت لهما: "شكراً". ومع أنّهما أصبحا بعيدينِ جداً ولم ترَهما، علمَت أنهما قد سمعاها.

كان شفاء بيلو سيفاً ذا حَدّينِ بالنسبة لبيلاطس البنطي، فقد ابتهج لشفاء ابنه التامّ، إذ أصبح سليماً مُعافًى في حالة لم يكن هو أو كلوديا يتصوّران أنّها ممكنة الحصول. لقد صار وريثاً لائقاً لعظَمة الرومان، أي ولداً يمكن أن يصبح رجلاً وجندياً. لكن في المقابِل، كانت طريقة شفائه مثيرة للقلَق. والأسوأ هو أن كلوديا وبيلو تعلّقا بذلك الناصريّ الذي يشبه شوكة في خاصرة السلطات الرومانيّة وخاصرة كهنة الهيكل.

كان بيلاطس، في وقت سابق من ذلك اليوم، قد التقى بقيافا وحنّان بناءً على طلبهما لبحث مسألة احتشاد الجماهير عند بوّابات المدينة الشرقية. فقد وصل الناصريّ راكباً حماراً على الطريقة التي تنبّأ بها أحد أنبياء اليهود ممّا أثار غضب الكهنة لِما في ذلك مِن أبعاد تشير إلى أنّه المخلّص. صحيح أنّ الخلافات الدينيّة بين اليهود لم تكن هماً مباشراً لبيلاطس، لكنْ شاع بين الناس أن ذلك الناصري يدعو نفسه ملك اليهود، أي أنّه خائن للقيصر. وقد تزايدت الضغوط على بيلاطس ليتّخذ إجراء ما بحَقّ عيسى إذا ما قام بأي خطوة مثيرة في أورشليم مع اقتراب عيد الفصح.

وممّا زاد الطين بلّة أنّ أمير الجليل هيرودوس قد هاجم عيسى بصورة شخصيّة في رسالة له إلى بيلاطس، قال فيها: "بلغَني أنّ هذا الرجل سيجعل نفسه ملكاً على جميع اليهود. لقد أصبح يشكّل خطراً عليَّ وعليكَ وعلى روما."

كانت تلك مُعضلة بيلاطس العمَليّة. أما المواقف الفلسفيّة فمسألة مختلفة تماماً.

ما هي القوّة التي يملكها هذا الناصري أو يتلقّاها لتُمكّنَه من فِعْل أشياء مثل إقامة ولد من الموت؟ ولو لم يحدث ذلك مع بيلو، ابن بيلاطس، لكان هذا الأخير قد ظنّ أنّ معجزات عيسى هي خدع وأكاذيب، ولكان قد وافق على اتّهام الفِريسيّين عيسى بأنّه مُجدّف. لكنّ بيلاطس يعلم علم اليقين أنّ مرَض بيلو وعاهته كانا حقيقيّين وهما الآن قد زالا.

إذاً، هناك شيء لا بُدّ من تفسيره، والمنطق الرومانيّ يستلزم جواباً أو فهماً لما حدَث. وقد أُحبِط بيلاطس لأنه لم يجد أيّ تفسير.

لكن زوجته لم تكن بحاجة إلى إقناع ومنطق. فقد شهدت بنفسها معجزتين عظيمتين، ونَعِمت بحضور الله والناصريّ ومجدهما. لذلك آمنت كلوديا بروكيولا على الفور. وقد استاءَت وخاب أملها لمّا رفض زوجها الموافقة على حضورها تبشير عيسى وتعليمه في أورشليم. كانت تتمنّى أخذَ ابنها بيلو لتمنحه فرصةً لمقابلة ذلك الناصري المذهل الذي لم يكن مجرّد إنسان، لكن بيلاطس رفض ذلك بشدّة.

كان الحاكم الروماني رجلاً كثير الهموم ويتملّكه الشكّ والخوف والطموح. وقد تجلّت مأساة بيلاطس البنطي عندما فاقت كل هذه الأشياء ما كان في قلبه من محبّة وقوّة وعرفان بالجميل.

كان الوقت متأخراً جداً عندما وصل الناصريون إلى بيت يوسف. كان عيسى يقظانَ كالعادة ويهيِّئ لاجتماع آخر مع أقرب أتباعه قبل أن يأوي إلى الفراش. كانوا سيبحثون ما سيفعلونه في اليوم التالي في أورشليم. بقيت مريم لسماع النقاش لتعرف ما سيحمله الغد. لقد أظهرت المعجزة في بيت يائيرس أن أبناء أورشليم منقسمون حول عيسى المخلّص المنتظر. كان المؤيّدون أكثر من المعارضين، لكنّ الجميع يعلمون أن المعارضين أصحابُ نفوذ مرتبطون بالهيكل.

خاطب يهوذا المجتمعين، وكان شاحباً مُرهقاً لكنّ ابتهاجه لما شاهده عند سرير سميديا أمدّه بالعزم وقوّة الاحتمال.

قال يهوذا: "لقد أخذني يائيرس جانباً أثناء مغادرتنا وأخبرني أنه صار يميل إلى تأييدنا وخاصّةً بعد اقتناعه بأنّ عيسى هو المخلّص حقاً. لكنّه نبّهني إلى أنّ الفِرّيسيّينَ والصدّوقيّينَ قد اغتاظوا من دخول مؤيّدي الناصريين المدينة. نحن الآن أقوى وأكثر عدداً ممّا كانوا يتصوّرون. إنّهم يخشوننا ويُحتمل أن يتصدّوا لنا بطريقة ما إذا شعروا أنّنا نشكّل تهديداً لهم أو لأَمْن الهيكل خلال عيد الفصح".

بصق بطرس على الأرض اشمئزازاً، وقال: "والسبب نعرفه كلّنا. موسم العيد هو أكثر أيّام السنة كَسْباً في الهيكل، حين تُقدَّم الذبائح بكثرة وتتدفّق الأموال".

وأضاف شقيقه أندراوس: "إنّه موسم الحصاد للتجّار والمُرابين."

وافق يهوذا على ذلك وأضاف: "وعلى رأس المستفيدين يوناثان حنّان وصهره. وتعرفون جميعاً أنّ هذين الرجلين هما مَن يحرّك الحملة الشعواء القائمة ضدّنا. علينا التصرّف بحذر وإلّا فإنّهما سيدفعان بيلاطس إلى إصدار منكّرة توقيف بحَقّ عيسى."

رفع عيسى يده فيما عَلا صوت الرجال يتحدّثون عن الأمر مُنفعلين. قال لهم: "الهدوء يا إخواني. سوف نذهب إلى الهيكل غداً ونؤكّد لأخوينا حنّان وقيافا أننا لسنا في وارِد التحدّي. يمكننا أن نتعايش بسلام معاً، وليس على طرَف أن يلغي الآخر. سنذهب كمُحتفلين في هذا الأسبوع المقدّس مع إخواننا الناصريّين. لا يمكنهم منْعَنا من الدخول. وقد نتوصّل إلى هدنة معهم".

عبّر يهوذا عن شكّه قائلاً: "لا أعتقد أنّه يمكن التوصُّل إلى تسوية مع حنّان، فهو يكرهنا ويكره كل تعاليمنا. وأشدّ ما يعارضه حنّان وقيافا هو أن يؤمن الناس أنّهم ليسوا بحاجة إلى الهيكل للوصول إلى الله."

نهضَت مريم من مكانها على الأرض وابتسمت لعيسى في الناحية المقابلة من الغرفة. التقَت عينا عيسى بعينيها وبادلَها الابتسامة، ثمّ استدارت صامتة وانسحبَت من الباب الخلفيّ. لقد كانت مُنهكةً جداً، ولم تستطع المشاركة في النقاش. كما إنها تعلم أنّه في حال تصميم عيسى على الذهاب إلى الهيكل في اليوم التالي فإنّهم جميعاً بحاجة للراحة تلك الليلة.

كانت مريم تشارك ولديها في غرفة واحدة، كعادتها خلال أسفارهم، لأن ذلك بنظَرها يوفّر لهما الشعور بالاطمئنان، وذلك ما يحتاجانه في حياتهما بعد أن كثُر التنقّل والترحال. كانا نائمين كَملاكين: يوحنا ـ يوسف وقد ارتاحت أطراف أهدابه السوداء الطويلة على خدّيه الأسمرين، وسارة ـ تامار وقد تكوّمَت على نفسها مطمئنّة يحيط بها شعرها الأحمر اللامع.

قاومَت أمّهما رغبتها في تقبيلهما، فتامار لم تكن من أصحاب النوم العميق، فخشيت أن توقظهما لأنّهما بحاجة للراحة إذا كانا سيرافقانها إلى أورشليم في اليوم التالي، وهما يحبّان الذهاب إلى تلك المدينة المثيرة النابضة بالحياة. وهي لا تمانع في ذهابهما إذا لم يكن هناك خطر عليهما. لكن إذا قام شغب حول عيسى فسيكون عليها إبعاد الولدين عن المدينة. وإذا حدث الأسوأ فإن منزل يوسف خارج المدينة سيصبح أيضاً غير آمن ولن يكون أمامها سوى أخذهما إلى بيت عنيا للإقامة بطمأنينة في بيت مرتا ولعازر.

وأخيراً أوت مريم إلى فراشها وأغمضت عينيها وهي تستعيد صُور ذلك اليوم الحافل. ولم يأتها النوم بسهولة مع انّها كانت تتمنّاه وتحتاجه. فقد ازدحمت الأفكار والصور في بالها. تذكرّت المرأة ذات الوشاح الداكن التي كانت تحمل الولد خارج بيت يائيرس. وقد أدركَت مريم أمرين عن تلك الامرأة فورَ رؤية وجهها. أولاً، لم تكن يهوديّة ولم تكن من عامّة الناس. كان في طريقة تصرّفها وفي نوعيّة الوشاح ما كشف كل محاولاتها للتظاهر بأنها من العامّة. وكانت مريم تدرك ما قد تفعله المرأة عندما تحاول إخفاء شخصيتها، فهي قد قامت بذلك مراراً عندما اقتضت الظروف.

الأمر الثاني الذي لاحظته مريم هو يأس المرأة المطلق. بدت امرأة بلا حيلة وفي حالة من الأسى التامّ، وكأن قنوطها هو الذي استصرخَ عيسى. عندما نظرت مريم إلى وجهها رأت كل ما تحسّ به أي امرأة بائسة عاجزة أمام فَقْد ولدها. إنّه الألم الإنساني الذي لا يفرّق بين العرق والعقائد والطبقات، والحزن الذي لا يفهمه إلّا الأهل المعذّبون. لقد رأت مريم مثل هذا الوجه مِراراً خلال السنوات الثلاث الأخيرة من رسالة عيسى، وشهدت تحوّل ذلك الوجه من الأسى إلى الفرح.

لقد أنقذ عيسى العديدين من الشعب اليهودي، وها هو اليوم يُنقذ أيضاً مِن أبناء روما.

في اليوم التالي، ذهب عيسى وأتباعه إلى الهيكل كما قرروا. أخذت مريم ولديها معها إلى أورشليم، ووقفت معهما لمراقبة ما يجري خارج جدران الهيكل المقدّس. وقف عيسى وسط حشد كبير متزايد من الناس يبشّر بملكوت الله. قام من بين الناس عددٌ من الرجال وتحدّوا عيسى وسألوه كثيراً من الأسئلة أجاب عنها جميعاً بهدوئه المعهود. كانت إجابات عيسى تامّة وشملت تعاليم الكتاب المقدّس. وسرعان ما تبيّن للجميع أنّه متمكّن ومتعمّق في الشريعة.

وقد علموا مِن يائيرس فيما بعد أنّ حنّان وقيافا قد زرعا رجالهما بين الناس لطرح الأسئلة على عيسى وإحراجه. وكانوا ينتظرون هفوةً منه، فإذا أمكنهم تأويل أي كلمة منه بأنها تنطوي على كُفْر، وخصوصاً أمام الهيكل، فإن رؤساء الكهنة سيحصلون بذلك على إثباتات يستعملونها ضدّه.

تقدَّم أحد الرجال ليطرح سؤالاً عن الزواج. رآه يهوذا وعرفه. وهمس في أذن عيسى بأنّه فِرّيسيّ تخلّى عن زوجته العجوز ليتزوّج بامرأة صبيّة.

قال الرجل: "أخبِرْني يا معلّم، هل يحقّ لأيّ رجل التخلّي عن زوجته لأي سبب؟ سمعتُ أنّك تقول إن ذلك غير جائز مع أن شريعة موسى تقول العكس، فهو أمرَ ان تُعطى كتابَ طلاق وتُسرَّح".

رفع عيسى صوته ليكون واضحاً للجمع الغفير، وكانت إجابته صارمة لأنه يعلم ما فعله ذلك الرجل بالذات. قال: "مِن أجل قساوة قلوبكم رَخَّصَ لكم موسى هذا".

كان معظم الحشد رجالاً من أورشليم يعرفون ذلك الفِرّيسيّ، فَسَرَت همهمات بينهم لأنّهم شعروا جميعاً بالإهانة. لكنّ عيسى لم يكتفِ بجوابه. كان قد ضاق ذرعاً بأولئك الفِرّيسيّين الذين عاشوا، كملوك فاسدين، على التقدِمات التي يدفعها البسطاء العاديّون الذين كان الفِرّيسيّون يستغلّونهم ويدّعون حماية الشريعة. كانوا يحثّون الناس على الاستقامة والطهارة لكنّهم أنفسهم كانوا أبعد ما يكون عن ذلك. وقد لمس عيسى عن كثَب، خلال السنوات الأخيرة مِن رسالته، أنّ هؤلاء الرجال كانوا يُروِّعون أبناء أورشليم ويُرهبونهم، لذلك كان الناس يخشون سطوة الفِرّيسيّين بقدر ما يخشون سطوة روما. والواقع أن رجال الهيكل كانوا يشكّلون خطراً على عامّة الناس كمثل الخطر الذي يشكّله الرومان لأن لديهم السلطة للتأثير على وجودهم ومُجريات حياتهم اليوميّة.

طرح عيسى سؤالاً محرجاً على الرجل الذي علم أنّه كاهن، فقال: "ألَم تقرأ الشريعة؟"، ثم استدار وخاطب الجمع باكمله: "إن الخالق منذ البدء جعلهما ذكراً وأنثى وقال: لذلك يترك الرجل أباه وأمّه ويلزَم امرأته. ويصير الاثنان جسداً واحداً. فلا يكونان اثنين بعد ذلك، بل جسداً واحداً، فما جمعه الله فلا يُفرِّقَنَّه إنسان. أمّا أنا فأقول لكم: مَن طلّق امرأته، إلّا لفحشاء، فقد زَنى".

قال رجل من الجمهور هازئاً: "إذا كانت حالة الرجل مع المرأة هكذا، فلا خير في الزواج!"

لم يضحك عيسى، فَسِرُّ الزواج المقدّس وأهميّة الحياة العائليّة كانا حجر الزاوية في تعاليم الناصري. فأعلن معارضته رأي ذلك الرجل، بقوله: "هناك خِصْيانٌ وُلدوا مِن بطون أمّهاتهم على هذه الحال. وهناك مَن جُعِلوا خِصياناً. لهؤلاء

وحدهم لا يحلّ الزواج. فليُقْبِلْ على الزواج كلّ الرجال القادرين على تقَبُّل سِرّ الزواج المقدّس، لأن تلك هي مشيئة الربّ إلهنا. وليلزَمْ كل رجل زوجته حتّى يُفرِّق الموت بينهما."

أحسَّ الفِرّيسيّ بإصبع الاتّهام موجَّهاً إليه مباشرةً فغضب وهاجم عيسى بدوره، فسأله: "وأنت أيّها الناصريّ، ماذا فعلتَ؟ تقول شريعة موسى إنّ مَن يكرِّس مخلصاً يجب أن يتزوَّج عذراء، ولا يجوز أن تكون بَغِياً ولا حتّى أرملة". لقد كان ذلك تهجُّماً علنياً على مريم المجدلية التي وقفت مع ولديها بعيداً عن الحشد. وقد تعمّدت ارتداء ثياب عاديّة للاختلاط بالناس ولم ترتد الوشاح الأحمر الذي يدلّ على مركزها. وسُرَّت في تلك اللحظة أنّها فعلت ذلك، وانتظرَت سماع رَدّ عيسى.

أجاب عيسى بطرح سؤال آخر على الفِرّيسيّ: "هل أنا ابن داود؟"

قال الرجل: "لسنا بصدد هذه المسالة الآن!"

"وهل كان داود ملكاً عظيماً وقائداً مكرَّساً لشعبنا؟"

أجاب الفِرّيسيّ بالإيجاب، وقد أدرك أنّه قد جُرَّ إلى فَخّ لا يعرف كيف سيُخرج نفسه منه.

"ألا يُفترض بي أن أكون مثل داود إذا كنتُ سارثه؟ مَن مِنكم هنا لا يرى أنّه مِن المُشرِّف السير على خُطى داود؟" تردَّد سؤال عيسى بين الناس الذين هزّوا رؤوسهم جميعاً وأظهروا تأييدهم للسير على خُطى أسد يهوذا العظيم.

"وذلك تماماً هو ما فعلتُه: فكما تزوّج داود الأرملة أبيجايل، وكانت امرأة عظيمة شريفة النسَب، تزوَّجْتُ أنا أرملةً مِن نسَب نبيل."

أيقن الفِرّيسيّ أنّه وقعَ في الشرَك الذي نصبَه، فانكفأ وغاص بين الجمهور. لكنّ رجال الهيكل لم يستسلموا، فأمطروا عيسى بوابل من الأسئلة كالسهام الحادّة ردّها جميعاً إلى نُحور الفِرّيسيّين. ثم هبَّ رجل آخر، يرتدي ثياب كاهن، وتهجَّم على عيسى مباشرةً، فسأله: "سمعتُ أنّك وتلاميذك لا تَجرون على سُنَّة الشيوخ. لماذا لا يغسلون أيديهم عندما يأكلون الخبز؟"

كانت هناك ضجّة بين الناس أثناء الجدال، وبرزت اعتراضات لدى الكثيرين، فقرَّر عيسى اتّخاذ موقف حازم. فرجال أورشليم يختلفون عن أبناء الجليل وسائر المناطق. فرجال المدينة بحاجة إلى أفعال، وقد يتبعون الملِك إذا قادَهُم للتخلّص من العبوديّة، لكن عليه أوّلاً أن يبرهن على قوّته وجدارته.

رنّ صوت عيسى الرخيم لا للدفاع عن الناصريين بقدر ما كان لإدانة الكهنة: "أيّها المُراؤون! لِمَ تنقضون وصيّة الله لتقيموا سُنَّتكم؟" وتردّد اتّهامه العنيف على جدران الهيكل، وأردف قائلاً: "لقد دعاكم نسيبي يوحنا أولاد الأفاعي، وكان محقاً في ذلك". وهذه الإشارة إلى المعمدان خطوة بارعة لاستمالة المحافِظين في الجمهور، لذلك تابع عيسى: "عُرف يوحنا بأنه تجسيد لأشعيا، وأشعيا هو القائل: هذا الشعب يُكرّمني بشفتيه وأمّا قلبه فبعيد منّي. والآن أيّها الفِرّيسيّون أراكم تطهّرون ظاهر أجسادكم، وباطنُكم مملوء جشعاً وإثماً. أليس الربّ الذي صنع الظاهر قد صنع الباطن أيضاً؟"

ثمّ رفع عيسى صوته ليقول كلمته الأخيرة: "وهذا هو الفرق بين أتباعي الناصريّين والكهنة. نحن نهتمّ بطهارة أرواحنا لنحفظ ملكوت الله كما في السماء كذلك على الأرض."

صاح رجل من الجموع: "هذا تجديف على الهيكل!" وارتفع صخب الناس وهديرهم، وكانوا منقسمين بين مؤيّد ومعارض.

ازدادت الجلبة بين الناس. كانت مريم تراقب من مكان مرتفع، وظنّت أوّلاً أنها رَدّة فِعْل على كلمات عيسى الجريئة. صَحيح أنّ ذلك قد أثار ذُعْر أبناء أورشليم، لكن كان هناك أيضاً العديد من تلاميذ الناصري يتدافعون بين الحشود محاولين الوصول إلى عيسى ووراءَهم جمهرة من النساء والرجال الذين سمعوا بمعجزات عيسى وشفائه المرضى. كان هؤلاء الرجال والنساء مِن العُمْي والعُرْج والمرضى البائسين، وكان المجتمَع ينظر إليهم دونِياً.

استاءَ التجّار والمُرابون واعترضوا على دخول هؤلاء الملاعين الهيكل. لقد كان ذلك الأسبوع فترة عمَل مُربحة لهم، فجاء ذلك الحشد وتعدّى على تجارة الهيكل. تعثّر رجلٌ أعمى ووقع على طاولة أحد الباعة فتبعثرت بضائعه واشتعل رأسه غضباً. وتناول البائع عصاً ولحقه وهو يشتم الفقراء البائسين والناصريين. جاء عيسى لنجدة الرجل الأعمى وأوقفه على رجليه برفق وهمس كلمات في أذنه. ثمّ أشار إلى تلاميذه لنقل هؤلاء المساكين جانباً، وعمد إلى الطاولات الأخرى التي يعرض عليها التاجر نفسه بضائعه فقلبَها، وصاح بأعلى صوته ليكون مسموعاً في ذلك الصخب: "مكتوب أنّ هيكل الله هو بيت صلاة، لكنّكم جعلتموه مغارة لصوص!"

وصاح التجّار الآخرون بعيسى وهو يتنقّل في الهيكل. وكانت الفوضى تصل

إلى حَدّ الشغب، فرفع عيسى يده وأشار لتلاميذه ليتبعوه إلى خارج الهيكل. وأحضروا له جميع البائسين أصحاب العاهات والأمراض. وشفاهم عيسى واحداً واحداً مبتدئاً بالرجل الأعمى.

ازداد عدد الناس خارج الهيكل. فبالرغم مِن كلمات عيسى، أو بالأحرى بسببها، ازداد اهتمام رجال أورشليم ونسائها بالناصري الذي شفى في ثوانٍ أمراضاً مستعصية من عشرات السنين. لم يعد باستطاعة مريم رؤيته مِن موقعها كما إن الولدين، يوحنا وتامار، كانا يتململان، فالأولاد لا يُطيقون الاستكانة في مكان واحد وخصوصاً إذا كان الهرج والمرج يحيط بهم. فانتقلت مريم مع الولدين مِن مكانها متّجهةً نحو السوق.

وفيما هم يسيرون رأت مريم أمامها رجُلينِ من الفِرّيسيّين عرفتهما من عباءَتيهما السوداوين. وسمعت بوضوح اسم عيسى يتردّد في كلامهما. فلَفّت وشاحها العاديّ لتغطّي كامل وجهها وَحثّت ولديها على إسراع الخُطى. كان الفِرّيسيّان يتحدّثان بصوت عالٍ لكن باليونانيّة لأنّهما يعلمان أنّ عامّة الناس حولهما لن يفهما تلك اللغة التي لم يكن يُتقنها سوى النخبة. لكنّ مريم، النبيلة المثقفة، كانت تتقن تلك اللغة غاية الإتقان.

فهمَتْ تماماً ما قاله أحد الرجلين متوجّهاً إلى زميله: "طالما أنّ هذا الناصريّ حَيّ لن يرتاح لنا بال. فعلينا أن نتخلّص منه بسرعة".

وجدت مريم برتلماوس في ساحة السوق، وكان قد أُرسل ليبتاع المؤن للتلاميذ الآخرين. طلبَت منه مريم أن يعود إلى عيسى ويخبره هو والأتباع بألّا يبقوا عند يوسف تلك الليلة. فعليهم مغادرة أورشليم من أجل سلامة عيسى. ورأت مريم أنّ البيت الذي كانت تسكنه مع لعازر ومرتا في بيت عنيا هو أفضل مكان لإقامتهم. فهو آمن لبُعْده عن القدس، ومع ذلك فالمسافة ليست كبيرة، مِمّا يجعل العودة إلى المدينة أو الخروج منها عملية سريعة.

التقى عيسى بمريم والولدين في بيت عنيا تلكَ الليلة. وبقيَ بعض التلاميذ معهم في بيت لعازر فيما ذهب الآخرون إلى بيت مجاور هو بيت صديقهم الموثوق سمعان. وهو البيت نفسه الذي عصت فيه مريم أوامر لعازر ويوحنا، منذ سنوات،

وتبعَ ذلك تلك العواقب المأساوية. اجتمع التلاميذ تلك الليلة لمراجعة أحداث اليوم والتخطيط لما سيأتي.

كانت مريم في غاية القلق. أحسّت أن الرأي العام في أورشليم منقسم: فنصف الناس يؤيدون الناصري اللامع، صانع المعجزات ونصير الفقراء، والنصف الآخر يعارضونه ويعتبرونه مدّعياً يتحدّى الهيكل وينقض التقاليد بشكل جذري. وأعادت على مسامعهم ما قاله الفرّيسيّان أمامها في الطريق إلى السوق. وأثناء ذلك وصل يهوذا من بيت يائيرس حاملاً المزيد من الأخبار.

قال يهوذا لعيسى: "إنّها على صواب. لقد أصبح وجودك في أورشليم خطِراً جداً عليك. ويقول يائيرس إن قيافا وحنّان يدعوان لإعدامك بتهمة التجديف."

استاء بطرس، وبصق على الأرض، وقال: "هُراء! لم ينطق عيسى بالتجديف ولا مرّة. وحتّى لو أراد ذلك لما استطاع. هم الأفاعي المجدّفون!"

لم يبدُ على عيسى أي قلق، بل قال بهدوء استناداً إلى معرفته العميقة بالقوانين: "لا يهمّ، يا بطرس. ليس للكهنة سلطة الحُكم على إنسان بالموت. ذلك مِن حَقّ روما وحدها، والرومان لا يعترفون بشريعة التجديف كما يراها اليهود."

وأمضوا معظم الليلة للاتفاق على أفضل ما يُمكن فعله في اليوم التالي. أرادت مريم أن يبتعد عيسى عن أورشليم يوماً واحداً لإتاحة المجال لعودة الهدوء إلى المدينة. لكنّ عيسى رفض ذلك، عِلْماً بأن حشوداً أكبر كانت متوقّعة في اليوم التالي بعد انتشار الأخبار حول تعاليم عيسى الجريئة ومعجزاته. فهو لا يريد أن يخيّب أمل من سيأتي إلى أورشليم لرؤيته، ولن يستسلم لضغوط الكهنة.، بل سَيُثبت أنه قائد شعبه.

في اليوم التالي، قرَّرت مريم البقاء في بيت عنيا مع ولديها ومرتا. فبالإضافة إلى ثقل حملها، كانت قد تعبت في اليوم السابق وخصوصاً أثناء عودتها بسرعة إلى بيت عنيا. أبقَت الولدين مُنشغلين في أنحاء البيت فيما كانت تحاول إلهاء نفسها عن التفكير في المخاطر التي يُحتمَل أن يواجهها عيسى داخل أسوار المدينة.

جلست مريم في الحديقة الأماميّة تراقب تامار تلعب بين الأعشاب، ورأت امرأة تقترب من المنزل، وكانت ملتفّةً بخمار أسود. ولأنّها كانت تغطّي وجهها وشعرها لم تتمكن مريم من معرفة هويتها. فلعلّها تكون صديقةً لمرتا أو جارة جديدة لا تعرفها مريم!

اقتربت المرأة، وسمعت مريم ضحكتها المكبوتة: "ما بالك يا أختي؟ ألا تعرفينني بعد هذه المدّة؟"

ثمّ أنزلت خمارها وبدا وجهها. إنّها سالومة، الأميرة الهيروديّة. لقد فارقت وجهَها استدارته الطفوليّة، وأصبحت امرأة بالغة. ركضت مريم وعانقتها طويلاً. فبعد موت يوحنا كان من الخطورة بمكان أن تظهر سالومة بصحبة الناصريّين، وكان حضورها خطراً على عيسى. ولو كان مناصرو المجدليّة يأملون في كسب ودّ أتباع يوحنا فلا يجب أن يظهروا علناً برفقة المرأة التي تُشتَم لاتّهامها بالتسبُّب في القبض عليه لا بل في موته.

وكان ذلك الفِراق المفروض صعباً على كلتا المرأتين. فقد انفطر قلب سالومة لعدم السماح لها بمتابعة تعلّمها لتصبح كاهنة ولابتعادها عن الجماعة التي كانت تحبّها أكثر من عائلتها. أمّا بالنسبة لمريم، فكانت تلك إحدى العواقب المريرة الظالمة التي حُكم بها عليها بعد إعدام يوحنا.

صاحت سالومة لمّا رأت تامار الصغيرة بين الأعشاب: "إنّها تشبهك كثيراً؟؟!"

هزّت مريم رأسها مبتسمةً وقالت: "في الشكل فقط. أمّا شخصيّتها فهي على صورة أبيها". وراحت مريم تقصّ عليها بعض أخبار تامار منذ صغرها وكيف أظهرت أنّها إنسان مميّز منذ أن بدأت تمشي. كانت قد شَفَتْ، في مجدل، حَمَلاً وقعَ في حفرة بلمسة مِن يدها. لقد أصبحت في الثالثة من عمرها لكنّ قدرتها على الكلام مذهلة، وتستطيع أن تعبّر عن نفسها بسهولة باليونانيّة والآرامية.

قالت سالومة: "إنها محظوظة لأنّها ابنة والدين عظيمين"، ثم بَدا القلق على وجهها وهي تضيف: "وعلينا أن نحافظ على سلامة والديها. وأنا هنا لهذا السبب. مريم، عندي معلومات من القصر: عيسى في خطر شديد."

"فَلْنذهبْ إلى الداخل حيث لا آذان أخرى"، وأشارت إلى تامار وأضافت: "وحيث تكون الآذان الصغيرة كهذه مُنشغلة عنّا بأشياء أخرى".

مالت مريم لتحمل تامار لكن بطنها الكبير جعل انحناءَها صعباً. مدّت سالومة يدها وقالت: "تعالي إلى أختك سالومة." تردّدت تامار ونقّلت نظرها بين المرأة التي لا تعرفها وأمّها. ثم شعّت على وجهها ابتسامة وقفزت بين ذراعي الأميرة الهيروديّة.

لمّا دخلْنَ البيت، طلبَت مريم من مرتا أن تأخذ تامار.

أخذت مرتا البنت الصغيرة من سالومة قائلةً: "تعالي أيّتها الأميرة الصغيرة. فلنذهب ونبحث عن أخيك".

كان يوحنا في الخارج يتمشى مع لعازر. وأشارت مرتا إلى أنّها ستأخذ الصغيرة إلى الخارج لتُفسح المجال أمام سالومة ومريم لتتحدّثا بحرّيّة. وما إن خرجتا حتى دنت سالومة من مريم وأمسكت يدها.

"اسمعي يا مريم، الأمر في غاية الخطورة. كان زوج أمي في أورشليم اليوم عند بيلاطس البنطي ورافقتُه إلى هناك. سوف يُغادر إلى روما بعد يومين لمقابلة الإمبراطور، وكان بحاجة إلى تقرير كامل من الحاكم الروماني. وكان مبرّري أنّي أردتُ رؤية كلوديا بروكيولا زوجة بيلاطس، فوافق على أن أرافقه. فكلوديا حفيدة أغسطس قيصر، وكنت متأكّدة أن زوج أمي لن يرفض ذلك الطلب. لكن ليس هذا سبب مجيئي طبعاً. علمتُ أنك وعيسى والآخرين جئتم إلى هنا. أين مريم العظيمة؟"

أجابتها مريم: "إنها هنا. هي مقيمة عند عائلة يوسف الليلة مع بعض النساء الأخريات. سوف آخذك لرؤيتها غداً إذا شئت."

أومأت سالومة وتابَعت كلامَها:" توسَّلتُ حجّة رؤية كلوديا لأعرف ماذا يدور في أورشليم حول الناصريين. لم أكن أعلم شيئاً عمّا أخبَرتني به كلوديا! أليسَ ذلك رائعاً يا مريم؟"

لم تدرِ مريم ما قصدَتْه سالومه بالضبط، فسألتها: "ماذا؟"

اتّسعت عينا سالومة السوداوان الرائعتان وهي تقول: "ألم تعلمي نتيجة ذلك الأمر العظيم؟ في تلك الليلة حين أقام عيسى ابنة يائيرس، هل تذكرين المرأة بين الجموع وأنتم تغادرون؟ كان يرافقها عبد يونانيّ يحمل ولداً مريضاً".

عادت وقائع القصّة كلّها إلى ذهن مريم وكانت قد رأت وجه تلك المرأة في اللّيلتينِ السابقتين قبل نومها. أجابَتْ: "أجلْ، أجلْ، لقد أخبرْتُ عيسى واستدار نحوها ليشفي الصبيّ. هذا كل ما أعرفه على وجه اليقين، بالإضافة إلى أن المرأة لم تبدُ من عامّة الناس ولا يهوديّة."

ضحكت سالومة عالياً لدى سماعها ذلك. "يا مريم، تلك المرأة هي كلوديا بروكيولا. لقد شفى عيسى الابن الوحيد لبيلاطس البنطي!"

ذُهلت مريم، وفهمت مُجملَ ما حدث وسببَ شعورها، في تلك الليلة، أنّ شيئاً ما سيحدث بالإضافة إلى شفاء الصبيّ.

"مَن يعلم بهذا الأمر يا سالومة؟"

لا أحد سوى كلوديا وبيلاطس والعبد اليونانيّ. لقد منع بيلاطس زوجته من الحديث عمّا حدث وأخبرَ كلَّ مَن سأل عن شِفاء ابنه الخارِق أنّه بمشيئة آلهة الرومان." وظهر الانزعاج على وجه سالومة وهي تضيف: "مسكينة كلوديا، كانت تتحرّق لتخبر أحداً، وهي تعلم أنني كنت سابقاً ناصريّة."

قالت مريم: "وما زلت ناصريّة." ثم وقفت إذ أحسَّت حركة الطفل في أحشائها. كانت بحاجة لتحليل هذه المعلومات الهامّة. الأمر مذهلٌ حقاً، لكنّها لم تجرؤ على البناء عليه في تلك المرحلة. طبعاً، إن حادثة كهذه كانت جزءاً ممّا رسمه الله لعيسى. فهل أعطى الله كلوديا ولداً مريضاً حتى يشفيه عيسى ليثبت لبيلاطس رسالته الإلهية؟ وإذا آلَ مصير عيسى إلى بيلاطس البنطي، فهل يستطيع أن يصدر حُكماً ضدّ الرجل نفسه الذي شفى ابنه؟

وعاد وجه سالومة إلى التجَهُّم ثانيةً وقالت: "وهناك أمر آخر يا أختي. أثناء وجودي هناك، أتى يوناثان حنّان البغيض وصهره لمقابلة بيلاطس وزوجَ أمي. إنّهما يلفّقان قضيّة ضدّ عيسى"، وابتسمَت لمريم وأردفت قائلةً: "لمّا سمعتُ إعلان قدومهما رجوتُ كلوديا أن ترشدني إلى أفضل مكان أختبئ فيه وأسمع ما يجري."

نظرَت مريم إلى سالومة الجريئة كعادتها وابتسمت.

"لم يُرد بيلاطس هذا الأمر وحاولَ أن يصرف النظر عن مناقشته قائلاً إنّه غير مهمّ، واستعجلَ إنهاء مقابلته مع هيرودوس. لأن هَمَّه الأكبر هو أن تتلقّى روما تقريراً جيّداً عن قدراته كحاكم، فهو يسعى للحصول على منصب في مصر."

كانت مريم تُصغي بصبر وقلبها يخفق. وأكملَت سالومة: "لكنّ زوج أمّي، هيرودوس المتعجرف، أيَّدَ الكاهِنينِ المعتوهينِ. لقد تلاعبا بعقله وأخبراه أنّ عيسى يدّعي أنّه ملك اليهود وينوي اقتلاع عائلة هيرودوس عن العرش."

هزّت مريم رأسها استهجاناً لذلك الرأي التافه، فعيسى لم يرغب في الجلوس على عرشٍ دنيويّ. كان ملكاً في قلوب الناس ليوصلهم إلى ملكوت الله ولا يحتاج قصراً أو عرشاً لأداء مهمّته تلك. لكن هيرودوس غير الواثق من نفسه أحسّ باضطراب عرشه نتيجة لمناورات حنّان وقيافا.

"بعدَ ذلك بقليل، سمعتُ صوت بيلاطس يأتي إلى غرفة كلوديا، ولم يرني حيث كنت مختبئة. قال لها: "يا عزيزتي، إن الأقدار للأسف ضدّ عيسى والناصريّين. الكهنة يُطالبون برأسه ويريدون إلقاء القبض عليه قبل عيد الفصح. وسمعْتُ كلوديا تقول: لكنّك ستحرص على الإبقاء على حياته! ولم يقُل بيلاطس شيئاً، ثمّ سمعتُ كلوديا تسأله ثانيةً: "أليسَ كذلك؟" ولم أسمع شيئاً بعد ذلك إلى أن غادر بيلاطس الغرفة. ولمّا تأكّدتُ مِن انصرافه، خرجتُ فوجدتُ كلوديا في غاية الكآبة، وأخبرَتني أنّ زوجها لم ينظر إليها وهو يغادر. يا مريم، إنّها قلقة على مصير عيسى، وأنا كذلك. عليك إبعاده عن أورشليم."

"وهل يعرف زوج أمّك أين أنت الآن؟"

هزّت كتفيها قائلةً: "أخبرتُه أنّي سأمضي النهار في السوق لشراء الحرير. إنه مشغول جداً برحلته إلى روما ولن يعرف أو يبالي أين سأقضي الليل، فلديه ما يلهيه في أورشليم".

كانت مريم تحاول وضع خطّة لتحرّكها، وكان عليها الانتظار حتى عودة عيسى إلى البيت ليلاً، ثم إخباره بكلّ شيء. وعلمت أنها لن تجد صعوبة في إقناع سالومة بالبقاء لتخبره بالتفاصيل بنفسها.

بقيت سالومة عند مريم، وسُرّت كثيراً عندما أتت مريم العظيمة بعد الظهر. وأحضرت أمّ عيسى الموقّرة معها المريمتان الأخريان الأكبر سِناً، وهما أختها مريم أمّ يعقوب، وابنة عمّها مريم سالومة، وهي أمّ اثنين مِن أخلص أتباع عيسى. لقد كان شرفاً كبيراً لسالومة أن تكون بصحبة هؤلاء النساء الحكيمات وهنّ قائدات جماعة الناصريّين وإن كُنّ صامتات. لكنّ فرحها زال بسرعة لسيطرة القلق عليها، تماماً كما كانت حالة مريم المجدليّة.

قالت مريم العظيمة لهنَّ: "لقد رأيتُ في الأفق ظلمة عظيمة، يا بناتي، وأتيتُ لألتقي بابني. علينا جميعاً أن نكون على استعداد لامتحان القوة والإيمان الذي سيواجهنا في عيد الفصح هذا."

كانت الأخبار من أورشليم مقلقة طبعاً. فقد حَيَّتْ عيسى والناصريّين حشود كبيرة جداً لدى دخولهم المدينة ذلك الصباح مِمّا أثار اضطراب الحرّاس الرومانيّين. تمركز

الناصريّون خارج الهيكل حيث ألقى عيسى تعاليمه وعالج ببراعة كل الأسئلة والاعتراضات التي وُجِّهت إليه. فكما حدث في اليوم السابق، زرع ممثلو رئيس الكهنة والهيكل رجالهم بين الناس. ومِمّا زاد الوضع اضطراباً أنّ الباعة والمُرابين الذين طردهم عيسى من الهيكل في اليوم السابق قد جاؤوا ليحتجّوا على وجوده. وأخيراً حسَم عيسى الأمر حِرْصاً منه على المحافظة على الأمن وتجنُّباً لأيّ تطوُّر قد يؤدّي إلى إراقة الدماء، فانصرف وغادر مع أقرب أتباعه الناصريّين.

فيما بعد، في بيت عنيا ليلاً، تجمّعت في أذهان الجميع ملاحظات سالومة ومعلومات يائيرس ونبوءة مريم العظيمة فخلقت جوّاً من الخوف والقلق. وبدا أن عيسى هو الوحيد الذي لم يتأثّر بتعاظُم تلك الظروف العصيبة وهو يخطّط لليوم التالي.

كان سمعان ويهوذا قد أمضيا سحابة النهار مجتمعين إلى إخوانهما في فرقة الغيورين، وكان لديهما خطّة. قال سمعان: "عددنا يكفي لنخوض معركة ضدّ كلّ مَن يريد بك شرّاً. ستكون الجماهير غفيرة في الهيكل غداً. إذا أكّدْتَ للناس أن ملكوت الله بحسب تعاليمنا سوف يحرِّر اليهود من ظلم روما فإنّهم سيتبعونك."

سأل عيسى بكلّ هدوء: "والغاية؟ مثلُ هذا العمل سيؤدي إلى إراقة دم الأبرياء والطريق ليست كذلك. لا، يا سمعان، لن أحرِّض على الشعب وأهدر دم شعبنا عشيّة العيد المقدّس. كيف أبرهنُ على أنّ ملكوت الله موجود في قلب كل إنسان إذا طلبتُ منه أن ينزف ويموت من أجله؟ لقد فاتكم معنى الطريق يا إخوتي!"

ردّ سمعان منفعلاً: "لكنْ لا طريقَ من دونك". كان ضغط الأيام الأخيرة قد ترك أثره على بطرس أكثر من سائر التلاميذ. لقد ضحّى بكلّ شيء من أجل إيمانه بعيسى والطريق. ولم يكن ليتحمّل أيّ سوء قد يصيب عيسى.

قال عيسى: "أنتَ مخطئ يا أخي"، ولم تنمّ لهجته عن أي لوم أو توبيخ بل كان ودوداً للغاية وهو يتابع: "يا بطرس، لقد أخبرتُك منذ كُنّا أطفالاً، أنتَ الصخرة وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي. وسيحيا ذِكْر اسمك طالما ذُكِرْتُ أنا."

ظلّ القلق ظاهراً على وجه بطرس، وكذلك سائر التلاميذ. فلاحظ عيسى ذلك ورفع يديه وقال:

"اسمعوني يا إخواني وأَخَواتي، تذكّروا ما أعطيتكم إيّاه وهو فَهْمُكم أنّ

ملكوت الله يحيا فيكم ولن يستطيع أيّ مضطهد أن يسلبكم إيّاه. وإذا آمنتم بهذه الحقيقة في قلوبكم فلن تعرفوا الألم أو الخوف يَوماً".

ثم رفعَ يديه للتلاميذ وقادَهُم في تلاوة الصلاة الرّبانيّة.

ترك عيسى أتباعه في تلك الليلة ليشاور مريم العظيمة على انفراد. ولمّا انتهى تمنّى لها قضاء ليلة سعيدة وذهب للانضمام إلى زوجته.

قال لها: "يجب ألّا تخافي مِمّا سيحدث يا يمامتي الصغيرة."

تأمّلت مريم وجهه. كان عيسى عادةً لا يكشف رؤاه لأتباعه، لكنّه لا يخفي شيئاً عنها. بيدَ أنّها أحسّت في تلك الليلة أنّه يعرف أشياء لم يقلها.

سألته برقّة: "ماذا ترى يا عيسى؟"

"أرى أنّ اللّه الذي في السماء رسم لنا درباً علينا اتّباعه".

"حتّى إتمام النبوءات؟"

"إذا كانت تلك مشيئته".

صمتت مريم برهة. فالنبوءات صريحة وهي تنصّ على أنّ المخلص سيقتله شعبه.

سألته مريم، وفي سؤالها شيء من الأمل: "وماذا عن بيلاطس البنطي؟ لا ريبَ أنّك أُرسلْتَ لشفاء ابنه كي يرى بنفسه مَن أنت. ألا تظنّ أنّ ذلك كان بمشيئة الله؟"

"أصغي إليّ جيّداً يا مريم، ما سأقوله مهمّ جداً لفهم طريق الناصريّين. الله يرسم خطّته ويضع كل إنسان في مكانه. لكنّه لا يجبر الناس على العمل. ومثل أي سيّد صالح، يوجّه الربّ عبيده، لكنّه يمنحهم حريّة الاختيار بأنفسهم."

أصغت مريم بدقّة وأرادت التأكّد من انطباق نظرية عيسى على ما حدث، فسألته: "أتؤمن أنّ الله وضع بيلاطس البنطي في هذا الموقع؟"

هزّ عيسى رأسه وقال: "أجلْ. بيلاطس وزوجته الصالحة وابنهما."

"وما إذا كان بيلاطس سيختار مساعدتنا أم لا... فذلك ليس بأمر مِن الله؟"

أومأ عيسى قائلاً: "الربّ لا يُملي علينا ما نفعل، يا مريم. إنّه يُرشدنا فقط، وعلى كل شخص أن يختار سيّده، وذلك يعني الاختيار بين مشيئة الله والرغبات الدنيويّة في آن واحد. فملكوت السماوات يأتي إلى الذين يختارون الله. ولا أستطيع أن أعرف أيّ سيّد سيختار بيلاطس البنطي عندما يأتي وقت الاختيار."

ركّزت مريم على كلام عيسى وفهمته جيّداً. ومع أنّها كانت متعمّقة في مبادئ الناصريّين، فإنّ مثل عيسى عن بيلاطس البنطي أبرزَ ذلك المَبدأ ووضّحه. وفي لمحة استشراف للمستقبل أحسّت بضرورة استيعاب كلمات زوجها، لا بل حفظها كما نطق بها حرفياً. فسوف يأتي وقت تُعلِّم فيه الآخرين كما علّمها هو.

تابع عيسى كلامه بقوله: "رئيس الكهنة وأنصاره مصمّمون على القبض عليّ، ونعلمُ أنّنا لا نستطيع تجنّب ذلك. لكنّنا سنطلب أن يرسلوني إلى بيلاطس، وسأدافع عن قضيتي أمامه، وهو يقرّر بناءً على إيمانه وضميره. علينا أن نكون مستعدّين لتقبّل أيّ قرار يتّخذه. فمهما كان القرار، يجب أن نُثبت بتصرّفاتنا ما نَعلم أنّه الحقيقة. والحقيقة هي أنّه عندما نرضى أن يحيا ملكوت الله في داخلنا، لا شيء بتاتاً ــ لا أمبراطوريّة ولا مستبدّ ولا الألم ولا حتّى الموت ـ يستطيع أن يغيّر تلك الحقيقة."

استمرّ حديثهما وقتاً طويلاً خلال الليل وأطلعها عيسى على خطّته للتحرّك في اليوم التالي. ثمّ تجرّأت مريم على سؤاله مرّة واحدة سؤالاً ثقيلاً كان جاثماً على قلبها:

"ألا يمكننا مغادرة أورشليم الليلة والعودة إلى التبشير في تلال الجليل إلى أن يجد حنّان وقيافا شخصاً آخر يطاردانه؟"

أنّبَها عيسى بلطف قائلاً: "أنتِ تقولين هذا يا مريم؟ أنتِ أكثر مَن يعلم أنّ الناس ينظرون إلينا عن كثَب الآن. وعليّ أن أكون قُدوةً لهم."

هزّت رأسها للتعبير عن تفهّمها الأمر، وأكملَ كلامه مُخبراً إيّاها عن حديثه مع مريم العظيمة. وكانا قد قرّرا أن ظهوره في الهيكل في اليوم التالي سيكون في غاية الخطورة وسيتعرّض الكثير من الأبرياء للأذى في حال حدوث شغب. كما كان همُّه الأوّل حماية تلاميذه، فرئيس الكهنة يريده هو لا الآخرين، وهذا ما أكّدته معلومات يائيرس. فلا حاجة لتعريض الآخرين للخطر. لذلك سيلتقي أقربُ الأتباع

سِرّاً، بعد الظهر، في بيت ضمن أملاك يوسف من أجل عشاء الفصح. وهناك سيعطي عيسى تعليماته لكل منهم حول دوره في الرسالة فيما لو طالت مدّة سجنه كيوحنا أو إذا حدث الأسوأ. ثم سيقضون الليل تحت نجوم أورشليم المقدّسة في ضيعة الجِتْسَمانيّة الواقعة ضمن أراضي يوسف.

وهناك سيسمح عيسى بأن يُلقى القبض عليه.

لم تصدّق مريم ما سمعت، فسألته: "هل ستسلّم نفسك لسلطات الهيكل؟"

"لا، لا. لا يمكن أن أفعل ذلك. لو حدث الأمر كذلك فسيفقد الناس إيمانهم بالطريق التي نبشّر بها. لكن يجب أن أحرص على أن يُلقى القبض عليّ بعيداً عن المدينة ومن دون إراقة دماء أو شغب. سوف أجعل أحد أتباعنا يخونني ويذهب إلى جماعة الهيكل ويدلّهم على مكان وجودي. سوف يأتي الحرس إلى الجتسمانيّة حيث لا توجد حشود من الناس وبالتالي لن يحدث شغب."

كان عقل مريم يدور ويدور، فالأحداث متسارعة جداً. وفكَّرَت في أمر مريع، فسألَت عيسى: "لكن مَن هو؟ مَن مِن جماعتنا الخاصّة يجرؤ على القيام بهذا الأمر؟ طبعاً لا يمكن الظنّ بأن بطرس أو أندراوس يستطيعان ذلك، ولا فيلبس ولا برتلماوس. إن أخاك يعقوب يضحي بدمه أوّلاً، وسمعان يسفك دماء مَن يقترب منك."

ثمّ جاءَها الجواب، وقالته هي وإيّاه معاً: "يهوذا".

كان تعبير عيسى يدلّ على الهَمّ وهو يقول: لذلك يجب أن أذهب الآن، يا يمامتي. عليَّ أن أُكلّم يهوذا وأخبره بأنّه قد اختير لهذه المهمّة لأنّه قويّ."

ثمّ وقف وقبّل زوجته على خدِّها وانصرف. رافقته بنظراتها وقد تملّكتْها رهبة طاغية مِمّا سيحمله اليوم التالي.

بعد ظهر اليوم التالي، اجتمعوا، كما كان مقرّراً، لعشاء العيد معاً: عيسى وتلاميذه المختارون الاثنا عشر وجميع المريمات. وظلّ الولدان في بيت عنيا مع مرتا ولعازر.

بدأ عيسى اللقاء بطقس التكريس، على طريقته الخاصّة، فقلبَ الأدوارَ وقام

هو بغَسْل أقدام كُلّ مَن في الغرفة. وشرح لهم أنّه فعل ذلك ليُثَبِّت كلاً منهم كرسول ذي رسالة خاصّة هي التبشير بكلمة الملكوت.

"لقد جعلتُ لكم مِن نفسي قدوةً لتصنعوا أنتم أيضاً ما صنعت لكم ولِتُقِرّوا بأنّ الآخرين مساوون لكم في عيني الله. وأعطيكم الليلةَ وصيّة جديدة: أحبّوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم. وإذا أحبّ بعضكم بعضاً عرف الناس جميعاً أنّكم تلاميذي".

بعد أن غسل عيسى أقدام جميع أتباعه الموجودين في الغرفة قادَهم إلى مائدة عشاء الفصح. وأخذ من الخبز غير المُختمِر وباركه ثمّ كسره وقال: "خذوا فكلوا، هذا هو جسدي". وأخذ كأس خمر وشكر وناولهم إياها قائلاً: "هذا هو دمي، دم العهد الجديد الذي يُراق مِن أجل كثيرين."

جلسَت مريم والآخرون صامتين. فهي والمريمات الأخريات يعرفن وحدهنّ تفاصيل ما سيجري. فعندما سيُعطي عيسى العلامة ليهوذا سيغادر يهوذا العشاء ويذهب عند يائيرس، وسيأخذه يائيرس إلى حنان وقيافا ويقدّمه لهما على أنّه الخائن. سيطلب يهوذا ثلاثين قطعة من الفضّة. وفي مقابل ذلك سيقود الكهنة إلى مكان وجود عيسى حيث يمكن اعتقاله بسهولة بعيداً عن شغب أبناء المدينة.

كان التوتر واضحاً على وجه يهوذا لمَن يستطيع ملاحظة ذلك. ولم يُطلع عيسى بقيّة التلاميذ على تلك الخطّة لأنّه لم يشأ المجازفة، فهو لم يُرِد أن يناقشه أحد بأمرها ولا أن يحاول أحد مقاومة اعتقاله. ولاحقاً، ستبكي مريم على يهوذا وعلى الظلم الحاصل عموماً، وستدافع عنه أمام باقي التلاميذ الذين لن يروا إلّا أنّه خائن. لكنْ عند ذاك سيكون قد فات الأوان بالنسبة ليهوذا الإسخريوطي. فقد أعدَّ الله له مكاناً واختار هو ذلك المكان.

توجّه عيسى إلى يهوذا، وناوله قطعة خبز مغمسة بالخمر وأعطاه الإشارة المقررة بقوله:

"افعلْ ما أنت فاعل وعَجِّلْ".

غاص قلب مريم ألماً وهي ترى يهوذا يغادر الغرفة. والتقَتْ نظرتها بنظرة مريم العظيمة التي كانت أيضاً تراقب يهوذا خارجاً من الباب وبيديه مصير عيسى. وقد واسَت كل منهما الأخرى بنظرتها وهما تتضرّعان إلى الله ليحمي عيسى الحبيب.

أتى الحراس بعدد ضخم وقوّة أكبر ممّا توقّعت مريم. ففي آخر الليل ظهر يهوذا على التلّة ومعه جنود رئيس الكهنة. حدث اختلاط واضطراب حين وصلت تلك العصابة المسلّحة لاعتقاله فاستفاق جميع الرسل الذكور، أما النساء فكنَّ قد أوقدْنَ ناراً وجلسنَ يراقبنَ من بعيد، باستثناء مريم المجدلية التي ظلّت إلى جانب عيسى.

هبَّ بطرس مِن مكانه على الأرض واستلَّ سيف أحد الجنود، وقال: "سندافع عنك يا مُخَلِّص"، ولحق رجلاً يعرفه، وهو خادم رئيس الكهنة واسمه مَلْخُس، وضربَه بالسيف، فقطع أذنه، ونزف الدم بغزارة من جرحه.

نهض عيسى ومشى بهدوء نحو المجموعة وقال لبطرس وباقي التلاميذ "كفى يا إخوتي"، ثم توجّه لعصابة رئيس الكهنة بالقول: "ضعوا سلاحكم جانباً. لن يؤذيكم أحد هنا، هذا وعْد صادق".

وتوجّه إلى مَلْخُس الذي كان قد خَرَّ على ركبتيه وألصق رداءه بأذنه لامتصاص دمائه النازفة. ووضع راحته على أذن الرجل وقال له: "لقد تحمَّلْتَ الكثير من أجل هذا". ولمّا رفع يده كانت الأذن قد شُفِيَت وتوقّف نزف الدم.

ساعد عيسى مَلْخُس للنهوض وخاطبه بقوله: "أعَلى لِصّ أخرجكُمْ قيافا تحملون السيوف والعصِيّ؟ كنتُ كلّ يوم معكم في الهيكل، فلم تبسطوا أيديكم إليَّ، ولكن هذه ساعتكم! وهذا سلطان الظلام!"

تقدَّم أحد الجنود وكان يبدو من الشارات على لباسه أنه رئيس المجموعة، وسأل عيسى باللغة الآرامية: "هل أنت عيسى الناصريّ؟"

فأجابه عيسى باليونانيّة: "أنا هو".

وتوجّه بعض الأتباع إلى يهوذا بالأسئلة والاتهامات. وكان عيسى قد أمره بعدم الرد إذا حدث ذلك. فظلَّ يهوذا صامِتاً، لكنّه دنا من عيسى وقبَّلَه على خدّه، آملاً أن يفهم التلاميذ من ذلك أنّه مُكَلَّف بفِعْل هذا.

قرأ قائد المجموعة التهم الموجهة إلى عيسى، ثمّ قبضوا عليه وساقوه إلى قدَره عند رئيس الكهنة.

ظلّت مريم المجدلية ساهرة طوال الليل مع المريمات الأخريات. لم يستطعن الاقتراب إلى حيث الرجال لِما في ذلك مِن خطر. كُنَّ جميعاً في غاية القلق ولم تستطع أيّ منهنّ الإفصاح عمّا في حَدْسها عن أحداث تلك الليلة.

قادت المريمات بعضهن بعضاً في الصلاة، وكانت كل منهنّ تواسي الأخريات بنظرات صامتة. وفي آخِر الليل رأيْنَ نور مشعل يقترب نحوهنّ عبر وادي قِدْرون. ثمّ تبيَّنَ أن القادمينَ ثلاثة: رجلان وامرأة نحيلة. نهضت مريم لمّا لاحظت أن القادمة هي الأميرة الهيروديّة سالومة. فاقبلت عليها وعانقتها، وعندها عرفت الرجل الذي يحمل المشعل وكان قائد مئة رومانياً، لكنّه في ثياب مدنيّة، وهو نفسه الرجل ذو العينين الزرقاوين الذي كان عيسى قد شفى يده المكسورة.

قالت سالومة وهي تتنفّس بصعوبة من جرّاء إعيائها لإسراعها في الوصول إلى هناك: "لا وقتَ أمامنا يا أختاه. إني آتية للتوّ من قلعة أنطونيا. لقد أرسلتني كلوديا بروكيولا إليك حاملة أبلغ تحيّاتها وأعمق ألمها لاعتقال زوجك على غير وجه حقّ."

هزّت مريم راسها لتشجّع سالومة على متابعة الحديث، وأبقَتْ خوفها المتنامي في أحشائها. فها إنّ زوجة الحاكم الروماني تبعث إليها رسولة في ظلمة الليل، وذلك يعني أن هناك أمراً خطيراً.

وأردفَت سالومة قائلة: "سيخضع عيسى لمحاكمة بيلاطس في الصباح. لكنّ بيلاطس واقع تحت ضغط شديد للحكم عليه بالموت. إنّه لا يريد ذلك يا مريم، وتقول كلوديا إنه يعلم أن عيسى قد شفى ابنهما، أو بالأحرى هو مستعدّ لمحاولة تقبُّل ذلك، على نمط تفكيره الروماني. لكنّ زوج أمّي البغيض يدعو إلى موت عيسى بأسرع ما يمكن. فهيرودوس سيغادر إلى روما يوم السبت، وقال لبيلاطس إنّه يريد إنهاء موضوع الناصري قبل ذهابه. المسألة حرجة جداً جداً، يا مريم. فقد يُعدِمون عيسى غداً."

كان كل ما يحدث مفاجئاً وسريعاً، ولم يتوقّع أحد أن يجري بهذا الشكل. فقد توقّعوا سجنه فترة طويلة يتمكّن خلالها من الدفاع عن قضيّته أمام روما وأمام هيرودوس. وطبعاً كانوا يتخوّفون من حدوث الأسوأ ولكن ليس بهذه السرعة!

تابعَت سالومة لهاثها وكلامها: "أرسلَتْنا كلوديا بروكيولا لإحضارك. هذان الرجلان هما أكثر رجالها إخلاصاً. نظرت مريم إلى الرجل الآخر الصامت الواقف

وراء المشعل فانعكس الضوء على وجهه، وأدركت مَن هو. إنّه الرجل اليونانيّ الذي كان يحمل الصبيّ المريض خارج منزل يائيرس!

"سوف يأخذانك إلى مكان احتجاز عيسى. لقد رتَّبَت كلوديا الأمر مع الحراس المداوِمين حتى الفجر. قد تكون هذه آخِر فرصة لك لرؤيته. لكن علينا أن نذهب بسرعة."

طلبَت منها مريم الانتظار لحظة، وذهبت إلى مريم العظيمة. كانت تعلم أنّها، لكبر سنّها، لن تتمكّن من الإسراع للوصول إلى عيسى في الوقت المناسب، لكنّها احتراماً لها عرضت عليها أن تذهب مكانها لرؤية ابنها.

قبَّلَتْ مريم العظيمة زوجة ابنها على خدّها وقالت لها: "أعطي هذه القبلة لابني. قولي له إنّي سأكون هناك غداً مهما يكن من أمر. اذهبي، حَماكِ الله يا ابنتي."

❀

أسرعَت مريم وسالومة لتلحقا بالرجلين الصامتين اللذين كانا يسيران بسرعة باتّجاه طرف المدينة الشرقي، بعد أن خلعت وشاحها الأحمر الخاص بكاهنات الناصريين ولفّت رأسها بوشاح أسود مثل سالومة. قالت سالومة لمريم وهما تمشيان: "لقد بعثْتُ رسولاً إلى مرتا. عيسى يريد أن يرى الولدين. هذا ما أخبر به خادم كلوديا"، وأشارت إلى العبد اليونانيّ، ثم أضافت: "وعلمَ عيسى أنّه لن يكون لديك متّسع من الوقت للذهاب إلى بيت عنيا وإحضارهما قبل المجيء لرؤيته."

راحت الأفكار تتزاحم في رأس مريم، وكانت تتمنى ألّا يشهد يوحنا وتامار أيّ حدث مؤلم، لكن إذا حدث الأسوأ فلا بدّ أن يراهما مرّة أخيرة، وكان يوحنا الصغير بالنسبة إليه غالياً مثل تامار تماماً، وقد أحبّهما عيسى بلا حدود. وعلى كل حال، فإن حماية الجميع وتأمين سلامتهم ستكون مسألة مُلحّة بعد شروق شمس الصباح. صلّت مريم بصمت لحظات، وقطع عليها تفكيرها في هذه الأمور وصولهم إلى خارج المكان الذي يُحتجز فيه عيسى. وحتّى وصولهم إلى هناك كان الظلام قد أمّن لهم الغطاء المطلوب فلم يلفتوا الانتباه إليهم، لكنّهم هناك كان عليهم نزول درَج خارجيّ طويل تنيره المشاعل.

همس إليهم قائد المئة ببعض التعليمات وانتظروا أن يقوم العبد اليوناني

باستطلاع المنطقة بعجلة. نزل إلى أسفل الدرج بسرعة خاطفة، وأعطاهم إشارة التقدّم. ظلّت سالومة عند أعلى الدرج لتقوم بالمراقبة، فيما قام اليونانيّ بالدور نفسه عند الأسفل. أسرعت مريم مع قائد المئة نزولاً على الدرَج ثم إلى داخل دهاليز السجن. حمل القائد المشعل ماداً يده أمامه لينير الطريق في تلك الممّرات المعتمة. وتبعته مريم بسرعة محاولةً أن تتجاهل أصوات الرجال المتألمين البائسين التي تردّدت من بين أحجار الجدران المحيطة بها. وتأكّدت أنّ صوت عيسى لم يكن بين تلك الأصوات، فهو لا يمكن أن يصرخ مهما أصابه مِن ألم، فذلك ليس من طبيعته. لكنها أحسّت بالأسى والتعاطف مع هؤلاء المساكين الذين ينتظرون نهاياتهم في سجن روماني.

سحب قائد المئة مفتاحاً من تحت ردائه وأدخله في الباب وفتح القفل، ودخلت مريم إلى زنزانة زوجها. واكتشفت مريم بعد ذلك بعدّة سنوات كيف تمكّنت كلوديا وسالومة من إنجاز ذلك العمل البطولي بالحصول على المفاتيح وإبعاد الحرّاس، وقد استلزم ذلك دفع رشاوى طائلة وثمناً شخصياً بالغاً تحمّلته الأميرة سالومة. ظلّت مريم طيلة حياتها تعترف بجميل المرأة الرومانية كلوديا بروكيولا وصديقتها سالومة التي طالما أُسيء فهمها، وذلك ليس مِن أجل أحداث تلك الليلة فحسْب، إنّما أيضاً مِن أجل الأحداث الرهيبة في اليوم التالي.

كان على مريم أن تقاوم حاجتها إلى البكاء يأساً لدى رؤيتها عيسى. كان قد ضُرب بقسوة، وذلك واضح من الرضوض والكدمات على وجهه الجميل، كما لاحظت أنّه يُقاوم رَجَفان جسمه وهو ينهض لمعانقتها. وهمسَت بسؤالها وهي تتأمّل وجهه المكلوم.

"مَن فعلَ هذا بك؟ رجال قيافا وحنّان؟"

"اسمعي يا مريم، الوقت قصير وهناك كلام كثير. لا مجالَ للملامة. فاللوم يولّد الانتقام، أما الصفح والغفران فيقرّبنا من الله. وهذا هو ما يجب أن نعلّمه للبشر. احفظيه في قلبك وعلّميه لكلّ مَن يسمع، إحياءً لذِكري".

وأصابت الرعشة جسد مريم، فهي لم تتحمّل سماع عيسى يتحدّث عن نفسه بتلك الطريقة وكأنّ موته أصبح مؤكّداً. وأحسّ بيأسها فخاطبها برقّة قائلاً:

"الليلة الماضية، في الجتسمانيّة، صلّيْتُ للربّ إلهنا، وطلبتُ منه أن يُبعد عنّي هذه الكأس إذا شاء. لكنّه لم يُبعدها لأن تلك هي إرادته. ألا ترين أن لا مجالَ لتغيير ذلك. لن يفهم الناس ملكوت الله من دون عِبرة عظيمة. أنا ساكون العبرة. سأبرهن لهم أنني أستطيع أن أموت مِن أجلهم وأُقْدِم على ذلك مِن دون ألم أو خوف. لقد أظهرَ لي الربّ كاسي وشربْت منها، وفعلْت ذلك برِضاً وسعادة. لقد تمَّ الأمر."

لم تتمكّن مريم من إيقاف سيل دموعها، لكنها حاولت جاهدة ألّا تجهش بالبكاء، فأيّ صوت قد يفضح وجودها هناك. واستمرّ عيسى في مواساتها وتقوية عزيمتها.

"يجب أن تكوني شجاعة وقويّة، يا يمامتي، لأنّك ستحملين معك طريق الناصريّ الحَقّة وتعلّمينها للعالم. وسيبذل الآخرون قُصارى جهدهم كذلك، وقد أعطيتُ كُلّا منهم تعليماتي بعد العشاء. لكنّك أنتِ وحدك مَن يعلم كلّ ما في قلبي وعقلي، لذا ستصبحين قائدة شعبنا، ثم يتولّى القيادة أبناؤنا مِن بعدك."

جهدت مريم للتفكير بوضوح، كان عليها أن تركّز على تعليمات عيسى الأخيرة وليس على حزنها. فلتترك النُّواح لوقت لاحق ولتكن الآن أهلاً لثقته بها كقائدة للناصريين.

"عيسى، بعضُ الرجال مِن أتباعنا، كما تعلم، لا يحبّونني، وقد لا يطيعونني. ومع أنّكَ علّمتهم وجوب معاملة النساء بالتساوي مع الرجال، أخشى بعد ذهابك... ألّا يلتزموا بهذا المبدأ. وكيف يمكنني أن أخبرهم أنك اخترتني لقيادة الناصريين؟"

أجابها عيسى: "لقد فكّرتُ بهذا الأمر الليلة. أوّلاً، أنتِ وحدكِ لديك كتاب المحبّة".

هزّت مريم رأسها. فقد أمضى عيسى قسماً كبيراً من أيّام رسالته يكتب تعاليم الناصريّين ومفاهيمه الخاصة في كتاب أسْمَياه كتاب المحبّة. وأخبر عيسى التلاميذ الآخرين بوجود ذلك الكتاب، لكنّه لم يُطلع أحداً عليه سوى مريم. وحُفظ الكتاب وأُقفل عليه في بيتها في الجليل.

"لطالما قلتُ إنّ كتاب المحبّة لن يظهر علناً مدّة حياتي على الأرض. ما دمتُ موجوداً هنا، فهو غير مُكتمِل. في كل دقيقة من كل يوم عشته اكسبني الله فهماً جديداً، وكل إنسان لقيته علّمني المزيد عن طيبة الله. لقد كتبت كل هذا في كتاب المحبّة، بعد رحيلي، خذيه واجعليه حجر الزاوية لكل التعاليم في المستقبل."

عبّرت مريم عن فهمها بإيماء رأسها. فكتاب المحبّة كان حقاً سجلاً رائعاً ومؤثراً لكل ما علّمه عيسى في حياته. وسيكون شرفاً عظيماً جليلاً لتلاميذه أن يتعلّموا من ذلك الكتاب.

"هناك أمر آخر، يا مريم. سوف أعطي الرجال علامةً، شيئاً يدلّهم بوضوح أنّك خليفتي المختار. لا تخشي يا يمامتي الصغيرة، سأجعل العالم كلّه يعرف أنّك أحبّ تلاميذي إليّ."

وضع عيسى يده على بطن مريم المنتفخ. وكان لديه الكثير ليقوله بعد: "هذا الطفل الذي تحملينه، ابننا هذا، تسري في عروقه دماء أنبياء وملوك، كابنتنا تماماً. وسيحتلّ المتحدّرون منهما مكانتهم في هذا العالم ويبشّرون بملكوت الله والتعاليم الواردة في كتاب المحبّة لكي ينعم جميع الناس في كافة أنحاء الأرض بالسلام والعدالة." وهنا رفس الطفل في بطنها استجابة لنبوءة أبيه. ثم أردف عيسى قائلاً: "لهذا الطفل قدَر خاصّ في جُزُر الغرب حيث ستنتشر كلمة الطريق. لقد أعطيتُ عمّي يوسف تعليمات حول تربية هذا الطفل. عليكِ الوثوق بيوسف والسماح لهذا الطفل بالذهاب حيث يقوده الله."

تقبّلت مريم هذا الأمر، فيوسف رجل عظيم يتميّز بالحكمة والقوّة والخبرة بالحياة والناس. كان يتاجر بالقصدير ويسافر كثيراً. وعندما كان عيسى في مطلع شبابه رافَقَه إلى الجُزُر الخضراء الضبابيّة الواقعة غربَ بلاد الغال. وقد أخبرَ مريم مرّةً أنّه خلال وجوده هناك أحسَّ أن طريق الناصري ستنمو بين هؤلاء الأشِدّاء زُرْق العيون الذين يقطنون تلك الجزر.

"وعليكِ تسميتُه يشوع ـ داود إحياءً لذِكْري وذِكر مؤسِّس سلالتنا الملكيّة. وسيأتي من هذه السلالة أعظم ملك يحكم الأرض."

وافقت مريم على طلب عيسى، ثم سألته: "وما هي تعليماتك لي بشأن ابنتنا سارة ـ تامار؟"

ابتسم عيسى لدى ذِكْر ابنته الغالية، وقال: "يجب أن تظلّ إلى جانبك حتى تصبح امرأة بالغة، وعندها تختار طريقها. إن حبيبتنا تامار لديها مثل قوّتك وقدرتك. لكنّك لن تكوني آمنة أنت والأولاد بين اليهود، وقد رأيت هذا بوضوح. لذلك سيأخذك يوسف إلى مصر أنتِ وكل الآخرين الذين يودّون الرحيل. فالإسكندريّة مركز ثقافي عظيم ومكان آمن لجماعتنا ويمكنك البقاء هناك أو الذهاب أبعد من ذلك إلى بلاد

الغرب، وأترك ذلك لاختيارك أنتِ. مريم! عليك أن تقرّري أفضل السبل لانتشار واستمرار التعاليم الناصرية في العالم. اتبعي قلبك وثقي بالله فهو يرشدك".

ثم سألته: "وماذا عن يوحنا الصغير؟" لقد عامله عيسى دائماً كأنّه ابنه، لكنّ سلالته ومصيره مختلفان، وهذا ما تعلَمُه مريم أيضاً.

نظر عيسى كأنه يرى شيئاً بعيداً، وقال: "يوحنا، على صِغَر سنّه الآن، يبدو قويّ الإرادة ومضطرباً، وأنت أمّه وسترشدينه لكنّه بحاجة لتأثير رجال عليه للتغلّب على تَقَلْقُله وعدم استقراره. وبطرس وأندراوس يحبّانه كثيراً، وعندما يكبر يوحنا قد يصلح حاله إذا رعاه بطرس أو أخوه."

لم تكن هناك حاجة للإفاضة في الشرح، فمريم تعلم بالضبط ما عناه عيسى. فبطرس وأندراوس كانا سابقاً من أتباع المعمدان، وكانوا جميعاً يعرف بعضهم بعضاً منذ أن كانوا أطفالاً في الجليل حيث كانوا يتردّدون إلى المعبد في كفرناحوم. كان بطرس وأندراوس يوقّران يوحنا الصغير بصفته ابن نبيّ عظيم بالإضافة إلى كونه ابن عيسى بالتبنّي.

ثمّ أضاف عيسى: "هناك كلمة شكر وعزاء لإنسان آخر. ابلغي الامرأة الرومانية كلوديا بروكيولا أنّني أغادر هذا العالم وأنا مَدين لها. لقد خاطَرَت وضَحَّت بالكثير مِن أجل إيصالك إلى هنا، شكراً لها. قولي لها إنها يجب الّا تكون قاسية في حُكمها على زوجها. على بيلاطس البنطي أن يختار سيّده، وقد رأيتُ أنّه سيسيء الاختيار. وعلى كلّ حال فإن اختياره سوف يحقّق مشيئة الله بالنسبة لنا جميعاً."

وزوَّد عيسى زوجته بتوجيهات أخرى، بعضها روحيّ الطابع وبعضها متعلّق بأمور عمَليّة، قبل كلمته الأخيرة لها ليقوّي عزيمتها: "كوني قويّة مهما حدث غداً. لا تخافي عَليَّ فإنّي لستُ خائفاً على نفسي. إني راضٍ بتناول الكأس التي أعدَّها لي الله والالتحاق به في السماء. مريم، كوني قائدة للشعب ولا تخافي شيئاً. تذكّري دائماً مَن أنتِ: أنت مِلكة وناصريّة وزوجتي".

كانت مريم تنوء بهَمّها وهي تمشي مضطربةً وراء سالومة في شوارع أورشليم فيما بدأت السماء تشرق قليلاً مع خيوط الفجر الأولى. كان للأميرة

بيت يمكنهم المكوث فيه بأمان، لذلك كانت قد أعطت تعليماتها لرسولها بأخذ مرتا والولدين إلى هناك. وبعد استقرار مريم في البيت بانتظار مجيء ولديها وزوجة أخيها، ذهبت سالومة لإيجاد رسول آخر لتبعثه إلى مريم العظيمة وصحبها في الجتسمانيّة.

وفي مكان آخَر مِن أورشليم، كانت امرأة نبيلة أخرى، هي السيدة كلوديا بروكيولا، تفكّر في العبء الذي سيلقي ثقله على عائلتها في ذلك اليوم. وقد نامت بشكل متقطّع بعد أن استولى عليها التعب في وقت متأخر من الليل. لكن بعد أن أتى العبد اليونانيّ وأخبرها بأن مهمّتهم بالنسبة لزوجة الناصري قد تمّت بنجاح، سمحَت لنفسها بإغماض عينيها مطوّلاً.

أفاقت كلوديا وقد رشحَ عرَقها بارداً بعد أن استولى عليها ذلك الحلم المتكرِّر. أحسّت به يدور حولها في الغرفة، ثم أغمضت عينيها، لكنّ الصوَر ظلّت جاثمةً أمامها، وكذلك ملأ رأسَها صوتُ أنشودة أو ترنيمة. كان بالأحرى جوقة أصوات قويّة بالمئات، أو الآلاف، تُردِّد العبارة: "صُلِبَ على عهد بيلاطس البنطي، صُلبَ على عهد بيلاطس البنطي". وكان ترديد الأصوات في الحلم متواصلاً حتى إنها لم تسمع أيّ كلمة أخرى خارج هذه الكلمات القليلة.

والأسوأ مِن كلمات ذلك الكابوس المريع كانت صُوَره. بدأ كحلم جميل فيه أطفال يرقصون على تلة معشوشِبة تحت دفء الشمس في أيام الربيع. وكان عيسى يقف في وسط دائرة الأطفال المرتدين ثياباً بيضاء وهم يضحكون ويرقصون، ومِن بينهم بيلو وسميديا. ثمّ اخذت التلّة تمتلئ أناساً من مختلف الأعمار كلّهم مُتسربِلون بالأبيض، يبتسمون ويغنّون.

وعرفت كلوديا أحد الرجال الوافدين في الحلم، وهو بريتورس، قائد المئة الذي شُفيَت يده المكسورة. وقد أفضى إليها الرجل بمعجزة شفائه بعدما وصلَت إلى مسمعه الشائعات الهامسة حول معجزة شفاء بيلو. لكن لمّا أدركَت أنّ كل الأشخاص المبتسمين في حلمها، كباراً وصغاراً، قد شفاهم عيسى، تغيَّر المشهد. فتوقّف الرقص واكفهرّت السماء وازداد صوت الترنيمة ارتفاعاً وارتفاعاً: "صُلب على عهد بيلاطس البنطي، صُلب على عهد بيلاطس البنطي".

ثمّ رأت كلوديا في الحلم ابنها الحبيب بيلو يقع على الأرض. وكانت آخر صورة تراها قبل أن تستيقظ صورة عيسى ينحني فوق الصبيّ ليرفعه، وحملَه بعيداً من دون النظر إلى الوراء، فيما كان الباقون يقعون على الأرض حولهما. ثمّ رأت زوجها يصرخ متألماً، دون جدوى، لرؤية عيسى الناصريّ مُنسحِباً وهو يحمل بيلو جسداً بلا حراك. وشقّ البرق صفحة السماء، وقد لاحقَتْهم أصوات الأنشودة وهم ينزلون السفح.

"صُلب على عهد بيلاطس البنطي".

"اصْلُبْهُ! اصْلُبْهُ"، كان ذلك صوتاً جديداً غير الصوت المخيف المتردِّد في الحلم. كان صوتاً حقيقياً، صوتَ الحقد الآتي من خارج أسوار قلعة أنطونيا. "اصلبْه! اصلبه!"

نهضت كلوديا لترتدي ثيابها عندما دخل العبد اليوناني مسرعاً.

"سيّدتي! يجب أن تأتي قبل فوات الأوان. سيّدي جالس في كرسيّ القضاء والكهنة يطالبون بالدم".

"ما هذا الصوت في الخارج؟"

"جمهور كبير. مازال الوقت مبكراً لحشد مثل هذا العدد من الناس. لا بدّ أن يكون رجال الهيكل قد جهدوا ليلاً لضمان وجود كل هؤلاء! سيصدر الحكم قبل أن يتمكّن بقيّة أبناء أورشليم من تجميع المؤيّدين للناصري".

ارتدت كلوديا ثيابها بسرعة ولم تعتنِ بذلك كعادتها. فهي لم تهتمّ بمظهرها في ذلك الصباح، بل كان عليها فقط أن تبدو بمظهر لائق أمام الرجال الذين يحضرون المحاكمة. وفيما كانت تنظر إلى المرآة نظرة خاطفة، تساءلت:

"أين بيلو؟ هل استيقظ؟"

"كلا يا سيّدتي. مازال نائماً".

"حسناً. ابْق معه، واحرص على أن يظلّ في الداخل. عندما يُفيق أَبقِه بعيداً عن الأسوار. لا أريده أن يرى أو يسمع شيئاً ممّا يجري في المدينة".

أجاب العبد اليوناني: "سمعاً وطاعةً، يا سيّدتي". وخرجت كلوديا في أخطر مهمّة لها في حياتها.

بذلت كلوديا بروكيولا وسعها لإخفاء يأسها واشمئزازها وهي تصل إلى الباحة الداخلية التي تحوّلت إلى قاعة مؤقتة للمحاكمة. وقدَّم بيلاطس بذلك تنازلاً لرؤساء الكهنة لرفضهم دخول القاعات الرومانية الرسمية مخافة أن يتنجّسوا فلا يتمكّنوا من أكل الفصح. كان ذلك المكان مقفلاً ومنعزلاً وبعيداً عن مشهد الحشود المتزايدة خارج الأسوار. وقد أمر بيلاطس البنطي بإحضار مقعده وجلس عالياً على كرسيّ القضاء باسم روما. ووقف وراءه اثنان من حرّاسه المخلصين هما بريتورس ذو العينين الزرقاوين والرجل الفَظّ الذي تكرهه كلوديا وهو المدعوّ لونجينوس. وكان قربَه على المنصّة قيافا وحنّان من جهة، وممثّل لهيرودوس من الجهة الأخرى. أما مبعوث الهيكل، يائيرس، فقد استغرب الجميع غيابه.

ووقف على الأرض أمامهم عيسى الناصري، وكان مقيَّداً والدماء تنزف منه.

حدّقت كلوديا إلى عيسى من وراء الستارة. نظر نحوها كأنّه لمسَ وجودها قبل أن يراها، التقت عيناهما لحظة طويلة كأنّها ممتدّة إلى ما لا نهاية، وأحسّت كلوديا بمشاعر الحب الخالص والنور التي كانت قد أحسّت بها ليلة شفاء بيلو. لم ترغب في قطع النظرة أو الابتعاد عن دفء ذلك الرجل الماثل أمامهم. ألا يستطيع الآخرون الإحساس بذلك؟ هل يمكن أن يقفوا في هذا المكان المغلق ولا يتأثرون بتألق الشمس الساطعة مِن هذا الكائن المقدّس؟

تنحنحَت لتنبّه زوجها إلى وجودها. نظر بيلاطس من مقعده ورأى زوجته، فقام قائلاً: "أستأذنكم لحظة أيّها السادة". أخذته كلوديا بعيداً عن مسامع الآخرين، وأحسّت بالذعر يسري في جسدها وهي ترى وجه زوجها الشاحب. وكان العرق يتصبّب من جبينه على صدغيه. مع أنّ الصباح كان بارداً.

قال لها بهدوء: "إني أرى العواقب وخيمة، يا كلوديا!"

"لا يمكن أن تسمح لهم بقتل هذا الرجل، يا بيلاطس. أنت تعرف ما هو."

هَزّ بيلاطس رأسه، وقال: "لا. لا أعرف ما هو، وهذا ما يصعّب عليَّ إصدار حُكْم".

"لكنّك تعلم أنه إنسان مستقيم قام بأعمال جيدة في أنحاء البلاد، وتعلم أنه لم يرتكب جريمة تستحقّ العقاب الشديد."

"هم يعتبرونه متمرداً على السلطة. وإذا وُجد أنّه يشكّل تهديداً لروما فلا يمكن أن أُبقي على حياته."

"لكن أنت تعلم أنَّ ذلك غير صحيح!"

أشاح بيلاطس بنظره عنها، ثمّ أخذ نفساً واستدار نحوها ليقول: "يا كلوديا! إني في مأزق. فهذا الرجل يتحدّى العقل والمنطق الروماني برُمّته. وهذا الوضع الذي نواجهه يشكّك في كل الفلسفات التي تعلّمتُها. قلبي وإحساسي الداخلي يقولان لي إنه بريء، ولا يجوز أن أحكم على رجل بريء."

"إذاً لا تحكم عليه! وما الصعوبة في ذلك؟ في يدك السلطة لإنقاذه، يا بيلاطس. أنقِذ الرجل الذي أعاد إلينا ابننا."

مرَّت يد بيلاطس على وجهه لمسح عرقه، وقال: "ما يُصعِّب الأمر هو أنَّ هيرودوس يطالب بإعدامه، ويريد تنفيذ ذلك اليوم باكراً."

"هيرودوس إنسان حقير!"

"صحيح. لكن هذا الحقير سيغادر هذا المساء متوجّهاً إلى روما، وإذا أغضبتُه يمكنه أن يؤلِّبَ القيصر عليَّ. يستطيع هذا الرجل أن يدمّرنا، يا كلوديا. فهل يستحقّ الأمر ذلك؟ هل تستحقّ حياة متمرِّد يهوديّ آخر التضحية بمستقبلنا؟"

صاحت كلوديا: "إنه ليس بمتمرِّد!"

قاطعهما صوت ممثّل هيرودوس الذي دعا بيلاطس للعودة إلى المحكمة. وفيما استدار وهَمَّ بالعودة، أمسكته كلوديا من ذراعه.

"لقد رأيتُ حلماً مروِّعاً الليلة الماضية. إنّي أخشى عليك وعلى بيلو إن لم تنقذ هذا الرجل. إنَّ غضب الله سيقع علينا جميعاً."

أجابها بيلاطس متسائلاً: "ربّما. لكن أيّ إله هو هذا؟ فهل أصدِّقُ أنّ لإله اليهود سطوة كبيرة على روما؟" ثم ناداه الرجال الآخرون ليعود إلى كرسيّ القضاء، فحدَّق إلى زوجته ملياً وقال: "هذه مُعضلة يا كلوديا، أصعب معضلة واجهتها في حياتي. إنّي أحسّ بوطأتها مثلك تماماً."

عادَ إلى كرسيّ القضاء ليستجوب السجين، ووقفت كلوديا وراء الستارة تراقب ما يجري.

قال بيلاطس للسجين الناصريّ: "إنّ عظماء كهنة أمّتك أسلموكَ إليّ وطالبو بموتك. فماذا فعلت؟ وهل أنت ملك اليهود؟"

أجاب عيسى بهدوئه المعتاد، حتى ليظنّ السامع أنّ حياته ليست مرهونة بإجابته: "أمِن عندك تقول هذا بناءً على ما تعرفه عنّي أم قاله لك فِيَّ آخرون؟"

"أجبْ عن السؤال. هل أنت ملك؟ إذا قلتَ إنّك لستَ ملكاً فسأعيدك إلى الكهنة ليحاكموك بحسب شريعتكم."

وهنا هبَّ يوناثان حنّان قائلاً: "لا يجوز لنا أن نقتل أحداً، أيّها الحاكم، لذلك أتينا إليك. لو لم يكن شِرّيراً خطيراً لما أسلمناه إليك."

قال بيلاطس متجاهلاً كلام حنّان: "فلْيُجِب السجين عن السؤال!"

امتثل عيسى وهو ينظر إلى بيلاطس فقط. لاحظت كلوديا تبادل النظرات بين الاثنين وأحسّت أن كلاًّ منهما لا يرى الآخرين في القاعة، فكأنّ ما يجري كان بينهما فقط كَشَدّ الحِبال بين القدَر والإيمان بِما سيغيّر وَجْه العالم. وشعرت برعشة تسري في بدنها من رأسها حتى أخمصيها.

"أنا ما وُلدت وأتيت للعالم إلّا لأبيّن للناس طريق الله وأشهد للحَقّ."

وكأنّما هذا القول حَرَّك روحيّة الفيلسوف في بيلاطس، فسأله متأمّلاً: "الحَقّ؟ أخبرني أيّها الناصريّ: ما هو الحَقّ؟"

وتبادلا النظرات مطوّلاً وكأنّما مصير كل منهما قد تشابَكَ بمصير الآخر. ثم قطع بيلاطس نظرته واستدار نحو الكهنة:

"سوف أقول لكم ما هو الحقّ. الحقّ هو أنّي لا أجد في هذا الرجل سبباً لاتّهامه".

فوجئ بيلاطس بالإعلان عن وصول شخص إلى القاعة. توقّف الاستجواب لدى دخول يائيرس وتحيّته الكهنةَ الآخَرين. واعتذرَ إلى بيلاطس عن تأخّره لانهماكه باستعدادات عيد الفصح.

ارتاح بيلاطس لرؤية مبعوث الهيكل الذي تحوَّل إلى صديق له، كما أصبح بينهما مؤخَّراً سِرّ مشترك علمَهُ كل منهما مِن الآخر. قال بيلاطس: "أهلاً بيائيرس الفاضل. لقد أخبرتُ إخوانك أني وجدتُ أنّ هذا الرجل لم يقترف أي ذنب، وأني لا أستطيع الحُكم عليه."

هزّ يائيرس رأسه متأمّلاً.

وصَوَّبَ قيافا نظره نحو يائيرس وقال: "أنت تُدرك مدى خطورة هذا الرجل".

نظر يائيرس إلى زميله الكاهن ثم إلى بيلاطس محاولاً جهده عدم النظر إلى السجين، وقال: "لكنّنا في موسم الفصح يا إخواني. إنّه عيد العدالة والسلام لأبناء شعبنا." وتوجَّه إلى بيلاطس بقوله: "أنت تعرف عادتنا في هذا الموسم!"

لمح بيلاطس ما يرمي إليه يائيرس، فتلَقَّفَ الفرصة وقال: "أجلْ، طبعاً. في هذا الوقت من كل سنة أمنح شعبكم حرّيّة اختيار سجين لينال الرحمة وأطلق سراحه. فهل نأخذ هذا السجين إلى الجمع في الخارج ونسأل رأيهم؟"

قال يائيرس: "جيّد"، فهو يعلم أنّ قيافا وحنّان قد وُضعا في موضع حرج وأنهما لا يستطيعان رفض ذلك العرض الكريم من روما. صحيح أنّه يعلم أن الحشد مليء بمؤيدي رؤساء الكهنة وعدد كبير من المرتزقة المأجورين لإثارة الجمهور ضدّ الناصري إذا اقتضى الأمر. وأمَلُ يائيرس الوحيد هو أن يكون الناصريون ومؤيّدوهم قد وصلوا في ذلك الوقت وأحضروا معهم أعداداً كبيرة مِن أتباعهم.

أشار بيلاطس لقائدي المئة لأخذ السجين خارجاً عند الأسوار الواقية، واستأذن قيافا وحنّان بالانصراف معتذرين بوجوب عدم ظهورهما مع الرومان في ذلك الصباح، على أن يعودا بعد اتّخاذ القرار بإخلاء سبيل أحَد السجناء. وقد شَكَّ بيلاطس في أن يكون رئيسا الكهنة قد أسرعا لاتّخاذ مكانهما مع أتباعهما بين الجمهور، لكنّه لم يستطع فعل شيء حيال ذلك. والتقت عيناه بعيني يائيرس وهو يستأذن أيضاً. وتبادلا تلك النظرة ذات المغزى، وانطلقا كُلّ إلى مهمّته.

خرج بيلاطس إلى الجموع المحتشدة وخاطبهم كعادته في كل سنة: "جَرَت العادة عندَكم أن أُطلقَ لكم أحَداً في الفصح". وجُرَّ عيسى بعنف إلى قرب بيلاطس. وحملقَ الحاكم إلى لونجينوس غاضباً بسبب عُنفه غير المُبرَّر، ونهره هامساً: "كفى!"، ثمّ توجّه إلى الجمهور، وأردف: "أتريدون أن أطلق لكم هذا الرجل، ملك اليهود؟"

اهتاج الجمهور وتعالت الأصوات مِن هنا وهناك. وسُمعت عدة أصوات تصرخ وتعلو فوق بقية الأصوات. صاح أحدهم: "لا ملك علينا إلّا قيصرا"، وهتف آخَر: "أَطلِقْ لنا برأبّا الغَيور"، وتعالت أصوات كثيرين من الناس مؤيدين هذا الطلب.

وسُمعت أصوات جريئة تصيح: "أَطلِق الناصريّ"، لكن دون جدوى، فأتباع

الهيكل كانوا قد نظموا صفوفهم. جيّداً وعلَت صيحات مطالَبَتهم بإطلاق برأبّا بأصوات محمومة متصاعدة: "برأبّا! برأبّا! برأبّا!"

لم يجد بيلاطس مفرّاً مِن إطلاق السجين الذي نادى به الجمهور. وهكذا خرج السجين برأبّا، مِن فرقة الغيورين، ليحتفل بعيد الفصح وحُكِم على عيسى الناصري بالجَلْد.

اعترضت كلوديا بروكيولا طريق زوجها وهو ينزل مِن حيث كان يُطِلّ من فوق السور، وسألته: "هل تريد جَلْدَه حَقّاً؟"

فجذبها بيلاطس جانباً بعُنف، وقال: "اهدئي يا امرأة! سوف أجلده علناً، لا بل سأجعل لونجينوس وبريتورس يقومان بذلك أمام أعين الجميع. هذا هو أملنا الأخير لإنقاذ حياته. فقد يروي ذلك عطشهم للدم ويكفّون عن المناداة بصلبه"، وتنهَّدَ عميقاً وهو يُفلت زوجته من قبضته، وأضاف: "ما لي حيلة سوى هذه، يا كلوديا".

"وإذا لم تكن كافية؟"

"لِمَ تسألينني وأنتِ لا تريدين الجوابَ الوحيد؟"

هزّت كلوديا رأسها، لأنها خشِيَت حدوث ذلك، وقالت: "اسمع يا بيلاطس! أريد منك شيئاً آخر بعد. عائلة هذا الرجل... زوجته وولداه، إنّهم في مؤخّرة القلعة. عليك أن تؤخّر عمليّة جلده قليلاً ليتمكّن من رؤيتهم. قد تكون هذه فرصته الأخيرة لمخاطبة أحبابه. فهّلا فعلْتَ ذلك؟"

أومأ بيلاطس برأسه على مضض وقال: "سوف أؤخّر الجلد فترة قصيرة. سأطلب من بريتورس أخذ السجين، ويمكننا الوثوق به خصوصاً إذا تعلّق الأمر بصاحبكم الناصريّ. أمّا لونجينوس فسأرسله لتحضير مكان جلده علناً".

وفى بيلاطس البنطي بوعده، وسمح بأخذ عيسى إلى مكان في مؤخّرة القلعة ليلتقي بمريم والولدين وقتاً قصيراً. عانق عيسى يوحنا الصغير وتامار طالباً منهما أن يكونا شجاعين ويعتنيا بأمّهما. وقبّلهما وقال: "تذكرّا، يا حبيبَيَّ الصغيرين، مهما حدث سأظلّ معكما دائماً."

ولما كاد وقتهما ينتهي، عانق مريمَ المجدليّة للمرّة الأخيرة، وقال لها: "اسمعي يا يمامتي الصغيرة، فهذا أمر هامّ. عندما أغادر جسدي الفاني، لا تتعلّقي بي! اتركيني أغادر، واعلمي أنّ روحي ستظلّ معكِ دائماً. اغمضي عينيكِ أكُنْ معك."

حاولَت أن تبتسم بالرغم مِن انهمار دموعها، وجهدت لتكون شجاعة. كان قلبها محطّماً، وجسدها خَدِراً مِن الألم والخوف، لكنّها لم تُظهر كل ذلك، فشجاعتها كانت آخر هدية استطاعت أن تقدّمها له.

وصل بريتورس إلى الحجرة ليأخذ عيسى. كانت عيناه الزرقاوان قد أُحيطتا بدائرتين حمراوين. ولاحظ عيسى ذلك، فقال للرجل مُهَوِّناً عليه: "افعَلْ ما عليك فعله."

قال قائد المئة وقد كادت كلماته تخنقه: "سوف تندم لأنّك شفيتَ هذه اليد!"

هزّ عيسى رأسه نافياً وقال: "لا، بل أعلم أن صاحب هذه اليد هو صديق. وأقول لك الآن إني سأغفر لك. لكن، هل تسمحُ لي بدقيقة واحدةٍ بعد؟"

أومأ بريتورس برأسه وذهب ينتظر في الخارج.

استدار عيسى نحو الولدين ووضع يده على قلبه، وقال لهما: "لا تَنْسَيا، أنا معكما هنا دائماً." فهزّ كل منهما رأسه بوَقار، وقد اتّسعَت عينا يوحنا الداكنتان وبان عليهما الحزن، أما عينا تامار الصغيرة فقد غمرتهما الدموع وظهرت عليهما مِسحة تفهُّم لذلك الموقف الرهيب.

ثمّ نظر إلى مريم وهمس: "عِديني بألّا تجعليهما يريان أيّ شيء آخر مِمّا سيحدث اليوم. أمّا أنت، فأتمنّى ألا تشهدي ما سيحدث، لكنّ الأمر..."

لم تدعْهُ يُكمل، بل تمسّكَت به بقوّة وضمّته إليها للمرة الأخيرة وكأنّها تملأ روحها وجسدها بما يُحسّ به هو. وهذه الصورة الأخيرة قُرْبه ستظلّ في ذاكرتها إلى الأبد. وهمسَت في أذنه: "سوف أكون هناك مهما حدث!"

أبعدَها عنه برِقّة وقال: "شكراً يا مريم". ثم قال كلماته الأخيرة لها والابتسامة على وجهه وكأنه سيعود إلى رؤيتها بعد قليل.

"لن تشتاقي إليّ كثيراً لأنّي لن أذهب. سيكون الوضع أفضل ممّا هو عليه الآن، لأننا لن نفترق أبداً."

قادَ عبد كلوديا اليونانيّ مريم والولدين إلى خارج قلعة أنطونيا عبر مدخلها الخلفيّ. وقد طلبت مريم رؤية كلوديا لشكرها شخصياً، لكنّ العبد هَزَّ رأسه وقال لها بلغته الأمّ:

"إنّ سيّدتي حزينة جداً لأحداث هذا اليوم. وقد أخبرتني أنها لا تستطيع مواجهتك. لقد فعلت كل ما في وسعها لإنقاذه."

"أخْبِرْها بأني أعلم ذلك، وكذلك عيسى يعلمه. قُلْ لها إني أتمنّى أن ألتقيها يوماً، وسوف أكون قادرةً على النظر إلى وجهها وإبلاغها شكري وشكره."

هَزَّ اليونانيّ رأسه تواضُعاً، وغادر ليقوم على خدمة سيّدته.

وغاصت مريم والولدان في زحمة أورشليم في يوم الجمعة الذي يسبق عيد الفصح. كان عليها إبعاد الولدين عن تلك المنطقة والابتعاد قدر الإمكان قبل أن تصل إلى آذانهما أصوات الجلْد. كان البيت الآمِن الذي وفّرته سالومة قريباً، فقرّرت مريم الذهاب إلى هناك لتطلب من مرتا إعادة الولدين إلى بيت عنيا.

كانت مريم العظيمة في البيت مع المريمين الكُبريين، لكن مرتا لم تكن هناك، فقد خرجَت تبحث عن المجدلية والولدين من دون أن تدري أنهم كانوا عائدين إلى البيت. وقد تألمت مريم المجدلية وهي تخبر أمّ عيسى بوقائع أحداث ذلك الصباح. هزّت مريم العظيمة رأسها، وقد ملأت الدموع عينيها المسنّتين المشعّتين حكمة وحُنُواً، وقالت أخيراً: "لقد رأى كل هذا منذ زمن بعيد. لقد رأيناه كلانا!"

قرّرت النساء مواجهة جماهير أورشليم. سيبحثن عن مرتا ويتأكّدن مِن إرسال يوحنا وتامار إلى مكان آمِن، ثمّ يجدن عيسى، فإذا كان سيُحكم عليه ذلك اليوم ويُصلب فإنّهن لن يتركنه. لقد وعدَتْهُ بذلك، وهو لم يطلب سوى وجودها ووجود أمّه في ساعاته الأخيرة.

فيما كُنّ يتهيّأنَ لمغادرة البيت جاءت مريم العظيمة إلى زوجة ابنها بالوشاح الأحمر الداكن الذي يدلّ على رُتبتهما، وناولتها إياه وقالت: "لفّي نفسك بهذا يا ابنتي، فأنت ناصريّة وملكة، اليومَ أكثر مِن أيّ وقت مضى".

حنَتْ مريم المجدلية رأسها متهيّبة وأخذت الوشاح الأحمر الطويل ولفّته حول جسدها وهي تعلم عِلْم اليقين أن حياتها على الأرض ستتغيّر منذ ذلك اليوم.

راح الجمهور يصيح ويهدر "اصلبْهُ! اصلبه!" وقد راقبهم بيلاطس عاجزاً مشمئزاً. فدماء الناصري النازفة بسبب جلده لم تشبع غليلهم. لا بل إن ذلك دفع أولئك الغوغائيّين إلى الجنون في مطالبتهم بحياة السجين. تقدَّم رجل حاملاً إكليلاً من الشوك ورماه نحو عيسى الذي كان لا يزال واقفاً مُرخياً ثقل جسده على عمود الجَلْد وقد تكشَّفَ ظهره، وقال له هازئاً: "هذا هو تاجك أيها الملك"، فضحك منه الجميع.

فك بريتورس أغلال عيسى وأراد أن يبعده عن عمود الجَلْد، وعند ذاك تقدّم لونجينوس والتقط إكليل الشوك والصقه بشدّة على رأس عيسى. فتشقَّق جلد رأسه وجبينه، وسال الدم ممزوجاً بالعرق ودخل عينيه، فيما كان جمهور الشامتين حوله يضجّ هادراً ضاحكاً. فصاح بريتورس في رفيقه في الحِراسة: "كفى يا لونجينوس!"

قهقه لونجينوس وأجابه بصوته الأجَشّ: "لقد أصبحتَ رقيقاً!"، وبصق على رِجْلي بريتورس، وأضاف: "لم تُعمِل عضلاتك فعلاً في جلد ملك اليهود هذا!"

ولمّا أجابه بريتورس كان صوته هادراً حتى إنه أثار الرعب في نفس لونجينوس وهو يقول: "إذا لمسْتَه ثانيةً من غير داعٍ سأجعل لك جرحاً كهذا على خدّك الآخر!"

جاء بيلاطس ووقف بين حارسيه لمّا خشي أن يتعاظم الأمر بينهما، فهو لن يسمح بذلك، وخصوصاً ذلك اليوم. لا يهمّه ما سيفعلانه بعيداً عن أعين الناس فيما بعد، لكن عليه التدخّل في تلك اللحظة لمنع تفاقم الأمر. ثم رفع الحاكم يده ليخاطب الجمهور.

قال بيلاطس: "هوذا الرجل. وأقول الرجل، ولا أظنّه ملكاً. إني لا أجد فيه سبباً لاتّهامه. وقد جُلد بناءً على القانون الروماني. ولا يمكنني فِعْل شيء آخر."

وجاءت معزوفة الجماهير الهادرة ثانيةً: "اصلبْه! اصلبْه!"، وتكرَّرت كأنها مشهد تمَّ التدريب عليه وإخراجه بعناية. اغتاظ بيلاطس مِن تحريك الناس بهذا الشكل ومِن صعوبة الموقف الذي وجد نفسه فيه.

وضع يده على عيسى ومال نحوه وخاطبه بصوت خفيض قائلاً: "اسمعْ أيّها الناصريّ. هذه فرصتك الأخيرة لتخلّص نفسك. لذلك أسألك: هل أنت ملك اليهود؟ لأنك إذا قلتَ إنّك لستَ ملكاً، فلن أجدَ في القانون الروماني

سبباً لصلبك، ويكون لديّ السلطة لإطلاق سراحك." وشدَّد على جُملته الأخيرة كأنّه يرجوه بإلحاح.

نظر عيسى إلى بيلاطس صامتاً.

وكأنّ عيسى قرأ ما كان يجول في خاطر بيلاطس تلك اللحظة: "هيّا، قُلْ إنّكَ لستَ ملكاً! انطقْ يا رجل!"

فأجابه بما يُشبه الهمس: "لا أستطيع أن أسهّل لك الأمر. فقَدَر كلّ منّا قد تمَّ اختياره. والآن عليك أن تختار سيّداً لك."

كان الجمهور يزداد توتّراً، وطنَّتْ في رأس بيلاطس صيحات الناس. وكان بينها هتافات لصالح الناصريّ، لكنّها ضاعَت إذ طغَت عليها صيحات المرتزقة الذين كانوا قد تلقّوا أجوراً سخيّة للقيام بما قاموا به في ذلك اليوم. وصارت أعصاب بيلاطس مشدودة كالقوس وهو يوازن بين واجباته وطموحه وفلسفته وعائلته، ورآها كلها تتأرجح على كتفي ذلك الناصريّ النحيل. وذُعر لسماعه صوتاً عن يساره، وكان صادراً عن مبعوث هيرودوس أمير الجليل.

فصاح به بيلاطس محتدّاً: "ما الأمر؟"

ناول الرجل بيلاطس لُفافة ممهورة بختم هيرودوس. نزع بيلاطس ختم الرسالة وقرأ ما فيها:

"انْتَهِ من قضيّة الناصري فوراً، فإني منطلق إلى روما باكراً. واعْلَمْ أنني قد أقدّم تقريراً لقيصر عن كيفيّة معالجتك للتهديدات الموجّهة ضدّ جلالته!"

كانت هذه الضربة القاضية على بيلاطس! قرأ الرسالة ثانية وأدرك أنّها مغطّاة بالدم، دم الناصريّ الذي لطّخ يدي بيلاطس. نادى خادماً، وأمر بإحضار طست فضيّ مليء بالماء. وغطّس يديه في الماء وغسل البقع عنهما، وأزاح عينيه عن الماء الذي تحوّل إلى اللون الأحمر لامتزاجه بدم السجين الماثل أمامه.

وصاح ليسمعه الجمهور: "إنّي بريء من دم هذا الرجل. اصلبوا ملككم إذا كان هذا هو ما تريدونه." واستدارَ مِن دون أن ينظر إلى عيسى وتوجّه إلى داخِل قلعة أنطونيا.

لكنّ الأمر لم ينتهِ بالنسبة لبيلاطس، فقد لحق به قيافا ومعه عدد من رجال الهيكل.

صاح بيلاطس بالكاهن: "ماذا بعد؟ ماذا تريدون منّي أيضاً؟"

ابتسم قيافا ابتسامة الواثق، وقال: "شيء بسيط آخر يا صاحب السعادة!"

"ماذا تريد؟"

جرَت العادة أن تعلَّق رقعة على الصليب يُكتب فيها ما يوضح للناس جريمة الرجل. ونطلب منك أن يُكتب فيها أنّه كان مُجَدِّفاً."

أمر بيلاطس بإحضار الموادّ اللازمة لإعداد الرقعة، وقال: "سأكتب سبب إصدار الحكم عليه، وليس ما تطلبه مني. وهذه هي العادة."

وكتب العبارة المختصرة (INRI) وتحتها معناها: عيسى الناصريّ، ملك اليهود،

ثمّ نظر بيلاطس إلى خادمه وأمرَه: "يجب تعليق هذه بمسمار فوق رأس السجين على الصليب. واجعل الكاتب يضيف تحت العبارة معناها بالعِبْريّة والآرامية.

فوجئ قيافا وقال مُعترِضاً: "لا تكتُب: ملك اليهود. بل اكتب: ادَّعى أنّه ملك اليهود. حتّى يعرف الناس أننا لا نعتبره كذلك."

أحسّ بيلاطس أنّه لم يَعُد يطيق ذلك الرجل وألاعيبه، فأجابه غاضِباً: "ما كُتب قد كُتب!"

وأدار ظهره لقيافا والآخرين، وانسحب إلى مقرّه الخاصّ حيث حبس نفسه بقيّة يومه.

تكاثَر عدد الناس وتحرّكوا ككائن حيّ ضخم، وكانوا يجرفون مريم والولدين في زحفهم. تشبَّثَت يدا مريم بيوحنا وتامار وهي تسير وسط الحشد بحثاً عن مرتا. وفهمت مريم من أحاديث الناس حولها أنّه قد حُكم على عيسى وأنّه يُساق إلى هضبة الجلجلة لتنفيذ الحكم بإعدامه. وقياساً على نوعيّة تحرُّك الناس، قدَّرَت مكان وجود عيسى في المسيرة التي كانت تخترق الشارع. وازداد يأسها، فقد كان عليها إيجاد مرتا أوّلاً لتأمين سلامة الولدين قبل أن تمضي الساعات الأخيرة إلى جانب عيسى.

ثمّ سمعته! سمعت صوت عيسى واضحاً في ذهنها وكأنّه يقف قربها. "اطلبوا تجدوا. الأمر في غاية البساطة. علينا أن نسأل الربَّ إلهنا ما نريد وهو يعطيه للذين يحبّهم".

شدّت مريم المجدلية على يدي ولديها، وأغمضت عينيها، وقالَت في نفسها: "أرجوكَ أيّها الربّ، ساعدني لأجد مرتا كي أؤمّن سلامة ولدَيَّ وأكون إلى جانب عيسى الحبيب في آلامه."

وما إن مرَّت ثوانٍ حتّى اخترق صوت مرتا صخب الجمهور ووصل إلى مسمع مريم وهي تقول: "مريم! مريم! أنا هنا." فتحت مريم عينيها ورأت زوجة أخيها تندفع نحوها. تعانقتا بحرارة بالغة، وقالت مرتا: "لقد عرفتُكِ من بعيد. إنّك ترتدين الوشاح الأحمر!"

قاومت مريم دموعها، فلا وقتَ للبكاء، لكنّ حضور مرتا أزاح عنها هماً كبيراً. قالت مرتا وهي تحمل تامار: "تعالي يا أميرتي الصغيرة!"، ثم أمسكت يد يوحنا، وقالت له: "وأنتَ أيضاً أيّها الشابّ العظيم!"

عانقت مريم الولدين بشِدّة، وأكّدت لهما انّها ستراهما قريباً في بيت عنيا. وهمسَت لها مرتا: "اذهبي يا أختي. كان الله معكِ. سوف نحافظ على الولدين حتى عودتك إلينا سالمة بإذن الله." ثمّ قبّلَت أخت زوجها الشابّة التي أصبحت الآن امرأةً وملكةً، وراحت تشقّ طريقها وسط الازدحام ومعها الولدان.

جاهدَت مريم المجدلية كثيراً للتقدّم بين الحشود. وتمكّنت من البقاء بموازاة تلك المسيرة الصاخبة، لكنّها لم تستطع الاقتراب من عيسى. ولمحت من بعيد الوشاح الأحمر على رأس مريم العظيمة والمريمات الأخريات، فحاولت اللحاق بهنّ على الطريق الملتفّة المؤدية إلى الجلجلة. لم تُفلح في الوصول إليهنّ لأن حركة الناس المتدافعين صعوداً أعاقتها وأبعدَتْها.

لمّا وصل قوّاد المئة إلى رأس التلة المعروفة باسم موضع الجمجمة، رأت أنّهم يبعدون عنها حوالى مئة متر، وشاهدت عيسى وقد كاد يتكوّم على نفسه وعلى مسافة قريبة منه أمّه مريم والمريمات الأخريات بأرديتهنّ الحمراء. وملأ الناسُ الدرب حتى أعلى التلّة فَسُدَّت الطريق على تقدُّم مريم. لم تعُدْ تكترث لشيء، ولم

يكن أمامها وقت للتفكير إلّا في الوصول إلى عيسى. فالتفّت حول جمهور الناس وغادرت الدرب الصاعدة وبدأت تتسلّق التلّة الصخريّة. كانت وعرة مليئة بالحجارة الناتئة والأشواك. لكنها لم تُعِرْ كل ذلك أهميّة. ولم تحِسّ بأي ألم في جسدها وهي ماضية صعوداً للوصول إلى عيسى بعزم لا يلين.

كان ذهن مريم مأخوذاً بغايتها الوحيدة وهي الوصول إلى عيسى، حتى إنّها لم تلاحظ أن السماء قد بدأت تتجهّم. وزَلّت قدمها على صخرة فوقعت على شجيرة شائكة فتمزّق الجزء الأسفل من وشاحها وامتلأت رجلاها بالأشواك. ثمّ سمعت الصوت، ذلك الصوت الذي يخترق الأذن ويقطّع القلب والذي سيلازمها كل ليالي حياتها - معدن يطرق معدناً، مطرقة تدقّ مسماراً. ثم صدرت صرخة ألم عندما تعثّرت مريم ثانية، لكنها لم تدرك إلّا لاحقاً أنّ الصرخة إنّما صدرَت عنها.

لقد أصبحت مريم قريبةً، ولا يمكن أن يُعيقها أيّ شيء. ولمّا وقفت تنبّهت إلى أن الحجارة كانت زلقةً لامتلائها بالماء. اسودّت السماء ونزلت قطرات المطر كدموع سماوية فوق الأرض المحروقة اللعينة حيث سُمِّر عيسى إلى صليب خشبيّ.

بعد لحظات، وصلت مريم المجدلية عند أسفل الصليب وانضمّت إلى حماتها والمريمات الأخريات وهنّ يقفن هناك. وكان على هضبة الجلجلة، على جانبي عيسى، رَجُلان آخران يُعانيان على صليبين أيضاً. لم تنظر إليهما مريم، إذْ لم تَرَ إلّا عيسى. وصَمَّمَت على عدم النظر إلى جراحه، وركّزت بصرها على وجهه الذي بدا هادئاً ساكناً، وكانت عيناه مُغمضتين. وقفت النساء هناك يسند بعضهنّ بعضاً وهُنّ يطلبن من الله أن يخفّف آلام عيسى. نظرت مريم حولها ولاحظت أنّها لا تعرف أحداً من الجمع الواقف خلفهنّ، ولم ترَ أيّ واحد من التلاميذ خلال ذلك اليوم.

أبقى الرومان الحشود بعيداً عن موضع الصلب، وكان على رأس قوّادهم قائد المئة بريتورس. فصلّت مِن أجله صلاة صامتة لأنها أيقنت أنّ تلك الخلوة التي أُتيحت للعائلة تحت الصليب إنما كانت مِن تدبيره.

جمدت النساء عندما سمعْن عيسى يحاول أن يتكلّم وهو على الصليب. وكان

ذلك صعباً، لأن جسمه المتدلّي قد أثقلَ على رئتيه وجعل مِن الصعب عليه التنفّس والكلام في آن واحد. قال بصوت خفيض: "أمّي... انظري إلى ابنك!"

اقتربت النساء من الصليب ليستطعن سماع كلماته. وكان الدم يقطر من أنحاء جسده ويمتزج بماء المطر النازل على وجوه النساء. ثم قال للمجدلية: "يا حبيبتي... هذه هي أمّكِ!"

أغمض عيسى عينيه وقال بصوت رقيق، لكن بكلّ وضوح: "لقد تَمَّ كلّ شيء." وحنى رأسه وأصبح جامداً بلا حراك.

فَسادَ صمت عظيم وجمدَ الجميع في أماكنهم. واسودّت السماء تماماً، ولم يكن ذلك بسبب السحب الماطرة الداكنة، إنما كانت كقبّة حالكة جداً لا بصيص نور فيها.

ذعِرَ جميع مَن كان على التلة وملأت صرخات ارتباكهم الجوّ. لكنّ السواد لم يدُمْ أكثر من لحظات، إذْ تحوّل إلى اللون الرماديّ. تقدَّم جنديّان مِن بريتورس وقال أحدهما:

"لدينا أوامر بالتعجيل في موت هؤلاء السجناء لإنزال أجسادهم قبل يوم السبت الذي يقدّسه اليهود".

نظر بريتورس إلى جسد عيسى وقال: "لا داعي لكسر ساقَيْ هذا الرجل، لأنه قد مات."

فسأله الجندي: "هل أنت متأكّد من ذلك؟ فالمصلوبون يستغرقون عدة ساعات عادةً قبل أن يختنقوا، وأحياناً أيّاماً!"

فزمجر بريتورس: "هذا الرجل قد مات! إيّاك أن تلمسه!"

فهم الجنديان تهديد قائدهما، فأخذا هراوتيهما وذهبا لينفّذا مهمّتهما الكريهة بِكَسْر سِيقان الرجلينِ الآخرينِ المصلوبينِ للتعجيل في موتهما.

كان بريتورس منهمكاً بإصدار أوامره وتعليماته فلم يلاحظ لونجينوس وهو يقترب من الناحية الأخرى، ولما استدار وحدّق حيث صليب عيسى، كان قد حدث ما حدث! فقد طعن لونجينوس جنب الناصري بحربة كانت في يده. فصرخت مريم المجدلية اعتراضاً.

وكان رَدّ لونجينوس ضحكة قاسية أتبعها بقوله: "كنتُ أتأكّد. أنتَ على صَواب، إنه ميت". ورأى وجه بريتورس مبيضاً مِن شدة حنقه، فسأله: "ماذا ستفعل حيال الأمر؟"

أراد بريتورس أن يقول شيئاً، لكنّه توقّف عمّا كان يقوله. ثم قال بكلّ هدوء: "لا حاجة لأفعل أيّ شيء. لقد جلبْتَ لنفسك اللعنة بفعلتك هذه."

صدر صوت بريتورس آمراً: "أنْزِلوا هذا الرجل".

فقد جاء رسول من قلعة بيلاطس حاملاً أمراً بإنزال جسد الناصري وتسليمه لجماعته لدفنه قبل مغيب الشمس. وكان ذلك أمراً غير مألوف لأن ضحايا الصلب كانوا عادةً يُتركون لتهترئ جثثهم على صلبانهم ليكونوا عبرةً للناس. لكنْ أمر عيسى الناصريّ كان مختلفاً.

فقد وصل عمّ عيسى، التاجر الغنيّ يوسف، بصحبة يائيرس إلى قلعة أنطونيا وقابلا كلوديا بروكيولا التي حصلت لهما على الإذن بإنزال الجسد فوراً لدفنه. وحين وصل يوسف إلى الصليب، عزّى مريم العظيمة عندما أنزلوا ابنها عن صليبه. مَدّت أم عيسى يديها فيما كان الجنود يحملون الجثّة.

قالت: "أريد أن أضمّ ابني مرّة أخيرة."

حمل بريتورس جسد عيسى ووضعه برفق على حضن مريم العظيمة. فضمّته إليها وسمحت لنفسها بالبكاء علناً على فقد ابنها الحبيب. اقتربت مريم المجدلية وجثَت قربها، فضمّتهما مريم العظيمة معاً، يداً حول زوجة ابنها والأخرى على رأس عيسى.

ظلّوا معاً في ذلك الوضع الحزين وقتاً طويلاً.

كان يوسف قد اشترى قبراً لعائلته في بستان غير بعيد عن الجلجلة، حملَ الناصريون إليه جثمان عيسى. وجاء رجل اسمه نيقوديمس، وهو شاب ناصري يعمل لدى يوسف، وأحضر المُرّ والعود. بدأت المريمات إعداد الجثمان للدفن فوضعن الكتّان لِلفّه به. ثم حان وقت دَهْنه بالطيب، فأعطت مريم العظيمة القارورة لمريم المجدلية وقالت: "شرَف القيام بذلك هو لك وحدك".

قامت المجدلية بواجبها كأرملة عند دفن زوجها. وقبّلت عيسى على جبينه

وودّعته، فامتزجت دموعها بزيوت الطيب. وفيما هي تفعل ذلك سمعت صوته معها هامساً في القبر: "أنا معك دائماً."

وألقت النساء الناصريّات معاً نظرة الوداع الأخيرة على الجثمان وغادرن القبر. وقد أُعِدّ حجر ضخم لإقفال القبر حفاظاً على جثمان عيسى، فقام عدّة رجال مستخدمين بكرةً كبيرة وعوارض خشبية، بدحرجته وسَدّ باب القبر. وعند انتهاء تلك المهمّة الأخيرة، ذهب الجميع مُكتئِبينَ إلى بيت يوسف. وهناك ارتمَت مريم المجدلية مُنهارةً ونامت حتى اليوم التالي.

تجمّع عدد من الرسل في منزل يوسف بعد ظهر يوم السبت للقاء المجدلية والمريمات الأخريات. تحدّث الجميع عن أحداث اليوم السابق وتفجّعوا جميعاً وواسى بعضهم بعضاً. كانوا في غاية اليأس والقنوط، لكن ذلك جمعَهم وقرَّبَهم بعضهم من بعض. كان من المبكّر التخطيط لمستقبل حركتهم، لكن روح الوحدة والانسجام بينهم كانت بلسماً لأرواحهم الحزينة.

كانت مريم المجدلية قلقة بشأن يهوذا الإسخريوطي الذي لم يره أحد ولم يُعرف عنه شيء منذ القبض على عيسى. جاء يائيرس إلى منزل يوسف ليسأل عن أخبار يهوذا، وأبلغَهم أنه كان في حالة مُزرية جداً بعد اعتقال عيسى. وقد بكى أمام يائيرس تلك الليلة متسائلاً: "لماذا اختارني أنا لهذا العمل؟ لماذا تمّ اختياري لتنفيذ هذه الجريمة بحَقّ شعبنا؟"

أوضحت مريم للتلاميذ المقرَّبين أنّ عيسى قد أمرَ يهوذا بتسليمه للسلطات، لكنّ الآخرين لم يعرفوا، ولم يكن بإمكانهم أن يعرفوا الحقيقة. لذلك أصبح اسم يهوذا يعني "الخائن" في كافة أنحاء أورشليم، وسرَت تلك الصفة عنه بين الناس بسرعة فائقة. وكانت تلك السمعة السيئة التي أُلصقت بيهوذا مظهراً من مظاهر الظلم العديدة التي حدثت في مسيرة القدَر والنبوءة. وصلّت مريم متمنّية أن تتمكّن يوماً من إعادة الاعتبار إلى اسم يهوذا، لكنّها لم تكن تدري كيف ستتمكّن مِن تحقيق ذلك.

ولم يتمكّن يهوذا نفسه من معرفة ما إذا كانت مريم ستتمكن من إعادة الشرف إلى اسمه. فقد اكتشف التلاميذ فيما بعد أنّه قد فات الأوان، إذ حدثَت مأساة أخرى بعد ظهر ذلك اليوم الأسود. لم يستطع يهوذا الإسخريوطي أن يتقبّل فكرة ارتباط اسمه إلى الأبد بموت سيّده، فانتحر في ذلك اليوم المظلم. ووُجد مُعلّقاً على شجرة خارج أسوار أورشليم.

نامَت مريم المجدلية نوماً متقطعاً تلك الليلة، فقد تزاحمت الصور والأصوات والذكريات في رأسها، إلى جانب شيء آخر. بدأ كإحساس بالاضطراب أو حَدْس مُبْهم بحدوث أمر غير مألوف. نهضت مريم من فراشها، ومشت بهدوء في أرجاء البيت. كانت السماء لا تزال مظلمة، فالفجر لن ينبلج قبل ساعة على الأقلّ، وكان الجميع نياماً، ولم ترَ شيئاً غريباً حولها.

وسرعان ما أدركت الأمر! أحسَّت بومضة النبوءة التي تجمع المعرفة والرؤية. عيسى! عليها الذهاب إلى القبر فوراً! إنّ شيئاً ما يحدث هناك. تردَّدَت مريم لحظة، فهل توقظ يوسف أو أحداً آخر لمرافقتها؟ بطرس مثلاً؟

"لا! هذه المهمّة لك وحدكِ".

سمعَت ذلك الصوت من داخِل رأسها، لكنّ صداه تردَّد حولها. ثم انسلَّت مريم المجدلية من الباب ملتفَّةً بإيمانها وبوشاح الحِداد. وما إن أصبحت في الخارج حتى انطلقت جرياً نحو القبر.

كان الظلام لا يزال مخيّماً لمّا وصلت مريم إلى البستان الذي فيه القبر، وكانت السماء أقرب إلى اللون الأرجوانيّ منه إلى الأسود، فالفجر سيطلع قريباً. وفي ذلك النور الضئيل رأت مريم أن الحجر الضخم، الذي قام أكثر من عشرة رجال بِجَرّه، قد أُزيح عن القبر.

ركضت مريم نحو باب القبر المفتوح وقلبها يخفق هلَعاً. وحنت رأسها قليلاً لتدخل فلاحظت أن عيسى لم يكن هناك. وللحال شَعَّ نور غريب أَضاء داخل القبر ورأت مريم بوضوح أن لفائف الكتّان ممدودة على البلاطة. وظهرَ على القماش أثَرُ شكل جسَد عيسى، وكان ذلك الدليل الوحيد على أنّه كان هناك.

كيف حدث هذا؟ هل يكره الكهنة عيسى لهذه الدرجة فأقدموا على سرِقة جثّته؟ لا، ذلك مُستبعد. إذاً مَن قامَ بذلك؟

أحسّت مريم بالضيق، فمشت باضطراب إلى الخارج تريد استنشاق الهواء. انهارَت هناك باكيةً على ما حسبَتْه حدَثاً آخر مؤلماً لعيسى. اغرورقَت عيناها بالدموع فيما بدأت خيوط شمس الصباح رحلتها مِن السماء. وما إن وقعَت أشعة الشمس الأولى على وجهها حتى سمعت صوت رجل مِن ورائها.

"لماذا تبكين، أيّتها المرأة، وعمَّن تبحثين؟"

لم تنظر إليه مريم فوراً، فظنّت أنه بُستانيّ جاء في الصباح الباكر ليهتمّ بالنباتات والأزهار حول المقابر. ثم تساءلت هل يُمكن أن يكون قد شاهدَ ما قد يُفسِّر لها ما حدث. فخاطبته وهي ترفع رأسها والدموع تملأ عينيها: "لقد أخذوا الجثمان، ولا أدري أين وضعوه. فإذا كنتَ تعلم مكانه فأرجوك قل لي أين هو".

وجاءَها جواب بسيط صغير: "مريم!" هذا صوته وهذه نبرته! جمدت لحظة وخشيَتْ أن تلتفِتَ لأنها لم تدرِ ما الذي ستراه. ثم قال لها: "مريم! أنا هنا!"

استدارت مريم المجدلية ورأته يقف أمامها بَهيّاً تزيدُه أنوار شمس الصباح تألّقاً. وقف عيسى هناك لابساً حلّة بيضاء نقيّة ولا أثرَ للجروح على جسده. وابتسم لها ابتسامته الدافئة الرقيقة.

حاولت أن تدنو منه، فرفع يده وقال: "لا تتعلّقي بي يا مريم. لقد انتهت أيّامي على الأرض مع أنّي لم أصعد بعد إلى السماء. كان عليَّ أن أعطيك هذه العلامة أوّلاً. اذهبي إلى إخوتنا وقولي لهم إنّي سأصعد قريباً إلى السماء".

أومأت مريم برأسها ووقفت خاشِعة أمامه، ورأت أنّ نور طِيبته وصفائه يشرق ويسطع على كل ما حولها.

ثم قال لها: "لقد انقضت أيامي هنا. والآن جاء أَوانكِ."

الفصل العشرون

شاتو دي بوم بلو
2 تموز (يوليو) 2005

جلست مورين مع بيتر في الحديقة وماء نافورة مريم المجدلية يقرقر بهدوء وراءَهما. كان عليها أن تُخرجه إلى الهواء الطلق والهدوء. كان وجه ابن خالها شاحباً ومتغضّناً لأرَقه المتواصل وإجهاده طوال الأسبوع. وكأنّ الأيام الأخيرة قد جعلته يشيخ سنوات. حتى إن مورين لاحظت وجود خطوط بيضاء في شعر صدغيه الأسود لم تكن هناك مِن قبل.

بالكاد سُمع صوت بيتر يقول لها: "هل تعلمين ما هو أصعب شيء في كل هذا؟"

هزّت مورين رأسها نافية، فذلك بنظَرها شيء مثير، لكنّها تعلم أنَّ معظم ما يؤمن به بيتر أو يعيش من أجله قد اهتزّ أمام ما قرأه في إنجيل مريم. ومع ذلك فإنّ كلماتها أكّدت أكثر فرضيّات المسيحيّة قداسةً، وهي القيامة.

فأجابته مورين: "لا. أَخبرْني".

نظر إليها بيتر بعينين حمراوين مُحتقِنتين بالدم، وحاول أن ينقل إليها ما يجول بفِكْره: "ماذا يحدث... ماذا يحدث لو أنّنا كُنّا، على مدى أَلفَيْ عام، نُنكر على يسوع رغبته الأخيرة؟ وهل أراد إنجيل يوحنا إخبارنا أن يسوع ظهرَ أوّلاً لمريم المجدلية ليقول إنها خليفته المختارة؟ ويا للسخرية لو كُنّا - باسمه - رفضْنا إعطاءها المكانة التي تستحقّها ليس كتلميذ فقط بل كرئيسة للتلاميذ؟"

ثم أطرقَ قليلاً مُحاوِلاً استيعاب كل هذه التحدّيات التي واجهت عقله وروحه.

"لا تتعلّقي بي. هذا هو ما يقوله لها. هل تعرفين أهمية ذلك؟"

وهزّت مورين رأسها نافيةً وانتظرت الإيضاح.

"ترجمة الأناجيل مختلفة، فهي تقول: لا تمسكيني. والحقيقة أن الكلمة اليونانية في أصول الأناجيل هي أقرب إلى (تتعلّقي) بدلاً مِن (تُمسكي). لكن لم يكترث أحد لهذا الأمر. فهل تلاحظين الفرق؟" فالفكرة برمّتها كانت وَحْياً لبيتر بصفته عالماً ولغوياً. "هل ترين كيف أنّ ترجمة كلمة واحدة فقط قد تُغيّر كلّ شيء؟ لكن في هذه الأناجيل العبارة هي (لا تتعلّقي) حتماً، وهي تستخدمها مرّتين على لسان يسوع."

حاولت مورين أن تتبع ردّة فعل بيتر حيال ترجمة تلك الكلمة وعلّقت: "هناك فرق طبعاً بين العبارتين!"

أجاب بيتر مؤكّداً: "أجلْ. وقد استُعملت عبارة (لا تمسكيني) ضدّ مريم المجدلية لتُظهر أن المسيح أراد دَفْعها بعيداً عنه. لكن ما نراه هنا هو أنه يخبرها بعدم التعلّق به عندما يرحل لأنه يريدها أن تعتمد على نفسها". ثمّ تنهّدَ عميقاً وأردف قائلاً: "المسألة خطيرة جداً!"

راحت نتائج قصّة مريم تتفاعل في ذهن مورين، فقالت: "أعتقد أن تصوير النساء في مراكز القيادة في الحركة هو أحد أهمّ عناصر قصّتها. بيتر، أنا لا أريد أن أزيد الأمر تعقيداً، لكن ما هي حقيقة وضع العذراء؟ هي تدعوها مريم العظيمة وتذكر بكل وضوح أنّها قائدة الشعب. فكلمة (مريم) هي لقب يُعطى للقائدات. ثمّ هناك موضوع الوشاح الأحمر..."

هزّ بيتر رأسه مُنفعلاً وكأنّه يريد بذلك إفراغه من الهموم، وقال: "لقد سمعْتُ مرّة أن الفاتيكان أعلن وجوب تصوير العذراء لابسةً الأبيض والأزرق فقط لإضعاف سلطانها وإخفاء أهميتها كإحدى قائدات الناصريّين اللواتي كُنّ يرتدين الأحمر، كما رأينا. وكنت أظنّ أن ذلك الكلام هراء، فقد بَدا واضحاً لي أن الأزرق والأبيض إنّما يرمزان إلى نقائها."

ثمّ نهض بيتر متثاقلاً وهو يضيف: "أمّا الآن، لا شيء يبدو واضحاً أمامي".

منطقة كيب كود، ماساشوستس

2 تموز (يوليو) 2005

عَبْرَ الأطلسي، في كيب كود، جلس الثريّ الكبير إيلاي وينرايت يحدّق من النافذة إلى الأراضي الشاسعة المحيطة بقصره. كان قلقاً لأنه لم يتلَقَّ خبراً مِن ديريك على مدى أسبوع كامل. وكان في فرنسا فريق من الأميركيّين للمشاركة في احتفالات

عيد يوحنا المعمدان، وقد اتّصل رئيس المجموعة بإيلاي وأخبرَه أنّ ديريك لم ينضمّ إليهم في باريس.

أعملَ إيلاي عقلَه مُحاوِلاً التفكير بمنطق ديريك. صحيح أن ابنه كان مستقلّ الرأي، لكنّه يعلم مدى أهمية تلك المناسبة. ولم يكن عليه إلّا تنفيذ الخطّة، أي ملازَمة معلّم الحقّ ومراقبة تحرّكاته ومعرفة آرائه، على أن يقدّم تقريراً وافياً فيما بعد يستند إليه الأميركيّون لوضع خطّة الانقلاب للإطاحة بنفوذ الأوروبيّين في الطائفة.

وقد أعرب ديريك، في اجتماعهم الأخير في الولايات المتحدة، عن عدم رضاه عن خطّة والده المقترحة لتحقيق ذلك الهدف معتبراً إيّاها طويلة الأمد. كان إيلاي مُخطّطاً بارعاً، لكنّ ابنه لم يرث عنه صفات الصبر والتنظيم والتخطيط التي جعلت عائلة وينرايت من أصحاب البلايين. فهل أقدمَ ديريك على عَمَل طائش أحمق؟

وتلقّى وينرايت الجواب المُريع بعد ظهر ذلك اليوم عندما مزَّقَت صرخة زوجته هدوء منطقة كيب كود البحريّة. قفز إيلاي من مقعده وهُرع إلى قاعة المدخل حيث وجد زوجته منهارةً كومةً مرتجفة على الأرض.

"ماذا حدث بربِّك يا سوزان؟"

لم تستطع سوزان أن تجيب. كانت تنشج بشكل هستيري، وتلفّظت بكلام غير مفهوم وهي تشير إلى طرد بريدي على الأرض قربها.

نظر إيلاي إلى داخل الطرد، فوجد علبة صغيرة، فأخرجها منه. رفعَ غطاءها، فوجدَ خاتمَ تخرُّج ديريك مِن جامعة يال.

كان الخاتم مربوطاً بما تبقّى مِن سبّابة ديريك وينرايت المقطوعة!

شاتو دي بوم بلو
3 تموز (يوليو) 2005

لم يكن من عادة مورين أن تستغرق عميقاً في النوم حتى في الظروف العادية. وفي تلك الليلة، لم تستطع النوم بالرغم مِن أنّها كانت تعبةً جداً، لأن موضوع المخطوطات كان يشغل بالها. سمعَت وَطْءَ قدمين في الممرّ خارج غرفتها، فجلست في سريرها. كانت الخطوات خافتةً كأن صاحبها لا يريد أن يسمعه أحد. راحت مورين تُصغي مليّاً، لكنها لم تتحرّك. وظنّت أنّها قد تكون خطوات أحد خدّام القصر، فالقصر كبير جداً وهي لا تعرف كلّ مَن يسكنه.

استلقَت مجدّداً، لكنّها اضطربت عندما سمعت صوت محرّك سيّارة خارج القصر. كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً، فسألت نفسها: مَن هذا يا تُرى؟ نهضت مورين من سريرها واتّجهت نحو النافذة المطلّة على واجهة البيت. فركَت عينيها لأنّها لم تصدّق ما رأته!

كانت السيارة التي تغادر القصر من البوابة الرئيسيّة سيّارتها المستأجرة، وكان سائقها شخصاً يشبه ابن خالها بيتر.

هرعت مورين إلى خارج غرفتها، وركضت في الممرّ حتى وصلت إلى غرفة بيتر. أضاءَت الغرفة فوجدت أنّ أغراضه لم تكن فيها. لقد اختفَت حقيبته السوداء ونظّارته وإنجيله ومسبحته الورديّة وكل أشيائه التي كان يُبقيها بالقرب من سريره.

نظرت مورين حولها مذهولةً لترى إذا كان قد ترك لها أيّ معلومات، أيّ رسالة؟ أي شيء؟ لكنّها لم تجد شيئاً.

لقد ذهب الأب بيتر هيلي!

حاولت مورين أن تستعرض أحداث الأربع والعشرين ساعة الأخيرة. تذكّرت أنّ آخر حديث بينهما كان قرب النافذة حين شرح بيتر أهميّة عبارة (لا تتعلقي بي). وقد لاحظت عليه أنّه كان حزيناً، لكنّها عَزَتْ ذلك إلى انفعاله وقِلّة نومه خلال الأسبوع. فما الذي دعاه ليهرب ليلاً؟ وإلى أين ذهب؟ ليس من عادة بيتر التصرّف بهذا الشكل، فهو لم يتركها مرّةً ولم يخذلها أبداً. أحسَّت مورين بالذعر يدبّ فيها، فلو خسرَت بيتر فستكون وحيدةً. إنه كلّ عائلتها والإنسان الوحيد على وجه الأرض الذي تثق به ثقةً تامّة.

"ريني؟"

قفزت مورين لدى سماعها الصوت. كانت تامي واقفةً عند الباب تفرك النوم عن عينيها: "آسفة. لكنّي سمعتُ صوت السيارة، ثم سمعت الحركة هنا. أظنّ أننا جميعاً مضطربون الآن. أين الأب بيتر؟"

أجابتها مورين محاولةً ألّا تُظهر هلعها: "لست أدري. لقد كان هو في السيارة

التي سمعت صوتها تغادر القصر. لا أعلم لماذا ذهبَ وإلى أين. اللعنة! ما معنى هذا؟"

"لِمَ لا تطلبينه على هاتفه الخلويّ؟"

"بيتر لا يقتني هاتفاً خلوياً!"

نظرت تامي إلى مورين متحيّرةً، وقالت: "لا. بل لديه واحد. رأيته يحمله ويستخدمه!"

ظهر الذهول على مورين وهي تجيبها: "بيتر يكره الهاتف الخلوي. لا وقتَ لديه لهذه المخترعات الحديثة، وهو يشمئزّ من الهاتف الخلوي. وقد رفض أن يحمل واحداً عندما رجوته ذلك من أجل الحالات الطارئة!"

"لقد رأيته يتكلّم بالهاتف الخلويّ مرتين. وفي كلا المرّتين كان في السيّارة! يؤسفني أنّك لم تعلمي بذلك. وعلى كل حال، أظنّ أن شيئاً مريباً يحدث في قرية الآرك!"

أحسّت مورين بالغثيان، ورأت مِن نظرات تامي أنّهما تخشيان الأمر نفسه!

استدارت مورين وقالت: "هيّا بنا!"، وانطلقت تعدو مخترقةً ممرّات القصر ثم هابطةً الدرج نحو مكتب سنكلير. وكانت تامي وراءها على بعد خطوة منها.

وقفتا بالباب، وكان مفتوحاً بشكل جزئي. لكنّ ذلك الباب، منذ وضع المخطوطات في الغرفة، كان يظلّ دائماً مُغلقاً ومُقفلاً حتى ولو كان في الغرفة أحد. ابتلعت مورين ريقها واستجمعت قواها وهي تدخل الغرفة المظلمة. وتبعَتْها تامي التي وجدت الزرّ الكهربائي، فأضاءت الغرفة، وظهرت طاولة المكتب خالية. كانت صفحتها الخشبية الحمراء تلمع تحت النور، ولم يكن عليها شيء.

قالت مورين هامسة: "لقد اختفَتْ!"

بحثَت هي وتامي في أرجاء الغرفة، لكنّهما لم تجدا أثراً لمخطوطات مريم المجدلية، كما اختفَت أيضاً كل الأوراق الصفراء التي كُتبت الترجمات عليها. لم يبقَ ايّ قُصاصة ورق ولا حتّى قلم. والدليل الوحيد على وجود المخطوطات سابقاً كان الجرّتين الفخّاريتين الباقيتين حيث وُضعتا جانباً في الزاوية. لكنّهما كانتا فارغتين. فالكنز الحقيقي قد اختفى!

وبدا أن الأب بيتر هيلي، أكثر إنسان تثق به مورين، قد أخذ ذلك الكنز.

سارت مورين برِجلين مرتعشتين، وجلست على الأريكة المخملية. كانت عاجزة عن الكلام، لا تدري ما تقول ولا تدري ما تفكّر. فجلست صامتة ساكنة تحدّق أمامها بعينين فارغتين.

"مورين، يجب أن أجد رولان! هل تظلّين هنا؟ سنعود حالاً".

لم تقوَ مورين على الكلام، فحرّكت رأسها إيجاباً. ولمّا عادت تامي مع رولان، يتبعهما بيرنجيه سنكلير، كانت لا تزال جالسةً في موضعها.

ركع رولان قرب الأريكة، وخاطبها بلطف قائلاً: "آنسة باسكال، أشاطرك الألم الذي ألَمَّ بك هذه الليلة".

نظرت مورين إلى ذلك المارد الأوكسيتاني الذي بدا عليه القلق. ولمّا استعادت، فيما بعد، ذكريات تلك الليلة بالتفصيل، أعجبت بعظمة نفسيّة ذلك الرجل. فقد سُرق أنفسُ كنز لدى شعبه وكان همّه الأكبر هو ألمها! لقد تعلّمت مورين مِن رولان، أكثر من أيّ إنسان التقَتْه، القِيَم الروحيّة الحَقّة، وفهمَت سبب تسمية هؤلاء الجماعة بالناس الطيّبين.

قال سنكلير بهدوء: "أرى أن الأب هيلي قد اختار سيّده! لقد كنتُ دائماً أخشى أنّه سيُقدم على ذلك. اعذريني يا مورين على كلامي هذا!"

قالت مورين وقد ازدادت حيرةً: "أكنتَ تتوقّع حدوث هذا؟"

أجابها: "أجلْ يا عزيزتي. وأظنّ أنّه يجب أن يتوضّح كل شيء الآن. كُنّا نعلم أن ابن خالك يعمل لصالح جهة ما، لكنّنا لم نكن متأكدين من هي تلك الجهة".

لم تصدّق مورين ما سمعَت، فسألته: "ماذا تقول؟ هل تعني أن بيتر خانني؟ وأنه كان طوال الوقت يخطّط للغَدْر بي؟"

"لا أدّعي معرفة دوافع الأب هيلي، مع يقيني بوجود دوافع ما. وأظنّ أننا سنعرف الحقيقة قبل انقضاء يوم غدٍ".

صاحت تامي: "أرجوكم أخبروني بما يحدث!"، فأدركت مورين أن تامي أيضاً تجهل أشياء كثيرة. كان رولان جالساً قربها صامتاً، فالتفتَتْ إليه وخاطبته مستنكرةً: "أرى أنّك أَخفيتَ عني أشياء كثيرة!"

هزّ رولان كتفيه العريضين وقال: "كان ذلك لحمايتك يا تمارة. كلّ منّا لديه أسرار. لقد كان ذلك ضرورياً. أمّا الآن فقد آن الأوان لنتكاشف. ومِن حَقّ الآنسة باسكال علينا أن تعرفَ كل شيء."

ودّت مورين لو تصرخ ضِيقاً وارتباكاً. وظهر الإحباط جلياً على وجهها، فيما تقدَّم منها رولان وأمسك بيدها قائلاً: "تعالي يا آنستي. هناك ما يجب أن تريه." ثم استدار نحو سنكلير وتامي، وأصدر إليهما أمراً، وهذا ما لم تعهده منه مورين مِن قبل. قال: "بيرنيجه، اطلب مِن الخدم أن يجلبوا القهوة ثم الحقْ بنا إلى غرفة المعلِّم الأكبر. تمارة، تعالي معنا!"

عبروا الممّرات المتلوّية وصولاً إلى جناح في القصر لم تدخله مورين مِن قبل.

قال رولان: "عليكِ التحلّي بالصبر قليلاً، أيتها الآنسة باسكال. يجب أن أشرح لك بعض الأمور قبل التمكّن من الإجابة عن أسئلتك الهامة."

لم تدر مورين ما تقول وهي تتبع رولان وتامي لإحساسها بالعجز حيال هذه المستجدّات، فلم تزد على قولها: "حسناً"، وتذكّرت يومَ التقَت بتامي في مارينا دل راي في جنوب كاليفورنيا. لقد كانت في غاية السذاجة حينها، وبدا لها كما لو أن اللقاء حدث منذ أجيال. لقد شبّهتْها تامي آنذاك بأليس في بلاد العجائب، وأدركت اليوم كم أن ذلك التشبيه صحيح، لأن ما مَرّت به حدث كأنها دخلت في المرآة، وكل ما ظنّت أنها تفهمه عن حياتها قد انقلب تماماً.

فتح رولان الباب الضخم المزدوج أمامهم بمفتاح كان يعلّقه حول عنقه. وصدرَ صوت صَفْرة حادّة لدى دخولهم الغرفة، فضغط رقماً رمزياً ليُسكت جرس الإنذار. ولما أُضيئت الأنوار بدت القاعة ضخمة ومزخرفة. كانت غرفةَ اجتماع تليق بملوك وملكات فرنسا، وكانت تشبه بأناقتها غرفة العرش في كل مِن قصر فرساي وقصر فونتين بلو. وقد وُضع مقعدان متماثلان محفوران ومطليّان بالذهب على منصّة في الوسط، ورُسِمَ على كل منهما التفّاح الأزرق.

قال رولان شارحاً: "هذا هو قلب منظّمتنا، جمعية التفاح الأزرق. وكلّ أعضائها هم مِن السلالة الملكيّة ويعودون إلى فرع سارة ـ تامار بالتحديد. فنحن متحدّرون من الكَثار ونبذل غاية وسعنا لإبقاء تقاليدهم حيّة وبأنقى صورة ممكنةً."

وقادهما إلى حيث تدلّت لوحة لمريم المجدلية وراء العرشين. كانت تشبه

لوحة المجدلية بريشة جورج دولاتور التي رأتها مورين في لوس أنجلوس، لكن مع فارِق هامّ. قال رولان: "هل تتكرين ليلة أخبرَك بيرنجيه أن إحدى أهمّ لوحات دو لاتور مفقودة وغير معروضة للناس؟ والسبب هو أنها هنا! كان دولاتور عضواً في جمعيّتا، وترك لنا هذه اللوحة، واسمها: "المجدلية التائبة مع المصلوب"."

نظرت مورين إلى الصورة بخشية وإعجاب، وكانت ككلّ لوحات ذلك الرسام الفرنسيّ تحفةً في تمازج الضوء والظلّ. لكن المجدلية، في هذه اللوحة، رُسمت في وضع مختلف عن سائر اللوحات التي رأتها مورين من قبل. فقد أسندَت مريم يدها على الجمجمة، التي صارت مورين تعلم أنها جمجمة يوحنا المعمدان، كما حملت بيدها اليمنى صليباً عليه المصلوب وهي تحدّق إلى وجه المسيح.

"هذه اللوحة خطيرة جداً فلم تُعرَض أمام أعين الناس. إنّ دلالتها واضحة تماماً: فهذه مريم في كَفّارتها تعبيراً عن توبتها بالنسبة لزوجها الأول يوحنا، وهي تنظر بمحبّة إلى وجه يسوع، زوجها الثاني."

ثمّ لفتَ نظر المرأتين إلى لوحة أخرى ضخمة على حائط آخر، وفيها قِدّيسان كهلان يجلسان في موضع صخري جلسة تدل على أنهما يُجريان مناظرة أو مناقشة في موضوع دينيّ.

قال رولان: "بإمكان تمارة أن تخبرك تاريخ هذه اللوحة". ثم التفَتَ نحو تامي مبتسماً وهي تقف قربه. فنظرت مورين إليها تنتظر الشرح.

قالت تامي: "رسم هذه اللوحة الرسّام الفَلَمَنْكيّ دافيد تينييه الابن، واسمها: "القدّيس أنطونيوس الناسك والقدّيس بولس في الصحراء". وهذا غير القديس بولس الذي كتب في العهد الجديد، لكنه قدّيس محليّ آخر وكان ناسكاً أيضاً. وقد حصل بيرنجيه سونيير، الكاهن المشهور في رين لو شاتو، على هذه اللوحة من أجل الجمعيّة. فقد كان واحداً مِنّا."

تفحّصت مورين اللوحة، فرأت فيها الأشكال التي أصبحت مألوفة لديها، فأشارت إلى اللوحة وقالت: "أرى المصلوب وأرى جمجمة."

أجابتها تامي: "تماماً. هذا أنطونيوس هنا، وعلى كمّه ذلك الرمز الذي يبدو مثل الحرف (T)، وهو في الحقيقة الشكل اليوناني للصليب ويسمّونه الصليب التائيّ. وقد نشرَ هذا الصليب بين الناس القدّيسُ فرنسيس الأسيزي. ونرى أنطونيوس يرفع بصره عن كتابه، الذي يمثّل كتاب المحبّة، وينظر إلى المصلوب.

لاحظي أن بولس هنا يرسم إشارة 'تذكّروا يوحنا' بيده ويناقش زميله في مسألة مَن كان المخلّص الأوّل: يوحنا أم يسوع. وترين الكتب والمخطوطات على الأرض حولهما للدلالة على كثرة المراجع المتعلقة بهذا الموضوع. إنها في الواقع لوحة هامة جداً. لا بل إن هاتين اللوحتين هما أخطر لوحتين في تاريخنا. والقرية في أعلى التلة في اللوحة تمثّل رين لو شاتو. وانظري ماذا ترين في الأرض الممتدّة هناك؟"

ابتسمت مورين وهي تقول: "إنها راعية مع خرافها!"

"أجلْ. صحيح أن أنطونيوس وبولس يتناقشان، لكن وجود الراعية وراءهما هو للتذكير بأنّ المُنتظَر سيكتشف يوماً أناجيل مريم المجدلية المخبّأة ويُنهي كل الخلافات ويُظهر الحقيقة".

دخل بيرنجيه سنكلير الغرفة صامتاً فيما كان رولان يقول: "أردتُ أن أريك هذه الأشياء، يا آنسة باسكال، كي تعرفي أنّ أبناء شعبي لا يحقدون على أتباع يوحنا، ولم يحقدوا عليهم يوماً. نحن جميعاً إخوة وأخوات، أبناء مريم المجدلية، ونتمنّى أن نعيش جميعاً معاً بسلام."

انضمّ سنكلير إلى الحديث بقوله: "لسوء الحظّ، إن بعض أتباع يوحنا متطرّفون، وكان أمثال هؤلاء موجودين دائماً. صحيح أنّهم أقليّة لكنّهم خطرون. وهذا يحدث دائماً حيث يسيطر المتعصّبون على أكثرية المسالِمين الذين يشاطرونهم الرأي. المهمّ أن هؤلاء يشكّلون خطراً دائماً كما يعلم رولان جيّداً."

وهنا تجهّم وجه رولان وقال: "فِعلاً. لقد حاولْتُ أن أعيش دائماً وفق معتقدات شعبي: المحبّة والتسامُح والتعاطُف مع جميع المخلوقات. وكان والدي يؤمن بالمبادئ نفسها، وقتلوه!"

أحسّت مورين بحزن رولان العميق لتذكّرة فَقْد والده، كما لمسَت أنّ تلك الجريمة تشكّل تحدّياً لمعتقَداته، فسألته: "لكن لماذا؟ لماذا يقتلون والدك؟"

أجابها رولان: "يا آنستي، يعود تاريخ عائلتي إلى القديم في هذه المنطقة. لقد سمعت الجميع هنا ينادونني باسم رولان. لكنّ اسم عائلتي هو جيليس."

"جيليس!". هذا الاسم ليس جديداً على مورين. التفتَت إلى سنكلير وقالت: "أتذكرُ أن رسالة والدي كانت موجّهة إلى السيّد جيليس!"

هَزّ رولان رأسه وقال: "أجلْ. لقد كُتبت إلى جدّي حين كان المعلّم الأكبر للجمعيّة".

بدأت الأمور تزداد وضوحاً لمورين. نظرت إلى رولان ثمّ إلى سنكلير. فأجابها سنكلير عن سؤالها الذي لم تطرحه: "أجلْ يا عزيزتي، رولان جيليس هذا هو معلّمنا الأكبر، مع أنّه متواضع جداً ليقول ذلك بنفسه. إنّه الرئيس الرسميّ لجماعتنا كما كان والده وجَدّه من قبله. هو ليس خادماً عندي ولا أنا خادم عنده. إنما يخدم واحدنا الآخر كأخَوين. هذا هو قانون الطريق.

"إن عائلتَيْ سنكلير وجيليس قد نُذرتا لخدمة المجدلية منذ بدايات العائلتين".

هنا تدخّلت تامي: "هل تذكرين عندما كنا في أعلى برج المجدلية في رين لو شاتو وأخبرتُك عن الكاهن الذي قُتل في أواخر القرن التاسع عشر؟ لقد كان اسمه أنطوان جيليس، وهو عَمّ جَدّ رولان!"

نظرت مورين إلى رولان وسألته: "وما سبب كل هذا العنف ضدّ عائلتك؟"

لأنّنا نعرف الكثير. كان عمّ جدّي يحتفظ بوثيقة عنوانها 'كتاب المنتظرة'، وقد سجِّلَت فيه الجمعيّة رؤى كل الراعيات على مدى ألف سنة. وكان أثمنَ وسيلة بين أيدينا نلجأ إليها في محاولاتنا لإيجاد كنز مريم المجدلية. وقد قتلَتْه طائفة الصالحين لهذا السبب، كما قتلوا والدي لأسباب مماثلة. لم أتأكّد من ذلك في حينه، لكنّ جان كلود كان مُخبرهم. وقد أرسلوا لي رأس والدي وإصبع يده اليمنى في سَلّة."

ارتعدت مورين لبشاعة تلك الوقائع، وسألته: "هل سيتوقّف سفك الدماء الآن بعد اكتشاف المخطوطات؟ ماذا سيفعلون برأيك؟"

أجابها رولان: "لست أدري. لديهم الآن زعيم جديد في غاية التطرّف. وهو مَن قتلَ والدي."

وأضاف سنكلير: "لقد تحدّثتُ إلى السلطات المحليّة اليوم، أو بالأحرى إلى بعض المسؤولين المؤيّدين لمعتقداتنا. لم نُطلعكِ على كل شيء بعد، يا مورين. هل تذكرين الأميركي ديريك وينرايت الذي قابلته؟"

وأضافت تامي: "ذاك الذي كان مرتدياً زيّ توماس جيفرسون. صديقي القديم!" وهزّت رأسَها حزينةً وهي تتذكّر خداع ديريك لها سنوات ومصيره المشؤوم.

أومأت مورين برأسها وانتظرَت أن يُكمل سنكلير:

"لقد اختفى ديريك في ظروف مُروِّعة. إنّ غرفته في الفندق قد.."، ثم نظر إلى وجه مورين فرآه شاحباً ممتقعاً، فقرّر تجاوز التفاصيل، وأكملَ: "فَلْنَقُلْ إنّ آثار ذلك العمل الشرير كانت واضحة جداً."

صمت سنكلير قليلاً، ثم أكمل: "تعتقد السلطات أنّه نظراً للظروف الغامضة المحيطة باختفاء الأميركي وجريمة قتله شبه المؤكّده، ستُضطرّ طائفة الصالحين إلى الحَدّ من تحرّكها مدّة من الزمن. جان كلود مختبئ في مكان ما في باريس، وزعيمهم إنكليزيّ ونظنّ أنه عاد إلى بريطانيا، مؤقتاً على الأقلّ. وأظنّ أنّهم لن يضايقونا في المستقبل القريب، أو هذا ما أتمنّاه."

التفتت مورين فجأة نحو تامي وهتفت: "جاء دورك الآن. وأنتِ كذلك لم تخبريني بكلّ شيء. لقد استغرقتُ وقتاً طويلاً لاكتشاف ذلك. وعليكِ الآن إخباري بالباقي. كما أريد أن أعرف ما يجري بينكما". قالت ذلك وهي تشير إلى تامي ورولان الواقفين متلاصقين.

ضحكت تامي ضحكتها العميقة، وقالت: "أنتِ تعلمين مدى حبّنا هنا لإخفاء الأشياء في أماكن غير بعيدة عن مواضعها الأصليّة. ما هو اسمي؟"

قطّبت مورين حاجبيها وسألت نفسها: "ماذا يفوتني هنا؟" ثم صاحَت: "تامي... تمارة... تامار، يا إلهي، كم أنا غبيّة!"

قالت تامي وضحكتها لا تزال تدوّي: "لا، لستِ غبيّة. لقد أسموني على اسم ابنة المجدلية، وأختي اسمها سارة".

"لكنّكِ أخبرتني أنّك وُلدت في هوليوود، أم كانت تلك كذبة أيضاً؟"

"لا. لم تكن كذبة. ووصْفُك ذلك بالكذبة فيه ظلم شديد. لنقُل إنّ ذلك كان إخفاءً للحقيقة لدَواعٍ ضروريّة. لقد وُلدتُ ونشأتُ فعلاً في كاليفورنيا. أجدادي من جهة أمي مِن بلاد الأوك وكانوا أعضاء في الجمعيّة. لكنّ أمي، التي وُلدت هنا في لانغدوك، سافرَت إلى لوس أنجلوس لتعمل في تصميم الأزياء بعد دخولها عالم السينما عبر صداقتها مع المخرج الفرنسي جان كوكتو، وهو أيضاً عضو في الجمعيّة. وقد التقت بأبي الأميركي وبقيَت في أميركا. وجاءت أمّها وأقامت عندنا حين كنتُ طفلة. ومن الواضح أني تأثرتُ كثيراً بجدّتي."

أشار رولان إلى المقعدين في الوسط وقال: "الرجال والنساء، في تعاليمنا، متساوون تماماً. فكَما علَّم يسوع عبرَ مريم المجدلية، فإن الجمعية برأسها معلّم أكبر وكذلك مريمٌ عظيمة، وقد اخترتُ تمارة لتكون مريمي وتجلس قربي هنا. وعليّ الآن أن أقنعها بالانتقال إلى فرنسا لأطلب منها أن تصبح جزءاً أكبر من حياتي."

وضع رولان يده حول تامي التي دنت منه وقالت بخفَر: "إني أفكِّر في ذلك!"

ثمّ توقّف الحديث لما دخل خادمان يحملان صينيّتين فضّيتين عليهما القهوة. كان في أقصى الغرفة طاولة حولها بعض الكراسيّ، فتوجّه رولان نحوها مُشيراً إليهم ليلحقوا به. جلس الأربعة، وراحت تامي تسكب للجميع القهوة السوداء. ثم نظر رولان إلى سنكلير الجالس قبالته وأومأ إليه برأسه ليبدأ الكلام.

"سوف نخبرك، يا مورين، ما نعرفه عن الأب هيلي وأناجيل المجدلية، لكنّنا أحسسنا بوجوب إطلاعك على كل ما أخبرناكِ إيّاه الآن ليكون خلفيّة تساعدك على فهم الوضع بكامله."

احتسَت مورين قهوتها وسُرَّت لأنّها دافئة وقويّة النكهة. وأصغت باهتمام لشرح سنكلير.

"الحقيقة هي أنّنا سمحنا لابن خالك بأخذ المخطوطات".

كادت مورين توقع فنجان القهوة من يدها وهي تتساءَل: "سمحتم بذلك!"

"أجلْ، لقد ترك رولان باب غرفة المكتب غير مُقفَل عمداً. كانت لدينا شكوكنا بأن الأب هيلي قد يحاول أخذ المخطوطات للجهة التي يعمل لحسابها."

"مهلاً، مهلاً! يعمل لحسابها؟ ماذا تقصد؟ هل تعني أن بيتر جاسوس لصالح الكنيسة؟"

أجابها سنكلير: "ليس هذا ما عنيتُه بالضبط." ولاحظت مورين أنّ تامي تصغي باهتمام كبير أيضاً مِمّا يعني أنها لا تعرف كل هذه التفاصيل.

"نحن لا نعرف بالتأكيد لمصلحة مَن يعمل. لذلك سمحنا له بأخذ المخطوطات، ولسنا قلقين بشأنها. وضعْنا جهازاً لتعقُّب الأثر في سيّارتك المستأجرة. فنحن نعلم بالضبط أين هو وأين ذهب".

فسألت تامي: "وأين ذلك؟ روما؟"

فجاء الجواب من رولان: "نعتقد أنه ذهب إلى باريس."

وضع سنكلير يده برفق على يد مورين وقال: "يؤسفني أن أخبرك ذلك يا مورين. لكنّ ابن خالك كان يُطلع المسؤولين في الكنيسة على تحرّكاتك منذ اليوم الأوّل لوصولك إلى فرنسا، وربّما قبل ذلك بكثير."

تمايلت مورين وكأنّها تلقّت صفعة على خدّها، وقالت: "مستحيل! بيتر لا يفعل ذلك بي!"

"خلال الأسبوع الماضي رأيناه يعمل وعرفناه عن كثب، فصَعُب علينا تقبُّل فكرة كون ابن خالك العالم الرائع جاسوساً. لقد ظننّا في بادئ الأمر أنه كان يحاول أن يحميك منا فحسب، لكني أعتقد أنه متورط جداً مع الجهة التي يعمل معها، فلم يستطع أن يتخلّص منها حتى بعد قراءته الحقيقة في المخطوطات."

"لم تُجِبْ عن سؤالي بعد. هل تظنّ أنه يعمل لصالح الفاتيكان؟ أم اليسوعيّين؟ أم مَن؟"

تراجع سنكلير في كرسيّه، وأجاب: "لا أعلم بعد. لكني أستطيع أن أقول لك إن لنا أناساً في روما يستطلعون الأمر. قد تفاجَئين بمدى قوّة نفوذنا. وأنا على يقين أنّنا سنعرف كل شيء غداً مساءً أو بعد غدٍ على أبعد تقدير. وعلينا الآن أن ننتظر."

رشفت مورين من قهوتها ثانيةً وهي تحدّق إلى لوحة المجدلية التائبة. بعد أربع وعشرين ساعة ستعرف كل شيء!

باريس
3 تموز (يوليو) 2005

كان الأب بيتر هيلي في غاية الإرهاق حين وصل إلى باريس. فقيادة السيّارة من لانغدوك كانت أمراً شاقاً، أُضيفَ إليه ازدحام حركة المرور في باريس قُبيل الظهر، فاستغرقت رحلته ثماني ساعات. كما إنه توقّف لتوضيب الطرد الذي سيرسله إلى مورين، وقد استغرق ذلك وقتاً أطول ممّا توقّع. لكنّ حالة الانفعال التي مَرّ بها لاتخاذ ذلك القرار كانت مُنهكة جداً، لذلك أحسّ بأن كل حيويّته قد استُلّت منه.

كان بيتر ينقل حمولته الثمينة بعناية داخل حقيبته الجلدية السوداء. عبرَ النهر في طريقه إلى كاتدرائية نوتردام حيث التقاه عند مدخل جانبيّ الأب مرسيل. قاده

الأب الفرنسي إلى الداخل واجتاز معه مؤخّرة الكاتدرائية حيث دخلا مِن باب غرفة مُمَوّه بحاجز خشبيّ مزخرف.

دخل بيتر الغرفة متوقّعاً أن يرى الشخص الذي يتعامل معه في هذا الأمر، وهو المطران ماغنوس أوكونور. لكنّه وجد مسؤولاً آخر في الكنيسة، وهو إيطالي جليل يلبس ثياب الكردينال الحمراء. هتفَ لاهثاً: "يا صاحب النيافة! اعذرني، لم أتوقّع وجودك".

"أجلْ. أعلم أنّك تتوقّع حضور المطران ماغنوس. لن يأتي. أعتقد أن ما قام به حتى الآن كافٍ." وظلّ وجه المسؤول الكنسيّ الإيطالي مِن دون أيّ تعبير وهو يمدّ يديه نحو الحقيبة، وقال: "أظنّ أن المخطوطات في الداخل!"

أومأ بيتر رأسه إيجاباً.

قال الكردينال وهو يأخذ الحقيبة من بيتر: "حسناً يا بنيّ. فلنتحدّث عن وقائع الأسابيع المنصرمة، أو بالأحرى وقائع السنوات المنصرمة! وأَتركُ لك أن تقرّر أين تبدأ.

شاتو دي بوم بلو
3 تموز (يوليو) 2005

كانت الحركة محمومة في القصر طوال النهار. فقد كان سنكلير ورولان ينتقلان بسرعة من مكان إلى آخر يثرثران بالفرنسية وبلغة الأوك معاً ومع الخدم ومع أشخاص كثيرين على الهاتف. وحتّى إن مورين حسبَت أنها سمعت رولان مرّتين يتحدّث بالإيطالية، لكنّها لم تتأكّد من ذلك ولم تشأ أن تسأل عن الأمر.

انضمّت إلى تامي بعض الوقت في غرفة أجهزة العرض، وشاهدت جزءاً من فيلمها حول السلالة. تحدّثتا كيف سيغيّر اكتشاف مخطوطات المجدلية نظرة تامي التي عبّرت عنها في الفيلم. وقد ازدادت مورين احتراماً وتقديراً لصديقتها لأنها لمسَت مدى قدرتها وإبداعها، وكيف أنها انهمكت في عملها حتى وهي، كالجميع، في غاية الاضطراب والقلق.

ومن ناحية أخرى، وجدَت مورين نفسها عديمة الجدوى، فهي لم تستطع أن تركّز تفكيرها على أيّ شيء. أحسّت أنّه يجدر بها أن تدوّن الملاحظات بسرعة

لتلتقط ما تستطيعه من ذاكرتها عن موضوع المجدليّة. لكنّها لم تتمكّن من ذلك، فقد كانت مُثبطة الهمّة نتيجة لخيانة بيتر. ورأت مورين أنّه مهما كانت دوافعه، ما كان يجب أن يغادر من دون أن يخبرها ولا أن يأخذ شيئاً ليس له أصلاً، وحسبت أنها ستحتاج زمناً طويلاً للتخلّص من شعورها هذا.

كان العشاء تلك الليلة هادئاً، وضمَّ مورين وتامي وسنكلير. أما رولان فكان خارج القصر حسبما أفاد سنكلير وتامي، على أن يعود قريباً. كما أضافت تامي بأنه سيُحضر ضيفاً من المطار الخاصّ في كركاسون. وبعد وصول الضيف المذكور ستكون لديهم معلومات جديدة. أومأت مورين برأسها دلالة على تفهّمها، فقد تعلّمت منذ زمن أن الضغط والملاحقة لا يفيدان في أي مسألة هنا. فهؤلاء الناس لا يكشفون الأسرار إلّا في الوقت الذي يناسبهم، وذلك مِن صُلب ثقافة منطقة الآرك. لكن مورين لم تلاحظ أنّ سنكلير كان متوتّراً أكثر مِن عادته.

بُعيد انتقالهم إلى غرفة المكتب لتناول القهوة، دخل خادم وتحدّث إلى سنكلير بالفرنسية.

ترجم سنكلير لتامي ومورين ما أعلمه به الخادم، بقوله: "حسناً، لقد وصل ضيفنا."

دخل رولان الغرفة بصحبة رجل مَهيب مثله. وكان يرتدي ثياباً داكنة غير رسميّة، لكنّها أنيقة جداً ومن أفضل الأنواع الإيطالية. كانت تبدو عليه سيماء الأرستقراطية ومظاهر العظَمة والنفوذ، وسيطر حضوره على الغرفة منذ دخوله.

تقدم رولان خطوة وقال: "آنسة باسكال، آنسة وزدوم! يشرّفني أن أعرّفكما إلى صديقنا الموقّر الكردينال دي كارو."

مَدّ دي كارو يده وصافح مورين أوّلاً ثم تامي مبتسماً لهما بحرارة. ثم نظر إلى مورين وسأل رولان: "هذه هي إنساننا المنتظَر؟"

أومأ رولان برأسه مُوافقاً.

وتساءلت مورين: "عفواً! هل قلتَ: الكردينال دي كارو؟"

فتدخّل سنكلير وهو واقف وراءها، فقال: "الكردينال دي كارو مسؤول ذو نفوذ واسع في الفاتيكان، وإن كان الآن يلبس ثياباً عاديّة. وربّما يوضح لك اسمه الكامل الوضعَ، إنّه توماس فرنشسكو بورجيا دي كارو."

فسألت تامي مندهشةً: "بورجيا؟"

هزّ الكردينال رأسه، ولم يزد على ذلك شيئاً جواباً عن سؤال تامي. وغمزها رولان من حيث كان يقف قبالتها.

قال رولان: "يودّ سعادته أن يتحدّث إلى الآنسة باسكال على انفراد، لذلك سنتركهما وحدهما". ثم أضاف متوجّهاً إليهما: "أرجو استدعاءَنا إذا احتجتما أيّ شيء."

أمسك رولان الباب، فخرج سنكلير وتامي وتبعهما هو. ثم أشار الكردينال دي كارو إلى الطاولة الكبيرة داعياً مورين للجلوس إليها، وجلس على كرسيّ مقابل لها، وقال: "اسمحي لي أوّلاً، يا آنسة باسكال، أن أخبرك أنني التقيتُ بابن خالك."

صُدمَت مورين، فمع أنّها لم تدرِ ما تتوقّع، فإنها حتماً لم تتوقّع سماع ذلك. فسألته: "أين بيتر؟"

"إنه في طريقه إلى روما. لقد كنتُ معه في باريس اليوم. إنّه بخير، والمخطوطات التي اكتشفتها بأمان."

"بأمان؟ أين؟ ومع من؟ وماذا..."

قاطعها قائلاً: "صَبْراً، صبراً. سأخبرك كل شيء. لكن هناك ما أريد إطلاعك عليه أوّلاً."

مَدّ الكردينال يده إلى حقيبة صغيرة كان يحملها منذ دخوله الغرفة، وأخرج منها عدداً من الملفات الحمراء كُتب عليها: 'إدوارد بول باسكال'.

شهقَت مورين لمّا رأت الاسم وهتفَت: "هذا اسم والدي!"

"أجلْ. وسترين في هذه الملفات صوراً له. لكنّي أنبّهك: ما ستشاهدينه مزعجٌ، لكنّه ضروري كي تفهمي الحقيقة."

فتحت مورين الملفّ الأوّل ورمَته على الطاولة أمامها لمّا بدأت يداها ترتجفان. وراح الكردينال يشرح وهي تنظر ملياً إلى الصور الفوتوغرافية لِجراح أبيها.

"كان يحمل علامات جراح المسيح. هل تدركين ما أعنيه؟ لقد ظهرَت على جسده علامات كالتي أصيب بها المسيح عند صلبه. فهذان هما المعصمان، وهنا القدمان، والموضع الخامس هو هذا الجرح هنا تحت أضلاعه حيث طعنَ قائد المئة لونجينوس سيّدنا بحربة."

حدّقت مورين بالصور مصعوقةً. فبعد أن أفسدَت خمس وعشرون سنةً من الأقاويل المزعومة عن مرض والدها رأيها فيه، بدأ كل شيء يتّضح. خوف أمّها، وعدائيّتها وغضبها من الكنيسة. وهذا أيضاً يفسّر الرسالة من والدها إلى عائلة جيليس الموجودة في محفوظات القصر هنا. فقد كتب للسيّد جيليس بسبب العلامات في جسده ولأنه أراد أن يحمي ابنته من المصير المعذّب نفسه. ونظرَت مورين إلى الكردينال من خلال دموعها.

"كان... كان يُقال لي دائماً إنه انتحر بسبب مرض عقليّ. قالت أمي إنه كان مجنوناً عندما مات. لم يكن لديّ أدنى فكرة عن هذا... لم يخبرْني أحدٌ شيئاً."

هزّ رجل الدين رأسه بوَقار، وقال لها: "لقد أساءَ فهمَ والدك أناسٌ كثيرون، وحتى الذين كان يفترض بهم أن يساعدوه، أي كنيسته. وهذا يوصلنا إلى الحديث عن ابن خالك."

نظرت إليه مورين وكلّها آذان صاغية. وكانت تحسّ بالقشعريرة تسري في ظهرها نزولاً وتصل إلى أسفل قدميها، فيما كان الكردينال يتابع كلامه:

"ابن خالك إنسان طيّب يا آنستي. وأظنّ أنّك لن تلوميه على ما حدث عندما أُخبرك كلّ شيء. لكن عليّ أن أبدأ منذ طفولتك. عندما ظهرَت علامات الصلب على جسد والدك، كان الكاهن المحلّي الذي لجأ إليه طلباً للمساعدة عضواً في منظّمة فاسدة داخل الكنيسة. فنحن جميعاً بشر عاديّون، وإذا كنّا في معظمنا ضمن الكنيسة مكرّسين لطريق الخير، فإنّ في الكنيسة أيضاً مَن يحمون بعض العقائد مهما كلف الثمن.

"كان يجب إحالة قضيّة والدك إلى روما مباشرة، لكن ذلك لم يحدث. كان من الممكن أن نساعده ونعمل معه لنعرف مصدر جراحه أو نفهم دلالتها الدينيّة. لكنّ الرجال الذين اعترضوا سبيله قرروا بأنفُسهم أنّه خطير. وكما قلتُ، كانوا فاسدين مِن ضمن الكنيسة ويعملون من أجل أغراضهم الخاصة، ونفوذهم يصل إلى المراتب العليا، وهذا أمر لم أكتشفه إلّا مؤخّراً".

تابع الكردينال شرحه عن الشبكة الواسعة التي تمتدّ من الفاتيكان، وتضمّ عشرات الآلاف ممّن يعملون في كافّة أنحاء العالم للمحافظة على الدين، ومع ضخامة هذا العدد المنتشر على وجه الأرض، لم يكن من السهل متابعة دوافع كلّ

فرد، وكلّ مجموعة. وقد نشأت منظّمة سرية متطرّفة بعد المجمع الفاتيكاني الثاني تضمّ عدداً من الكهنة الذين يُعارضون بشدّة إصلاحات الكنيسة. وجُنِّد كاهن إيرلندي شابّ اسمه ماغنوس أوكونور للانضمام إلى المنظّمة وكذلك عددٌ من الشّبان الإيرلنديّين. وكان أوكونور كاهن رعيّة في إحدى ضواحي نيو أورلينز عندما التجأ إدوارد باسكال إلى الكنيسة طلباً للمساعدة.

وقد رُوِّع أوكونور بعلامات الصلب الظاهرة على جسد باسكال، لكنّ ما أخافه فعلاً كان رؤاه عن يسوع مع امرأة بجانبه ويسوع كأبٍ له أولاد. ودرس الكاهن الإيرلندي القضيّة مع منظّمته السرية بدلاً مِن إحالتها إلى المراجع الكنسيّة. وبعد أن انتحر إدوارد باسكال بدافع يأسه وحيرته بسبب تلك العلامات، ظلّت المنظّمة السريّة تراقب زوجته وابنته. وكانت مورين باسكال الصغيرة ترى رؤى مماثلة لرؤى أبيها، من حين لآخر، منذ طفولتها. وقد أقنعَ أوكونور والدتها برناديت بإبعاد ابنتها عن عائلة باسكال، فقرَّرت الانتقال مع مورين إلى إيرلندا وعادت إلى اتِّخاذ اسم عائلتها قبل الزواج، هيلي. وحاولت تغيير اسم ابنتها، لكنّ مورين، ابنة الثماني سنوات، كانت صاحبة إرادة قوية، فرفضت وأصَرَّت على أن اسمها هو باسكال وأبَت تبديله لأي سبب كان.

عندما رُقِّي ماغنوس أوكونور إلى رتبة مطران، علمَ أن أحد أقرباء ابنة باسكال كان صاحب دعوة كهنوتيّة، فاعتبرَ ذلك أمراً هاماً. وحين دخل بيتر هيلي مدرسة اللاهوت أوعَزَ أوكونور إلى فرع منظّمته في إيرلندا بالوصول إلى بيتر كما وصلوا قبلاً إلى برناديت. أخبروا بيتر بتاريخ إدوارد باسكال، وطلبوا منه إبقاء عينه على ابنة عمّته ورفع تقارير عن تطوّر أوضاعها.

وهنا أوقفَت مورين الكردينال لتستوضحه: "هل تقصد أنّ ابن خالي كان يراقبني ويرفع التقارير عن تحرّكاتي لتلك المنظّمة منذ صغري؟"

"أجلْ يا آنستي، هذه هي الحقيقة. لكنّ الأب هيلي لم يقم بذلك إلّا بدافع محبّته. لقد تلاعبَ به هؤلاء الرجال وأقنعوه بأن الهدف هو حمايتك. وهو لم يعلم أنهم رفضوا مساعدة والدك، وأنهم مسؤولون أيضاً عن موته."

ثمّ رمقها الكردينال بنظرة تدلّ على تفهّمه وتعاطُفه، وأضاف: "أعتقدُ أنّ دوافع ابن خالك، فيما يتعلّق بك، هي دوافع نبيلة وجديرة بالثناء، تماماً كما أعتقد أنّه قرَّر تسليم المخطوطات للكنيسة لأسباب صحيحة."

"لكن كيف يمكنه ذلك؟ إنه يعلم ما تحتويه. فكيف يريد إبقاءَها طيّ الكتمان؟"

"قد يكون من السهل الحُكم عليه بشكل خاطئ بناءً على المعلومات المحدودة التي تعرفينها. لكنّي لا أظنّ أنّ الأب هيلي أراد فعلاً عدم الكشف عن المخطوطات. فهناك أسباب تدعونا إلى الاعتقاد أن أوكونور ومنظمته قد ضغطوا عليه، فهدّدوه بالتعرّض لسلامتكِ. وأرجوكِ أن تتنبّهي إلى أنّ كلّ هذا خارج نشاط الكنيسة الرسميّ، وهو ليس بموافقة روما. لكنّ الحقيقة هي أنّ ابن خالك أخذ المخطوطات إلى أوكونور ثمناً لسلامتك."

كانت مورين تحاول أن تفهم كلّ ما تسمع، من دون أن تعرف حقيقة شعورها. لكنّها أحسّت بالراحة لأن بيتر، حليفها الوحيد الموثوق في حياتها، لم يَخُنْها في حقيقة الأمر. امّا الكَمّ الهائل من المعلومات الجديدة فستستوعبها لاحقاً.

قالت له مورين متسائلةً: "وكيف اكتشفْتَ كلّ ذلك؟"

"لقد بالَغ أوكونور في طموحه. كان يريد استغلال اكتشاف إنجيل مريم لتحسين مركزه ضمن هرَميّة الكنيسة، وبالتالي اكتساب نفوذ أقوى يوظّفه للحصول على معلومات هامّة لصالح منظمته السرية ولخدمة أهدافها." ثمّ ابتسم الكردينال دي كارو بشيء من الاعتداد بالنفس، واضاف: "لكن اطمئنّي! إننا نعمل الآن على تغيير مواقع أوكونور وشركائه بعد أن عرفناهم جميعاً. إنّ شبكة استخباراتنا لا مثيل لها!"

لم تفاجَأ مورين بهذا التصريح، فلطالما اعتبرَت أن الكنيسة الكاثوليكيّة منظّمة مُطلقة السلطة يمتدّ نفوذها إلى كافّة أنحاء العالم. وكانت تعلم أنها أغنى منظّمة على وجه الأرض وتملك من الموارد ما يمكّنها من الحصول على كل شيء.

سألَته، وهي تخشى أن تسمع إجابةً لا ترضيها: "ماذا سيحدث لمخطوكات مريم؟"

"أقول لك بكلّ صراحة: من الصعب معرفة ذلك. أنا على يقين أنّك تدركين أنّ هذا أهمّ اكتشاف في عصرنا، بل في تاريخ الكنيسة. والمسألة بحاجة للبحث على أعلى المستويات بعد التثبّت مِن صحّة المخطوطات".

"الم يُطلعْك بيتر على محتوياتها؟"

قال الكردينال مؤكّداً: "بَلى، وقد قرأتُ بعض ما دوّنَه. آنسة باسكال، قد تستغربين الواقع، وهو أنّنا في الفاتيكان لا نجلس على عروش فضيّة ونخطّط المؤامرات طيلة الوقت."

ضحكت مورين معه لحظة، ثمّ سألته بلهجة جادّة: "هل ستحاول الكنيسة منعي إذا كتبتُ عن تجربتي هنا؟ لا بل إذا تحدّثتُ عمّا في المخطوطات؟"

"أنت حُرّة لتفعلي ما تشائين وتتّجهي إلى حيث يقودك قلبك وضميرك. وإذا كانت إرادة الله أن يكشف كلمات مريم بواسطتك فلن يستطيع أحد أن يوقفك عن ذلك الواجب المقدّس. والكنيسة لا تمنع نشر أي معلومات، خلافاً لِما يظنّه كثيرون. ربّما حدثَ ذلك في القرون الوسطى، لكن ليس في أيّامنا هذه. فالكنيسة مهتمّة باستمرار الإيمان ونشره، وأعتقد شخصياً أن اكتشاف أناجيل مريم المجدلية قد يمنحنا فرصة جديدة لاكتساب عدد أكبر من الناس، وخصوصاً الشبّان، في عِداد المؤمنين." ثم رفع يده وهو يُضيف: "لكنْ هذا رأيي الخاصّ، ولا أستطيع أن أتكلّم باسم الآخرين ولا باسم قداسة البابا نفسه. ستُبدي لنا الأيام ذلك على كلّ حال."

"وماذا يحدث حتى ذلك الحين؟"

"ما سيحدث هو أنّ إنجيل الآرك لمريم المجدلية سيُحفَظ في مكتبة الفاتيكان تحت مراقبة كاهن هو الأب بيتر هيلي".

"هل سيبقى بيتر في روما؟"

"أجل يا آنسة باسكال. سوف يُشرف بيتر على فريق المترجمين الرسميّين. وهذا شرف عظيم له، لكنّه جدير به". ثمّ ناولها بطاقة أخذها من حقيبته، وأردف قائلاً: "ولا تظنّي أنّنا نسينا دوركِ أنتِ. في هذه البطاقة رقم هاتفي الخاصّ في مدينة الفاتيكان. ويسرّنا دعوتك لتكوني ضيفتنا ساعة تشائين. أوَدّ أن أسمع منك وصفاً لمجمل رحلتك التي جاءت بك إلى هنا. كما يمكنكِ الاتصال بابن خالك على الرقم نفسه، إلى حين تزويده برقم خاصّ له. فهو سيعمل تحت مسؤوليتي مباشرةً".

نظرَت مورين إلى الاسم على البطاقة، ولمّا قرأَت توماس فرنشسكو بورجيا دي كارو، سألته بصوت عالٍ: "لو سمحتَ لي، أودّ أن أسألك..."

قاطعها الكردينال ضاحكاً وشَعَّت على عرض وجهه ابتسامة وهو يقول: "أجلْ يا آنستي، أنا ابن السلالة، كما أنت ابنتها. وقد تفاجَئين بكثرة عدد أمثالنا بين الناس وأماكن وجودنا إذا عرفتِ أين تبحثين".

"القمر بدرٌ والليل صافٍ، فهل تشرّفيني بمرافقتي في نزهة في الحدائق قبل النوم؟" هذا ما طلبه بيرنجيه سنكلير من مورين بعد مغادرة الكردينال.

وافقت مورين، فقد أصبحت ترتاح إليه كثيراً بعدما مرّا في مصاعب وظروف متشابهة. وبالإضافة إلى جمال ليالي الصيف في جنوب غرب فرنسا، فإن أنوار الكشّافات التي تغمر القصر الضخم وأشعّة القمر المنعكسة على الممرّات الرخاميّة قد حوّلت حدائق الثالوث الأقدس إلى مكان أخّاذ.

أخبرَت مورين سنكلير بكلّ ما دار بينها وبين الكردينال، وقد أصغى إليها بشغف صادق واهتمام بالغ، وعندما انتهت سألها: "وماذا ستفعلين الآن؟ هل تظنّين أنّك ستباشرين تأليف كتاب عن تجربتك هذه؟ كيف تنوين كشف كلمات مريم للناس؟"

مشت مورين حول حافة نافورة مريم المجدلية وهي تمرّ بأصابعها على الرخام الأملس البارد وتفكّر في الجواب.

"لم أقرّر الأسلوب بعد." ثمّ نظرَت إلى التمثال وأضافت: "آمل أن توجّه المجدلية طريقي. وفي كل الأحوال، كل ما أتمناه هو أن أنصفها."

أجاب سنكلير مبتسماً: "ستنصفينها حتماً، فلقد اختارتكِ لأنّها تعلم ذلك".

قابلتْه مورين بحرارة مماثلة، فقالت: "وقد اختارتكَ أنتَ أيضاً".

"أعتقد أنّه قد تمّ اختيارنا جميعاً ليقوم كلّ منّا بالدور المناسب له: أنتِ وأنا، ورولان طبعاً، وتامي والأب هيلي بلا شَكّ."

"إذاً أنتم جميعاً لا تكرهون بيتر لما فعله؟"

أجاب سنكلير فوراً: "لا، لا بتاتاً. حتّى لو اعتبرنا ما فعله بيتر خطأ، فقد فعله لأسباب وجيهة. بالإضافة إلى ذلك، إنّ المؤمن غير المنافق لا يمكن أن يكره رجلاً مؤمناً بالله بعد اكتشاف هذا الكنز! فرسالة المجدليّة لنا هي رسالة الرحمة والتسامح. ولو أن كل إنسان على الأرض يتحلّى بهاتين الصفتين لكانت الحياة على الأرض جنّة. اتوافقينني الرأي؟"

رفعت مورين بصرها نحوه مملوءةً إعجاباً به وإحساساً بطلائع مشاعر جديدة تتملّكها. فهي للمرة الأولى في حياتها الحافلة تلمس الأمان والطمأنينة. فقالت له: "لست أدري كيف أشكرك يا لورد سنكلير."

أجابها سنكلير وقد عادَ إلى لهجته الإسكتلندية الجليّة في تشديد حرف الراء في اسمها: "عَلامَ تشكريني يا مورين؟"

أشارت إلى المحيط الرائع حولها وقالت: "على هذا! وعلى تعريفي بعالَم لا يعرفه الناس ولم يحلموا به. أشكرك على إعطائي مكانتي في كل هذا وعلى جعلي أحسّ أني لست وحيدة."

أمسك سنكلير يد مورين وقادها إلى عمق الحديقة المُفعم جوّها بعبق الورود، وقال: "لن تكوني وحدك بعد الآن، لكن عليكِ الكفّ عن مناداتي لورد سنكلير."

ابتسمت مورين، ونادته: "بيري" للمرّة الأولى، فدنا منها وقبّلها.

في صباح اليوم التالي، وصل إلى القصر طَرْدٌ باسم مورين. كان قد أُرسِل في اليوم السابق من باريس ولم يكن عليه عنوان المُرسِل، لكنّ مورين ما كانت بحاجة لذلك لتعرف من أرسله، فهي تعرف خطّ يد بيتر!

مزّقت مورين العلبة متلهّفة لترى ما أرسله بيتر، فمع أنها لم تكن غاضبة منه لأيّ سبب، فهو لا يعلم ذلك بعد. فلا بدّ أنّهما سيحتاجان لفترة مزعجة من الاعتذارات وتحمُّل بعض النقاشات الجدّيّة عمّا حدث، مع أنّ مورين واثقة من أنهما سيخرجان من كل ذلك متفاهمينِ متقارِبين.

صاحت مورين دهْشةً وبهجةً عندما رأت ما بداخل العلبة. كان فيها نُسَخ مُصوَّرة مِن كلّ صفحة دوّنها بيتر في ترجمته لأناجيل مريم المجدلية الثلاثة. كلّ مدوَّناته كانت مصوَّرة وموجودة في العلبة: مِن ترجمته الأوّلية إلى الترجمة النهائية. وفوقها جميعاً كانت ورقة مأخوذة من أحد الدفاتر الصفراء التي يستخدمها، وقد كتب بيتر عليها:

عزيزتي مورين:

إلى أن أستطيع شرح كل شيء لك شخصياً، أَعهد إليك بهذه الأوراق. وعلى كل حال، فأنتِ صاحبة الحَقّ في الاحتفاظ بها أكثر من الناس الذين وجدتُ نفسي مجبراً على تسليمهم الأوراق الأصليّة. أرجو أن تبلّغي الآخرين اعتذاري وشكري. آمل أن أتمكّن مِن إبلاغهم ذلك شخصياً في أقرب وقت ممكن.

سوف أتّصل بك قريباً.

بيتر.

... مَرَّت سنوات عديدة قبل أن أتمكّن من شكر كلوديا بروكيولا شخصياً على المخاطر التي تجشّمَتْها من أجل عيسى. إنّ مأساة بيلاطس البنطي وقراره باختيار روما سيّداً له تكْمُن في أن ذلك لم ينقذ حياته المهنيّة ولم يُفِد طموحه، في نهاية الأمر. لقد ذهب هيرودوس فعلاً إلى روما في اليوم التالي لآلام عيسى، لكنّه لم ينقل إلى الامبراطور رأياً لمصلحة بيلاطس. فهيرودوس ظَلّ على طبيعته حتى النهاية، وكانت له أهدافه الخاصّة إذْ أراد منصب الحاكم لأحد أقربائه، فأوغَرَ صدر تيباريوس على بيلاطس. واستُدعِي هذا الأخير إلى روما وخضع للمحاكمة على ما اقترفه أثناء تولّيه منصب حاكم اليهوديّة.

لقد أُدين بيلاطس البنطي في المحاكمة بناءً على كلامه نفسه، لأنّه كان قد بعث برسالة إلى تيباريوس يخبره فيها عن معجزات عيسى وعن وقائع اليوم المظلم. ولم يستند الرومان إلى كلماته لتجريده من لقَبه وعزله من منصبه فحسب، بل لنَفْيه ومصادرة أراضيه أيضاً. وحتّى لو أنّ بيلاطس عَفا عن عيسى ووقف بوجه هيرودوس والكهنة، لكان قد لقي المصير نفسه.

ظلّت كلوديا بروكيولا وفيّة لزوجها في أحلك الظروف. وأخبرتني أنّ ابنها الصغير بيلو مات بعد إعدام عيسى ببضعة أسابيع. لم تجد تفسيراً لموته، فقد ذهب من بين أيديهما بكلّ بساطة. وأخبرتني كلوديا أنّها، في بادئ الأمر، احتاجَت إلى كل قواها كي لا تعتبر زوجها مسؤولاً عن موت ابنهما، وكانت تعلم أنّ عيسى لا يريد ذلك. لم يكن عليها إلاّ أن تُغمض عينيها لترى وجهَ عيسى كما رأته ليلةَ شفى ابنها ـ هكذا اهتدَت كلوديا بروكيولا إلى ملكوت الله. كانت هذه المرأة الرومانيّة المَلَكيّة ذات فهم عميق لطريق الناصريّين. وقد عاشت تلك الطريق بشكل عفويّ.

انتقلت كلوديا مع بيلاطس إلى بلاد الغال، مرتع طفولتها. قالت إنّ بيلاطس قضى بقيّة حياته وهو يحاول فهم عيسى: مَن هو؟ ماذا أراد؟ ماذا علَّمَ؟ وقد أخبرَتْه، على مدى سنوات، أن طريق عيسى لم تكن شيئاً يستطيع أن يطبّق عليه المنطق الروماني. على المرء أن يصبح مثل طفل صغير ليفهم الحَقّ، فالأطفال أنقياء وصُرَحاء وصادقون، وهم قادرون على تقبُّل الخير والإيمان بلا جدال. ومع أن بيلاطس يظنّ أنّه غير قابِل لاعتناق الطريق بحسَب

نمَط كلوديا، فإنّها اعتبرَت أنّه قد اهتدى إلى الإيمان الصحيح على طريقته.

وقد روَت لي كلوديا قصّة استثنائية عمّا حدث في اليوم السابق لمغادرتها هي والحاكم اليهوديّة إلى الأبد. ذهب بيلاطس البنطي إلى الهيكل بحثاً عن يوناثان حنّان وقيافا، وطلب رؤيتهما. سألهما أن ينظرا إليه مباشرةً ويُجيباه صراحةً في ذلك المكان الذي يقدّسه شعبهما: هل أعدَمْنا مُخَلّص البشرية؟

ولست أدري ما هو الاستثنائي فعلاً في هذه القصّة: ذهاب بيلاطس إلى الكاهنين لسؤالهما هذا السؤال، أمْ جوابهما واعترافهما بأنّهما قد اقترفا إثماً عظيماً.

بعد قيامة عيسى وصعوده إلى السماء، تقدَّم عدد من الناس وقالوا إن أتباعنا قد نقلوا جسَده. ودفعَ الهيكل المال لهؤلاء ليدّعوا ذلك خوفاً من ارتداد الناس عن تأييد رجال الهيكل إذا عرفوا الحقيقة. وقد اعترفَ حنّان وقيافا بذلك، وأخبرَ بيلاطس زوجته أنّه يعتقد أنّ هذين الرجلين قد تابا فعلاً وأنّهما سيتألّمان كل يوم في حياتهما على الأرض وأنهما يدركان مدى خطورة فعلتهما الرهيبة.

لكنْ لو أتَيا إليَّ وأخبراني بهذا، لكنتُ قد بشّرتُهما بتعاليم الطريق وأكّدتُ لهما غفران عيسى. فإذا ما اهتدى قلب الإنسان إلى ملكوت الله، فلن يعرف الألم بعد ذلك يوماً.

إنجيل الأرك لمريم المجدلية

كتاب الرسل

الفصل الحادي والعشرون

نيو أورلينز
آب (أغسطس) 2005

كانت مورين تقود سيّارة مستأجرة تحت ألوان ساعات الغسَق في صيف الجنوب. ولمّا أوقفت سيّارتها داخل موقف المقبرة في ضواحي المدينة، كان آخِر النهار يُلقي ضوءه المتلاشي على الكنيسة الصغيرة الواقعة داخل سور المقبرة.

لم تتجنَّب البوّابة الرئيسيّة هذه المرّة فابنة إدوارد باسكال دخلت عبرَها مرفوعة الرأس. لقد انقضى العهد الذي يُضطرّ فيه مَن له أحباب مدفونون هنا للدخول يائِساً ليزور مثواهم الأخير في مقبرة مُهمَلة. وقد نُقل مكان البوابة الرئيسيّة ليتناسب مع ضَمّ المقابر المُهملة سابقاً، وكلّ ذلك بفضل أوامر ومنحة مالية مِن كاردينال إيطاليّ نافذ.

اقتربَت مورين، فرأت شاهد قبر أبيها الرخاميّ الجديد يتوهّج. واتّكأ على الرخام إكليل منمّق من الورود والزنابق البيضاء تحت زهرة الزنبق المحفورة المذهّبة والاسم المنقوش كما يلي:

إدوارد بول باسكال

والد مورين الحبيب

جثَت أمام قبر أبيها وكان لها معه حديث طويل طالما كانت تنتظره.

كان الإحساس بالطمأنينة الذي شعرت به مورين في داخلها جديداً بالنسبة إليها

وباعِثاً على السرور. تساءلَت ما قد يحمله لها الغد، لكنّها كانت متحمّسة أكثر منها خائفة. ومن المقرَّر أن تلتقي، في اليوم التالي في نيو أورلينز، بأفراد من عائلة باسكال، مِن عمّات وأبناء عمومة لم تعرفهم من قبل، في اجتماع شمل عائليّ على الغداء. بعد ذلك ستطير إلى مطار شانون في إيرلندا، ومن هناك بالسيارة إلى بلدة غولواي الغربية لتنزل في مزرعة عائلة هيلي حيث سيوافيها بيتر. وسيكون ذلك أوّل لقاء بينهما بعد أن غادر ابن خالها شاتو دي بوم بلو. وقد تحادثا هاتفياً عدّة مرّات، وطلب بيتر أن يلتقيا في إيرلندا بعيداً عن صخَب الناس وعيون الفضوليّين. وهناك يمكنهما أن يتحدّثا مطوّلاً بحرّية، وسيكون لديه الوقت الكافي ليُطلعها على الوضع الرسمي لأناجيل الآرك.

كانت هذه الأفكار تدور في رأس مورين وهي تتمشّى في الحيّ الفرنسيّ الذي بدأت تدبّ فيه حركة مساء يوم الجمعة. سمعَت، وهي تمشي، صوت ألحان ساكسوفون تنساب مع النسيم الجنوبيّ. استدارت مورين عند أحد المنعطفات ولحقَت الأنغام إلى أن لمحَت ذلك العازف. كان ذا شعر طويل أسود وجسم نحيل ومظهر مُفعم بالعاطفة. اقتربَت ووقفت أمامه فنظر إليها ونظرَت إليه.

غمزَها جيمس سانت كلير، ذلك الموسيقيّ الذي يقطن في شوارع نيو أورليانز، فابتسمَت له وتابعَت سيرها في الحيّ الفرنسيّ وألحان الساكسوفون ترقص وراءَها.

الفصل الثاني والعشرون

مقاطعة غولواي، إيرلندا
تشرين الأول (أكتوبر) 2005

ينبع الهدوء من قلْب الريف الإيرلندي ويسيطر السكون على أرجاء المنطقة عندما تغيب الشمس، فكأنّ الليل يطلب الصمت ويلتهم كل أعداء السكون بلا هوادة.

كانت تلك الطمأنينة مُتنَفّساً ضرورياً لمورين بعد اضطراب الأشهر السابقة. فهي هنا آمنة في عزلتها وابتعادها عن الناس واختلائها بقلبها وعقلها. لم تسمح لنفسها بتحليل الأحداث الأخيرة مِن زاوية ذاتيّة، فذلك ممكن لاحقاً، أو ربّما لن يحدث. كان الأمر برمّته شديد الوطأة ومتشعّباً وغامضاً. المهمّ أنّها قامت بدور الإنسان المنتظر وفقاً لذاك القدَر العجيب الغريب الذي أصابها أو للعناية الإلهية التي اختارتها.

لقد انتهت مهمّتها. فالمنتظَر كان طَيْفاً مقيّداً بزمن ومكان مُحدَّدين في قفار لانغدوك، وقد تركَتْه وراءَها في فرنسا. لكنّ مورين باسكال إنسانة من لحم ودم، لا بل إنسانة مُنهَكة ممّا حدث. ملأَت مورين رئتيها بالهواء الساكن المنعش وهي في البيت الذي قضت فيه طفولتها، ودخلت غرفة نومها لتأخذ قسطاً من الراحة طالما انتظرته.

لكنّ نومها لم يكن خالياً من الأحلام!

✿

لقد رأت مشهداً مماثلاً من قبل، شَكْلَ إنسان في الظلّ جالس إلى طاولة

قديمة، وفي يده مِرقم كتابة تسيل منه الكلمات. وإذ نظرَت مورين مِن فوق كتف الكاتب، رأت وهجاً أزرق يشعّ من الصفحات. لم تلاحظ مورين أوّلاً، وهي تركّز بصرها على الصفحات المتألّقة، أنّ الكاتب يتحرّك. ولمّا استدار وتقدّم نحو ضوء المصباح، التقطَت مورين أنفاسها.

كانت، في الأحلام السابقة، قد رأت لمحات من وجهه هي أشبه بصُوَر خاطفة تلاشت في لحظات. لكنّه الآن ينظر إلى مورين مباشرةً. فجمدت وهي في حالة الحلم، وحدّقت بالرجل الماثل أمامها. إنّه أجمل إنسان رأته في حياتها!

عيسى.

ابتسمَ لها، فأحسّت مورين بالنعمة الإلهيّة والدفء يغمرانها كأنّ الشمس بذاتها تشرق مِن تلك الابتسامة. ظلت ساكنة بلا حراك، عاجزة عن فعل أيّ شيء سوى التفرُّس في جماله وبهائه.

"أنتِ ابنتي التي بها سُرِرْتُ".

كان صوته أغنية وئام ومحبّة تردّدَ صداها في الأجواء حولها. وقد حلّقَت مع تلك النغمة لحظةً لا متناهية قبل أن تتنبّه لكلماته الجديدة:

"لكنّ عملكِ لم ينتهِ بعد."

ثمّ ابتسم لها عيسى الناصري، ابن الإنسان، ثانيةً، وعاد إلى الطاولة حيث كان قد ترك ما كتبَه. وازداد تألُّق الصفحات وتلألأت الأحرف بنور نيليّ وظهرت على الأوراق الكتّانيّة أشكال زرقاء وبنفسجيّة.

حاولَت مورين أن تتكلّم، لكنّ الكلمات خانتها، لم تَقْوَ إلّا على النظر إلى ذلك الكائن السماوي وهو يشير إلى الصفحات. ثم عادَ عيسى إلى تركيز بصره على مورين وحدّق بها لحظة بدَت طويلة جدّاً.

وتقدّم عيسى عبرَ الفراغ الفاصل بينهما ووقف أمام مورين مباشرة. لم يقل شيئاً، لكنّهُ انحنى إلى الأمام وطبع قبلة أبويّة على قمّة رأسها.

استيقظت مورين وهي تتصبّب عرقاً، وحسبَت أنّ فروةَ رأسها تشتعل، وأحسّت بالدوار والضياع.

نظرت إلى الساعة قرب السرير، ثم هزّت رأسها لتنفض عنه الارتباك. وزحفَت طلائع نور الصباح مخترقةً الستائر، لكنّ الوقت كان مبكّراً للاتصال بفرنسا، لذلك ستترك مجالاً لبيري كي ينام بضع ساعات أخرى.

وقرّرَت أن تتّصل به لاحقاً وتسأله أن يخبرها كل التفاصيل عن آخِر ما يعرفه بشأن مكان وجود كتاب المحبّة، إنجيل يسوع المسيح الحقيقي.

خاتمة

ما هو الحَقّ؟
بيلاطس البنطيّ، يوحنا 18:38

بدأَتْ رحلتي في سلالة المجدلية لإيجاد جواب عن سؤال بيلاطس البنطي، مع ماري أنطوانيت ولوكريس بورجيا وملكة سلتيّة محاربة من القرن الأوّل، اسمها بوديكا. وقد اشتُهرت هذه الأخيرة بصيحة الحرب التي أطلقَتْها: "الحَقّ ضدّ العالَم كله". لقد حملتُ هذا القول شعاراً دائماً في بحث استغرق حياتي منذ بلغتُ سنّ الرشد، وقادني في طريق مضنية عبر تاريخ ألفي سنة.

إنّي، منذ عهد بعيد، مسكونة بهاجس رواية الحكايات العظيمة التي لم يسردها أَحَد وكَشْف طبقات التجربة الإنسانية المطمورة بصَمْت، وعن عَمْد أحياناً، لاعتبارات أكاديميّة. وكما تذكّرنا بطلة روايتي مورين، "ليس التاريخ ما حدثَ فعلاً. التاريخ هو ما دُوِّن". فما نعرفه ونقبل به كوقائع تاريخيّة يكون غالباً مِن وَضْع مؤلّف ذي غايات سياسيّة. وقد حوّلني هذا الفهم إلى باحثة في التراث الشعبي الشفهيّ، في سنّ مبكّرة. وأنا أجِد متعة فائقة في نبش الثقافات من منابعها، باحثةً عن المؤرّخين المحليّين ورُواة القصص التقليديّين لسَبْر أغوار التاريخ البشريّ الحقيقيّ الذي لا نجده في المكتبات وكُتُب الدراسات. وقد ساعدني أصلي الإيرلنديّ كثيراً على إدراك قيمة السجلّات الشفهيّة والتقاليد المتوارَثة.

كما دفعني أصلي الإيرلندي إلى أن أصبح كاتبةً وناشِطة، ولذلك انغمسْتُ في الأوضاع السياسيّة المضطربة في إيرلندا في ثمانينيات القرن العشرين. وفي تلك الفترة، تكوّنت لدَيّ نظرة الشكّ في مُسلّمات التاريخ

المدوَّن. وكشاهدة على أحداث تاريخيّة، وجدْتُ أن الرواية المدوَّنة نادراً ما تصف حقيقة ما رأيتُه بأمّ عيني. ففي كثير من الأحيان، لم تعبّر إعادة رواية تلك الأحداث في الصحف ومحطّات التلفزيون، ولاحقاً في كتب التاريخ، عمّا كانت عليه فعلاً. لقد كُتبَت كل تلك الروايات الموثّقة مغلَّفَةً بطبقات من الانحياز السياسيّ والاجتماعيّ والشخصيّ. وهكذا ضاعت الحقيقة إلى الأبد، ولن يعرفها إلّا أولئك الذين شهدوا الأحداث مباشرةً. وهؤلاء الشهود، عموماً، أناس من الطبقة العاملة، هَمُّهم متابَعة شؤون حياتهم، فهم لا يكتبون الرسائل إلى الصحف ولا يبحثون عن ناشر لتسجيل حقوق رواياتهم لذرّيتهم من بعدهم، بل يدفنون موتاهم ويصلّون من أجل السلام ويهتمّون بالمحافظة على سلامتهم. لكنّهم يحتفظون بتجربتهم كشهود تاريخيّين بطريقة شخصية ويروونها لأفراد عائلاتهم وأبناء محيطهم الاجتماعي.

لقد عزَّزَت تجربتي في إيرلندا إيماني بأهميّة الثقافة الشعبية والمعتقدات المتوارَثة، وأقنعتني بأنّها أغنى مصدر لفهم التجربة الإنسانية. وقد تحوَّلت هذه الأحداث المحلية في شوارع بلفاست إلى عالمي الخاص. فإذا اعتُبرت هامّة لدرجة إعادة صياغتها وتعديلها في كبرى الصحف والإذاعات، فماذا يعني ذلك إذا طبّقناه على العالم الخاص للتاريخ العالميّ؟ ألا تزداد النزعة إلى العبَث بالحقيقة كلّما نظرنا إلى الماضي حين لم يكن يدوِّن الأحداث إلا كبار الأثرياء ونخبة المثقّفين والمنتصرون سياسياً؟

وبدأتُ أُحسّ بواجب مُتنامٍ يدفعني للشكّ في التاريخ. ثمّ أردتُ، بصفتي امرأة، أن أخطو خطوة أخرى إلى الأمام. فمنذ فجر التاريخ المدوَّن، نلاحظ أنّ مُعظم الموادّ التي يعتبرها الدارسون مقبولةً أكاديمياً، قد وضَعها رجال مِن طبقات اجتماعية وسياسيّة معيّنة. فنحن عادةً لا نشكّ بالمستندات ونؤمن بصدقها لمجرّد التثبُّت من انتمائها إلى عصر ما. ونادراً ما نأخذ في الحسبان أنّها كُتبَت في العصور المظلمة حين كانت مرتبة المرأة دون مستوى الماشية وكانت النساء يُعتبَرْن أجساداً بلا أرواح! فكَمْ فاتَنا مِن قصص رائعة لأن بطَلاتها كُنّ بلا قيمة أو أدنى مرتبةً من البشر، فلم يحظينَ بذِكر في التاريخ! ألا ينطبق ذلك، بصفة خاصّة، على نساء القرن الأوّل؟

بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك نساء نافذات ومهمّات في الأوساط الحاكمة، فلم يستطع المؤرّخون طمس أسمائهنّ. لكنّهم ذكروهُنّ كشرّيرات

وفاسقات ومتآمِرات ومخادِعات، وحتّى مجرمات. فهل كانت تلك الأوصاف مُنصفة؟ أم أنها كانت دعايات سياسيّة للحَطّ مِن قَدْر النساء اللواتي تجاسَرْن على إثبات نكائهنّ ونفوذهنّ؟ وهكذا تسلَّحْتُ بهذه الأسئلة وبإحساسي المتنامي بالارتياب في كلّ ما يُقبل أكاديمياً كدليل تاريخيّ، وبدأت أجري أبحاثاً وأؤلّف كتاباً عن النساء الشهيرات اللواتي ظُلمْنَ وأسيء فهْمهنّ عبر التاريخ. وكانت البداية مع المذكورات آنفاً: ماري أنطوانيت ولوكريس بورجيا وبوديكا.

كانت مريم المجدلية في البداية أحد مواضيع بحثي العديدة. ثمّ حاولتُ توسيع معرفتي عن لغز العهد الجديد تلك، وخصوصاً حول موضوع أهمّيتها كأحد أتباع المسيح. كنتُ على عِلْم بالرأي المنتشر في أوساط المسيحيّين والقائل بأنّ المجدليّة فاجرة، وأنّ الفاتيكان قد قام ببعض الجهود لِرَفْع ذلك الحَيْف عنها. وكانت تلك نقطة البداية، إذ عزمْتُ على ضمّ قصّة مريم المجدلية إلى مجموعة الشخصيّات النسائية اللواتي ظلمهنَّ التاريخ حتى القرن العشرين.

لكنّ مريم المجدلية أرادت منّي شيئاً آخر!

بدأتُ أرى سلسلة أحلام متكرِّرة، تدور حول أحداث آلام المسيح والشخصيات المرتبطة بها. وصادفْتُ حوادث مُبهمة كالتي تقعُ لمورين، قادَتني إلى ملاحَقة خيوطٍ مِن أبحاثي متعلّقة بحكايات مريم المجدلية النابعة من أماكن متفاوتة مثل منطقة ماكلين في فرجينيا والصحراء الكبرى. وسافرتُ مِن جبل مساده إلى شوارع أَسّيزي التي تعود إلى القرون الوسطى، ومن كاتدرائيات فرنسا القوطيّة إلى تلال جنوب إنكلترا، وصولاً إلى جزر إسكتلندا الصخريّة.

لقد ناضلتُ بشدّة لأوازن بين عناصر حياتي السرياليّة، سائرةً على خَطّ فوقَ الواقع يتأرجح بين حياة أمّ أميركية عادية وحياة مغامرات على طريقة إنديانا جونز. ثمّ أدركتُ أنّ معظم حياتي كانت تحضيراً لرحلة الاستكشاف هذه. وعلى ما يبدو، بدأت بعض تجاربي الشخصيّة والمهنيّة تنتظم في قالَب مفصَّل أدّى بي إلى كشف النقاب عن مجموعة مِن الأسرار العائليّة ما كنت لاتصوّرها سابقاً. حتّى إنّني واجهتُ صَدْمة عندما علمت أنّ معظم ما رُبيت على الإيمان بصِحّته عن بعض أفراد العائلة هو غير صحيح. فبعدَ موت جدّيَّ لجهة أبي بعشرين سنة

اكتشفتُ أنّ هنين المحافظينِ التقليديّيْن، جدّتي الجنوبيّة الفاتنة وزوجها المعمداني الجنوبي المُخلص، كانا ناشطين في حركة البّنائين الأحرار وبعض الجمعيّات السرّيّة. كما علمتُ أن جدّتي كانت متّصلة نسَباً بإحدى أعرق العائلات الفرنسية، وهذه الواقعة أدّت إلى تغيير مجرى بحثي، بل حياتي. أمّا الصدمة الأكبر فجاءتني عندما عرفتُ أنّ تاريخ مولدي كان موضع نبوءة متعلّقة بمريم المجدلية وسلالتها، وهي نبوءة أورفال كما يتلوها بيرنجيه سنكلير. وهذه المصادفات الشخصيّة أصبحَت المفتاح العامّ الذي فتحتُ به أقفال أبواب كثيرة كانت مُغلقةً على الباحثين مِن قبلي.

وتحوّل اهتمامي بالأدب الشعبي المتعلّق بمريم إلى هاجس بعد أن اطّلعتُ على تراث ثقافيّ قديم بقي مصوناً بمحبّة وشغَف في أنحاء أوروبا الغربية. وقد دُعيتُ إلى الحلقات الخاصّة لجمعيات سرّية وقابلتُ عدداً من المؤتمَنين على معلومات دينيّة مقدّسة، أذهلني وجودُهم ووجود ما يحمونه منذ أكثر مِن 2000 سنة.

وحرصتُ على ألاّ أَدخل في بحث المسائل التي تشكّك في إيمان مليار إنسان، ولم يكن في نيّتي أن أؤلّف كتاباً يعالج مسألة هامة مثل طبيعة يسوع المسيح أو علاقته بأقرب المقرّبين إليه في حياته. غير أنّي، مثل بطلة روايتي، اكتشفتُ أن طريقنا تُختار لنا أحياناً: فمنذ أن عرفتُ أعظم قصّة في التاريخ مِن منظور مريم المجدلية، أدركتُ أنني صرتُ في نقطة اللاعودة. لقد تمَلّكَتْني آنذاك، كما تتملّكني اليوم، وكما ستظلّ تتملّكني دائماً.

لقد جعلَت ألفا سنة من الخلافات مريمَ المجدلية أكثر شخصيّة محيّرة في العهد الجديد. وفي سعيي لمعرفة حقيقة المرأة وراء الأسطورة، أيقنْتُ أنْ لا رغبة لديَّ في استرجاع كل المصادر التقليديّة وفقاً لتأويلات الذين أَشكّ فيهم دائماً. فتلَفَّفْتُ في عباءة التراث الشعبيّ ورُحتُ أبحث عن سِرّ أعمق. واكتشفتُ أنّ الحكايات الشعبيّة والأساطير المحيطة بمريم المجدلية في غرب أوروبا وافرة وقديمة. وفي هذا الكتاب، "المنتظرة"، والكتب اللاحقة في هذه السلسلة، سَبْر لأغوار النظريات المتعلّقة بشخصيّة مريم المثيرة للجدل وتأثيرها، كما تصوّرها الثقافات المحليّة في جنوب فرنسا وسائر أوروبا.

والحقيقة أن المُعتقدات والحكايات الشعبيّة في أوروبا ساعدتني في فهم بعض الغموض المحيط بمريم ممّا لم أجد له تفسيراً مُستساغاً في الدراسات

التقليديّة. فلقد استُشهد بجملة مِن إنجيل مرقس (9:16) للنيل من مريم، على مدى قرون: "وبعدما قام يسوع باكراً في أوّل الأسبوع، ظهرَ أوّلاً لمريم المجدلية التي كان قد أخرج منها سبعة شياطين". وقادَت هذه الكلمات القليلة إلى إطلاق مزاعم في غاية التطرّف بشأن حالة مريم العقلية، منها كُتُب مخصّصة للقول إنّها قد تلبَّسَتْها الشياطين أو أنّها كانت مريضة عقلياً. ولم أجِد معنى معقولاً لكلمات مرقس هذه إلّا بعد أن اطّلعتُ على نظرة الآرك، كما أوضحتُها في الكتاب، بأنّ يسوع قد شفى مريم بعد أن دُسَّ لها مركَّب سامّ قاتِل معروف باسم سُمّ الشياطين السبعة.

في الوقت الذي كان يُشار فيه عادةً إلى المرأة وفقاً لصِلتها برَجُل ما، لا تُذكر مريم المجدليّة، في العهد الجديد، بصِفتها زوجة أحَد، ولا يُذكر بتاتاً أنّها زوجة يسوع. وهذا كان كافياً بنظر الدارسين للجزم باستحالة زواج يسوع ومريم. لكنّ ذلك يُثير لغزاً آخر، فهي المرأة الوحيدة التي ذُكرَت في الأناجيل الأربعة باسمها الشخصيّ. فهي إنسان قائم بذاته، ممّا يعني أنّ الناس في عصرها والعصور القريبة منه يعرفونها من اسمها المجرّد. وأظنّ أنّ علاقات مريم المعقّدة، بصِفتها امرأة نبيلة أصبحت أرملةً وعروساً، كانت مشكلة محيّرة. فمن الناحيتين الاجتماعية والسياسية لم يكن ممكناً الإشارة إلى اسمها بإضافة صلتها بالرجال، لذلك عُرفت باسمها ولقبها: مريم المجدليّة.

أمّا موضوع تصوير مريم المجدلية فلطالما حيّرني. فبالرغم من طبيعة أسطورتها المبهمة، كانت موضوعاً شائعاً لرسوم كبار فنّاني القرون الوسطى وعصر النهضة وفترة الفنّ الباروكي. وهناك مئات اللوحات لمريم المجدليّة رسمها أعظم الرسامين، مِن الإيطاليين مثل كارافاجيو وبوتيتشلي، إلى الأوروبيين في العصر الحديث مثل سلفادور دالي وجان كوكتو. وعلى اختلاف طريقة تصوير المجدلية في هذه اللوحات، فإنّ خطاً مشتركاً يجمع بينها وهو وجود العناصر نفسها: الجمجمة التي يُقال إنّها تمثّل التوبة، والكتاب الذي يُظنّ أنّه يرمز إلى الأناجيل، وإناء المرمر الذي كان فيه الطيب الذي دهنَت به يسوع. وهي تلبس الأحمر دائماً، وهذا تقليد قديم جداً، والاعتقاد الشائع هو أنه يشير إلى كونها عاهرة.

لكنّي أَجِدُ الآن أنّ هذه الصور مرتبطة بالنسخة الخفيّة لقصّة المجدلية

التي ظلّت محفوظة سراً في أنحاء أوروبا. وأنا أرى أنّ الجمجمة هي رمز واضح ليوحنا وتمثّل عقوبة المجدليّة الذاتيّة الدائمة مِن أجله، وأنّ الكتاب هو إشارة إمّا إلى إنجيلها الخاصّ وإمّا إلى إنجيل عيسى أي كتاب المحبّة، وأنّ الرداء الأحمر والوشاح الأحمر يرمزان إلى مكانتها الملَكيّة في التقليد الناصريّ. وأؤمن حقاً أنّ كبار رسّامي ومؤلّفي أوروبا كانوا مُنغمِسين فيما سُمِّيَ "بِدْعة" مريم المجدلية والإرث الغنيّ الذي خلّفَته في أنحاء القارّة.

وعلى هذا المنوال، فإنّ قصصاً خفيّة عن شخصيّات أخرى من العهد الجديد، مِن مستوى الأبطال أو دون الأبطال، بدأت تظهر بتفاصيل جديدة مذهلة. فالقارئ يجد في هذه الصفحات تفسيراً مختلفاً، لا بل إنسانياً، لدور سالومة الشهيرة. وحتّى يوحنا المعمدان يبدو رجلاً مختلفاً إذا نظرنا إليه بعيني مريم المجدلية ومَن تبعوها على مدى ألفي عام. وكُلّي أمَل بألّا يظنّ القارئ أنّي تحاملْتُ على يوحنا. فمريم وعيسى يؤكّدان أنّ يوحنا المعمدان كان نبياً عظيماً. كما أعتقد أنه كان الرجل المناسب في عصره ومكانه، وإنساناً ملتزماً وصارماً لا يَلين في معارضته التغيير والإصلاح. وفي حين أنّي لستُ أوّل مَن أشار إلى الخصومة بين أتباع يوحنا وأتباع يسوع، ولن أكون الأخيرة، فإنّي على يقين مِن أنّ فِكرة كون يوحنا الزوج الأوّل لمريم تشكّل صدمة للكثيرين. لقد صرفْتُ فعلاً سنوات لبلورة هذا الإيحاء قبل أن أدوّنه كتابةً. وعلى كل حال، فإن إرْث يوحنا، مِن خلال ابنه مع مريم المجدلية، سيظهر أوضح في كتبي القادمة.

لقد أُعجبتُ كثيراً بشخصيّتي فيلبس وبرتلماوس، وهذان التلميذان، كما رأتهما مريم، كانا بطلين استثنائيّين. كما رأيتُ بطرس نابضاً أمامي حياةً بعيدةً كل البعد عن "الرجل الذي أنكرَ يسوع"، وفهمتُ يهوذا فهماً جديداً بالنسبة لدوره الأبديّ المأساوي في آلام المسيح.

وربّما كان أكثر ما أثارني المعلومات التي اكتشفتُها عن بيلاطس البنطي وزوجته البطلة الأميرة الرومانية كلوديا بروكيولا. وهناك في الوثائق الرسميّة في محفوظات الفاتيكان وفي تراث الملكيّة الفرنسيّة المُذهل ما يثبت العلاقة الخاصّة بين يسوع وعائلة بيلاطس وفيها ما يؤكّد مُعجزاته ويشرح مواقف بيلاطس المُبهَمة كما وردت في إنجيل يوحنا. وأعتقد أنّ الأمور المتعلّقة ببيلاطس ضرورية لفهم أحداث آلام المسيح فهماً جديداً. ومِمّا أذهلني اكتشافي أنّ كلوديا هي قدّيسة

بنظر الكنيسة الأرثونكسية وأن بيلاطس البنطي تعتبره الكنائس الحبشيّة قدّيساً أيضاً.

وعملْتُ على توثيق عناصر صورة المجدلية الجديدة من عدّة زوايا، فاستندت إلى مُراسَلات كلوديا بروكيولا في القرن الأوّل كما نشرتها "إيسانا برسّ"، ونسخ أسفار العهد الجديد المختلفة، وكتابات آباء الكنيسة الأوائل، وعدد من المصادر الغنوصيّة النفيسة، وحتّى مخطوطات البحر الميت. وأعلم أن رواية هذه الأحداث قد تكون مفاجئة لدرجة الذهول، وأرجو صادقةً أن تدفع القارئ إلى استكشاف فهمه الخاص لها. فأمامه كنز نفيس من المعلومات، كُتب معظمه بين القرنين الثاني والرابع، وهو خارج الأسفار التي تعترف بها الكنيسة. فهناك آلاف الصفحات الحافلة بالمعلومات كالأناجيل البديلة، وأعمال الرسل الإضافية، ومؤلّفات أخرى تكشف تفاصيل وآراء من حياة يسوع وعصره قد تبدو جديدة للقرّاء الذين لم يقرؤوا شيئاً خارج أسفار الإنجيليّين الأربعة. وأعتقد أنّ قراءة هذه الموادّ بعقل منفتح قد تبني جسراً من النور والتفاهم بين الفئات المسيحيّة المختلفة، لا بل أبعد منها.

وخلال سنوات بحثي، كنت أناقش وأسأل وأجادل رجال دين ومؤمنين من طوائف مختلفة، حول نقاط عديدة، وحتّى إنّي كنت أوافقهم الرأي أحياناً. وممّا ساعدني وجود عدد من الأصدقاء والزملاء من خلفيّات دينيّة متعدّدة، منهم كهنة كاثوليك ورجال دين لوثريّين وملتزمين غنوصيّين وكاهنات وثنيّات. وقابلتُ علماء يهوداً ومتصوّفة وأرثونكساً مِن القيّمين على المواقع المسيحية المقدّسة. وكان والدي ينتمي إلى الطائفة المعمدانية، أمّا زوجي فكان كاثوليكياً تقياً. وقد شكّل كلّ هؤلاء جزءاً من فسيفساء إيماني، وبالتالي جزءاً من هذه القصّة. وبالرغم من تنوّع فلسفات هؤلاء فإنّي أفدْتُ من نِعمة يتحلّون بها كلّهم، ألا وهي الانفتاح على تبادُل الآراء واحترام النقاش الحرّ الهادئ.

وفي هذه القصّة عناصر لا يمكنني توثيقها وفقَ الشروط الأكاديميّة. فهي محفوظة شفهياً ومنقولة على مدى قرون في بيئات حريصة جداً كانت تخشى الاضطهاد. وكان موقفي في بناء الكتاب أشبه بمن يؤيّد قضيّة استناداً إلى الفيْ عام من الأدلّة غير المباشرة. ففي حين أنّي لا أملك الدليل الحاسم المباشر، فلديّ شهود مشوّقون عديديون ومجموعة من المستندات المؤيِّدة مُعظمها بريشة عظماء رسّامي

النهضة وعصر الفن الباروكي. لذلك أعرض قضيّتي استناداً إلى هذه الأدلة وأترك الحكم للجنة المحلّفين، أي لقرّائي.

ويجب أن أكون حذرة بالنسبة للمصدر الأوّليّ للمعلومات الجديدة التي تظهر في الكتاب، وذلك بدافع السلامة. لكنّي أقول إن محتويات إنجيل مريم المجدلية، كما أنقلها هنا، مأخوذة من موادّ لم يُكشف عنها سابقاً ولم تُنشر علَناً. وقد لجأتُ إلى الجوازات اللغويّة في النقل لأجعلها أقرب إلى فهم قرّاء القرن الحادي والعشرين، لكنّ جوهرها لم يتغيّر وهو روايتها هي.

وحرصاً على الطبيعة المقدّسة لهذه المعلومات وعلى حماية مُقتنيها، كان لا بدّ من تأليف هذا الكتاب، والكتب اللاحقة في هذه السلسلة، في قالب روائيّ. غير أنّ كثيراً من مغامرات بطلتي وكل معاناتها فوق الطبيعيّة مستندة فعلاً إلى معاناتي الشخصيّة. ففي كثير من الأحوال تتلقّى مورين المعلومات تماماً كما حدث معي أثناء بحثي، وكذلك الحال بالنسبة لتامي. ومع أنّ كل الشخصيّات العصرية هي شخصيّات مُتخيَّلة، فلقد حرصت على أن أصف للقارئ تجربة أصيلة. وفيما خصّ بعض الأماكن، فقد اعتمدتُ درجةً من الحرية الأدبية في ذِكرها أو عند وصفها خدمةً لحبكة القصّة، وهي لن تخفى على القارئ، خصوصاً المهتمّ بهذه الحكايات. فالقبر في الآرك، كما رسمه بوسّان، لم يعد موجوداً لأن صاحب الأرض قد نسفه بالديناميت بعد أن ضاق ذرعاً بكثرة المنتهكين لحرمة أملاكه. أما ترجمة بيتر لإنجيل الآرك، فاقتضت الضرورة القصصيّة أن أجعلها تتمّ في فترة زمنية قصيرة جداً، مع أنّ ترجمة مثل هذه الوثيقة في عالم الواقع تستغرق شهوراً، بل سنوات.

لقد استغرق إعداد هذا الكتاب حوالى عقدين من الزمن وتلقّيتُ خلال طريقي المحفوف بالمخاطر العون والدعم مِن أشخاص عديدين يتحلّون بالجرأة. وإنّي أشكر أولئك الذين جازفوا بتعريض أنفسهم للمخاطر مِن أجل مساعدتي وتزويدي ببعض المعلومات. وكنتُ أتساءَل دائماً: هل أستحقُّ شرفَ سَرْد هذه القصّة؟ وجفاني النوم في كثير من الليالي على مدى أكثر من عشر سنوات وأنا أعاني التفكير في تفاصيل هذا الكتاب وأصدائه المحتمَلة.

وأثناء إعداد الكتاب للطباعة، نُشر لأوّل مرة إنجيل يهوذا المثير للجدَل. وبدأتُ فوراً بتلقّي رسائل إلكترونية مِن قرّاء علموا أنّ في ذلك الاكتشاف المثير عناصر تدعم تأكيدي بأنّ يهوذا لم يَخُن يسوع وأنّه كان في الواقع

ينفّذ الأوامر الصعبة والمؤلمة التي أصدرها له صديقه ومعلّمه. وقد يكون الظلم الذي لحق بيهوذا وسُمْعته أكبر من ذلك الظلم الذي تحمّلَتْه مريم المجدلية على مدى عشرين قرناً. وأرى أنّه آنَ الأوان لإعادة أولئك الذين كانوا مقرّبين من المسيح إلى المواقع التي يستحقّونها في التاريخ. فكما يسأل الأب بيتر هيلي: "ماذا يحدث لو أننا كُنّا، على مدى ألفي عام، ننكر على يسوع رغبته الأخيرة؟". وفي سعيي لمعالجة ذلك الاحتمال أعرض تَصوُّري الخاصّ عن يهوذا كصديق مخلص وكبطل أيضاً، وعن المجدلية كزوجة وأمّ وشقيقة الروح وشريكة العمر، وعن بطرس كإنسان أنكرَ رفيقه ومعلّمه لأنّه أُمِر بذلك فحسْب. كما أؤمن بأنّ الاكتشافات الأثريّة السابقة والتي ستظهر في المستقبل ستثبت أن هذه الصور دقيقة ومُنصفة.

وكل ما أتمنّاه هو أن يكون الكتاب، في شكله النهائي، لائقاً بالقيّمين على حقيقة مريم المجدلية والذين يعتمدون عليّ في سَرْد قصّتها. وفوق كل شيء، أرجو أن يعبّر الكتاب عن رسالة مريم في المحبّة والتسامح والغفران وتحمُّل المسؤولية بطريقة ملهمة للقارئ. إنّها رسالة اتّحاد وعدَم إصدار أحكام على الناس من كل المعتقَدات. وقد ظللتُ، خلال كل ذلك، متمسّكة بتعاليم المسيح عن السلام والإيمان بأننا يمكننا خلق جنّة على الأرض، فإيماني به وبها كان عَوْني في أحلك الليالي التي مرَّت بها روحي.

كنت أعلم أنّ العلماء والأكاديميّين سينتقدونني بشدّة، وأنّ معظمهم سينعتني بالافتقار إلى حسّ المسؤولية لسردي رواية غير مستندة إلى المصادر التي يعتمدونها. لكنّي لن أعتذر عن حقيقةِ أنّي خالفتُ الأعراف الأكاديميّة المعتمدة في روايتي لهذه القصة. فطريقتي تعكس إيماني الشخصيّ، وأقول الراديكاليّ، بأنّ التسليم بكلّ ما دُوِّن هو، في الواقع، قمّة عدم المسؤولية. وسوف أحمل تهمة "العداء للقواعد الأكاديمية" بكلّ فخر وأتسلّح بصيحة الحرب التي أطلقتها بوديكا. وعلى القرّاء أن يقرّروا أي رواية لقصّة مريم تجد صدى في نفوسهم.

أمّا سائر الكُتّاب والباحثين الذين وضعوا نظريات، وأتوا بفرَضيّات، وناقشوا، وتأملوا، ونقّبوا بجرأة في ألفَي سنة من المعلومات والمغالَطات، في سبيل فهم طبيعة مريم المجدلية وأولادها ـ لهم جميعاً أمدّ يد الصداقة. ولعلّ الخلافات المحمومة حول دور المجدلية وكثرة المؤلِّفين والرسّامين الذين صوّروها تعكس

جوهر البحث عن الحقيقة. وأتمنّى أن يقبلوني أختاً لهم بعد أن يُقال كل شيء ويتمّ كل شيء.

ألفا سنة مَرَّت، والصراع لا يزال: الحَقّ ضدّ العالم كلّه.

كاثلين ماك غوان
22 آذار (مارس) 2006
لوس أنجلوس

المنتظرة

سرّ مريم المجدليّة



رواية تحبس الأنفاس ورحلة روحيّة عميقة الأغوار
تتكشف عن قصة مثيرة لم يسبق لها مثيل!

منذ ألفي سنة، خبّأت مريم المجدليّة مجموعة من المخطوطات في باطن الأرض تحت الصخور الوعرة في السفوح الفرنسية لجبال البيرينيه. تضمّ هذه المخطوطات إنجيلها الذي تروي فيه حكايتها لأحداث العهد الجديد ونظرتها للشخصيات الواردة فيه. وتظل هذه المخطوطات المقدّسة متوارية في باطن الأرض، تحميها قوى خارقة، ولا يستطيع أن يكشف النقاب عنها سوى باحث محدد هو من يحقق نبوءة قديمة تتحدّث عن «الإنسانة المنتظرة».

وبالانتقال إلى نهايات القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين، نرى الصحفيّة مورين باسكال وقد بدأت أبحاثها بغية تأليف كتاب لها، غير مدركة أنها تقحم نفسها في خِضَمّ لغز قديم وغريب جداً أودى بحياة الآلاف ممن حاولوا الكشف عنه قبلها. غاصت مورين في لجّة عميقة من المعتقدات والأساطير السائدة في جنوب غرب فرنسا وقد أرخت النبوءة الغريبة حول «الإنسانة المنتظرة» بظلها على حياتها وعملها، وظهر سرّ عائلي خطير كان دفيناً ردحاً طويلاً من الزمن. وفي نهاية المطاف، تقف هي والقارىء وجهاً لوجه أمام صفحات إنجيلٍ جديد يروي حياة السيد المسيح من منظار مريم المجدلية.

9 789953 278001